عود على بدء
في
جبلَّة اليهود

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ
خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُولُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾

[البقرة: ٢٦٩].

عود على بدء

في

جبلَّة اليهود

اللواء ركن (م) السيد
يوسف بن عبدالله جمل الليل

تقريظ
سماحة الشيخ/ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز
رحمه الله

المجلد الأول

مكتبة
جل المعرفة

مكتبة
التوبة

الجبِلَّة: هي الخِلْقة والطبيعة، ويقال: هو مجبول على كذا، أي: مخلوقٌ ومطبوعٌ عليه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ ﴿١٨٤﴾﴾ [الشعراء: ١٨٤]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢]، ومنه قوله ﷺ في حديث الدعاء عند الدخول بالزوجة: «**أسألك من خيرها وخير ما جُبِلَت عليه**»، أي: خُلِقت وطُبِعت عليه.

حقوق الطبع محفوظة
الطبعة الثانية
١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

إهداء

إلى المؤمنين بالله، المخلصين لدينه، المتمسكين بسنّة نبيه ﷺ، المفعمة قلوبهم بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، أهدي لهم جهد المُقِل الطامع في رحمة الله وعفوه.

ادعاء باطل

يدّعي اليهود أنهم شعب الله المختار، لكثرة ما بعث الله فيهم من أنبياء، إذ أنَّ كل الأنبياء من بعد إبراهيم عليه السلام إنما هم منهم، إلا إسماعيل عليه السلام وخاتم الأنبياء محمداً ﷺ، ولذا يزعمون أن الجنة مضمونة لهم، وقد نسوا أن هذا الذي يدّعونه إنما هو ادعاء باطل حيث أجابهم الله في محكم كتابه بقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾ [البقرة: ١١١]. وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة: ١٨].

إن تفاخرهم بكثرة أنبيائهم ـ الذين بعثوا فيهم ـ لهو أكبر دليل على انحرافهم واعوجاج سلوكهم، إذ الأنبياء مثل الأطباء لا يكثرون إلا في مواطن الداء والوباء.

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

إن الحمد لله، خلق فسوّى، وقدّر فهدى، والصلاة والسلام على خاتم رسله المبعوث رحمة للعالمين، نبينا محمد ﷺ الذي قال في ثنايا هديه: «**الناس معادن**»(١).

أما بعد

فقد شاءت حكمة الله أن يخلق من خلقه ناساً مجبولين على الخير، وآخرين مجبولين على الشر، كما يتراءى ذلك للناظر في جميع مخلوقاته، قال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾ [الأنعام: ٣٨]، فقد قال سبحانه وتعالى عن أمة محمد ﷺ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، وقال جلّ شأنه عن اليهود: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [المائدة: ٧٨]، وما كان ذلك إلا بما عصوا وكانوا يعتدون، وإلا بما تعاقبوا عليه من إفك على الله، وقتل لرسله، وفساد في الأرض، قال تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا۟

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الوصايا، ج٤، ص١٨٣.

لَن يَدۡخُلَ ٱلۡجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ﴾ [البقرة: ١١١]، ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ﴾ [البقرة: ١٣٥]، ﴿مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦]، ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٥٥﴾ [النساء: ١٥٥]، ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٤﴾ [المائدة: ٦٤].

هذا غيض من فيض، مما تحدّث الله به في شأن اليهود، فما من حدث مُخْزٍ إلا ويغشى وجوههم، وما من فساد وإفساد إلا وبصمات أصابعهم فوقه، ومنذ أن مَنَّ الله عليهم بإرسال موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أن استضعفوا في الأرض وجعلهم أئمة وجعلهم الوارثين، لم يشكروا نعمة الله، ولم يقدِّروها حق قدرها، بل تمادوا في الغي والضلال، وأرخى الله لهم عنان رحمته، فتوالى إرسال الرسل عليهم، وهم يظنون أن ذلك محض إيثار، وما دروا أن ذلك لشدة الضلال، إذ الأنبياء كالأطباء، لا يكثرون إلا في مواطن الداء، كما ذكر مؤلف الكتاب.

ولما كانت العزة لله، الغني عن عباده وهم الفقراء إليه، أن يُقَطِّعَهُم في الأرض أمماً، وأن يضرب عليهم الذلة والمسكنة، وأن يجعل نبوته في غيرهم، وأن يُعَدِّد لوجهه أمة العرب، فجعل منهم خاتم رسله محمداً ﷺ، وأنزل فيهم خاتم كتبه القرآن الكريم، وجعله معجزته الباقية الخالدة إلى أن يرث الأرض ومَن عليها، وجمع فيه المنهج والمعجزة لئلا يضل الناس في الأرض وذلك شأن مخالف لما كان عليه الأنبياء السابقون، إذ أنّ مناهجهم كانت تخالف معجزاتهم... فكانت معجزة موسى عصاه، وكان منهجه التوراة، وكانت معجزة عيسى

ما قصَّ الله عنه من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله، وكان منهجه الإنجيل، ولكن الله جمع المعجزة والمنهج في القرآن العظيم ليكون حجته على الخلائق أجمعين، ومُصَدِّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه، وقد فضح الله في هذا الكتاب المعجز مخازي بني إسرائيل مع أنبيائهم في كل المواقف، حتى استحقوا اللعنة وسوء الدار.

وقد تشرفت بقراءة هذا المؤلَّف الفخم لسعادة اللواء الركن يوسف بن عبدالله جمل الليل، فشدّني عنوانه «عَوْدٌ على بدء في جبلَّة[1] اليهود»، فذكرني بما لم أكن لأنساه في طبيعة هؤلاء القوم وما جُبِلُوا عليه، وأعجبني استعراضه لأخلاق القوم منذ بدء تاريخهم وحتى تجمُّعهم الحالي في فلسطين، فكأنهم في طول التاريخ وعرضه رجل واحد، فهم وإن اختلفت صورهم وأجسادهم في حقب التاريخ إلا أنهم أمة واحدة في قلوبهم وأعمالهم، وحقدهم على البشرية جمعاء، وتداعت لي قصة تلك المرأة التي عطفت على ذئب وليد فحملته معها إلى بيتها، وجعلته يرضع من شاتها حتى كبر وشَبّ، فإذا بها تعود يوماً إلى البيت لتجده قد بقر بطن الشاة وافترسها، فأنشدت تقول:

قَتَلْتَ شُوَيْهَتي وفَجَعْتَ قَلْبِي وأنْتَ لشاتنا ابنٌ رَبيبُ
غُذيت بِدَرّها ونَشَأت معها فمن أنبَاك أنَّ أباكَ ذِيبُ
إذا كان الطِبَاعُ طِباعَ سوءٍ فلا أدبُ يفيد ولا أديب

ولِمَ لا؟ ألم يخاطب الله تعالى يهود المدينة في عهد النبيّ ﷺ بخطاب آبائهم الأقدمين في عهد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال سبحانه:

- ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [البقرة: ٥٥].

(١) الجبلة: سبق توضيحها في ص٣.

- ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ﴾ [البقرة: ٨٤].

- ﴿وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [البقرة: ٩٢].

إن يهود المدينة النبوية، سواء كانوا من بني قريظة أو بني النضير أو بني قينقاع أو يهود خيبر لم يعيشوا في زمن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حتى يسفكوا دماءهم أو يخرجوا أنفسهم من ديارهم أو يتخذوا العجل... ولكن الله خاطبهم في صورة آبائهم حتى يعلّمنا جلّ شأنه - في نظم بليغ - أنه وإن تباعدت بينهم وبين آبائهم الأزمان والديار، إلا أنهم مثلهم في بشاعة أقوالهم وشناعة أفعالهم.

ولينظر الناظر إليهم الآن وهم ينسابون من شتى بقاع الأرض إلى بيت المقدس، يريدون إقامة دولة، وتجميع شتات أمة، ليرى كيف أنهم مع تباعد ديارهم، واختلاف ألسنتهم وألوانهم، وتعدد ثقافاتهم هم أمة واحدة في الشقاق والنفاق وسوء الأخلاق، لا يختلفون عمن سبقهم من آبائهم في كل زمان ومكان.

واللواء الركن يوسف بن عبدالله جمل الليل، ليس غريباً على ميدان التأليف، فله فيه قبل ذلك باع طويل في المجال العسكري والأدبي، وأراه قد تعامل بحذر وذكاء شديدين عند سرد التاريخ الحديث لليهود واحتلالهم دولة فلسطين، حيث اعتمد في ذلك على تجميع الأحداث، ثم عرضها كما وقعت، دون إلقاء التُّهم على أحد في وقوعها، وقد أعجبني ذلك من منطلق أن تجمُّع بني إسرائيل في هذه الفترة القياسية الوجيزة، وإعلانهم دولتهم الموهومة ذات العدد القليل، بالقياس إلى جيرانها العرب والمسلمين ذوات العَدَد والعُدَد، والذي يطوقونها من كل ناحية ورفضهم لوجودها ونزاعهم لها، إنما يرجع إلى أسباب منها:

ـ وعد الله الذي لا يخلف وعده بأنه لا تقوم لهم قائمة إلا بحبل من الله وحبل من الناس، حيث قال سبحانه: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ﴾ [آل عمران: ١١٢]، وقد أرخى الله لهم من كلا الحبلين العنان.

ـ تصديق وعد الله لهم بتجميعهم تمهيداً لاستئصالهم، وإساءة وجوههم، ودخول المسلمين بيت المقدس واسترداده من أيديهم، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُـࣳٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الإسراء: ٧]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾ [الإسراء: ١٠٤].

ـ إيقاظ المسلمين من غفوتهم، والعودة بهم إلى دينهم، وتوحدهم تحت لواء عقيدتهم، لاستئصال شأفة عدوهم الذي يتربص بهم الدوائر، وهو ما نرى إرهاصاته الآن في كل بقاع العالمين العربي والإسلامي.

وقد فرض زخم هذه الفترة المليئة بالأحداث على المؤلف أن ينتقي مختارات من التاريخ، منذ قيام دولة إسرائيل وحتى الآن، ورغم أنها كانت لمحات عابرة إلا أنها استوفت لُبّ الصراع في هذه الفترة، وهي لمحات تدل على اختيار لبيب كما قال الشاعر:

قد عرفناك باختيارك إن كان دليلاً على اللبيب اختياره

فالكلام عن هذه الفترة القصيرة في تاريخ اليهود يحتاج إلى مجلدات ومجلدات، فما بالك بكتاب يتناول تاريخ بني إسرائيل منذ وجودهم على مسرح التاريخ إلى هذه الفترة؟! ولكن حَسْبَ مؤلف الكتاب أنه كان يبحث في جِبِلّة اليهود وطبيعتهم، وخُلُقهم في مختلف حقب التاريخ، وكما كان يذكر المؤلف لي دائماً: (حسبُك من القلادة ما أحاط بالعُنُق).

والله أسأل أن ينفع بهذا الجهد، وأن يجعله في ميزان حسنات صاحبه، وأن يوحِّد كلمة المسلمين على الحق، وأن ينصر بهم دينه، ويعلي بهم كلمته، وأن ينزل بأسه ونقمته على القوم الظالمين، إنه سميع قريب مجيب.

دكتور
أحمد أحمد غريب
الرياض في الثاني من صفر الخير ١٤١٨هـ
الموافق للسابع من يونيه ١٩٩٧م

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

المقدمة

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على مَن لا نبيّ بعده، إمام المتقين، وسيد المرسلين. بعثه الله رحمة للعالمين بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً، فبلّغ الرسالة، وأخرج الناس من الظلمات إلى النور. وسلام الله ورحمته على جميع أنبيائه ورسله المؤيدين من خالق الناس ومبدِع الكون «الله» جلّ جلاله، الذي لا يكون لهم من سند سواه، ولا معين غيره. أمكنهم باعتمادهم عليه تبليغ ما أمرهم به فغيّروا وجه التاريخ على امتداد العصور، إذا قضى أحدهم أجله، وبدأ الانحراف يدب في الناس بعده، قام أخ له بأمر من الله لتصحيح ما أفسدوه، وتجديد ما أهملوه. ولتتجلى الحكمة التي قصد إليها القرآن الكريم من اهتمامه إلى وضوح العبرة وضرب المثل وإيجاز حركة التاريخ الإنساني وبيان سنّته.

أما بعد فإنه بعد الرجوع إلى كثير من الكتب، وانتقائها من شتى مصنفاتها التي تذخر بها المكتبات العربية. سواء ما كان منها من كتب التراث التي تعتبر المعين الزاخر التي استقى من جداولها الثّرّة جمهرة العلماء والمؤرخين، أو من الكتب الحديثة ذات الاختصاصات المختلفة في مجالات الحياة. كانت مادة هذا الكتاب الذي اشتمل على مجلدين، واحتوت طيّاته على ثمانية فصول:

يعرض **الفصل الأول** بداية الخلق، فإن الله جلّ جلاله خلق خلقه من غير ضرورة كانت به إلى خلقه لهم. لأنه تعالى لا تغيره الأحوال ولا ينقصه سلطان. فعمّ جميعهم فضله وجوده، وشملهم كرمه وطَوْلُه، وخصّهم بعقول

يصلون بها إلى التميُّز بين الحق والباطل. ولقد أنزل الله سبحانه وتعالى كتابه العزيز على خاتم أنبيائه، وعني القرآن بدعوة الناس إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره. وحثّ الإنسان على النظر في الكون والتأمُّل في آياته. فللّه عزَّ وجلَّ كتابان: كتاب ناطق وهو القرآن، وكتاب صامت وهو هذا الكون الفسيح الذي نشاهده بالليل والنهار والغدو والآصال. وأن الله سبحانه جعل القرآن في علو على سائر الكتب المنزلة، وكلما تدبرت آياته تكشفت آفاق سامقة من وجوه إعجازه. فإذا نظرت إلى تاريخ اليهود، وتأملت ظاهرة انتشارهم، وكيف يختبئون خلف فتنة يهيجونها، وكيف يبعث الله عليهم بين الحين والآخر من يسومهم سوء العذاب؛ لأدركت أن أخبار القرآن عنهم قد وقعت كما أخبر، وأن الزمن ماضٍ في تحقيق المزيد منها.

وكثيراً ما كرّر القرآن نداءه لبني إسرائيل، مذكِّراً لهم ومعدِّداً نِعَم الله عليهم لعل تذكيره لهم يمس قلوبهم، فتجيب داعي الله، وتؤمن بما دعا. ولو أوفى بنو إسرائيل بهذا الوعد الإلٰهي وصدقوا الله ما عاهدوه، وصَدّقوا برسله لمكن الله لهم في الأرض، نظير الاعتراف بالحق والرجوع إلى الله. إلا أن شعب إسرائيل في طبيعته الغدر بالعهود والنقض للمعاهدات، والحنث بالوعود، لذا كتب الله على هذا الشعب التشريد والتيه والغضب والمذلة. ولا يكاد يعرف شعب من الشعوب التي أرسل الله إليها أنبيائه قبل بني إسرائيل، وصابرتهم قدرة الله على تكذيبهم وجماحهم عن الهدى كهذا الشعب. فقد كان الذين يكذبون يستأصلون بقارعة سماوية، ولكن دعوة الرسل دخلت في طور جديد غير طور الاستئصال ولله في ذلك الحكمة البالغة.

يذكر الله تعالى ممتنًّا على بني إسرائيل بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم. فكلمة التوراة وردت في القرآن ثماني عشرة مرة، أثبت فيها تصديقه بالتوراة، وهذا إنصاف لها، حيث أنكرها أهلها في كثير من الأحيان. إما إنكاراً صريحاً وذلك بارتدادهم عن الدين الحق، وإما بتبديلها على غير ما

أنزل الله برأي الأحبار والرهبان. ومن كتبهم التلمود، وهو مجموعة قواعد وشرائع دينية وأدبية وتفاسير، دوَّنها الحاخامات. فالتلمود تجسيد مكتوب لأخبث ما في النفسية اليهودية من سخائم الضلال، وتجسيد حي لهذه الشناعات المكتوبة والمنسوبة إلى الوحي زوراً وبهتاناً. فاليهود أمة تحمل في أعماقها خصائص نفسية بالغة التعقيد، وتنطوي على أخلاق غاية في العوج والالتواء، فهذا واقع اليهود وديدنهم، بل هو دينهم الذي صنفوه لأنفسهم على تعاقب القرون والأجيال.

ويعرض **الفصل الثاني** بداية خلق الإنسان، وهذا الأمر لم تتحدث عنه الكتب المقدسة إلا بقدر ما تدعو إليه الموعظة من حياة الأولين. إلا أن العقيدة الإلٰهية في أسفار اليهود تصور الذات الإلٰهية في صور بشرية، وتفتئت من الحوادث، وتفتري من الأقاصيص الكواذب تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. لقد عني القرآن الكريم بالجانب الأهم من تاريخ البشرية وهو تاريخ النبوات والرسالات. وأكثر ما عني بذكر شواهد من تاريخ الدعوات المتعاقبة التي وجهت الإنسان إلى التحرر من العبودية لغير الإلٰه الخالق. والنبوة ليست مقصورة على شعب، بل هي عامة في كل الأمم والشعوب الماضية. وليس من أخبار آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وذريته إلا ما وقع في المصحف الشريف أن الأرض عمرت بنسله أجيالاً بعد أجيال إلى عصر نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

ثم يأتي بعد آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ خلفاؤه قادة الإنسانية وهم: شيث عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكان نبياً، وإدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد أثنى الله عليه ووصفه بالنبوة والصديقية. وبعث الله نوحاً إلى أهل عصره، وذكر الله تعالى قصته وما كان من قومه، وما نزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان. أما كتاب التلمود الحقود فيعكس نفسية اليهود وهم قوم بُهْت - بمعنى الذي يختلق على غيره ما ليس فيه - فألصقوا بالأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كل رذيلة، ويفجع المؤمن الذي يقرأ كتب اليهود الدينية حين يرى أئمة الهدى وشوامخ النبوة تتهاوى على أيدي اليهود وتمرغ في أوحال الخطيئة. ولما مات نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ استخلف ابنه ساماً، وكان لسام خمسة بنين تفرقوا في سائر الأقطار. ثم نبيّ الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ من قبيلة عاد، وكانوا أول مَن عبد الأصنام بعد الطوفان، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية.

ونبيّ الله صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ بعثه الله إلى ثمود بعد أن عتوا عن أمر ربهم وكفروا به، فأتتهم صيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين.

أما **الفصل الثالث،** فيعرض ما كان من أبي الأنبياء إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه الذين يعبدون الأصنام والكواكب، فأراد أن ينبههم على ضلالتهم ويرشدهم إلى الحق. وحاجَّه قومه في الله جلّ ثناؤه يستوصفونه إياه ويخبرونه أن آلهتهم خير مما يعبد. فأمر ملكهم نمروذ بإلقاء إبراهيم في النار، قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩]. قال ابن عباس: لو لم يتبع بردها سلاماً لمات إبراهيم من بردها. ثم إن إبراهيم ومَن خرج معه من أصحابه الذين اتبعوا أمره في طريق رحلته إلى فلسطين لم يطب له المقام بها، ولم يتقبل الكنعانيون دعوته، وعليه فقد قرر أن يتجه إلى مصر. ثم إن الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ رجع من مصر إلى الأرض المقدسة ومعه هاجر زوجته، فوقع إبراهيم عليها فحملت بإسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وكان لوط ابن أخي إبراهيم معه في هجرته، وهو النبيّ المذكور في القرآن المبعوث إلى سدوم الذين كذبوه، ولم يزدهم وعظه إلا تمادياً، فسأل الله فيهم. فأرسل الله الملائكة إلى سدوم فجعلوا طريقهم على إبراهيم فبشروه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩]، وسألهم فيما أتوا فقالوا: أتينا بهلاك قوم لوط. ثم إن هاجر لما ولد لها إسماعيل ذهب بها ومولودها ووضعها حيث مكة اليوم. إن الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ بنى أشرف المساجد في أفضل البقاع، ودعا لأهلها بالبركة، وأن يجعله آمناً، فاستجاب الله مسألته. وسأل الله أن يبعث فيهم رسولاً، من جنسهم، وقد استجاب الله له، فبعث فيهم رسولاً، وأي رسول، ختم به أنبيائه ورسله، وأكمل له من الدين ما لم يؤتِ أحداً قبله، وعَمَّ بدعوته أهل الأرض.

ويذكر الله عن خليله إبراهيم أنه عندما هاجر من بلاد قومه سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً، قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَـٰهُ بِغُلَـٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: ١٠١]، وهو إسماعيل لأنه أول من ولد له. ورأى إبراهيم في المنام أنه

يذبح ولده، وهذا اختبار من الله لخليله الذي أجاب ربه. ثم عرض ذلك على ولده، فبادر الغلام الحليم فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢]. فعند ذلك نودي من الله عزَّ وجلَّ أن صدقت الرؤيا، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات: ١٠٦]. وهذا دليل على أن الذبيح إسماعيل، وهذا نص القرآن، ثم قال بعده: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات: ١١٢]. وما ذكره اليهود من أن الذبيح إسحاق إنما هو تحريف وافتراء على الله، وإنما حملهم على هذا حسد العرب، فإسماعيل أبو العرب الذين منهم رسول الله ﷺ، وإسحاق والد يعقوب وهو إسرائيل الذي ينتسبون إليه. فأرادوا أن يجروا هذا الشرف إليهم، ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

ومن مظاهر التحريف في التوراة اتهام أبي الأنبياء بالكذب وقبيح الفعال، وأنه كان يتاجر بزوجته هادفاً جمع المال، مستهيناً بالطهر في سبيل أن تسلم له حياته. أما القرآن الكريم فإنه يصف إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه بلغ المرتبة المثالية في الصدق، فلم يكن صادقاً فحسب بل كان صديقاً. هذه هي صورته عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن الكريم، وهذه صورته في التوراة مشوهة محرفة، وما أبعد البون بينهما.

وقد كان للخليل بنون أشهرهما النبيان العظيمان إسماعيل وإسحاق، فإسماعيل بكر الخليل من هاجر القبطية، وقد أثنى الله عليه ووصفه بالحلم والصبر وصدق الوعد والمحافظة على الصلاة. وقد أرسله الله إلى القبائل العربية التي عاش في وسطها، وأصبح أباً لكل هذه السلسلة العربية التي كانت مصدراً مباشراً للجنس العربي في عملية تجميع كبيرة تربط ما بين امتداد الأرض العربية في إفريقيا وآسيا. ثم إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ، الذي ذكره الله تعالى بالثناء عليه في غير آية في كتابه العزيز. فحديث القرآن الكريم الذي لم يخالطه قول بشر، فخبره هو الخبر، وهو يغاير قصص العهد القديم، فالتوراة سجل مأثورات وذكريات لأجيال فيها القليل من الحق والكثير من الغلو، وفيها هوى وأهواء تسيء إلى أنبياء الله في عواطفهم وأخلاقهم ودينهم. ولكن القرآن يرقى بهؤلاء الكرام إلى مكانتهم الحقيقية في علاقتهم بربهم.

ويعقوب بن إسحاق عليه السلام هو أبو الأسباط الاثني عشر وإليه ينتسب شعب بني إسرائيل، وإليه ينتسب اليهود. وكلمة يهود أخذت من يهوذا أحد أبناء يعقوب، وتعني الولاء للولد الرابع ليعقوب. ويوسف الصدِّيق عليه السلام قد ذكره الله في مجموعة الرسل الكرام، ومن أشهر أنبياء بني إسرائيل، وله سورة فيها بيان لحياته، ومحنته مع إخوته ومع امرأة العزيز. وأيوب عليه السلام، وقد ذكره الله تعالى في عداد الرسل الذين يجب الإيمان بهم تفضيلاً. فكان في حالة الرخاء والبلاء، مثلاً لعباد الله الصالحين. والنبيّ شعيب عليه السلام، بعثه الله إلى أهل مدين فدعاهم إلى توحيد الله، ونهاهم عن تطفيف المكيال والميزان، فآمن به القليل وكذبه الكثيرون. ولقد كان من شدة حماقتهم أن طلبوا منه أن يسقط عليهم كِسَفاً من السماء إن كان من الصادقين، فأخذهم عذاب يوم الظُّلَّة. وذو الكفل عليه السلام، وقد بعثه الله وسماه «ذو الكفل» لأنه تكفل بالطاعات فوفى بها، الذي ذكره القرآن ضمن الرسل الكرام.

أما **الفصل الرابع**، فيعرض قصة كليم الله موسى بن عمران عليه السلام، وقد ذكره الله تعالى في مواضع كثيرة متفرقة من القرآن. لقد أكثر القرآن الكريم الحديث عن بني إسرائيل، وأفاض في ذكر حوادثهم ووقائعهم، ليأخذ الإنسان العبرة من حياة هذه الأمة الباغية التي تقابل النعمة بالجحود، والإحسان بالعصيان. فقد أغدق الله عليهم نعمه، ونجاهم من كيد عدوهم. فما كان منهم بعد هذا الإحسان إلا أن عبدوا العجل، وتنكروا لدعوة نبيهم موسى. وكانت نهايتهم أن غضب الله عليهم وضرب عليهم الذلة والمسكنة. وبعد موت موسى عليه السلام خلفه يوشع في قيادة الشعب اليهودي. وإن قصة يوشع وأرض الميعاد الأسطورة التي أصبحت تاريخاً تعتبر من غرائب التناقضات. وقام بعده كالب بن يوقنا، ويوشع وكالب هما الرجلان اللذان أنعم الله عليهما.

أما حزقيل بن نوري وهو الذي دعا للقوم الذين ذكر الله في كتابه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة: ٢٤٣]. وأما يونس بن متى عليه السلام من بني إسرائيل فإن الله تعالى أرسله إلى أهل نينوى، ولم يستجيبوا لدعوته. وذكر في القرآن الكريم حيث لقبه الله

بـ«ذي النون». وإلياس عليه السلام وكان إرساله إلى أهل بعلبك فدعاهم إلى الله فكذبوه، فلم يذكر إلا بخير (سلام على إلياس). أما اليسع عليه السلام فقد أوجز القرآن الكريم عن حياته، واكتفى بِعَدِّه في مجموعة الرسل الكرام الذين يجب الإيمان بهم تفضيلاً.

إن بداية عصر الممالك القديمة كانت على يد «شاؤول» كما ذكر في التوراة، لأنه في تقدير اليهود حارب الفلسطينيين وهزمهم ووسع الأرض. والحقيقة أنه لم يصبح القوم ولا تاريخهم إلا حين عملت المعجزة الدينية عملها على أيدي رجال مخلصين طاهرين يرفضون العنصرية والاستعباد. وكانت أساليب هدايتهم مجالات لكل معاني الخير التي تفيض بها دائماً الرسالات السماوية. وما إن تقوم مثل هذه الدعوات إلا وتواجه برفض اليهود وتنكرهم لكل القِيَم الدينية وما تمثله من دعوة للخير والسلام.

ويعرض **الفصل الخامس** للنبيّ داود عليه السلام الذي جمع الله له بين المُلك والنبوة. وكان المُلك يكون في سبط والنبوة في آخر فاجتمعا له. وتتابعت الانتصارات على يديه، وأعزّ الله بني إسرائيل بعد أن كانوا في ذل وهوان. وقد حكم بين شعبه بالعدل وساسهم بالمساواة، وطبق عليهم أحكام التوراة إلى أن أوحى الله إليه بالزبور. وقد نشأ سليمان عليه السلام في حجر داود وترعرع في بيت النبوة والملك، وقام بالملك بعد أبيه، يقول الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ . . .﴾ [النمل: ١٦] الآية. وهذه بعض نِعَم الله تعالى عليه حيث وَرَّثَه الملك بعد أبيه كما أعطاه النبوة، وعلّمه منطق الطير، وآتاه الحكمة، وسخّر له الريح والجن وأسال له عين القِطْر وهو النحاس المذاب.

وما تقصُّه التوراة عن حياة سليمان عليه السلام من أن المجتمع الإسرائيلي لم يسلم من القلاقل وكل مظاهر الفوضى والتخريب. مما جعل المملكة تتصدع حتى في حياة صاحبها. فما أن توفي سليمان حتى تولى بعد ابنه رحبعام الذي لم يتيسر له جمع شمل القوى الثائرة ضد سلطان بيت داود. وما إن عاد الثائر يربعام من مصر حتى تشعبت المملكة وانقسمت إلى قسمين وأصبحا لقمة سائغة في يد قوى أخرى لعبت دورها على مسرح

تاريخ المنطقة التي زيّف التاريخ اليهودي كل المراحل التي مرت عليها. وعلى الطريق الطويل في تاريخ بني إسرائيل، وما حدث من الانقسام السياسي والديني، وما آلت إليه حين سقطت على يد نبوخذ نصر الذي قتل آخر ملوكهم.

ولقد أوحى الله إلى شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن يعظ قومه فوعظهم، فلما فرغ من مقالته عدوا عليه ونشروه. ولما كثرت المعاصي في بني إسرائيل بعث الله إليهم أرميا فكذبوه وقيّدوه وسجنوه، فبعث الله عليهم بختنصر فحكم فيهم حكم الجاهلية وبطش الجبارين. وقد بعث الله دانيال وعزير عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وعزير هو العبد الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه. وذكر الله تعالى اسم زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن، وهو على وجه القطع من رسل بني إسرائيل. وقد بعثه الله في وقت طغت على الأمة الإسرائيلية موجة من التفسخ حتى نسوا الله. وتسلط على الحكم ملوك ظلمة جبابرة يعيثون في الأرض فساداً، ولقي زكريا منهم عنتاً، وتوالت عليه الشدائد، ووهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً. وقد خشي على بني إسرائيل أن يضلوا، فطلب من ربه أن يعينه بولد يواسيه في شيخوخته، ويخلفه في تبليغ الرسالة. فرزقه الله بيحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأعطاه النبوة وأثنى الله عليه بالثناء العطر، إلا أن بني إسرائيل قتلة الأنبياء ذبحوا يحيى وقتلوا زكريا نشراً بالمناشير.

كما يعرض **الفصل السادس** قصة الصدِّيقة مريم ابنة عمران العذراء البتول أم عيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. ويذكر الله تعالى أنه اصطفى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، والخلص من ذريته ثم خصَّ آل إبراهيم وذكر آل عمران، والمراد بعمران والد مريم، وكان رجلاً عظيماً بين العلماء في بني إسرائيل. لقد كفلها زكريا، واتخذ لها مكاناً من المسجد لا يدخله سواها، فكانت تتعبد الله فيه، فأرسل الله لها ملكاً ليهب لها غلاماً زكياً. فنفخ في جيب درعها فإذا هي حامل بعيسى ابن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين. هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وهو خير أنبياء الله ورسله من بني إسرائيل، وذكر اسمه في القرآن الكريم بلفظ المسيح. وسمي المسيح لصدقه، وقيل: سمي بذلك لأنه كان سائحاً في الأرض، وقيل: سمي

بذلك لأنه كان يمسح بيده على العليل والأكمه والأبرص فيبرئه بإذن الله.

واختلف أهل ذلك الزمان ومن بعدهم في عيسى عليه السلام، فمن قائل من اليهود لعنهم الله: إنه ولد زنية. وقابلهم آخرون في الكفر فقالوا: هو الله. وقال آخرون: هو ابن الله. وقال المؤمنون هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وهؤلاء هم الناجون المنصورون، ومَن خالفهم فهم الكافرون الضالون. وقد كان بدء نبوة المسيح عليه السلام عندما بلغ من العمر ثلاثين عاماً، وهذه خصوصية له لأنه قد رفع إلى السماء قبل أن يبلغ سن الأربعين. وقد وصف الله تعالى مقاماً من مقامات عيسى عليه السلام بما يفيد أنه قام خطيباً في بني إسرائيل يخبرهم أنه رسول الله ويبشرهم بمحمد رسول الله ﷺ الذي سيأتي بعده.

وأعطى الله تعالى المسيح الإنجيل ويعني البشارة، وهو كتاب تضمّن الهدى والنور، وقد أهاب ببني إسرائيل أن يرجعوا إلى الله ويعبدوه. إن الإنجيل الذي أتى به المسيح وسلّمه إلى تلاميذه لكي يبشروا به لا يوجد الآن، وإنما توجد قصص ألفها التلاميذ بعد عيسى عليه السلام لم تسلم من التحريف والزيادة والحذف، وقد كثرت حتى أربت على المائة. لقد جاء عيسى عليه السلام لمهمة سامية، ذلك أن بني إسرائيل قد طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وحرّفوا شريعة الله، وخرجوا إلى الإفراط والتفريط. وفي بيان كذب اليهود والنصارى في دعوى الصلب، أخبر الله تعالى أنه رفعه إلى السماء بعدما توفاه بالنوم ممن كان قد أراد أذيته من اليهود. ولقد كان لعيسى عليه السلام أصحاب وتلاميذ سموا بالحواريين لنقاء سرائرهم، وقد ذكرهم القرآن الكريم وأثنى عليهم.

ويذكر التلمود أن الجنة لا يدخلها إلا اليهود، وأنهم في انتظار المسيح المنتظر، وحينئذٍ ترجع السلطة لليهود وحدهم. وتكون الأمة اليهودية في غاية الثراء، لأنها تكون قد ملكت كل أموال العالم، وتكون هي الأمة المتسلطة على باقي الأمم. وهذه الأوهام قلب لحقائق الأمور، نشأت من تخيلاتهم الكاذبة، فقلبوا حقيقة المسيح حال حياته، وآذوه بسبب دعوته.

ويحتوي **المجلد الثاني** على **الفصل السابع** الذي يعرض السيرة النبوية

العطرة لسيد الخلق وخاتم الأنبياء والرسل محمد بن عبدالله ﷺ. إن الفترة التي عاشتها الأمة العربية بدون وحي إلٰهي يحمل هداية الله كانت طويلة، وهي التي كانت بين إسماعيل عليه السلام والنبيّ الخاتم ﷺ. فلذا نشأت عادات سيئة وأخرى حسنة إلا أنها خفيت بالعادات السيئة التي هبطت بالمجتمع العربي. وحيال هذه الأوضاع البائسة التي كان يعيشها العرب قبل مولد خاتم الأنبياء، كان لا بد من تغيير الكثير من المفاهيم التي يسودها الجهل. وذلك بولادة عهد جديد يهيئه الله تعالى فيكون إيذاناً ببدء مسيرة هداية للإنسانية الضالة، وانبلاج فجر جديد على العرب، فيؤمنون برسالة الحق، ويحملون لواء الإيمان بالله بين الناس جميعاً.

ولم يزل سيد الخلق ينتقل من خير الآباء إلى خير الأبناء، فهو ذو نسب زكي، إبراهيم الخليل دعامه، وإسماعيل سنامه، وكنانة زمامه، وقريش نظامه، وهاشم تمامه. اختاره الله من أرفع البيوت لأنه اصطفى من ولد إبراهيم رافع قواعد البيت إسماعيل، فهو سليل أسرة جمعت أمجاد العرب في خلائقها.

وليس في حياته ﷺ قبل البعثة ما يشعر بشيء سوى أنه وجه إلى لون من الحياة يملؤها الإحساس بعظمة الكون وعظمة مدبره جلّ شأنه، ومن هنا كان جوابه على تعجب عمه له من أقوال الرهبان عنه وعن نبوته: «**أي عم لا تنكر الله قدره**». وكانت طفولته محاطة برعاية الله، وفي شبابه حفظه الله من نزغات الشباب التي تنزع إليها الشبوبية بطابعها. ولما أجمعت قريش أمرها على هدم الكعبة وبنيانها، كان رسول الله ﷺ يعمل في بنائها مع عمومته، وينقل الحجارة إليها. فلما انتهوا إلى حيث يوضع الحجر الأسود من البيت اختلفوا فيمن يضع الحجر موضعه، فاتفقوا على أن أول من يدخل من باب بني شيبة يقضي بينهم. فكان أول من دخل رسول الله، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين رضينا به. وهذا الاسم يمثل التكافؤ الخلقي أصدق تمثيل في شخصيته، فصبره مثل شجاعته، وشجاعته مثل كرمه، وكرمه مثل حلمه، ومن هنا كان جماع أمره عند قومه (الأمين).

وبعث الله تعالى محمداً ﷺ برسالته لتكون خاتمة للرسالات الإلٰهية.

فالناس كلهم في مشارق الأرض ومغاربها أمة دعوته، ومكلَّف بتبليغ رسالته إليهم. ودعوته تستهدف إخراج الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده. وقد أمر الله رسوله بالجهر العام بالدعوة لكل من يستطيع صوت الدعوة أن يصل إليه. وقد مضى رسول الله في النهوض بدعوته وتبليغ رسالته لا يبالي ما يلاقي من بلاء وعناء. لقد كان حادث الإسراء والمعراج أعظم آيات الإعجاز لنبينا محمد ﷺ، هذه الآية العظيمة التي فتحت بها نفحات الفرج. إن الله أسرى بعبده محمداً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، كما أخبر الله عباده، وعرج به إلى السماوات، وفرض عليه خمس صلوات، وجمع له الأنبياء عليهم السلام في بيت المقدس، ثم استقبلوه في السماء ورجع من ليلته إلى مكة.

وكانت الهجرة النبوية من مكة مطلع شمس التوحيد في رسالة الإسلام إلى المدينة التي صارت بإشراق نور النبوة مسرى هذه الرسالة إلى آفاق العالم. لقد كانت طبيعة التجمع اليهودي في بدء دعوة الإسلام في أرض العرب مقسمة بين نفوذ العرب ونفوذ اليهود وسيطرتهم. وكان في تقدير رسول الله ﷺ أن لا يصبح بين قوة المكيين في الجنوب واليهود في الشمال. وعقد رسول الله معاهدة مع اليهود وادعهم فيها وأقرهم على دينهم وأموالهم. وقد عرف بعض اليهود بالمدينة بشدة عداوتهم لرسول الله، مع أن علماءهم يعرفون أنه سيبعث نبيّ وكانوا يعرفون صفاته من التوراة.

وقد أُذِن لرسول الله في القتال في السنة الثانية للهجرة، فالجهاد في سبيل الله في منهجه ﷺ وسيلة لا غاية. وتتابعت البعوث والسرايا والغزوات تقاتل فيها كتائب الإسلام فتُنصر. أما ما كان من أحداث اليهود فقد بدأ انهيارهم بإجلاء بني قينقاع أعتى طوائف اليهود الذين نقضوا العهود. ثم حصار بني النضير وإجلائهم بعد خذلان المنافقين لهم. ثم حصار بني قريظة عقب غزوة الخندق لنقضهم العهد وممالأتهم شراذم الكفر. وهكذا كان القضاء على اليهود وقوتهم المادية وإجلائهم عن جزيرة العرب قضاء على المنافقين ودسائسهم. وكانت غزوة تبوك آخر غزواته ﷺ بعد أن أرى أصحابه أن عموم رسالته تقتضيهم أن يخرجوا بها إلى الأمم في أقطار

الأرض. ليحقق الله لهم وعده باستخلافهم في الأرض، وتمكين دينهم الذي ارتضاه لهم. ثم حجّ رسول الله حجة الوداع، وخطب خطبته التي بيَّن فيها ما بيَّن، وقال: «**وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً: كتاب الله وسنتي**»، اللَّهمَّ صلِّ وسلِّم على سيدنا محمد الذي نشرت ذكره في الكتب السماوية. الذي لم تقبضه حتى أقمت به الملة العوجاء، ووهبت له كل خلق كريم، وجعلت الهدى إمامه، والإسلام ملته، والعدل سيرته، والحق شريعته. والذي هديت به بعد ضلالة، وجمعت به بعد فرقة، وألفت به قلوباً متفرقة، وأمماً مختلفة، وجعلت أمته خير أمة أخرجت للناس.

أما **الفصل الثامن،** فيتعرض لجبلة اليهود وأطماعهم، فبنو إسرائيل هم نسل أسباط يعقوب الاثني عشر. واليهود نسبة تنسب إلى يهوذا السبط الرابع ليعقوب عليه السلام، وهو الذي أشار على إخوته بإلقاء يوسف في الجب واتهام الذئب بدمه. لقد حاول اليهود أن يدخلوا في روع الناس أنهم الأشرف جنساً، والأصدق ديناً، فهم الأصل وما عداهم من الشعوب ليسوا إلا جداول وروافد تنبع منهم. وعلى امتداد تاريخهم الطويل كان بنو إسرائيل لا وزن لهم في نظر من كانوا ينزلون في كنفهم، فعوّضوا عن ذلك بفخر زائف، ولذلك كرههم الناس ونبذوهم، ولهذا طاردهم التاريخ، وعزلهم حقدهم منذ أن حَلُّوا بين الناس.

لقد كانت شريعة موسى عليه السلام وجهاده من أجل تخليص بني إسرائيل من الاستعباد، وكان عصيانهم وتمردهم عليه، حتى إنه طلب فراقهم. وهكذا بعد توزيع يوشع الأرض التي استولى عليها في فلسطين بين الأسباط، قسمت حياتهم بفلسطين إلى: عهد «القضاة» وهم من الكهنة الذين ينتخبهم الشعب ولم تكن طاعتهم واجبة. وكان عهد «الملوك» يحمل خطر سيطرة الفلسطينيين على اليهود مما كان عاملاً في جمع الأسباط في وحدة شاملة. حيث جاؤوا إلى «صموئيل» وقالوا له: اجعل لنا ملكاً، فاختار لهم «شاؤول»، ويسميه القرآن الكريم «طالوت». وبرز له قائد الفلسطينيين الذي يسميه القرآن «جالوت» وقد استطاع داود عليه السلام أن يتغلب عليه. ثم كان عهد الانقسام وزوال ملك بني إسرائيل بعد وفاة سليمان عليه السلام. فكان

السبي الأول الذي قام به «نبوخذ نصر» إلى بابل، والسبي الثاني الذي قام به «تيتوس» الذي عاون المسيحية على الانتشار والقضاء على الكيان الإسرائيلي في فلسطين. فاجتمعت فلول اليهود الهاربة في «العريش» قبل رحيلهم وشتاتهم على خمسة مبادئ ظلت دستور عملهم وهي: «أن يبقوا محافظين على لغتهم ودينهم، وأن يبقوا على اتصال دائم فيما بينهم، وأن يعملوا على الرجوع إلى أرض الميعاد، وأن يعملوا على إفساد جميع شعوب الأرض».

لقد جاء القرآن الكريم بحقائق عن تجارب بني إسرائيل في النبوة والرسالة الإلٰهية، وكشف زيف موقفهم، وموقف الرفض الذي اتخذوه من الإسلام، فضلاً عن تناوله بالتطهير والتكريم لسيرة أنبيائهم بغير ما تداولته كتبهم التي صنفها كهانهم، لقد امتازوا بخصائص نفسية شاذة كالحقد على البشرية وحب الفتنة ونشر الفساد للتوصل إلى أغراضهم، ولم تتبدل هذه النفسية. وتركز عداؤهم للمسلمين منذ أن صدع رسول الله ﷺ بدعوته. فقد عرفوا الحق وانصرفوا عنه، وعرفوا باطل قريش وناصروه، وأثاروا الفتنة على عثمان وأذكوا أوارها، واندسوا في صفوف الشعبية والشعوبية وقادوها في المسالك التي رسموها لمحاربة الفكر الإسلامي، واستمروا يكيدون للمسلمين حتى أيامنا الحاضرة. لقد أثاروا الفتن، غير أنهم في القرن التاسع عشر قرروا الخروج من العمل الإقليمي والانضواء تحت قيادة عالمية تركز وتنسق جهود الجمعيات اليهودية في العالم بهدف حبك مؤامرة عالمية لتخريب العالم، بادئين في أوروبا، ثم الدولة العثمانية، ثم فلسطين والوطن العربي، وما قضية فلسطين إلا حلقة في سلسلة هذه المؤامرة الكبرى.

أما **سبب تأليفي لهذا الكتاب،** فإني شعرت بالغبن والظلم والمراوغة وقلب الحقائق من العدو الصهيوني تجاه قضية فلسطين والأراضي العربية المحتلة. وتغاضي المجتمع الدولي الذي له كلمة نافذة عن عربدة اليهود وتماديهم في غيِّهم، وفي كثير من الأحايين مساندتهم للباطل. قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠] الآية. وقال الذي لا ينطق عن الهوى: «**يأتي زمان تتكالب عليكم الأمم...**» الحديث. إن اليهود لم يكتفوا بما حققوه، بل أخذوا يعرضون

السلام لا لهدف السلام وإنما للمراوغة والخداع، لتحقيق أطماعهم الاقتصادية ومآربهم التوسعية التي عجزوا عن تحقيقها عسكرياً لما يقرب من نيف قرن، وهذه جبلتهم.

لقد تطور لؤمهم وتخطيطهم لما يتمشى ومتطلبات هذا العصر الذي كثرت فيه التناقضات، إلا أن جبلتهم قد حكم عليها من الله تعالى عند انقطاع الوحي. لذلك كله رأيت أن أعرض تاريخهم مع أنبيائهم عليهم السلام ومواقفهم المشينة ماضياً وحاضراً بصورة مقتضبة. وأن أتوسط الأمر في مؤلفي هذا، فلا إسهاب ولا إطناب، ولا قصر يبلغ البتر. لقد اخترت الطريق الأوسط الذي ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل، وإنما هو بين بين، واعتدال دون ميل. مع ما بذلت من جهد في هذا الكتاب؛ إلا أنني أعترف بالتقصير لعدم الإحاطة بكل جوانب الموضوع المتعدد الأطراف المتشعب الأركان. ولكنها لقطات عابرة... وجهد متواضع كان شعارنا فيه «**يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق**». والله أسأل أن يلهمنا الصواب في القول، والإخلاص في العمل، وصلّى الله وسلّم على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، ومَن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

المؤلف
اللّواء رُكن (م) السيد
يوسف بن عبدالله جمل الليل

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

أضواء وأصداء
الطبعة الأولى عام ١٤١٨هـ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، من يهدي الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه صلاة دائمة متصلة، اللَّهم صل على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً متتابعاً تتابع الليل والنهار، والسر والجهار، الذي بعثته رحمة للعالمين، فبلغ الرسالة، وأخرج الناس من الظلمات إلى النور، الذي هديت به بعد ضلالة، وجمعت به بعد فرقة، وألفت به قلوباً متفرقة، وأمماً مختلفة، وجعلت أمته خير أمة أخرجت للناس.

فإن الله جل ثناؤه جعل العلماء سبباً لحفظ دينه، وإقامة شريعته، والدعوة إليها اعتقاداً وقولاً وعملاً، ولأن العلماء ورثة الأنبياء، ومصابيح الدجى لتضيء للناس طريقهم إلى الله وإلى جناته ورضوانه.

وهذه الأمة والحمد لله، زخرت بعلماء كثيرين في كل عصر ومصر، وإن من العلماء الذين شهد لهم بالعلم النافع، والعمل الصالح، والتفاني في الدعوة إلى الله: سماحة الشيخ عبدالعزيز بن عبدالله بن باز رحمه الله المفتي العام للمملكة العربية السعودية ورئيس هيئة كبار العلماء وإدارة البحوث العلمية والإفتاء، مشيراً سماحته عن إهدائه نسخة من كتابي الموسوم بـ: «عود على بدء في جبلة اليهود»، وأشار في خطابه المرفق أنه بعد الاطلاع على الكتاب من الجهة المختصة لديه ظهرت فيه بعض الملاحظات، آملاً سماحته بتعديل الكتاب على ضوء هذه الملاحظات، التي أوضحها فضيلة مدير عام إدارة

مراجعة الكتب الدينية بإدارة البحوث العلمية والإفتاء. وتشمل على بعض الملاحظات التي تدل إلى القراءة المتأنية والجهد المحمود أثابهم الله عليه، إن تمحيص الكتاب وتقريظه يعتبر أعلى درجات المراجعة لإظهار الملاحظات وعدم إغفال قيمته العلمية ومحاسنه، ومن ملاحظاته رحمه الله ما يلي:

١ ـ قام المؤلف بالنقل من كثير من المراجع الإسلامية ولكن كثير ما تنقل من الأناجيل والتوراة، وقد يفوته عند النقل أشياء تستوجب التعليق والتنبيه عليها. «تم حذف أو تعديل ما أشير إليه وفق كتاب الله أو سنة نبيه ﷺ» كما أشار سماحته في خطابه المرفق.

٢ ـ توجد بعض الأخطاء في الآيات القرآنية. كان صف الآيات عن طريق أحرف الكمبيوتر، وفي هذه الطبعة تم تنزيل آيات القرآن الكريم (اسكنر) من مصحف المدينة المنورة مطبعة الملك فهد طيب الله ثراه.

٣ ـ الكتاب في مجمله كتاب جيد إذا تم تدارك الملاحظات.

رحم الله سماحة الشيخ عبدالعزيز بن باز الذي لا يذكر علماء الإسلام، إلا ذكر في عدادهم، وهو مع هذا إمام علم من علماء أئمة أهل السنة، ونابغة علماً وحفظاً وذكاءً، رحمه الله رحمة واسعة وأصبغ على روحه شئابيب الرحمة والرضوان، أسأل الله أن لا يحرمنا الأجر والمثوبة. ولله در القائل:

وإذا نظرت إلى التقي وجدته ... رجلاً يصدق قوله بفعال
وإذا تناسبت الرجالُ فلم أرى ... نسباً يقاس بصالح الأعمال

ومن دوافعنا أيضاً لطبع الكتاب نفاذ الطبعة الأولى، وذلك لقبول الكتاب وعنوانه لدى شريحة كبيرة من المثقفين، وقد اخترت بعضاً من رسائلهم وآمل السماح ممن لم توضع رسائلهم حيث لم يكن هناك مجالاً للبسط، فالله نسأل أن يكون قد اختارنا لخدمة دينه.

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
رئاسة
إدارة البحوث العلمية والإفتاء
الأمانة العامة لهيئة كبار العلماء

الرقم : ٢/٥٥٦٧
التاريخ : ١٤١٩/١١/٢٨هـ
المشفوعات :
الموضوع :

من عبدالعزيز بن عبدالله بن باز الى حضرة الأخ المكرم يوسف بن عبدالله جمل الليل وفقه الله
سلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وبعد :-

فأشير الى كتابكم رقم ١١/٣٤٥ وتاريخ ١٤١٩/٩/٥ هـ المتضمن اهداءكم لي نسخة من مؤلفكم بعنوان (عود على بدء في جبلة اليهود) .

وأفيدكم أنه بعد الاطلاع على الكتاب المذكور من الجهة المختصة لدينا ظهرت فيه بعض الملاحظات المرفقة ، آملاً منكم تعديل الكتاب على ضوء هذه الملاحظات خصوصاً مايتعلق بالكلام عن نبي الله يوسف عليه الصلاة والسلام ، وماجرى عليه من امرأة العزيز من الابتلاء والامتحان وأنتم تعلمون أنه لايجوز الكلام في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الآ بما ثبت في كتاب الله او سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وفقكم الله للعلم النافع والعمل الصالح .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،،،،،،،،،،

المفتي العام للمملكة العربية السعودية
ورئيس هيئة كبار العلماء وإدارة البحوث العلمية والافتاء

إدارة الدفع والصادر
الإدارة العامة للتنسيق المركزي
الرقم : ٥٦٧٢
التاريخ : ١٤١٩/١٢/٢هـ
المرفقات : ٢

بسم الله الرحمن الرحيم

سفارة المملكة العربية السعودية
الكويت

Royal Embassy of
Saudi Arabia
Kuwait

سعادة الأخ اللواء الركن / يوسف بن عبد الله جمل الليل الموقر

مدير عام التفتيش المركزي – وزارة الدفاع والطيران والمفتشية العامه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :–

يطيب لي بداية أن أقدم لكم أجمل التهاني والتبريكات بمناسبة حلول شهر رمضان المبارك وأبادلكم التهنئة داعيا المولى عز وجل أن يعيده عليكم أعواما عديده باليمن والخير والمسرات .

كما تلقيت ببالغ الشكر والتقدير أهدائكم القيم المتضمن مجلدين من مؤلفكم ((عودة على بدء في جبلّة اليهود)) والمتضمن في طياته العديد من الحقائق والتجارب والمعلومات وقصص الأنبياء وسيرهم .

وأني أقدر لكم هذا الجهد الجبار وهذا مانعرفه عنكم من حبكم للقراءة والأطلاع والتأليف داعيا المولى لكم التوفيق والنجاح ، والى المزيد من التقدم والأزدهار في كافة أعمالكم القادمة بمشيئة الله .

وكل عام وأنتم بخير ،،،

السفيـــر

طراد بن عبد الله الحارثي

سفير خادم الحرمين الشريفين

لدى دولة الكويت .

بسم الله الرحمن الرحيم

عبدالله بن حمد الحقيل ٢٧/٨/١٤١٨هـ

سعادة الأستاذ اللواء كريم يوسف بن عبدالله جمل الليل المحترم

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

بمناسبة قدوم شهر رمضان المبارك ..موسم الخير والأمجاد..وشهر النفحات الإيمانية والمكرمات..

يطيب لي أن أهنئكم بمقدمة .. راجيا من الله أن يجعله من أحسن فرص التقرب الى الله وأن يرزق الجميع القبول والرضوان وأن يعيده كل عام وأنتم في أحسن الأحوال..وعلى بلادنا بمزيد من الخير والرغد والأمن والرقي والأزدهار .. وعلى الأمة الاسلامية بالنصر والعزة والقوة والسؤدد..

فأهلا وسهلا بشهر الصيام يزيل من النفس أضغانها
نرحب بالشهر في موسم يفوى من النفس إيمانها
وأهلا وسهلا بشهر الصيام ينقى عن النفس أدرانها
وأهلا وسهلا بشهر الصيام يشعشع في الروح عرفانها
وموسمه ثروة لم تزل لمن بالتقى والهدى صانها

سدد الله الخطى ومنح الجميع التوفيق والتقوى.....

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته..

اخوكم ومحبكم

عبد الله بن حمد الحقيل

هامش

تسلمت بالشكر والتقدير مؤلفكم القيم النفيس "عود على بدء في جبلة اليهود" وهو كتاب حافل متميز بالموضوعية والبحث المستفيض والفكر النير ولقد سعدت بقراءته ومطالعة موضوعاته وفصوله وما احتوى عليه من ذكر وتفصيل لتاريخ اليهود وطبيعة أخلاقهم .. فلكم فائق الشكر وخالص التقدير وفقكم الله

بسم الله الرحمن الرحيم

المملكة العربية السعودية
وزارة الدفاع والطيران والمفتشية العامة
رئاسة هيئة الأركان العامة
المكتب

القوات المسلحة السعودية

الرقم :
التاريخ : ٢٢/٨/١٤١٨هـ
المرفقات :
الموضوع :

شخصي

سعادة الأخ الكريم والصديق الحميم ذي الأخلاق العالية والمزايا الفاضلة
اللواء المتقاعد يوسف بن عبدالله الجمل الجليل . مدير عام التفتيش المركزي المحترم حفظه الله
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .
أرجو الله تعالى أن يديم عليكم نعمته وفضله ويزيدكم من توفيقه وعنايته
أخي العزيز تشرفت بتسلم هديتكم الثمينة كتابكم المسمى [عود على بدء في جبلة اليهود]
سلمه الله لنا [illegible] الكائن من جزئين . وإني إذ أشكر سعادتكم على هذه الهدية النفيسة التي
أرجو الله تعالى أن ينفع بها من قرأها ويضاعف الأجر لمن ألفها ويزيد الجميع البصيرة
في الدين والعمل بسنة سيد المرسلين والله يجزيكم على ذلك خير الجزاء والله يجعل العمل
خالصاً لوجهه صواباً على سنة نبيه هذا ولكم جزيل تحياتي والله يحفظكم

محبكم
عبدالمحسن بن عبدالله [illegible]

مطابع القوات المسلحة ١٤٠٦هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة الملك عبدالعزيز
KING ABDULAZIZ UNIVERSITY
المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
مكتب مدير الجامعة

سعادة الأخ الكريم الصديق السيد الفاضل

اللواء الركن / يوسف بن عبدالله جمل الليل **حفظه الله**

مدير عام التفتيش المركزي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ،

بكل الشكر ووافر التقدير تلقيت خطابكم المؤرخ ١٤١٨/٨/٩هـ وبرفقه نسخة من إصداركم القيم ﴿ **عود على بدء في جبلة اليهود** ﴾ .

أشكر لكم كريم اهدائكم سائلاً المولى جلت قدرته أن يوفقكم ويسدد خطاكم لتحقيق ماتصبون إليه من رفعة وسؤدد .

مع تهنئتي الخالصة على هذا الانجاز الفكري المقدر الذي يأتي في وقت الناس فيه في أمس الحاجة إلى ان يتعرفوا على عدوهم .

ولاشك في أن ما احتواه كتابكم يعد إنجازاً طيباً جديراً بأن يطلع عليه الجميع.

ندعو الله تعالى أن يثيبكم على هذا العمل الجيد وأن يديم عليكم نعمة العطاء الفكري .

وتقبلوا خالص تحياتي وتقديري ،،،

مدير الجامعة

أ.د/ غازي بن عبيد مدني

شعبان ١٦/٨-١٧/٨

صوره : للصادر/للقيد

الرقم ٢١٥١ / أ م خ التاريخ ١٦/٨/١٤١٨ المشفوعات ـــ

بسم الله الرحمن الرحيم

أخانا الغالي وأستاذنا العزيز
سعادة اللواء/ يوسف بن عبدالله جمل الليل (أبو سهل) حفظه الله وأدامه

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وبعـــــد:

لقد سررت وسعدت بل تشرفت بتسلم هديتكم الغالية المتمثلة في مؤلفكم القيم "عود على بدء في جبلة اليهود" كتاب في مجلدين عن طريق الأخ/ (أبو ماجد) بارك الله فيه، وهو دراسة شاملة ومتعمقة ومتأنية ونافذة.

إني لأقدر مدى الجهد الكبير الذي بذلتموه (أبا سهل) في التصدي لتأليف مثل هذا الكتاب (المرجع) لا يحدوكم في ذلك مزية دنيوية فانية أو مطمع مادي زائل، ولكن يحدوكم ما عند الله من خير وثواب ونعم أزلية باقية.

أسأل الله لكم العون والسداد وأن يوفقكم وأن يمدكم بروح من عنده لتواصلوا العمل والإسهام في مثل هذه الأعمال الجليلة والمآثر الطيبة لإنماء الفكر الثقافي وإثراء المعرفة الإنسانية بما حباكم الله به من حنكة وصبر ودراية وسعة اطلاع.

وفي الختام أكرر عظيم شكري وأسمى تقديري لمشاعركم الطيبة تجاهي الذي يتمثل في هذه المكرمة الجليلة والهدية الثمينة التي أتحفتموني بها وأنا بها فخور.. داعيا الله العزيز القدير أن يحفظ سعادتكم لأبنائكم وأسرتكم ومحبيكم وأنتم دائما موفوري الصحة والسعادة، والسلام،،،

أخوكم ومحبكم:

عبدالله بن محمد الشعلان

أستاذ ورئيس قسم الهندسة الكهربائية
جامعه الملك سعود

بسم الله الرَّحمن الرَّحيم

وزارة الدفـاع والطيران	MINISTRY OF DEFENCE AND AVIATION
الخـدمـات الطـبيـة للقـوات المسلحـة	MEDICAL SERVICES DEPARTMENT

برنـامج مستشفى الرياض والخرج

RIYADH AL KHARJ HOSPITAL PROGRAMME

مستشفى القوات المسلحة / الرياض	RIYADH ARMED FORCES HOSPITAL
ص.ب ٧٨٩٧	P.O. Box 7897
الرياض ١١١٥٩	Riyadh 11159
المملكة العربية السعودية	Kingdom of Saudi Arabia
هاتف رقم ٤٧٧٧٧١٤	Tel. 4777714
تلكس ٤٠١٦٤٥ آر.كي.آتش.باي.آي إس.جي	Telex 401645 RKHPA SJ

R. K. H.

مكتب مدير البرنامج

حاص

التاريخ : ٢٦ رجب ١٤١٨هـ

سعادة أخي الكريم اللواء / يوسف بن عبدالله جمل الليل   حفظه الله

السلام عليكم ورحمة الله وبركاتة ،

إستلمت مؤلفكم من مجلدين الموسوم يعود علي بدء في جبلة اليهود بجزئيه ولقد سرني وأسعدني هذا المؤلف وعلمت أن آل البيت دوماً مشاعل للناس تضيء طريقهم وأن في بني هاشم جذور الحكمه ومنابع العلم وأنا شهادتي مجروحه تجاهك يا أخي العزيز لأنني أرتبط بكم بصداقه وإعجاب شديد ولذلك فإنني مهما قلت لن أوفيك حقك أولاً وأخاف من الميل لصداقتي لك ثانياً ولأنني من الحاقدين على اليهود لما أعرفه عنهم من كتاب الله العزيز ومن قراءاتي البسيطه ومن إحتكاكي بالشعب النمساوي الذي عانى من مكائدهم ومصائبهم قديماً ومن تحكّمهم في بنوكه وإعلامه حديثاً بل والإستحواذ على مراكز العلم في جامعاته ومؤسساته ، ديدنهم الحقد على الإنسانيه ويصبّون جام غضبهم على كل ما هو سماوي وكل ما هو سامي إنهم في النمسا لا يدفعون الضرائب مثل المواطنين الآخرين بحجة أنهم وقع عليهم الحيف سابقاً وهم مع ذلك يكيدون كيداً عظيماً للنمسا وأهلها وللألمان الذين تربطهم بالنمسا علاقات الرحم إنتقاماً من هذا العنصر البشري الذي عرف جزء من مصائبهم ، لما سبق فإنني يا أخي العزيز شعرت للوهله الأولى بأنك قد حركت شيئاً ساكن في ضميري ملخصه بغضي لليهود ، أليسو خونة العهود مع النبي العظيم ، أليسو من ملأوا تاريخهم بقتل الأنبياء وإتهامهم بالخطايا ، أليسو من كفروا بالله خالق الكون ومدبر الخلق ، مره أخرى أقدم لكم إعجابي على الرغم من جرح شهادتي بكم ، واقدم لكم دعائي،

هذا والله يحفظكم ويرعاكم ،

هذا والسلام عليكم ،،، ،،، ،،،

أخوكم

اللواء / الطبيب

كتاب بن عيد العتيبي

مدير برنامج مستشفى القوات المسلحة بالرياض والخرج

من المفكرة

عودٌ على بدء في جِبِلّة اليهود

صدرت الطبعة الأولى من كتاب (عودٌ على بدء في جبلّة اليهود).
جمع وتأليف اللواء الركن يوسف بن عبدالله جمل الليل.
والكتاب يتكون من جزأين في مجلدين. مجموع صفحاتهما (١٠١٧) صفحة.
وقد حاول المؤلف أن يبين في هذا الكتاب (جبلّة اليهود) بمعنى طبائعهم وأخلاقهم الذميمة التي تدل على تأصل الشر فيهم.

اللواء الركن / يوسف بن عبدالله جمل الليل

وقد احتوى الكتاب بين طياته على ثمانية فصول، يحتوي المجلد الأول على سبعة فصول.

الفصل الأول عن بداية الخلق فإن الله جل جلاله خلق خلقه من غير ضرورة كانت به إلى خلقه لهم. لأنه تعالى لا تغيره الأحوال ولا ينقصه سلطان.

أما الفصل الثاني فيعرض بداية خلق الإنسان، وهذا الأمر لم تتحدث عنه الكتب المقدسة إلا بقدر ما تدعو إليه الموعظة من حياة الأولين.

الغلاف الخارجي للكتاب

ويعرض الفصل الثالث ما كان من أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام مع قومه: وما ذكره اليهود من أن الذبيح إسحاق إنما هو تحريف وافتراء على الله، وإنما حملهم على هذا حسد العرب. فإسماعيل أبو العرب، وإسحاق والد يعقوب وهو إسرائيل الذي ينتسبون إليه. فأرادوا أن يجرُّوا هذا الشرف إليهم، ولم يُقرُّوا بأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء.

ويعرض الفصل الرابع قصة

الجندي المسلم ٨٦ العدد ٨٩ رمضان ١٤١٨هـ

من المفكرة

كليم الله موسى عليه السلام، وأكثر القرآن الكريم الحديث عن بني إسرائيل، وأفاض الخامس في ذكر حوادثهم ليأخذ الإنسان العبرة من حياة هذه الأمة الباغية التي تقابل النعمة بالجحود.

أما الفصل الخامس فيعرض قصة النبي دواد عليه السلام الذي جمع الله له بين الملك والنبوة، وتتابعت الإنتصارات على يديه وأعز الله بني إسرائيل بعد أن كانوا في ذل وهوان. وما تقصه التوراة عن حياة سليمان عليه السلام من أن المجتمع الإسرائيلي لم يسلم من القلاقل وكل مظاهر الفوضى والتخريب وبعد وفاته ما حدث من الإنقسام السياسي والديني. وما آلت إليه المملكة حين سقطت على يد «نبوخذ نصر».

كما يعرض الفصل السادس قصة الصديقة مريم ابنة عمران العذراء البتول أم عيسى عليهما السلام. واختلف أهل ذلك الزمان ومن بعدهم في عيسى فمن قائل من اليهود لعنهم الله: إنه ولد زانية. وقابلهم آخرون في الكفر فقالوا: هو الله. وقال آخرون: هو ابن الله. وقال المؤمنون هو عبدالله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وهؤلاء هم الناجون المنصورون. لقد جاء عليه السلام لمهمة سامية، ذلك أن بني إسرائيل قد طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وحرفوا شريعة الله. فقتلوا حقيقة المسيح عليه السلام حال حياته، وآذوه بسبب دعوته.

كما يحتوي المجلد الثاني على الفصل السابع الذي يعرض السيرة النبوية العطرة لسيد الخلق وخاتم الأنبياء والرسل محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم الذي اختاره الله من أرفع البيوت. لأنه اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل عليهما السلام، فهو سليل أسرة جمعت أمجاد العرب في خلائقها. بعثه الله برسالته لتكون خاتمة للرسالات الإلهية، فالناس كلهم أمة دعوته التي تستهدف إخراجهم من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد وإخلاص العبادة لله وحده.

أما الفصل الثامن فيستعرض جبلّة اليهود وأطماعهم، وحاولوا أن يدخلوا في روع الناس أنهم الأشرف جنساً، والأصدق ديناً، فهم الأصل وما عداهم من الشعوب ليسوا إلا روافد تنبع منهم. وكانوا على امتداد تاريخهم لا وزن لهم في نظر من كانوا ينزلون في كنفهم، فعوضوا عن ذلك بفخر زائف، ولذلك كرههم الناس ونبذوهم، وطاردهم التاريخ، وعزلهم حقدهم.

لقد جاء القرآن الكريم بحقائق عن تجارب بني إسرائيل في النبوة والرسالة الإلهية، وكشف زيف موقفهم، وموقف الرفض الذي اتخذوه من الإسلام، ولقد امتازوا بالحقد على البشرية وحب الفتنة ونشر الفساد ليتوصلوا إلى أغراضهم، وذلك بالخروج من العمل الإقليمي والإنضواء تحت قيادة عالمية تركز وتنسق جهود الجمعيات اليهودية في العالم. بادئين في أوروبا، ثم الدولة العثمانية، ثم فلسطين والوطن العربي. وما قضية فلسطين إلا حلقة في سلسلة هذه المؤامرات الكبرى. وتطور لؤمهم وتخطيطهم لما يتمشى ومتطلبات هذا العصر الذي كثرت فيه التناقضات، إلا أن «جبلتهم» قد حكم عليها من الله تعالى عند انقطاع الوحي.

الفصل الأول
بداية الخلق

خلق الله جلّ جلاله وتقدست أسماؤه خلقه من غير ضرورة كانت به إلى خلقه لهم، بل خلق من خصه منهم بأمره ليعبدوه، فيجود عليهم بنعمه، وليحمدوه على نعمه فيزيدهم من فضله.

قال الله عزّ من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

فلم يزد خلقه إياهم في سلطانه مثقال ذرة، ولا هو إن أفناهم ينقصه ميزان شعرة، لأنه تعالى لا تغيره الأحوال ولا ينقصه سلطان الأيام والليالي، لأنه خالق الدهور والأزمان. فعمّ جميعهم فضله وجوده، وشملهم كرمه وطوله، فجعل لهم السمع والأبصار والأفئدة، وخصهم بعقول يصلون بها إلى التمييز بين الحق والباطل. وجعل لهم سبحانه وتعالى الأرض بساطاً ليسلكوا منها سبلاً فجاجاً، والسماء سقفاً محفوظاً، وأنزل لهم منها الغيث بالإدرار، والأرزاق بالمقدار. وأجرى لهم سبحانه فيها الشمس والقمر يتعاقبان بمصالحهم دائبين. فجعل لهم الليل لباساً، والنهار معاشاً، وخالف بين القمر والشمس، فمحا آية الليل وجعل آية النهار مبصرة، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ۝١٢﴾ [الإسراء: ١٢]؛ ليصلوا بذلك إلى العلم بأوقات فروضهم التي

فرضها عليهم في ساعات الليل والنهار، والشهور، والسنين، قال عزّ وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٥ إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ۝٦﴾ [يونس: ٥، ٦]. وكل ذلك إنعاماً من المولى على خلقه، فشكره على نعمه التي أنعمها عليهم من خلقه خلق عظيم، فزاد كثيراً منهم من آلائه على ما ابتدأهم به من فضله وطَوْله. كما وعدهم جلّ جلاله بقوله: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧]، فجمع لهم إلى الزيادة التي زادهم في عاجل دنياهم الفوز بالنعيم المقيم، والخلود في جنات النعيم في آجل آخرتهم. وأخَّر لكثير منهم الزيادة التي وعدهم، فمدّهم إلى حين مصيرهم إلى يوم تبلى السرائر، أي: يوم يرجعون إليه.

لقد كفر بنعمه التي لا تحصى خلق منهم عظيم، فجحدوا آلاءه وعبدوا سواه فسلب كثيراً منهم ما ابتدأهم به من الفضل والإحسان، وأجَّلَ لهم النقمة المهلكة في العاجل، وأخَّر لهم العقوبة المخزية في الآجل. ومتَّع كثيراً منهم أيام حياتهم، نعوذ بالله من عمل يقرب إلى سخطه، ونسأله التوفيقَ لما يُدني من رضاه ومحبته[١].

❋ ❋ ❋ ❋

القرآن الكريم

قال الله عزّ من قائل: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ۝١ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝٢﴾ [الكهف: ١، ٢]. لقد أنزل الله سبحانه وتعالى كتابه العزيز على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد بن عبدالله صلّى الله

(١) تاريخ الطبري، ج١ ص٤ ـ ٦.

عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وقد عني القرآن الكريم بدعوة الناس إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وحثّ الإنسان على النظر في الكون والتأمُّل في آياته، فللّه عزَّ وجلَّ كتابان: كتاب ناطق وهو القرآن الكريم، وكتاب صامت وهو هذا الكون الفسيح الذي نشاهده بالليل والنهار والغدو والآصال.

فإذا تأملت كلمات القرآن، وأجلت بصرك بين سطوره وجدت أنه يشتمل على بيان كثير من آيات الله تعالى في جميع أنواع المخلوقات. من الجماد والنبات والحيوان والإنسان، ويصف خلق السماوات وشمسها وقمرها ونجومها، والأرض والهواء والسحاب والماء، من بحار وأنهار وعيون وينابيع، وفيه تفصيل لكثير من أخبار الأمم، وبيان لطريق التشريع السوي الأمثل. وقد حُفِظ ذلك كله فيه بكلمه وحروفه منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً، ثم عجزت هذه القرون التي ارتقت فيها جميع العلوم والفنون أن تنقض بناء آية أو تبطل حكماً من أحكامه، أو تُكذِّب خبراً من أخباره، وهي التي جعلت فلسفة اليونان دكاً، ونسخت شرائع الأمم نسخاً، وتركت سائر علوم الأوائل قاعاً صفصفاً. وظلت أخبار القرآن وتشريعاته وعلومه وفنونه خالدة باقية، وذلك سر من أسرار الإعجاز في القرآن فإن الله قد تكفل بحفظه وخلوده، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: ٩].

فإذا أمعنّا النظر في الآيات الكونية التي اشتمل عليها القرآن الكريم اتضح لنا أن كل شيء في هذا الكون قد خُلِقَ بقدر معلوم، ودقة متناهية، وحكمة مدبرة. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾ [القمر: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾ [الملك: ٣]. فهذا الكون المعجز في بنائه، المذهل في اتساعه، الرائع في حركته واتزانه، هذا الاتزان الدقيق، لو اختلّ قيد شعرة في أمر من أموره، لانفرط عقد هذا الكون وانهار كل ما فيه ومَن فيه. ولما كان هذا الكون منذ ملايين السنين يسير على نفس السنن، فإن الذي يصونه مما قد يتعرض له من كوارث هو العناية الإلٰهية التي نحيا

في ظلها وعطفها ورعايتها، والتي لو حجبت عنا طرفة عين لهلكنا، ويمكن الإشارة إلى الأمور التالية:

١ ـ لو كانت الأرض تبعد عن الشمس ضعف بُعدها الحالي لنقصت كمية الحرارة التي تصلنا إلى ربع كميتها الحالية، ولقطعت الأرض دورتها حول الشمس في وقت أطول، ولتضاعف تبعاً لذلك طول فصل الشتاء، فتجمدت الكائنات الحية على سطح الأرض.

٢ ـ لو اقتربت الأرض من الشمس إلى نصف المسافة التي تفصلهما الآن لبلغت الحرارة التي تتلقاها الأرض من الشمس أربعة أمثال، مما يحول دون وجود حياة نباتية أو حيوانية، ولتضاعفت سرعة الأرض حول الشمس وانعدمت الفصول واستحالت الحياة.

٣ ـ لو كان الأوكسجين بنسبة (٥٠٪) أو أكثر من الهواء بدلاً من (٢١٪) فإن جميع المواد القابلة للاحتراق تصبح عرضة للاشتعال.

٤ ـ إن لم تكن قوانين الجاذبية موجودة، فمن أين تكون الشمس شمساً والأرض أرضاً؟

٥ ـ لولا الجبال لتناثرت الأرض، ولما كان لها مثل هذه القشرة الصالحة للحياة.

٦ ـ ولولا أن في الأرض أرزاقها، لما استطاعت الحياة أن تبقى.

إن القرآن الكريم لم يذكر هذه الظواهر الكونية على أنها مقصودة لذاتها، ولكن على أنها مرتبطة بقدرة مدبَّرة، وقوة مسيِّرة لهذا الكون. فهي دعوة عملية للإيمان بالله من منطلق أن كل ما نشاهده في هذا الكون خاضع للنظام الدقيق وللعناية الفائقة، ولرحمة الرحمٰن بعباده:

وفي كُلِّ شيء له آية تدلُّ على أنه الواحد

وإذا انتقل الإنسان بحسِّه من الكون إلى المخلوقات الأخرى وإلى الإنسان نفسه، فسيدرك أن هذه العناية الإلٰهية تلحظ الإنسان في كل وقت

وآن. فحين خلق الله الإنسان كرّمه بالعقل والفكر، وفضّله على كثير من المخلوقات، وخلق له الكون وسخّره له، يقول سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾﴾ [البقرة: ٢٩]، أي: خلق للإنسان الأرض وما عليها من بحار وأنهار وأشجار ونبات وتربة وهواء وفضاء وأرزاق، وما في داخلها من معادن ومياه وغير ذلك. ثم توجهت إرادته إلى خلق السماء فأحكم صنعها وأبدع تكوينها لتُكوِّن مع الأرض تكاملاً يجعل الحياة على الأرض ممكنة مريحة. فدبّر سبحانه نظام الأرض والسماء والفضاء والكواكب والشمس والقمر والنجوم، وأبدع نظام الكون بمقتضى علمه وإحاطته سبحانه بكل شيء.

قال الله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [البقرة: ٢٨]. توجه الله إلى الكافرين بهذا الاستفهام الإنكاري عن سبب كفرهم مع أن نِعَم الله عليهم ظاهرة وباطنة فقد أوجدهم الله من العدم، ومَنَّ عليهم بالحياة ومقومات الحياة ثم يميتهم عند انتهاء آجالهم، والموت نعمة كبرى على البشرية، وبعد الموت يكون البعث والجزاء لإثابة الطائع وتعذيب العاصي، وفي البعث نعمة كبرى، إذ به يتحقق الهدف من الخلق والابتلاء والاختبار في هذه الحياة(١).

وفي أسماء القرآن الكريم سمّى الله سبحانه عزَّ وجلَّ وعلا كتابه العزيز بأسماء عديدة منها: كتاباً. ومتشابهاً. ونبأً. ومثاني. وقرآناً. وفرقاناً. وحقاً. ونوراً. وسراجاً. ومبيناً. وبياناً. وبيِّنة. وهدى. وبشرى. وموعظة. وذكرى. ومباركاً. وعلماً. وحكمة. ورحمة. ونعمة. وشفاء. وكلاماً. وكَلِماً. وقيلاً. وقولاً. وحديثاً. وأمراً. وفصلاً. وفضلاً. ومصداقاً. وصدقاً. وتصديقاً. ومهيمناً. وصراطاً. وحبلاً. وشرفاً. وآيات. وروحاً. وعلياً. وبشيراً. ونذيراً. وحكيماً. وكريماً. وعظيماً. ومجيداً. وعزيزاً.

---

(١) تفسير الآيات الكونية، د. عبدالله شحاته ص١٧ ـ ٦٢.

وتنزيلاً. وصحفاً مطهرة. وتذكرة[١]. وإن الله سبحانه وتعالى جعل كتابه العزيز القرآن في علو على سائر الكتب المنزلة. قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة: ٤٨]، أي: عالٍ عليه، وعلوه على سائر كتب الله تعالى، وإن كان الكل كلام الله تعالى بأمور؛ إحداها: بما زاد عليه من السوَر، والأمر الثاني: أن جعله الله قرآناً عربياً مبيناً، والثالث: أن جعل نطقه وأسلوبه معجزاً وإن كان الإعجاز في سائر كتب الله سبحانه من حيث الإخبار عن المغيبات والإعلام بالأحكام المبينات، وسنن الله المشروعات، وغير ذلك، فكان أعلى منها بهذه المعاني وأمثالها. ولهذا المعنى الإشارة بقول الحق: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ [الزخرف: ٤]. فيكون عُلُوُّه كونه معجزاً يُصدِّق مَن جاء به، ويُصَدِّق ما قبله من الكتب والرسل[٢].

وجوه الإعجاز في القرآن مختلفة، منها ما يخص العرب من بديع نظمه وعجيب تأليفه، وسموه في البلاغة مما يعجز الخلق عن الإتيان بمثله. وأما ما يدركه الناس كلهم فهو الإعجاز بالغيبيات. ذلك أن في القرآن كثيراً من الأخبار عن أمور غيبية، وقد وقعت كما أخبر القرآن. فمنه قوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءۡيَا بِٱلۡحَقِّۖ لَتَدۡخُلُنَّ ٱلۡمَسۡجِدَ ٱلۡحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمۡ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَۖ فَعَلِمَ مَا لَمۡ تَعۡلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتۡحٗا قَرِيبًا ۝٢٧﴾ [الفتح: ٢٧]. وقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣﴾ [الروم: ١ ـ ٣]. ومنه آيات أخبرت عن اليهود وما قضى الله بشأنهم إلى قيام الساعة، كقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ طُغۡيَٰنٗا وَكُفۡرٗاۚ وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٦٤﴾ [المائدة: ٦٤]. وكقوله عزَّ وجلَّ:

(١) التذكار في أفضل الأذكار، القرآن الكريم: للقرطبي ص٢٣.
(٢) التذكار في أفضل الأذكار، لأبي عبدالله القرطبي ص٣٨ ـ ٣٩.

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾ وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ مِّنْهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف: ١٦٧، ١٦٨]. إنه تصديق أمين لحكم الله فيهم، ووعيد القرآن لهم، إنه حكم الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أُمَمًا ۖ﴾ يلاحقهم في كل حين وعلى كل حال، وإنه حكم الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾ يهيمن عليهم في حالة اليسر والعسر وفي تقلبات البأس والضعف.

فإذا نظرت إلى تاريخ اليهود في العالم، وإذا تأملت ظاهرة انتشارهم وتفرقهم بين الأمم والشعوب، وكيف يختبئون خلف فتنة يهيجونها، ووراء كل نار يوقدونها، وكيف يبعث الله عليهم بين الحين والآخر من يسومهم سوء العذاب، وكيف أنهم رغم مراسهم لأسباب الفتن والحروب، ورغم سيطرتهم على الكثير من أسواق العالم وتجارته ـ فهم الذين يملكون ينابيع كثير من الثروات في العالم، وهم الذين كانوا ولا يزالون يلعبون بالذهب في أسواق العالم خفضاً ورفعاً، وهم الذين يختبئون خلف الكثير من سياسات العالم وقياداته ويوجهون وينذرون ويغرون ـ لم يأتوا من جهدهم بطائل، ولم تقم لهم قائمة يطمئنون إليها، ولم يستطيعوا أن ينشئوا لأنفسهم دولة مستقرة وكياناً مطمئناً، بل ظلُّوا مُقَطَّعين في الأرض. وإذا تأملت في ذلك كله أدركت أن أخبار القرآن عنهم وقعت كما أخبر، وأن الزمن ماضٍ في تحقيق المزيد منها(١).

فما أجَلَّ وأعظم هذا القرآن المجيد الذي لا تنقضي عجائبه، ولا يزال في كل حين يعطي كلمة الفصل في قضايا الإنسان والحياة. وأنه كلما تدبرت آيات تكشَّفَت آفاق سامقة من وجوه إعجازه.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ

---

(١) من روائع القرآن، د. محمد البوطي ص١٥٢ ـ ١٥٥.

﴿كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝٦﴾ [الفرقان: ٦]. وبهذا السر كان القرآن هو المعجزة الكبرى من كل نواحيه: في لفظه ونظمه، وشرعته ومنهاجه، وبما قرر من الحقائق والأخبار، أو كشف من الدخائل والأسرار. وبذلك غدا القرآن العظيم كما وصفه رب العزة والجلال:

﴿رُوحًا﴾ يحيي رميم الأمم والهمم.

و﴿نُورًا﴾ يهدي الحيارى إلى أقوم السبل.

و﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ في دينهم ودنياهم، ومعاشهم ومعادهم، وسلمهم وحربهم، ومعارك حياتهم القريبة منها والبعيدة على سواء.

كلمات القرآن العظيم وإعجازه تلقيناها من أوثق طريق معصوم.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ [الشعراء: ١٩٢ ـ ١٩٥]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ۝١٥﴾ [المائدة: ١٥]. للتسليم بعظمة هذا القرآن، وأنه أجلّ وأكبر من أن يُحاط بأسراره علماً، ولا علم لنا منه إلا ما علَّمنا ربنا جلّ شأنه بخبر الصادق المعصوم، أو بتوفيق الأفهام إلى الصواب، لنقل المعاني، وتفقه الخطاب(١).

❊ ❊ ❊ ❊

بنو إسرائيل

كلمة: (إسرائيل)، معناها: (المجاهد مع الله)، وكانت تطلق على يعقوب عليه السلام، وذريته من أسباطه (أولاده) الاثني عشر. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى

(١) معركة الوجود بين القرآن والتلمود، د. عبدالستار سعيد ص١٥ ـ ٢٠.

﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الجاثية: ١٦]. ويسمى الإسرائيليون بـ(العبرانيين)؛ لأنهم كانوا قوماً رُحَّلاً لا يستقرون بمكان، بل يعبرونه إلى آخر. وكذلك يسمون تسمية ثالثة بـ(اليهود) لأنهم من سلالة يهود، أحد أبناء يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فنداء ودعوة من الله عزَّ وجلَّ لبني إسرائيل، قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: ٤٠ ـ ٤٢].

نداء إلٰهي لبني إسرائيل، يذكرهم بما أفاء الله به من نِعَم على آبائهم، وبالعهد الذي قطعه عليهم. ثم دعوته لهم لأن يؤمنوا بما أنزل الله من رسول وكتاب، وأن يبتعدوا عن الانحراف والتمويه وعن تلبيس الحق بالباطل وأن يذعنوا ويؤمنوا. لأنهم أولى بهذا الإيمان من سواهم. فهم أهل كتاب يدعو إلى الله وإلى توحيده. إن هذه الدعوة القرآنية التي يستهل بها القرآن حديثه لبني إسرائيل عامة إنما هي دعوة عامة لليهود منذ أن عاصروا النبيّ ﷺ إلى اليوم وإلى يوم الدين.

وكثيراً ما كرر القرآن نداءه لبني إسرائيل، مذكراً لهم ومعدّداً نِعَم الله عليهم. وما ذاك إلا لأنهم كانوا أشد الناس عداوة للنبيّ ﷺ ولأصحابه وللدين الذي نادى به، قال الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ ...﴾ [المائدة: ٨٢]. فعمد القرآن إلى تذكيرهم بكل هاتيك الفضائل والأفضال لعل تذكيره لهم يمس قلوبهم، فتجيب داعي الله، وتؤمن بما دعا. قال الله تعالى: ﴿سَلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ كَمْ ءَاتَيْنَٰهُم مِّنْ ءَايَةٍۭ بَيِّنَةٍ ۗ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾ [البقرة: ٢١١]. وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾﴾ [طه: ٨٠]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الدخان: ٣٠، ٣١]. كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الجاثية: ١٦].

لله سبحانه وتعالى مواثيق وعهود وعقود أخذها على الأناسي جميعاً ليوفوا بها ويعملوا بمضامينها، ليفي الله لهم في نظير وفائهم، وليضمن لهم الأمن والأمان في الأولى، والفوز والنجاة في الأخرى، فهناك عهد إلٰهي وميثاق رباني أخذه الله على الناس جميعاً، وهم في ظهر الغيب عند بدء الخليقة. كذلك أخذ الله على النبيين ميثاقاً؛ ليؤمن بعضهم ببعض ويصدق بعضهم البعض، ويقروا برسالة خاتمهم محمد ﷺ. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [آل عمران: ٨١]. وكما أخذ الله عهداً على البشرية فقد أخذ على النبيين ميثاقاً، وعلى بني إسرائيل عهداً وميثاقاً، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة: ١٢].

ولو أوفى بنو إسرائيل بهذا الوعد الإلٰهي، وصدقوا الله ما عاهدوه، وصدقوا برسله، واعترفوا بألوهيته ووحدانيته لمكن لهم في الأرض، نظير الاعتراف بالحق والرجوع إلى الله. إلا أن شعب إسرائيل في طبيعته الغدر بالعهود والنقض للمعاهدات، والحنث بالوعود، وتمزيق المواثيق، وترقب الفائدة، واصطياد المنفعة ولو على حساب العقيدة والشرف. قال الله تعالى فيهم: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ ...﴾ [المائدة: ١٣]. لذا كتب الله على هذا الشعب التشريد والتيه والغضب والمذلّة.

لقد ذكَّر الله بني إسرائيل المعاصرين لرسول الله ﷺ وللقرآن في كل زمان ومكان بهذا الوعد الذي أخذه على آبائهم وعليهم. ليرهبوا الله وحده، ويؤمنوا بالقرآن الذي توافق تعاليمه تعاليم التوراة التي معهم. والتي سجلت مبعوث النبيّ محمد ﷺ وبينت بعض صفاته، من أنه يبعث من ولد

إسماعيل وزوجته هاجر. كما ذكَّرهم الله عزَّ وجلَّ بصنيع الأحبار والرهبان الذين يكتمون هذه الحقائق التي يعلمونها ويؤولونها يصبغونها بمزاعمهم حفاظاً على منجزاتهم ومكاسبهم المادية، والقرآن الكريم يندد بصنيعهم ويوبخهم ويقول لهم: إنكم أيها الأحبار لو عقلتم وتمعّنتم لوجدتم كتابكم يدعو إلى الإيمان بهذا الدين الذي يدعو إليه محمد ﷺ. وقال الله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [البقرة: ٤٤، ٤٥]. ثم أرشدهم القرآن إلى الطريق العملي، فدعاهم إلى الاستعانة بالصبر وبذل الجهد، ليتدبروا آيات التوراة الحقيقية. ويستعينوا بجانب ذلك بالصلاة والدعاء إلى الله، ليأخذ بيدهم وينير لهم الطريق حتى يصلوا إلى الإيمان بخاتم الأنبياء والمرسلين.

قال الله تعالى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: ٤٧]. فهذا النداء الإلٰهي لبني إسرائيل يذكرهم بما أفاء الله به عليهم من نعمه وأفضاله.

فاليهود يفخرون بذلك ويزكون أنفسهم بأنهم شعب الله المختار، ويقولون للمسلمين: نحن بنص الكتاب الذي تؤمنون به أفضل العالمين بتفضيل الله، وقد أوتينا من فضل الله ما لم يُؤتَ أحد من العالمين. والحقيقة أنه لا متمسك لهم في ذلك، وإنما المراد ـ والله أعلم ـ أنه آثرهم بكثير من النِّعَم على العالمين في عصرهم. حيث بعث فيهم كثيراً من الأنبياء، ولوّن لهم أنواع الهداية وأنقذهم من كثير من المآزق، وحلم عليهم فلم يأخذهم بذنوبهم، مع امتنانهم في ضروب العصيان والفسوق، ولو شاء الله لأهلكهم وأفناهم عن آخرهم، وهم في كل ذلك لا يضربون إلا أسوأ الأمثال في النكران والكفران. فتفضيل الله لهم هو: إيثارهم بدعوة موسى عليه السلام وغيره من الدعوات التي ترادفت عليهم وتتابعت. وليس معناه تفضيلهم التكويني في خَلْق أو خُلُق أو علم أو ذكاء أو فراهة أجسام، أو نحو ذلك مما يزعمون، وبه على غيرهم يتطاولون.

ولا يكاد يعرف شعب من الشعوب التي أرسل الله إليها أنبياءه قبل بني

إسرائيل، وصابرتهم على تكذيبهم والتوائهم وعنادهم ونفارهم عن الحق، وجماحهم عن الهدى كشعب بني إسرائيل. فقد كان الذين يكذبون يُسْتأصَلُون بقارعة سماوية كقارعة: (عاد، وثمود، وأصحاب مدين، وقوم لوط). ولكن دعوة الرسل دخلت بعد ذلك في طور جديد غير طور الاستئصال والإبادة ولله في ذلك الحكمة البالغة.

إن القرآن الكريم حين قرر أنهم فُضِّلوا على العالمين، وأنهم أوتوا ما لم يؤت أحد من العالمين، إنما ساق ذلك في معرض الامتنان عليهم بالنِّعَم وإثبات أنهم يجحدونها ويكفرون بها، فهو إلزام منطقي بلؤمهم حيث أوثروا وأوتوا النِّعَم فكفروا وتولوا واستغنى الله(١).

إنَّ تفضيل بني إسرائيل على العالمين موقوف بزمان استخلافهم واختيارهم، وأما بعدما عتوا على أمر ربهم وعصوا أنبياءهم وجحدوا نعمة الله عليهم، فقد أعلن الله حكمه عليهم باللعنة والغضب والذلة والمسكنة، وقضى عليهم بالتشريد، وحكم عليهم بالوعيد. وتذكيرهم بتفضيلهم على العالمين، هو تذكير لهم بما كان لهم من فضل الله، وإطماع لهم لينتهزوا الفرصة المتاحة على يد الدعوة الإسلامية. فيعودوا إلى موكب الإيمان وإلى عهد الله شكراً على تفضيله لآبائهم، ورغبة في العودة إلى مقام التكريم الذي يناله المؤمنون(٢).

قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [البقرة: ٤٧]، كرّر الله تبارك وتعالى نداءه لبني إسرائيل بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾ في الآية الأربعين من سورة البقرة، وأردف هذا النداء هناك بقوله: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٧]، وأردف هذا النداء هنا بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. وكرّر هذا بعينه في الآية الثانية والعشرين بعد المائة من سورة البقرة حيث قال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ

(١) الشعب الملعون في القرآن، د. محمد بن الشريف ص٦ ـ ١٩.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ج١ ص٨٧.

﴿ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٤٧﴾، وقد أردف الآية الأولى بقوله: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾، وأردف الآية التي هنا بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ۝٤٨﴾ [البقرة: ٤٨]. وأردف الآية الثالثة والعشرين بعد المائة بنفس المعنى الذي أردف به الآية التي هنا وإن تفاوتت العبارة حيث قال هناك: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ۝٤٨﴾. وهذا التكرير بهذه المثابة هو أحد معاني كون القرآن متشابهاً مثاني حيث يقول الله عزَّ وجلَّ في وصفه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ۝٢٣﴾ [الزمر: ٢٣]. إذ كونه ﴿مُّتَشَٰبِهٗا﴾، أي: يشبه بعضه بعضاً في البلاغة والفصاحة والصدق والإحكام والإتقان واستتباع منافع الخلق في المعاش والمعاد. ومعنى كونه: ﴿مَّثَانِيَ﴾، أي: يردد المعنى ويكرره في مقامات متباعدة دون أن يلحقه تناقض أو اختلاف بحسب مقامات الأحوال، مع اشتماله على القصص الحق والإيفاء بالقصد والتأكيد على المعاني التي ترد في هذا التكرير.

ولما كان بنو إسرائيل قبل مجيء الإسلام يعتبرهم العرب المشركون أفضل منهم لأنهم أهل كتاب، وإن كانت قريش وغيرها من العرب والأوس والخزرج بخاصة كانوا يرون أن اليهود والنصارى مقصرون في القيام بشريعة أنبيائهم. وتكرير ندائهم بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ للفت الانتباه إلى بلادة مشاعرهم وقصور أحاسيسهم. فإذا كانوا ذوي فهم وعقل رشيد ما احتاجوا إلى هذا التكرير، أما ما وصفهم الله عزَّ وجلَّ به من أنه فضلهم على العالمين فقد أشار الله عزَّ وجلَّ إلى المقصود منه في موضع من القرآن الكريم حيث يقول: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٦﴾ [الجاثية: ١٦]، فلم يعرف شعب من الشعوب ولا أمة من الأمم تكاثرت فيها الأنبياء كلما مات نبيّ بعث الله لهم نبياً آخر. كما جاء في رواية البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة

رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبيّ خلفه نبيّ، وإنه لا نبيّ بعدي**» الحديث[1]، ولذلك ذكّرهم موسى عليه السلام بهذه الميزة التي فضلوا بها على العالمين.

كما حكى الله عزَّ وجلَّ في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة: ٢٠].

ولا شك أن المراد بالعالمين في قوله: ﴿وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هم عالَمو زمان آبائهم قبل تحريفهم للكلم من بعد مواضعه. والعالَمون جمع عالَم، والعالَم جمع لا واحد له من لفظه كالأنام والرهط والجيش. والعالم اسم لكل صنف من أصناف الأمم والمخلوقات، فالأنس عالَم، وكل أهل جيل منهم عالَم ذلك الزمان، والجن عالَم، وسائر الحيوانات كل نوع منها عالَم، وكذلك الحشرات كعالَم النمل وعالَم النحل وعالَم الذباب وعالَم البعوض وسائر أجناس وأصناف وأنواع المخلوقات. فقوله: ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لفظه لفظ العموم والمراد به الخصوص كالناس في قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. فالمراد به الخصوص وإن كان اللفظ للعموم ولا شك أن أمة محمد ﷺ أفضل من بني إسرائيل لقوله عزَّ وجلَّ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠].

قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [البقرة: ٤٠ ـ ٤٣]. وقد كان الكلام من قوله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾﴾

(١) صحيح البخاري ج٤ ص٢٠٦.

[البقرة: ٢١]، إلى هذا المقام من القرآن الكريم في دعوة الناس عموماً إلى إخلاص العبادة لله وحده وبيان نعمه عليهم. شرع هنا في توجيه الخطاب لبني إسرائيل ودعاهم إلى ذكر نِعَم الله عليهم. وقد استمر الخطاب مع بني إسرائيل من هذه الآية الأربعين من سورة البقرة إلى الآية السابعة والأربعين بعد المائة من هذه السورة الكريمة حيث قال عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾ [البقرة: ١٤٦].

قال ابن جزي الكلبي في تفسيره: لما قدَّم دعوة الناس عموماً وذكر مبدأهم دعا بني إسرائيل خصوصاً وهم اليهود وجرى الكلام معهم من هنا إلى حزب ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾. فتارةً دعاهم بالملاطفة وذكر الإنعام عليهم وعلى آبائهم، وتارة بالتخويف، وتارةً بإقامة الحجة وتوبيخهم على سوء أعمالهم وذكر عقوباتهم التي عاقبهم بها. فذكر من النعَم عليهم عشرة أشياء وهي: ﴿أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [الأعراف: ١٤١]، ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ [البقرة: ٥٠]، ﴿بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾ [البقرة: ٥٦]، ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ [البقرة: ٥٧]، ﴿عَفَوْنَا﴾ [البقرة: ٥٢]، و﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٥٨]، ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [البقرة: ٥٣]، و﴿فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ﴾ [البقرة: ٦٠].

وذكر من سوء أفعالهم عشرة أشياء: ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾ [البقرة: ٩٣]، ﴿ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٥١]، وقولهم: ﴿أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء: ١٥٣]، و﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ [البقرة: ٥٩]، و﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ﴾ [البقرة: ٦١]، و﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ﴾ [المائدة: ١٣]، و﴿تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ﴾ [البقرة: ٦٤]، و﴿قَسَتْ قُلُوبُكُم﴾ [البقرة: ٧٤]، ﴿وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٥]، ﴿وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ١٨١].

وذكر من عقوبتهم عشرة أشياء: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ٦١]، و﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ﴾ [التوبة: ٢٩]، و﴿ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٦٦]، و﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً﴾ [البقرة: ٦٥]، و﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا

﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأعراف: ١٦٢]، و﴿فَأَخَذَتۡكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥]، و﴿وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗ﴾ [المائدة: ١٣]، و﴿حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ﴾ [النساء: ١٦٠]. وهذا كله جرى لآبائهم المتقدمين وخوطب به المعاصرون لخاتم الأنبياء والرسل محمد ﷺ لأنهم متبعون لهم، راضون بأحوالهم.

وقد وبّخ الله جلّ جلاله المعاصرين لسيدنا محمد ﷺ بتوبيخات أخرى وهي عشرة: (كتمانهم أمر محمد ﷺ مع معرفتهم به، ويحرفون الكلم، ويقولون: هذا من عند الله، وتقتلون أنفسكم، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم، وحرصهم على الحياة، وعداوتهم لجبريل، واتباعهم السحر، وقولهم: نحن أبناء الله، وقولهم: يد الله مغلولة).

وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، ومعنى إسرائيل عبدالله. قال ابن جرير الطبري وغيره: إيل هو الله وإسرا هو العبد، والتعبير بقوله: يا بني إسرائيل، لحضهم على الطاعة والامتثال والمسارعة إلى الدخول في دين الله الذي بعث به عبده ورسوله محمد ﷺ، وكأنه يقول لهم: يا أبناء العبد الصالح والرسول الكريم يعقوب، سارعوا إلى الإيمان بمحمد رسول الله ﷺ، وكونوا مثل أبيكم يعقوب في متابعة الحق والإقرار بالإسلام الذي وصى به يعقوب بنيه عند الموت، كما وصى به أبو الأنبياء خليل الرحمٰن بنيه، قال الله تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبۡرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمۡ كُنتُمۡ شُهَدَآءَ إِذۡ حَضَرَ يَعۡقُوبَ ٱلۡمَوۡتُ إِذۡ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعۡبُدُونَ مِنۢ بَعۡدِي قَالُواْ نَعۡبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٢، ١٣٣].

وقد أمر الله عزَّ وجلَّ بني إسرائيل هنا بثمانية أمور: (فقد أمرهم بأن يذكروا نعمة الله التي أنعم عليهم، وأن يوفوا بعهد الله، وأن يرهبوا الله وحده دون سواه، وأن يؤمنوا بالقرآن الذي أنزله الله مصدقاً لما يعلمونه من وصايا أنبيائهم ورسلهم، وأن يتقوا الله وحده ليحرزوا أنفسهم من النار، وأن يقيموا الصلاة، وأن يؤتوا الزكاة، وأن يركعوا لله عزَّ وجلَّ مع الراكعين (أتباع محمد ﷺ). وقد نهاهم عن أربعة أمور: (أن يكونوا أول كافر

بالقرآن، وأن يشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً، وأن يلبسوا الحق بالباطل، وأن يكتموا الحق وهم يعلمون).

وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ﴾، أي: لا تنسوا نِعَم الله التي أنعم بها على آبائكم وامتدت آثارها إليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يؤتِ أحداً من العالمين، وخلصكم من عذاب فرعون وقومه، ومن التمكين لكم في الأرض، وتفجير عيون الماء من الحجر، وإطعامكم المن والسلوى. وقوله تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾، أي: وأدوا ما في ذمتكم من العهد ليثيبكم الله على ذلك. فمن العهد الذي أخذه الله على بني إسرائيل أن يسارعوا إلى الإيمان بمحمد ﷺ ويؤيدوه وينصروه، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾، أي: خافوا واخشوا أن تحل بكم عقوبة جبار السماوات والأرض. وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ﴾، أي: صدقوا بالقرآن الذي أنزلت على محمد ﷺ المشتمل على الحق المصدق لما بين يديه من التوراة. ففي تصديقه تصديق للتوراة وفي تكذيبه تكذيب للتوراة إذ هو مطابق لها في القصص الحق والدعوة إلى توحيد الله والأمر بعبادته وحده لا شريك له، والعدل بين الناس والنهي عن المعاصي والفواحش، والإقرار برسالة الرسل والبعث بعد الموت بالجنة والنار.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦ﴾، يعني: ولا تصيروا أسرع الناس إلى تكذيبه. واللائق بكم أن تكونوا أول مَن آمن به لما أنكم تعرفونه كما تعرفون أبناءكم وقد كنتم تستفتحون به على الأوس والخزرج قبل مجيئه وتبشرون بزمانه وتعدون لنصرته، وقوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾، أي: لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها من حب الرئاسة وجمع الحطام. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُواْ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾، أي: لا تخالطوا الحق المنزل من الله بالباطل الذي تفترونه عليّ مما تكتبونه بأيديكم وتقولون: هو من عند الله وما هو من عند الله. ولا تكتموا الحق الذي تعرفونه من كتبكم غير المحرّفة في وصف محمد ﷺ، وأنتم تعلمون في قرارة أنفسكم أن محمداً رسول الله وأن دينه هو الحق. وقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرۡكَعُواْ مَعَ

﴿ٱلرَّٰكِعِينَ ۝٤٣﴾، أي: سارعوا إلى الانضمام والدخول تحت لواء محمد رسول الله ﷺ والالتزام بشريعته في الصلاة والزكاة واحرصوا على صلاة الجماعة، هذا وفي أمر بني إسرائيل بالركوع مع الراكعين لفت انتباه المسلمين على الحرص على الجماعة(١).

❋ ❋ ❋ ❋

التوراة

يبدأ تاريخ التوراة باختيار الله لموسى رسولاً إلى بني إسرائيل، وتلقيه كلام الله سبحانه وتعالى بعد أن أتم ميقات ربه أربعين ليلة. قال عزّ من قائل: ﴿وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ۚ وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝١٤٢ وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٤٣ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٤٤ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ۝١٤٥﴾ [الأعراف: ١٤٢ ـ ١٤٥].

قال الزمخشري: إن موسى عليه السلام وعد بني إسرائيل وهو بمصر إن أهلك الله عدوهم أتاهم بكتاب من عند الله فيه بيان ما يأتون وما يذرون. فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمر بصوم ثلاثين يوماً وهي شهر ذي القعدة، فأمر الله تعالى أن يزيد عليها عشرة أيام من ذي الحجة لذلك أنزلت عليه التوراة في العشر وكلم فيها(٢).

---

(١) تهذيب التفسير وتجريد التأويل، عبدالقادر شيبة الحمد ج١ ص١١٩ ـ ١٢١، ١٠٧ ـ ١١١.

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل، الزمخشري ج٢ ص١١١.

يذكر الله تعالى ممتناً على بني إسرائيل بما حصل لهم من الهداية بتكليمه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وإعطائه التوراة وفيها أحكامهم وتفاصيل شرعهم. فذكر تعالى أنه واعد موسى ثلاثين ليلة، قال المفسرون: فصامها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وطواها، فلما تمّ الميقات استاك بلحاء شجرة فأمر الله تعالى أن يكمل الثلاثين بعشر. وقد اختلف المفسرون في هذه العشر ما هي، فالأكثرون على أن الثلاثين هي ذو القعدة، والعشر هي عشر ذي الحجة. فحينئذ استخلف موسى على بني إسرائيل أخاه هارون ووصاه بالإصلاح وعدم الإفساد وهذا تنبيه وتذكير، وإلا فهارون عَلَيْهِ السَّلَامُ نبيّ شريف كريم على الله له وجاهة وجلالة صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر الأنبياء.

يخبر الله تعالى عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه لما جاء لميقات الله تعالى وحصل له التكليم من الله سأل الله تعالى أن ينظر إليه فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾. وقد أشكل حرف (لن) هٰهنا على كثير من العلماء لأنها موضوعة لنفي التأبيد، وقيل: إنها لنفي التأبيد في الدنيا، جمعاً بين هذه الآية وبين الدليل القاطع على صحة الرؤيا في الدار الآخرة. وقيل: إن هذا الكلام في هذا المقام كالكلام في قوله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٠٣﴾ [الأنعام: ١٠٣]. وقد تقدم ذلك في سورة الأنعام وفي الكتب المتقدمة أن الله تعالى قال لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: «**يا موسى، إنه لا يراني حي إلا مات ولا يابس إلا تدهده**».

ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ﴾، جعله دكاً: تراباً، وخرّ موسى صعقاً، مغشياً عليه، رواه ابن جرير، وقال قتادة: ميتاً. ويذكر الله تعالى أنه خاطب موسى بأنه اصطفاه على أهل زمانه برسالاته وبكلامه ﴿فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ﴾، أي: من الكلام والمفاجأة وكن من الشاكرين على ذلك. ثم أخبر تعالى أنه كتب في الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء. قيل: كانت الألواح من جوهر وأن الله تعالى كتب له فيها مواعظ وأحكاماً مفصلة مبينة للحلال والحرام، وكانت هذه الألواح مشتملة على التوراة، وقيل: الألواح أعطيها موسى قبل التوراة، فالله أعلم. ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾، أي: بعزم على الطاعة، ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ

﴿يَأْخُذُواْ بِأَحْسَنِهَاۚ﴾، أي: بأشد ما أمر قومه، ﴿سَأُوْرِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾، أي: سترون عاقبة مَن خالف أمري وخرج عن طاعتي كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب(١).

لقد انتهت المرحلة الأولى من مهمة موسى التي أرسل لها لتخليص بني إسرائيل من حياة الذل والهوان والنكال والتعذيب بين فرعون وملئه، وإنقاذهم من أرض الذل والقهر إلى الصحراء الطليقة في طريقهم إلى الأرض المقدسة. ولكن القوم لم يكونوا بعد على استعداد لهذه المهمة الكبرى، مهمة الخلافة في الأرض بدين الله. فلم يكن بد من رسالة مفصلة لتربية هؤلاء القوم وإعدادهم لما هم مقبلون عليه من الأمر العظيم. ومن أجل هذه الرسالة المفصلة كانت مواعدة الله لعبده موسى ليلقاه ويتلقى عنه، وكانت فترة الإعداد ثلاثين ليلة أضيف إليها عشر، فبلغت عدتها أربعين ليلة، يروض موسى فيها نفسه على اللقاء الموعود.

ثم يأتي السياق للمشهد الفذ الذي اختصّ الله به نبيه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، مشهد الخطاب المباشر بين الجليل سبحانه وعبد من عباده، ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَۚ﴾ يطلب الرؤية الكبرى وهو مدفوع في زحمة الشوق ودفعة الرجاء ولهفة ورغبة الشهود حتى تنبهه الكلمة الحازمة الجازمة ﴿قَالَ لَن تَرَىٰنِي﴾. ثم يترفق به الرب العظيم الجليل فيعلمه لماذا لن يراه؟ إنه لا يطيق، ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾. فكيف هذا التجلي؟ نحن لا نملك أن نصفه، ونحن أمْيَل إلى طرح كل الروايات التي وردت في تفسيره، وليس منها رواية عن المعصوم ﷺ، والقرآن الكريم لم يقل عن ذلك شيئاً.

وأدركت موسى رحمة الله فإذا هو يتلقى منه بشرى الاصطفاء. قال تعالى: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾. ونفهم من قول الله تعالى سبحانه لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أن

---

(١) التيسير لتفسير ابن كثير، د. عبدالله آل الشيخ ج٢ ص١٤٦ ـ ١٤٩.

المقصود بالناس الذين اصطفاه عليهم هم أهل زمانه، فالرسل كانوا قبل موسى وبعده، فهذا الاصطفاء على جيل من الناس بحكم هذه القرينة، أما أمر الله تعالى لموسى بأخذ ما آتاه، والشكر على الاصطفاء والعطاء، فهو أمر التعليم والتوجيه لما ينبغي أن تقابل به نعمة الله.

ثم يبين السياق ماذا كان مضمون الرسالة، وكيف أوتيها موسى. قال تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾. وتختلف روايات المفسرين في شأن هذه الألواح، ويصفها بعضهم أوصافاً مفصلة نظن أنها منقولة عن الإسرائيليات التي تسربت إلى التفسير. ولا نجد في هذا كله شيئاً عن رسول الله ﷺ، فنقف عند النص القرآني الصادق لا نتعداه. والمهم هو ما في هذه الألواح، إن فيها من كل شيء يختص بموضوع الرسالة وغايتها من بيان الله وشريعته، والتوجيهات المطلوبة لإصلاح حال هذه الأمة وطبيعتها التي أفسدها طول الأمد سوءاً.

والأمر الإلٰهي الجليل لموسى عليه السلام أن يأخذ الألواح بقوة وعزم، وأن يأمر قومه أن يأخذوا بما فيها من التكاليف الأحسن لهم والأصلح لحالهم. وليس معنى هذا التشدد والتعنت والتعقيد، فهذا ليس من طبيعة بني إسرائيل ولكن بعدما أفسدها طول الذل والعبودية في مصر، فهي تحتاج إلى هذا التوجيه. لذلك نلاحظ أن كل الأوامر لبني إسرائيل كانت مصحوبة بمثل هذا التشديد وهذا التوكيد، تربية لهذه الطبيعة الرخوة الملتوية المنحرفة الخارجة على الاستقامة والجد والوضوح والصراحة. وفي مقابل أخذ هذا الأمر بقوة يعد الله موسى وقومه أن يُمَكِّن لهم في الأرض ويورثهم دار الفاسقين عن دينه، والأقرب أنها إشارة إلى الأرض المقدسة التي كانت في ذلك الزمان في قبضة الوثنيين وأنها بشارة لهم بدخولها، وإن كان بنو إسرائيل لم يدخلوها في عهد موسى عليه السلام(١).

والتوراة التي نزلت على موسى عليه السلام من أقدم الكتب السماوية التي

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ج٧ ص٦٤ ـ ٧٠.

نصّ عليها القرآن الكريم واهتمّ بها، فبيّن حقيقتها وأهميتها وفائدتها، واعترف بأنها وحي إلٰهي. لذلك كانت فيها الهداية والصلاح والفلاح، وهي بحق نور وضياء، قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝٢ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾ [آل عمران: ١ ـ ٤]. فكلمة التوراة وردت في القرآن ثماني عشرة مرة أثبت فيها القرآن تصديقه بالتوراة، وهذا إنصاف لها حيث أنكرها أهلها في كثير من الأحيان، إما إنكاراً صريحاً وذلك بارتدادهم عن الدين الحق، وإما بتبديلها وتأويلها على غير ما أنزل الله برأي الأحبار والرهبان. وحين أثبت القرآن أن بالتوراة تحريفاً، وأن اليهود نسوا بعضها وكتموا بعضها. فذلك إما توراة أخرى غير تلك التي نزلت على موسى مما كتبه الأحبار والرهبان، أو توراة فيها شيء مما نزل على موسى وشيء مما أضافه الأحبار والرهبان. ومن الواجب على كل مسلم أن يؤمن بالكتب السماوية ومنها التوراة، لأنها ركن من أركان الإيمان، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝١٣٦﴾ [النساء: ١٣٦]. فالكتاب الأول هو القرآن الكريم، والكتاب الثاني يشمل كل كتاب نزل قبل نزول القرآن على سيدنا محمد ﷺ. الأمر الثاني: أن القرآن حذّر المسلم من الكفر بأي كتاب من الكتب السماوية، وتوعد كل منكر لها أو لبعضها أو لجزء من أحدها بالعذاب والعقاب الشديد. والأمر الثالث: أنه يجب على المسلم التصديق بالتوراة التي نزلت على موسى عليه السلام، لأنه لو أنكرها فإنه يكون منكراً لآيات القرآن الكريم التي تحدَّثت عنها. وإيمان المسلم ينصَبُّ تلقائياً على التوراة التي نزلت وحياً على موسى عليه السلام لأنه لو أنكرها فإنه يكون منكراً لآيات القرآن الكريم التي تحدثت عنها. دون النظر إلى أن للسامريين توراة أو للعبرانيين توراة أو لما سواها من أسفار العهد القديم الأخرى. والحادثة التالية تحدد موقف المسلم ومنهجه في مثل هذا الأمر، فعن أبي نملة، أن

أبا نملة الأنصاري أخبره أنه بينما هو جالس عند رسول الله ﷺ إذ جاء رجل من اليهود فقال: يا محمد، هل تتكلم هذه الجنازة؟ قال رسول الله ﷺ: «**الله أعلم**»، قال اليهودي: أنا أشهد أنها تتكلم. فقال رسول الله ﷺ: «**إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم وقولوا: آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله، فإن كان حقاً لم تكذبوهم، وإن كان باطلاً لم تصدقوهم**»(١).

والتوراة لفظ عبري معناه التعليم والشريعة، وتطلق التوراة ويراد بها الأسفار الخمسة التي نزلت على موسى عليه السلام. فالتوراة نزلت جملة واحدة، إلا أن أسفارهم تحكي ما حدث بين موسى وقومه من الوصايا والمحافظة عليها. تقول التوراة: جاء موسى وقصَّ على الشعب جميع كلام الرب وجميع الأحكام، فأجابه الشعب بصوت واحد: جميع ما تكلم به الرب يعمل به. فلما كتب موسى التوراة أعطاها الكهنة من بني لاوي ليكونوا مسؤولين عنها يحافظون عليها من التعديل ويقرأونها على الشعب(٢). وسفر التثنية يقص هذا الأمر فيقول: أمر موسى اللاويين حاملي تابوت عهد الرب وقال لهم: خذوا سفر هذه التوراة واجعلوها إلى جانب تابوت عهد الرب إلٰهكم فيكون ثَمَّ عليكم شاهداً لأني أعلم تمردكم وقساوة قلوبكم، فإنكم وأنا في الحياة معكم اليوم قد تمردتم على الرب فكيف بعد موتي(٣). وبذا كتبت التوراة ووضعت في التابوت تحت يد اللاويين يتوارثون حفظها وقراءتها على شعب بني إسرائيل جيلاً بعد جيل، وفي عهد سليمان عليه السلام جيء بالتابوت لفتحه وإخراج التوراة لقراءتها على الناس فلم يجدوا إلا اللوحين الحجريين اللذين وضعهما بحوريت، حيث عاهد الرب بني إسرائيل وأخرجهم من مصر، وبضياع التوراة انقطعت سلسلة السند في نقل التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام ويجمع كل المؤمنين بالتوراة من أهل الكتاب على أن توراة موسى كانت خمسة أسفار:

---

(١) مسند الإمام أحمد ج٤ ص١٣٦.
(٢) سفر الخروج ٢٤: ٣ ـ ٩.
(٣) سفر التثنية ٣١: ٢٤ ـ ٢٧.

١ ـ **سفر التكوين**: واشتمل على كيفية بدء الله للخليقة، وضمّ حديثاً عن حياة آدم مع أولاده، وقصة الطوفان، وتاريخ حياة إبراهيم وإسحاق ويعقوب والأسباط ودخولهم مصر إلى أن مات يوسف عليه السلام. ولقد تتبع الباحثون أن كثيراً منه ليس من تصنيف موسى عليه السلام، وذلك لاشتماله على أقوال وأفعال نسبت إلى الله تعالى وإلى أنبيائه الكرام.

٢ ـ **سفر الخروج**: يحكي قصة خروج بني إسرائيل من مصر حتى دخولهم إلى أرض كنعان، ويضم كثيراً من المسائل التشريعية والتعاليم الدينية. كما اشتمل على الوصايا العشر التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، وصعوده جبل الطور وتلقي كلام الله تعالى. وفي هذا السفر بعض الآيات التي أخذها العلماء والباحثون دليلاً على عدم تصنيف موسى لسفر الخروج، كتلك الآية التي تنسب إلى هارون عليه السلام موافقته على صنع العجل وعبادته من دون الله، وأنه شاركهم في هذا الجرم الشنيع[(١)].

٣ ـ **سفر اللاويين**: نسبة إلى أسرة لاوي التي أعطاها موسى عليه السلام تابوت العهد، ويتميز باقتصاره على التشريعات والكفارات والبشارات والإنذارات، والطقوس والأعياد، والمحرمات من الأنكحة والأطعمة، وقد تعرض للنقد مثل سابقيه، فقد نسب إليه أنه قد لعبت به يد الكهنة فأضافوا ما لا يعقل أن يكون صادراً عن الله تعالى أو أن يكون موسى قد كتبه بيده.

٤ ـ **سفر العدد**: يقسم أسباط بني إسرائيل ويرتب درجاتهم ومنازلهم، وعن أحوال وحياة بني إسرائيل وهم في التيه. إضافة إلى كثير من التعاليم الدينية والتنظيمات الاجتماعية، وما حكم به العلماء المحققون على الأسفار السابقة حكموا به أيضاً على هذا السفر.

٥ ـ **سفر التثنية**: فيه إعادة وتكرار للأحكام والتشريعات من أجل تثنيتها في نفوس الناس، وقد ضمّ هذا السفر إلى جانب الوصايا العشر والأحكام والتشريعات حديثاً عن الكهنة والنبوة، واختيار موسى ليوشع بن

---

(١) سفر الخروج، الإصحاح ٣٢: ١ ـ ٨.

نون خلفاً له في قيادة بني إسرائيل دينياً ودنيوياً. وسفر التثنية كغيره من الأسفار السابقة قد ضمّ الغث والسمين، والصدق والكذب. مما حدا بالعلماء المحققين، لأن يحكموا عليه بأنه ليس من تصنيف موسى عليه السلام(١).

وتمشياً للمسيرة التاريخية للتوراة التي ظهر ضياعها في عهد سليمان عليه السلام أعلن الكاهن (حلقيا) أنه وجد التوراة في بيت المقدس. إلا أن رحمة الله الهندي في كتابه: «إظهار الحق» ذكر أن هذه التوراة لا يعتمد عليها ولا يعتمد على ادعاء حلقيا. وأن حلقيا عمد إلى الروايات والحكايات التي يتناقلها الناس سواء كانت صادقة أو كاذبة، ونسج منها هذه التوراة التي لا علاقة لها بتوراة موسى عليه السلام، وأن التوراة الثانية التي اختلقها حلقيا ضاعت وانقطعت سلسلة السند للمرة الثانية. وظهرت بعد ذلك توراة ثالثة جديدة هي توراة (عزرا)، فعندما أخذ بنو إسرائيل أسرى إلى بابل، فهناك أخذ الكهنة في جمع أسفار هذه التوراة وكتابتها من جديد وقاد عزرا هذه العملية واليهود يتبادلون هذه التوراة على أنها توراة موسى عليه السلام. وقد كتبها عزرا بإلهام من الله تعالى، وادَّعى بنو إسرائيل أن عزرا ما جاء بالتوراة التي نزلت على موسى بعد كل هذا الشتات وهذا الضياع إلا لأنه ابن الله، وقد وبخهم الله على هذا الاعتقاد الفاسد وتوعدهم بالعذاب الشديد فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٣٠]. وحتى توراة عزرا قد ضاعت هي الأخرى حيث وقعت ببني إسرائيل مصائب وحوادث كبيرة. فمن العرض التاريخي نجد أن توراة موسى عليه السلام قد ضاعت واختفت وكذلك توراة حلقيا وتوراة عزرا. وأن السند بين كل واحدة والأخرى كان مقطوعاً، والمسافة الزمنية كبيرة. وأن الكتاب الديني إذا لم ينقل في جميع مراحله نقلاً متواتراً لا يصح أن تؤخذ منه العقائد، ولا أن يوثق في تقرير الشرائع.

(١) التوراة، د. محمد شلبي شتيوي ص٨ ـ ٢٥.

وأن الذي عليه العلماء المحققون والذي يتفق مع رأي المسلمين أن هذه التوراة التي بأيدي بني إسرائيل غير التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام. وأن هذه التوراة المشهورة قد يكون فيها شيء من توراة موسى عليه السلام، لكن من المؤكد أنها ضمّت كثيراً من أفكار كاتبها، ومن مؤثرات التشرد والقهر الذي عاناه بنو إسرائيل. مما بَعُدَ بهذه التوراة الجديدة عن جادة الصواب والحق في كثير من أحكامها وعقائدها وتشريعاتها. وهذا ما سماه القرآن الكريم تحريفاً وكتماناً للحق، وليًّا بألسنتهم ونسياناً لكلام الله سبحانه وتعالى[1].

❊ ❊ ❊ ❊

العقيدة الإسلامية

إن أسس العقيدة الإسلامية ومعالمها موجودة في القرآن الكريم وماثلة في سوره وآياته، ففيها عرض كامل لهذه النظرة العامة التي دعا القرآن إليها، وعرضها عرضاً واضحاً مقترناً بالأدلة المقنعة والشواهد المؤيدة. وقد دعا الإنسان إلى الإيمان بالله والحياة الأخرى التي فيها نتائج المسؤولية والحساب والجزاء. والقرآن الكريم حين خاطب الإنسان ودعاه إلى هذا الإيمان انطلق به من الكون الذي يعيش فيه، ومن نفسه، قال تعالى: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٢٠ ـ ٢٣]، وقال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾﴾ [فصلت: ٥٣].

إن الكون المعروض في القرآن الكريم عام وشامل، فهو لا يقتصر على وصف بلاد بعينها، بل يشمل الأرض كلها ثم يتجاوزها إلى النجوم

---

(١) التوراة، د. محمد شتيوي ص٢٦ ـ ٣٦.

والكواكب وإلى الشمس والقمر، وما يبصره الإنسان وما لا يبصره، وما خلق وما سيخلق. هذا الكون الذي وصفه وعرضه القرآن الكريم بآفاقه الواسعة وأنواعه الكثيرة وأقسامه المتعددة وحركته الدائبة وحوادثه المتكررة بانتظامه وسننه المطردة هو عالم (الشهادة) الذي يشهده الإنسان فيدركه بحواسه، وبعقله وتفكيره ويستثمره لمنافعه، ويتمتع بما فيه من جمال. ومما يلفت النظر عناية القرآن الكريم بذكر مشاهد الكون وإشادته بها وتكرار عرضها في أكثر من سورة عرضاً متنوعاً، ودعوته الإنسان إلى النظر والتأمُّل فيها والتفكير في مجرى حوادثها، وأعظم من ذلك كله جعل هذا الكون منطلقاً وطريقاً للوصول إلى الله خالقه ومقدّر سننه.

فالقرآن الكريم يشير إلى ارتباط حوادث الطبيعة بعضها ببعض، كارتباط نمو النبات بنزول الماء، وارتباط نزول المطر بتكاثف السحب وتراكمها، فهذه السببية أو الارتباط بين الحوادث هو نفسه جزء من هذه الطبيعة، يحتاج مثلها إلى قوة خالقة قدَّرتْهُ على هذه الصورة، لذلك كان مفهوم (الإلٰه) في الإسلام هو أنه القوة الخالقة المبدعة، وأنه القوة الخالقة للأشياء والأسباب، والمقدرة لهذه الأسباب، فالسبب نفسه ليس قوة خالقة مبدعة، بل هو نفسه جزء من نظام لعدد لا يحصى من الأسباب. لذلك لم يكن في العقلية الإسلامية تناقض بين السببية والبحث عنها من جهة، والإيمان بالله الخالق من جهة أخرى. بل هناك ارتباط وثيق بين الكون وما فيه من سنن منتظمة من جهة، والله المحيط بها كلها والخالق من جهة أخرى. وعلى هذا فالكون وما في الكون من ضروب الارتباط بين ما يسمى بالأسباب ومسبباتها والعلل ومعلولاتها كلها مخلوقة لله سبحانه وتعالى، وهي متعلقة بوجود أعلى وأسمى وأكمل من وجودها وهو وجود الله الخالق المبدع والمقدّر لسننها وأسبابها. ولذلك لا يطلق على الله الخالق في العقيدة الإسلامية لفظ سبب أو علة، لأنه خالق الأسباب والعلل ومقدّر سننها وقوانينها. والله جلّ جلاله يتصف بالقدرة والحياة والعلم، لأن نتائج خلقه وصنعه تدل على أنه خلق يصدر عن عالم بما يخلق، ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾، فهو محيط بالكون الذي خلقه، ومدرك لما قدَّره فيه

من سنن. إن الله جلّ جلاله في العقيدة الإسلامية هو: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ هو الذي خلق كل شيء فقدّره تقديراً، خلق السماوات والأرض ومن فيهن، وهو الذي ﴿أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾. ﴿لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو ﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾. ﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ وَهُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡخَبِيرُ﴾، وهو ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۚ﴾ يتصف بالإدراك بأوسع معانيه، فهو الذي ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَهُوَ يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَۖ﴾، وهو ﴿ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾، وهو مطلق الإرادة ﴿فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾، وهو يملك هذا الكون الذي خلقه: ﴿لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ يحكم في ملكه هذا كما يشاء ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦۚ﴾، له الحكم وإليه المصير، والكون كله خاضع له، ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

والله جلّ جلاله وتقدّست أسماؤه في العقيدة الإسلامية بالنسبة إلى الكون خالق لأصل وجوده ومُقَدِّر لسننه ونظامه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾، وما دام هو الخالق له فهو المالك له والمتصرف فيه والقادر على توسيعه وزيادته: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ٤٧﴾، وما دام هو الموجد لسننه فهو الحاكم ببقائه والقادر على إلغائه وتبديله: ﴿لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾. فالكون منتظم وانتظامه مرتبط بإرادة الله وقدرته، واستمرار هذا النظام منوط بمشيئة الله العليا. إن الإيمان بالله الخالق متممٌ ومكملٌ لنظرتنا إلى الكون والطبيعة وما فيها من حركة وتطور. فهي مؤتمرة في مسيرها وكيانها بأمره، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَظِلَٰلُهُم بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ۩ ١٥﴾ [الرعد: ١٥]. والكون كله بمادته وسننه مُنَفِّذٌ لمشيئته، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾ [البقرة: ١١٦]. وقال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٞ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ [فصلت: ١١][1].

❊ ❊ ❊ ❊

(١) نظام الإسلام، العقيدة والعبادة، محمد المبارك ص٣٨ ـ ٥٢.

التلمُود

هو التوراة الشفهية، وهو مجموعة قواعد ووصايا وشرائع دينية وأدبية وتفاسير وتعاليم وروايات، كانت تتناقل وتدرَّس شفهياً من حين إلى آخر، وقد اتسع نطاق الدرس والتعليم فيه حتى صار من الصعب حفظه في الذاكرة. وحفاظاً منهم لهذه الأقوال والنصوص والآراء الأصلية والعادات الحديثة، وخوفاً من نسيانها وفقدانها مع مرور الزمن وقت الاضطهادات، فقد دوَّنها الحاخامات بالكتابة سياجاً للتوراة.

فالتلمُود كلمة عبرية معناها التعليم، ويتألف من قسمين: «المشنا» ومعناها الدرس والمطالعة، وهي خلاصة الشريعة الشفهية لمجموعة قوانين اليهود السياسية والمدنية والدينية المتفق عليها باختصار، وتفسير لها من أحبارهم ذوي الثقة في أوقات مختلفة. والقسم الثاني: «الجمارا» ومعناها الإتمام والتكميل، ومبيَّنة على روايات وأحاديث ومسموعات عن الحاخامات، وأيضاً على إيضاحات وشروح وتفاسير على المشنا، وتشتمل على أسئلة وردت لمواضيع مختلفة واعتقادات وأخبار ومعلومات دنيوية، وهو بمثابة دائرة معارف، واليهود يعدون التلمُود كتاباً جليلاً مقدساً، وتعاليمه سامية تعلمهم الخير والإحسان والمحبة والشفقة والصبر والعدل والتقوى.

ويعتبر اليهود التلمُود كتاباً منزلاً كالتوراة، ومنهم مَن يعتبر التلمُود أفضل من التوراة، وجاء في التلمُود أن مَن درس التوراة فقد فعل فضيلة لا يستحق المكافأة عليها، ومَن درس المشنا فقد فعل فضيلة يستحق المكافأة عليها، ومَن درس الجمارا فقد فعل أعظم فضيلة. وجاء في التلمُود أن الله أعطى موسى الشريعة على طور سيناء وهي التوراة والمشنا والجمارا، ولكنه أرسل على يد موسى الكليم التلمُود شفاهاً. حتى إذا حدث فيما بعد أن تسلطت أمة أخرى على اليهود عادوا إلى التلمُود يستوحون منه شرورهم وآثامهم. كما جاء في التلمُود أن أشعيا النبيّ هو الذي قسم أبواب التلمُود وفصوله، وأن الحديث مساوٍ لشريعة موسى وأن شريعة التلمُود شفاهية لأنها إذا كتبت ضاقت عنها الأرض.

جاء في التلمُود أن الإسرائيلي معتبر عند الله أفضل من الملائكة، فإذا ضرب أمي، أي: من غير اليهود إسرائيلياً فكأنه ضرب العزة الإلٰهية، ويعتقد اليهود فيما سطر لهم حاخاماتهم أن اليهودي جزء من الله، كما أن الابن جزء من أبيه، ولذلك جاء في التلمُود أنه إذا ضرب أمي إسرائيلياً فالأمي يستحق الموت. وأنه إذا لم يخلق اليهود لانعدمت البركة من الأرض، ولما خلقت الأمطار والشمس، بل لما أمكن لباقي المخلوقات أن تعيش. وأن الفرق بين درجة الإنسان والحيوان كالفرق بين اليهود وباقي الشعوب، وأن النطفة التي خُلِقت منها بقية الشعوب الخارجين عن الديانة اليهودية هي نطفة حصان. ويعتبر التلمُود أيضاً الأجانب كالكلاب لأنه مذكور في سفر الخروج أن الأعياد المقدّسة لم تجعل للأجانب والكلاب. وجائز لبني إسرائيل على حسب تعاليم التلمُود أن يغشوا الكفار لأنه يقول: يلزم أن تكون طاهراً مع الطاهرين ودنس مع الدنسين. ومحظور على اليهود تلمُودياً أن يحيُّوا الكفار بالسلام ما لم يخشوا ضررهم أو عداوتهم، وأن استعمال النفاق معهم جائز. وأن الحسنة والصدقة الصادرة من بني إسرائيل ترفع من شأنهم وهي مقبولة لدى الله، وأما الصدقة الصادرة من بقية الأمم فهي خطاياهم.

ويعتبر اليهود أنفسهم مساوين للعزة الإلٰهية، ولذلك تكون الدنيا بما فيها ملكاً لهم، ولهم عليها حق التسلط، ولهم مطلق التصرف في كل شيء. ولهذا جاء في التلمُود: إذا نطح ثور يهودي ثور أمي فلا يلتزم اليهودي دفع قيمة الأضرار التي وقعت، أما إذا كان الحال بالعكس فإن الأمي يلتزم دفع تعويض عن الأضرار التي لحقت باليهودي. وذكر التلمُود أن ألاّ تظلم الشخص الذي تستأجره لعمل ما إذا كان من إخوتك، أما الأجنبي فمستثنى من ذلك. وجاء في التلمُود أن مثل بني إسرائيل كمثل سيدة في منزلها يستحضر لها زوجها النقود فتأخذها دون أن تشترك معه في العمل والتعب. كما جاء في التلمُود أن الله لا يغفر ذنباً ليهودي يرد لأمي ماله المفقود، وغير جائز رد الأشياء المفقودة من الأجانب الذين يشتغلون يوم السبت.

الربا في رأي التلمُود هو أن شريعة موسى تلزم الغني بأن يساعد الفقير

بإعطائه جزءاً من ماله على سبيل الهبة أو مجرد عارية للاستهلاك. ومعنى عارية الاستهلاك في التلمُود أن ينقل المعير إلى المستعير ملكية شيء يلتزم المستعير بتعويضه بشيء آخر بعد الموعد المتفق عليه. ويسوغ للمعير أن يطلب زيادة عن قيمة ما أعطاه، فإذا دفع المستفيد تعويضاً عن الضرر أو الحرمان الذي حصل بسبب العارية تكون الفوائد قانونية، ولكنها إذا زادت عن ذلك تصبح ربا. وبما أن النقود لا تنتج ثماراً فإذا ألحق ضرر بالمعير بسبب حرمانه من ماله مؤقتاً جاز إعطاءه فوائد مقابل ذلك، وجاء في التلمُود أنه غير مصرح لليهودي أن يقرض الأجنبي إلا بالربا، وأن صموئيل صرّح للحاخامات بأن يطلبوا الربا بعضهم من بعض، وفي هذه الحالة يعتبر الربا كهدية يريد أحدهم إهداءها للآخر. كما أن المرابي يهوذا ذكر أنه مصرح لليهودي بأن يقرض أولاده وأهل بيته بالربا ليذوقوا حلاوته ويقدروه حق قدره.

والتلمُود يبيح قتل غير اليهود حيث يقول: اقتل الصالح من غير الإسرائيليين، ومحرّم على اليهودي أن ينقذ أحداً من باقي الأمم من الهلاك أو يُخرجه من حفرة يقع فيها. كما يقول التلمُود: إنه جائز قتل مَن ينكر وجود الله، وإذا رأى أحد اليهود كافراً في حفرة وجب ألاّ يُخرجه منها حتى ولو وجد سلماً يستطيع أن يخرج الكافر بواسطته. ويجب على اليهودي نزع السُلّم محتجاً بأنه أخرجه حتى لا ينزل عليه قطيعه، وإذا وجد اليهودي حجراً بجانب الحفرة وجب عليه وضعه عليها، ويقول: إني أضع هذا الحجر ليمر عليه قطيعي. وذكر التلمُود أنه من العدل أن يقتل اليهودي بيده كل كافر، ولأن مَن يسفك دم كافر يقدّم قرباناً لله. ولذلك جاء في التلمُود أن مَن يقتل مسيحياً أو أجنبياً أو وثنياً يكافأ بالخلود في الفردوس، والإقامة هناك في السرية الرابعة. أما مَن قتل يهودياً فكأنه قتل العالم أجمع، ومَن عمل على خلاص يهودي فكأنما خلّص الدنيا بأسرها.

وفي القضايا بين اليهود وغيرهم فالتلمُود يسمح بغش الأمي وأخذ ماله بواسطة الربا، وإذا بعت لأخيك اليهودي أو اشتريت منه شيئاً فلا

تخدعه ولا تغشه. وإذا جاء أجنبي وإسرائيلي أمامك في دعوى، وأمكنك أن تجعل الإسرائيلي رابحاً فافعل، وقل للأجنبي هكذا تقضي شريعتنا. وإذا أمكنك ذلك وفقاً لشريعة الأجنبي فاجعل الإسرائيلي رابحاً، وقل للأجنبي هكذا تقضي شريعتك. فإذا لم تتمكن في كلا الحالتين أن تعطي الحق لليهودي فاستعمل الغش والخداع حتى تجعل الحق لليهودي. وجاء في التلمُود أن الرابي صموئيل أحد الحاخامات الكبار كان من رأيه أن سرقة الأجانب مباحة، وقد باع أحد الرابيين لأجنبي شجراً معداً للكسر، ثم نادى خادمه وأمره بأن يكسر بعضه ويسرقه، لأن المشتري وإن كان يعرف عدد القطع إلا أنه يجهل حجم كل قطعة منها. أما عن المرأة فيقول التلمُود: لا يخطئ اليهودي إذا انتهك عرض الأجنبي، فكل امرأة ليست من بني إسرائيل بهيمة، وكل مَن ليس يهودياً أجنبي، وكل عقد نكاح لغير اليهود فاسد. كما يذكر التلمُود أنه لا يخطئ اليهودي إذا استعمل زوجته بأي طريقة وفي أي مكان في جسمها، فهي له يستمتع بها كقطعة اللحم التي يشتريها من الجزار، له أن يأكلها مسلوقة أو مشوية حسبما يشاء ويختار[(١)].

لم يكتفِ اليهود بهذه الشناعات الصارخة التي حشوا بها أسفارهم الظاهرة. بل لم يتسع نطاق العلانية لكل ما تذخر به صدورهم من حقد طافح، لذلك عمدوا إلى توسيع دائرة الكذب على الوحي الإلٰهي الجليل، وتسربلوا بأطباق من ظلمات «التعاليم السرية» الغامضة المبهمة. وأمدّهم في الغي قدرتهم العارمة على التحريف والتزييف، والالتواء والافتراء، والدس والاختفاء، وتبدأ القصة عندهم باختلاق خطير. فقد زعم أحبارهم أن الله تعالى أوحى إلى موسى الكليم عليه السلام وهو بطور سيناء نوعين من الوحي؛ الأول: الشريعة المكتوبة (أسفار التوراة)، والثاني: الشريعة المكررة (التعاليم الشفهية) وهي تعاليم سرية في زعمهم وتتضمن التفسير الحقيقي الذي يعنيه الله ويريده من النصوص الظاهرة المكتوبة في أسفار التوراة. ويزعمون

(١) من التلمُود، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر ص١٠ ـ ٢٤، ٤٣ ـ ٧٢.

أن هذه التعاليم تنوقلت شفاهاً عن موسى عليه السلام عبر أربعين جيلاً، فدوّنها خشية ضياعها وسميت «المشناة» ثم عكف الأحبار على شرحها وسميت الشروح «الجمارا» ومنها جاء ما يعرف بالتلمُود، وهو كتاب شرائع وآداب إسرائيل.

ومن ظلمات التلمُود أن تعاليمه في العقائد والشرائع والأخلاق والأحكام شيء لا يصدقه العقل، لولا أنه واقع قامت عليه حياة اليهود قروناً متطاولة، ومن هنا كانت تعاليم التلمُود أوفق صورة لنفسية اليهود، بل هي انعكاس لدخائل أعماقهم، وترجمة صريحة لشخصيتهم الموغلة في الخبث والأحقاد. فالتلمُود تجسيد مكتوب لأخبث ما في النفسية اليهودية من سخائم الضلال، وتجسيد حي لهذه الشناعات المكتوبة والمنسوبة إلى الوحي زوراً وبهتاناً. فضلالات التلمُود وجدت طريقها ممهداً، لأنها وضعت في عصور الشتات، واليهود سمَّاعون للكذب وخاصة إذا صدر من أحبار السوء، كما أن هذه الضلالات جاءت بعد انقطاع النبوة من بني إسرائيل وتحويلها عنهم لما كفروا بآخر أنبيائهم وقالوا فيه وفي أمه بهتاناً عظيماً، ومن هنا نفهم كيف امتزجت هذه التعاليم بالكيان اليهودي، وسرت فيه مسرى الدماء في الخلايا، ولذلك آمنت الجمهرة الكبرى من اليهود بهذه التعاليم الفاحشة، وقدّستها، وأطاعتها عن رضا، وفضَّلوها على التوراة، والتزموا بها فوق التزامهم بسائر ما لديهم من وصايا وأسفار.

فاليهود أمة تحمل في أعماقها خصائص نفسية بالغة التعقيد، وتنطوي على أخلاق غاية في العوج والالتواء، ولا يرون لأنفسهم راحة إلا على أنقاض الآخرين، ولا يستريحون إلا بالدس والكيد والتآمر والانتقام. فهذا واقع اليهود وديدنهم، بل هو دينهم الذي صنّفوه لأنفسهم على تعاقب القرون والأجيال. هذا الدين بزعمهم ينسبونه إلى الوحي الإلٰهي، فيضفي ستاراً من القداسة الدينية على هذه الأخلاق الدينية، ويعطيها حوافز الالتزام والاحترام لدى الأجيال اليهودية. وقد أمعن أحبارهم في اختلاق القصص والتعاليم التي تؤجج ضراوتها كلما ونت في الصدور، أو خمدت جذوتها بتتابع العصور. فالقرآن العظيم فصل أمرها وردها إلى جذورها ومنابتها

العفنة، وكشف مداخلها ومخارجها في النفسية اليهودية، وساق للناس دلائلها من واقع التاريخ اليهودي الذي كان قد طمس، وجهلت حقائقه وحوادثه، وما وراءها من بواعث وأهداف(١).

إن التلمُود ليس وثيقة دينية كما زعم دعاة الصهيونية، وهو ليس من كتب الشرائع الدينية كما أحبّ الصهيونيون أن يتقولوا. ولكنه وثيقة سياسية خطيرة صنعها بعض الحاخامات اتباعاً للخطة السرية الرهيبة التي دأبوا على اتباعها منذ آلاف السنين. وأن النصوص الخطيرة مثيرة إلى حد بعيد، فقد ذكرت بالنص الذي كتبها به الحاخامات الذين أسسوا الصهيونية ووضعوا القواعد لها لإيمانهم أن الخطر الأكبر على مخططاتهم وأحقادهم إنما هو الدين بما يمثله من عقائد وأخلاق وتضحية وإيثار وحساب وجزاء في الحياة والآخرة، فسعوا إلى نزع الإيمان من قلوب اليهود وشحنها بسيل من الشبهات والشهوات. لقد بلغ الحاخامات مبلغهم في الكذب والافتراء حين صنعوا التلمُود الذي تتضاءل بجانبه سائر أكاذيبهم في أسفارهم. ووصل بهم الشعور المفزع إلى الحد الذي جعلوا به (رب العالمين) حكراً عليهم من دون الناس، وافتروا على الله جلّ جلاله وتقدست أسماؤه من الصفات والأفعال ما يصل إلى الأساطير، ونسبوا هذا الإفك إلى كبار أنبيائهم. وسوف يظهر للقارئ الكريم التفسير لحقيقة التلمُود وما يحمله من ألوان التدليس والخداع تباعاً للمواضيع والفصول التي يشملها هذا الكتاب ليرى كيف يصنع الحاخامات أقوالاً يفترون بها على الدين ليقنعوا اليهود بما يريدون من تضليل. قال الله عزّ من قائل في كتابه العزيز: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ يَكۡتُبُونَ ٱلۡكِتَٰبَ بِأَيۡدِيهِمۡ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَوَيۡلٞ لَّهُم مِّمَّا يَكۡسِبُونَ ٧٩﴾ [البقرة: ٧٩].

❊ ❊ ❊ ❊

(١) معركة الوجود بين القرآن والتلمُود، د. عبدالستار سعيد ص٣٣ ـ ٤٩.

تحريف بني إسرائيل للتوراة

من دراسة العلماء للتوراة في أزمانها المختلفة وعصورها المتعددة تبين لهم أن هذه التوراة قد عَدَت عليها عاديات الزمن، وحقد النفوس وكراهية بني إسرائيل لغيرهم، وكراهية غيرهم لهم ولهذا اشترك بنو إسرائيل في تحريف هذه التوراة. فالآيات التي في توراة اليوم تصف الله سبحانه وتعالى بالقسوة والجبروت، أو بالندم والبكاء، أو بالتحريض على السرقة والكذب. إن هذه الآيات كلها مكذوبة، لأن الله جلّ جلاله لا يتصف بالشر، والسوء، ولا يصف نفسه بذميم الأفعال وسيئ الأخلاق، تعالى الله عن ذلك. والذي لا يختلف حوله أي مؤمن بحق أن الله وصف نفسه في التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام بكل الصفات التي تليق بجلاله وكماله من الرحمة والمغفرة والكبرياء والعظمة. ولكن بني إسرائيل في فترات كفرهم وارتدادهم كانوا يمثلون حقداً على الله وعلى رسله. ويزداد هذا الحقد في فترات التشرد فكانوا يبدلون صفات الألوهية بالصفات البشرية[1].

ويكفي دلالة على تحريف التوراة وبراءة موسى عليه السلام من توراة اليهود اليوم، أن هذه التوراة قد وصفت الله سبحانه وتعالى بأوصاف لا يصح نسبتها إلى خالق السماوات والأرض ومبدع الكون كله. فقد أنزلت التوراة رب العالمين من عليائه وأجلسته على كرسي فرأى الحاضرون ربهم جهرة، وشاهدوا الكرسي الذي كان جالساً عليه كالبلور في نقاوته. ثم صعد موسى وهارون وناداب وأبيهو وسبعون من شيوخ إسرائيل، ورأوا إلٰه إسرائيل وتحت رجليه شبه صنعة من بلاط سمنجوني وشيء أشبه بالسماء في النقاء. ويكلم الرب موسى وجهاً لوجه كما يكلم المرء صاحبه (سفر الخروج: **٢٤ ـ ٢٢**)، في التوراة التي بعد موسى يحتاج الله إلى مكان مقدّس يسكن فيه حتى يكون في وسط بني إسرائيل «فيصنعون لي مقدساً لأسكن فيما بينهم» (سفر الخروج: **٢٥**). وصورت التوراة رب العالمين

(١) التوراة، د. محمد شلبي شتيوي ص٨٤.

بمن يعمل عملاً فيراه مشيناً ومعيباً فيندم على ما كان منه وما صدر عنه «فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه» (سفر الخروج: **٣٢**). ولما أراد الله أن يعاقب المصريين على وثنيتهم وكفرهم لم يمكنه ذلك لأن بني إسرائيل مخالطين لهم، ومن أجل هذا طلب الرب من بني إسرائيل أن يميزوا بيوت المصريين بوضع دماء الكباش على قائمتي البيت وعتبته العليا (سفر الخروج: **١٢**). والله في توراة اليوم قد دعا إلى النصب، وحرّض على الكذب والسرقة وظلم الناس بغياً وعدواناً. فهو سبحانه وتعالى كما ذكرت التوراة قد أمر بني إسرائيل أن تطلب كل امرأة منهم من جارتها أو من نزيلة بيتها أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً، وتضعونها على بنيكم وبناتكم فتلبسون المصريين (سفر الخروج: **٣**).

وإذا كانت التوراة يعتريها الشك فتكون غير صالحة لأن تستمد منها العقائد وقواعد الدين وخاصة ما يتعلق منها بقضية الألوهية، وما جاء في هذه التوراة من أقوال باطلة عن ذات الله وصفاته جلّ وعلا. وأن القرآن الكريم حين يطالب بني إسرائيل بالتمسك بالتوراة والاحتكام إليها فإنما يدعو إلى التمسك بالتوراة الأصل التي نزلت على موسى عليه السلام، وقد تكون هناك نسخة صحيحة في ذلك الوقت وقد أخفوها عن طريق كتمان الحق وإخفائه، وهذا مما نعاه القرآن الكريم عليهم، ولئلا يلتزموا بما فيها من أحكام، فأمرهم الله بإظهارها والحكم بما فيها. أو أن التوراة التي بأيديهم ما زالت بها بعض الأحكام والعقائد الصحيحة فقد يعودون إلى الله ويقيمون كتابه ويعترفون برسله. أما موقفنا نحن المسلمين تجاه التوراة التي بأيديهم الآن بعد أن تبين أن بها تحريفاً وتزييفاً. فهو التوقف في الحكم على هذا النص الذي نأخذه منها ثم نعرضه على ميزان القرآن الكريم، لأنه الحَكَم والمهيمن على جميع الكتب السابقة والمصدق لها. فإن لم يتبين لنا وجه الحق فيه قلنا: آمنا بالذي أُنزل إلينا وأُنزل إليكم، وإلٰهنا وإلٰهكم واحد[(١)].

❊ ❊ ❊ ❊

(١) التوراة، د. محمد شلبي شتيوي ص١٠٢ ـ ١١٧.

ظلمات التلمُود الحقود

إن الإنسان ليقف حائراً أمام ظلمات التلمُود إلا أن هذه الحيرة تخف بعد أن يفهم خفايا النفسية اليهودية، وإدراكه للخلفية المظلمة لدى صانعي التلمُود ومعتنقيه ومنفذيه. وإن النصوص الخطيرة مثيرة إلى حد بعيد، وليس لنا حيلة في ذكرها كما هي بالنص الذي كتبها به الحاخامات الذين أسسوا الصهيونية ووضعوا القواعد الإجرامية لها. وعلى القارئ المسلم أن يعرف هذه الأسس والمبادئ ليصل إلى الحقائق الكافية في الخطة السرية الضخمة التي رسمتها الصهيونية. وما كنا لنتكلم بهذا أو ننقل منه حرفاً لولا أننا في معركة مصير مع هؤلاء العتاة الملحدين، حتى تستبين للمسلمين نوعية عدوهم وخطره الداهم على عقائد الحق، وأخلاق الوحي وشرائع الله عزَّ وجلَّ. فالتلمُود تجسيد لأخبث ما في النفسية اليهودية من ضلال، وهو تجسيد حي لهذه الشناعات المكتوبة والمنسوبة إلى الوحي زوراً وبهتاناً.

إننا نقول عن هذا الإفك: سبحانك ربنا هذا بهتان عظيم، وتعاليت ربنا عما يقول المجرمون علواً كبيراً. يقول التلمُود: إن النهار اثنتا عشرة ساعة، في الثلاث الأولى منها يجلس الله ويطالع الشريعة، وفي الثلاث الثانية يحكم، وفي الثلاثة الثالثة يطعم العالم، وفي الثلاثة الأخيرة يجلس ويلعب مع الحوت ملك الأسماك، والحوت كبير جداً يمكن أن يتسع حلقه لسمكة طولها ثلاثمائة فرسخ دون أن تضايقه. ونظراً لحجمه الكبير فقد رأى الله أن يحرمه من زوجته، لأنه إن لم يفعل ذلك امتلأت الدنيا وحوشاً تُهلك مَن فيها. ولهذا حبس الله الذكر بقوته الإلٰهية، وقتل الأنثى وملَّحها وأعدّها لطعام المؤمنين في الفردوس. ولم يلعب الله مع الحوت بعد هدم الهيكل، وقد اعترف الله بخطئه في هدم الهيكل فصار يبكي ويمضي ثلاثة أرباع الليل يزأر كالأسد قائلاً: تبًّا لي لأني أمرت بخراب بيتي، وإحراق الهيكل، ونهب أولادي. وشغل الله مساحة أربع سنوات فقط، بعد أن كان ملء السماوات والأرض في جميع الأزمان. وعندما يسمع الله تمجيد الناس

له يطرق برأسه ويقول: ما أسعد الملك الذي يمدح ويبجل مع استحقاقه لذلك، لا يستحق شيئاً من المدح الأب الذي يترك أولاده في الشقاء.

كما يندم الله على تركه اليهود في حالة التعاسة حتى إنه يلطم ويبكي كل يوم، فتسقط من عينه دمعتان في البحر. فيسمع دويها من بدء العالم إلى نهايته، وتضرب المياه وترجف الأرض في أغلب الأوقات فتحصل الزلازل. وأما تخطئة القمر لله فإنه قال له: أخطأت حيث خلقتني أصغر من الشمس، فأذعن الله لذلك، واعترف بخطئه وقال: اذبحوا لي ذبيحة أكفِّر بها ذنبي، لأني خلقت القمر أصغر من الشمس. والله ليس معصوماً من الطيش، كما يقول التلمُود، لأنه حين يغضب يستولي عليه الطيش كما حدث منه يوم أن غضب من بني إسرائيل في الصحراء وحلف أن يحرمهم من الحياة الأبدية. ولكنه ندم على ذلك بعد إفاقته ولم ينفذ ذلك القسم، لأنه عرف أنه يخالف العدالة.

وجاء في التلمُود أن الله إذا حلف يميناً غير قانونية، احتاج إلى مَن يُحِلَّه من يمينه، وقد سمع الله تعالى أحد عقلاء الإسرائيليين يقول: مَن يحللني من اليمين التي أقسمت بها. وحينما علم باقي الحاخامات أنه لم يحلله منها اعتبروه حماراً، لأنه لم يحلل الله من يمينه. ولذلك نصبوا ملكاً بين السماء والأرض اسمه «مي» لتحليل الله من أيمانه ونذوره عند الضرورة. وأما عن الملائكة وحسدهم لليهود فيقول التلمُود: الملائكة قسمان: مَن لا يطرأ عليه الموت، وهو الذي خلق في اليوم الثاني. ومَن يطرأ عليه الموت، وهما قسمان أيضاً: مَن يموت بعد زمن طويل، وهو الذي خلق في اليوم الخامس، ومَن يموت في يوم خلقه بعد أن يرتل الله، ويقرأ التلمُود، وهو الذي خلق من النار. وقد أهلك الله منهم جيشاً جرّاراً بواسطة إحراقه بطرف أصبعه الخنصر. وللملائكة وظائف مختلفة، منهم الملك جركيمو وهو مخصص للبرد، وميخائيل للمياه، وجبرائيل للنار وإنضاج الثمار. وتوجد عدة ملائكة أخرى أسماؤهم معروفة للحاخامات، بعضهم مخصص للخير وبعضهم مخصص للشر. ومنهم مختصون بمراقبة حركة الشمس والقمر والكواكب، وهم صالحو الملائكة ولذلك تراهم يعقلون

ويفهمون، والملائكة لا تفهم اللغة السريانية ولا الكلدانية، ومَن يطلب منها شيئاً يجب أن يطلب منها ما يريد بغير هاتين اللغتين، وأن الملائكة يجهلون هذه اللغة حتى لا يحسدوا اليهود على صلاتهم.

وقد روى التلمُود أن الشياطين يتناسلون ويأكلون ويشربون ويموتون مثل بني آدم. ويستطيع الإنسان في بعض الأحوال أن يقتل الشياطين إذا أجاد صناعة فطيرة الفصح. ويقول التلمُود: إن الشيطان يحب الرقص بين قرون ثور خارج من المياه، وهو مغرم أيضاً بالرقص بين النسوة وهن عائدات من دفن ميت، وهو يحب أن يكون بجوار الحاخامات، لأن الأرض الجافة تحتاج إلى المطر، ويحب شجر البندق. ويسكن جبال الشرق المظلمة شيطانتان مشهورتان تسميان «آذا وآذائيل»، وهما اللتان علمتا السحر لـ«بلعام وأيوب ويرقرو»، ويعتقد علماء التلمُود أن التلمُود من كتب السحر.

وقد جاء في التلمُود أن أحد مؤسسي ديانة التلمُود كان يستطيع أن يخلق رجلاً بعد أن يقتل آخر. وكان يخلق كل ليلة عجلاً عمره ثلاث سنوات بمساعدة حاخام آخر، وكانا يأكلان منه معاً، وكان أحد الحاخامات يحيل الشمام والقرع إلى غزلان وماعز.

ويقول التلمُود: خلقت كل الأرواح في الأيام الستة الأولى للخليقة، ثم وضعها الله في المخزون العمومي بالسماء، ويخرج منها كلما حملت امرأة ولداً. وخلق الله ستمائة ألف روح يهودية لأن كل فقرة من التوراة لها ستمائة ألف تأويل، وكل تأويل يختص بروح من هذه الأرواح. وفي كل يوم سبت تتجدد عند كل يهودي روح جديدة بدل روحه الأصلية، والروح الجديدة هي التي تفتح شهيته للأكل والشرب. وتتميز أرواح اليهود عن باقي الأرواح بأنها جزء من الله، وأنه بعد موت اليهودي تخرج روحه وتشغل جسماً آخر. واليهود الذين يرتدُّون عن دينهم بقتلهم يهودياً، تدخل أرواحهم بعد موتهم في الحيوانات والنباتات. ثم تذهب إلى الجحيم وتعذب عذاباً أليماً مداه اثنا عشر شهراً، ثم تعود ثانية وتدخل في الجمادات، ثم في

الحيوانات ثم في الوثنيين، وأخيراً تعود إلى جسد اليهود بعد تطهيرها. وهذا التناسخ فعله الله رحمة باليهود، لأنه سبحانه وتعالى أراد أن يكون لكل يهودي نصيب في الحياة الأبدية(١).

هكذا كان بنو إسرائيل عبر التاريخ، وفي واقعهم في كل آن تزييف وتحريف ومماطلة ومخاتلة، فقد كتب اليهود عن تاريخهم ودينهم بنمط ينبئ عن نفسيتهم وجبلتهم، وعن طبعهم وطبيعتهم فكتبهم فيها القليل من الحق والكثير من الغلو، وفيها تجريح وتشويه، قال الله عزّ من قائل: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [البقرة: ٧٩].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) من التلمود، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية مصر ص٢٤ ـ ٣٩.

الفصل الثاني
بداية خلق الإنسان

ليس من المستغرب أن تتباين الاستنتاجات في تاريخ غارق في القِدَم لم تتحدث عنه الكتب المقدسة إلا بقدر ما تدعو إليه الموعظة من حياة الأولين، فمن الطبيعي أن يختلف استنتاج الذين آمنوا بما جاء في الكتب المقدسة في بحوثهم عن بداية العالم الأرضي، وهل كان آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ أول من سكن الأرض، أو كان قبل آدم عالم يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟

يقول ابن كثير في تفسيره للقرآن العظيم: إن الله سبحانه وتعالى أخبر بامتنانه على بني آدم بتنويهه بذكرهم في الملأ الأعلى قبل إيجادهم، فقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠]، أي: واذكر يا محمد إذ قال ربك للملائكة، واقصص على قومك ذلك، إني جاعل في الأرض خليفة، أي: قوماً يخلف بعضهم بعضاً قرناً بعد قرن وجيلاً بعد جيل، وتقول طائفة من المفسرين إنه لم يرد آدم عيناً، إذ لو كان ذلك ما حسن قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، فإنهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك، فإنه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمأ مسنون. وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبني

آدم، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم ﴿لَا يَسۡبِقُونَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ﴾ [الأنبياء: ٢٧]، أي: لا يسألونه شيئاً لم يأذن لهم فيه، وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة في ذلك. يقولون: ربنا ما الحكمة في خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد في الأرض ويسفك الدماء؟ فإن كان المراد عبادتك فنحن نسبِّح بحمدك ونقدّس لك، قال الله تعالى مجيباً لهم عن هذا السؤال: ﴿إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرسل ويوجد منهم الصدِّيقون والشهداء والصالحون والعبّاد والزهّاد والأولياء والأبرار والمقرّبون والعلماء والخاشعون والمحبُّون له تبارك وتعالى المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم. أما أقوال المفسرين فقال ابن جرير عن ابن عباس: إن أول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء فبعث الله إليهم إبليس فقتلهم. وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي عن عبدالله بن عمرو قال: كان الجن بنو الجان في الأرض قبل أن يخلق آدم بألفي سنة، فأفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء، فبعث الله جنداً من الملائكة فضربوهم حتى ألحقوا بجزائر البحور[١].

لقد حاول البعض التوفيق بين آراء المفسرين والمؤرخين فقالوا: إن العالم الأرضي عندما أصبح صالحاً لإنشاء الحضارة الإنسانية خلق الله آدم خليفة في الأرض يهدي إلى الطريق القويم. فافترض الملائكة في آدم أن يكون كغيره من سكان الأرض يفسد فيها ويسفك الدماء شأن الأقوياء في الأدغال. فعلى ذلك فإن آدم ليس هو أول مَن سكن الأرض، بل هناك عوالم سبقته إلى هذه الأرض لم يصل البحث إلى معرفة عنصرها، فكل ما يعرف عنها: أنها ذات دماء تسفك، وأن منها ذا خُلُق شرس ظالماً شريراً[٢].

❊ ❊ ❊ ❊

(١) تفسير ابن كثير ج ص٦٩ ـ ٧١.

(٢) العرب في أحقاب التاريخ، أمين مدني ج١ ص٤٧ ـ ٤٨.

آدم عليه السلام

ذكر الله سبحانه وتعالى قصة آدم في مواضع متفرقة من القرآن الكريم. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً . . .﴾ [البقرة: ٣٠]. وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأعراف: ١١]. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: ٢٦]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء: ٦١]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ [الكهف: ٥٠]. وقال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [البقرة: ٣١].

إن مضمون ما دلت عليه هذه الآيات لإكرام عظيم من الله جلّ شأنه لآدم حين خلقه بيده الكريمة ونفخ فيه من روحه، وأمر الملائكة بالسجود له، وتعليمه أسماء الأشياء، ليبين لهم شرف آدم عليهم في العلم. وما يتعلق بهذه الآيات من الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ. لقد أمر الله تعالى آدم أن يسكن هو وزوجته الجنة، قال تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩﴾﴾ الآية [الأعراف: ١٩]. وقال الله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طه: ١١٧]. وعن ابن عباس وابن مسعود أنهم قالوا: «أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة وكان يمشي فيها وهو

وحشي ليس له زوج يسكن إليها. فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة خلقها الله من ضلعه قال: لم خُلِقْتِ؟ قالت: لتسكن إليّ. فقالت له الملائكة ينظرون ما بلغ من علمه: ما اسمها يا آدم؟ فقال: (حواء)، قالوا: ولِمَ كانت حواء؟ قال: لأنها خلقت من شيء حي».

وذكر محمد بن إسحاق عن ابن عباس: أنها خلقت من ضلعه الأقصر الأيسر وهو نائم ولأم مكانه لحماً. ومصداق هذا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١]. وعن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**استوصوا بالنساء خيراً، فإن المرأة خلقت من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً**»[(١)].

قال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: ١٢٠]. عن سهل بن سعد عن رسول الله ﷺ قال: «**إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها**» شجرة الخلد[(٢)]. قال الله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه: ١٢١]. وكانت حواء أكلت من الشجرة قبل آدم وهي التي حثّته على أكلها، وعليه يحمل حديث أبي هريرة، عن النبيّ ﷺ: «**لولا بني إسرائيل لم يَخنز اللحم** ـ أي: ينتن ـ **ولولا حواء لم تخن أنثى زوجها**»[(٣)].

أما الأحاديث الواردة في خَلْق آدم ، فقد ذكر الإمام البخاري خلق آدم من صلصال طين يخلط برمل، فصلصل كما يصلصل الفخار، أو كما يقال: صر الباب، وصرصر، عند الإغلاق[(٤)]. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق ج٤ ص١٦١.
(٢) مختصر صحيح مسلم، للألباني ص٥٢٢ (م١٤٤/٨).
(٣) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق ج٤ ص١٦١.
(٤) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق ج٤ ص١٦١.

أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «**خلق الله عزَّ وجلَّ التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبثّ فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم العصر من يوم الجمعة، في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل**»(١). وقال الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة، وجعل بين عيني كل إنسان منهم وميضاً** - بريقاً - **من نور، ثم عرضهم على آدم فقال: أي رب مَنْ هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلاً فأعجبه وميض ما بين عينيه، فقال: أي رب مَن هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له: داود، قال: رب وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي رب زده من عمري أربعين سنة، فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت، قال: أوَلم يبقَ من عمري أربعون سنة؟ قال: أوَلم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته**»(٢).

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: «**أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان** - يعني: عرفة - **فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها، فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلاً** - أي: عياناً ومشاهدة - **وقال**: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣]».

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾، مسح ربنا ظهر آدم، فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة، فأخذ مواثيقه، وأشهدهم على أنفسهم(٣).

---

(١) مختصر صحيح مسلم للألباني، كتاب ذكر الأنبياء وفضلهم ص٤٢٥ (م١٢٧/٨).
(٢) الجامع الصحيح سنن الترمذي، كتاب تفسير القرآن ج٥ ص٢٦٧ رقم ٣٠٧٦.
(٣) تاريخ الطبري، ج١ ص١٣٤.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً، ثم قال: اذهب فسلّم على أولئك الملائكة، فاستمع ما يحيونك تحيتك وتحية ذريتك فقال: السلام علكيم. فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: رحمة الله، فكل مَن يدخل الجنة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص حتى الآن**»(١).

وعن أنس رضي الله عنه قال: بلغ عبدالله بن سلام مقدم رسول الله ﷺ المدينة، فأتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبيّ: أول أشراط الساعة، وما أول طعام أهل الجنة، ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه، ومن أي شيء ينزع إلى أخواله. فقال رسول الله ﷺ: «**خبرني بهن آنفاً جبريل**»، قال: فقال عبدالله: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ: «**أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام أهل الجنة فزيادة كبد حوت، وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبق ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها**»، قال: أشهد أنك رسول الله. ثم قال: يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهْت، إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك. فجاءت اليهود ودخل عبدالله البيت فقال رسول الله ﷺ: «**أي رجل فيكم عبدالله بن سلام؟**»، قالوا: أعلمنا وابن أعلمنا، وأخْيَرنا وابن أخْيَرنا. فقال رسول الله ﷺ: «**أفرأيتم إن أسلم عبدالله؟**»، قالوا: أعاذه الله من ذلك. فخرج عبدالله إليهم فقال: أشهد ألاّ إلٰه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. فقالوا: شَرُّنا، وابن شَرِّنا، ووقعوا فيه(٢).

عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر الغفاري قال: دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس وحده. فجلست إليه، فقال: «**يا أبا ذر، إن للمسجد تحية، وإن تحيته ركعتان، فقم فاركعهما**»، فلما ركعتهما جلست إليه فقلت: يا رسول الله، إنك أمرتني بالصلاة فما الصلاة؟ قال: «**خَيْرٌ موضوع، استكثر منه أو استقل**»، ثم ذكر قصة طويلة قال فيها: قلت:

---

(١) تاريخ الطبري، ج١ ص١٣٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق ج٤ ص١٦٠ ـ ١٦١.

يا رسول الله، كم الأنبياء؟ قال: «**مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً**»، قال: قلت: يا رسول الله كم المرسل من ذلك؟ قال: «**ثلاثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً**» يعني كثيراً طيباً. قال: قلت: يا رسول الله، مَن كان أولهم؟ قال: «**آدم**»، قال: قلت: يا رسول الله، وآدم نبيّ مرسل؟ قال: «**نعم خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، ثم سوّاه قبلاً**»، أي: عياناً[1].

❋ ❋ ❋ ❋

التوراة

إن العقيدة الإلٰهية في أسفار اليهود قد بانت عن التحريف، حيث صوّروا الذات الإلٰهية في صورة بشرية، وافتأتوا من الحوادث، وافتروا من الأقاصيص الكواذب وألحقوا بها الكثير من صفات الغفلة والضعف، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. قال الله عزّ من قائل في كتابه العزيز: ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥]. ويذكر الإصحاح الثالث من سفر التكوين ـ قصة آدم وحواء ـ أن الإلٰه كان يريد بقاءهما جاهلين حتى لا يشاركاه في صفة من أخص صفاته. وأن الله استجوبهما واستنتج من فعلتهما ومن استجوابهما أنهما لا بد أن يكونا قد أكلا من الشجرة. وأن الإنسان قد أصبح أحد الآلهة لتميزه بين الحسن والقبيح وأنه لا بد من طرد الإنسان من الجنة، حتى لا تمتد يده إلى شجرة أخرى هي شجرة الخلد فيكفل لنفسه البقاء، وهو أرقى صفات الإلٰه[2].

❋ ❋ ❋ ❋

التلمُود

ومن صفات هذه الظلمات التلمُودية، تعالى الله جلّ جلاله عما

---

(١) تاريخ الطبري، ج١ ص١٥٠ ـ ١٥١.

(٢) الشعب الملعون في القرآن، د. محمود بن الشريف ص١٠٧ ـ ١٠٨.

يقولون، شرح التلمُود كيفية خلق آدم وحواء حيث يقول: أخذ الله تراباً من جميع بقاع الأرض، وكونه كتلة وخلقها جسماً ذا وجهين، ثم شطره نصفين، فصار أحدهما آدم والثاني حواء. وكان آدم طويلاً جداً، فكانت رجلاه في الأرض ورأسه في السماء، وإذا نام كان رأسه في المشرق ورجلاه في المغرب. وصنع الله لآدم طاقة يرى منها الدنيا من أولها إلى آخرها، فلما عصى آدم نقص طوله حتى صار كباقي الناس، وخلق الشياطين يوم الجمعة حين خيّم الغسق، ولم يخلق لهم أجساداً عقاباً لهم على أنهم كانوا يريدون أن يخلق الإنسان بدون جسد. وأن بعض الشياطين من نسل آدم، فإنه بعد أن لعنه الله أبى أن يجامع زوجته حواء حتى لا تلد له نساء تعيسات، فحضر له اثنتان من نساء الشياطين فجامعهما فولدتا الشياطين. كما جاء في التلمُود أن آدم كان يأتي شيطانة اسمها ليليت منذ مائة وثلاثين سنة، فجامعها فولدت الشياطين. وكانت حواء أيضاً لا تلد في هذه المدة إلا شياطين بسبب نكاحها من ذكور الشياطين. ولم يلعب الله مع الحوت بعد هدم الهيكل، ومنذ ذلك الوقت لم يمل إلى الرقص مع حواء بعد أن زيّنها بملابسها ونسق لها شعرها(١). سبحانك ربنا هذا بهتان عظيم، وتعاليت ربنا عما يقولون علواً كبيراً.

❁ ❁ ❁ ❁

العقيدة الإسلامية

الإنسان في نظر الإسلام هو أحد هذه المخلوقات الكونية التي أسكنها الله هذه الأرض، يشاركها الكثير من صفاتها. فهو يشارك التراب في أصل خلقته وعناصر تركيبه وتكوينه، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [فاطر:

(١) من التلمُود، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية مصر ص٢٥، ٣١، ٣٥.

١١]. ويشترك الإنسان مع النبات ويشاركه في كثير من مواد تركيبه، قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ﴿١٧﴾﴾ [نوح: ١٧]. وكذا يشارك الإنسان الحيوان بأنواعه في كثير من صفاته، قال الله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا طَٰٓئِرٖ يَطِيرُ بِجَنَاحَيۡهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمۡثَالُكُمۚ مَّا فَرَّطۡنَا فِي ٱلۡكِتَٰبِ مِن شَيۡءٖۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يُحۡشَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الأنعام: ٣٨]. ولكن الإنسان ميّزه الله عن الحيوان بالعقل والتفكير وبقامة مستقيمة وخلق سوي، قال تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٤]. لذلك كانت صلة الإنسان بهذا الكون هي صلة الاستثمار والانتفاع والتسخير لمنافعه ومصالحه، وصلة الاعتبار والتأمل والتفكير في الكون وما فيه. وكذا تجلّت خلافة الإنسان في الأرض في قدرته على استثمارها والانتفاع بما فيها، وفي قدرته على التأمل والنظر والتفكير في آياتها وسننها وأسرارها. ولذلك أعطاه الله من الصفات ما يمكنه من ممارسة هذه الخلافة وأبرز هذه الصفات «القوة، والعقل، والعلم، والحياة، والإرادة». وفي مقابل ذلك كله جعله مكلفاً مسؤولاً، ورتب على هذا التكليف «الجزاء».

إن صلة الإنسان بالله هي نهاية جميع الصلات، فصلة الإنسان بأهله وبني جنسه ومسلكه المادي والمعنوي، صلات كلها مخلوقة لله. لذلك كانت الصلة بالله هي العليا من هذه الصلات، قال الله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]. لذلك كانت الصلة بالله صلة فريدة من نوعها لا تماثلها صلة أخرى، فهي صلة (عبودية). فصلة الإنسان بالأنبياء هي صلة اهتداء بهديهم، واقتداء بسيرتهم، وطاعة لتعاليمهم، وحب لأشخاصهم وصفاتهم. ولكنها ليست صفة (عبودية) لأن الأنبياء أنفسهم عباد الله، وصلة الإنسان بالله صلة مباشرة، فكل إنسان يتوجه إلى الله مباشرة، فيدعوه ويستغفره ويصلي ويسجد له، فيكون في الآخرة مسؤولاً أمامه.

إن الصلة بين الله والإنسان موجودة، فالله هو خالقه، والمُمِد له في وجوده وبقائه، وبيده أمره ومصيره، سواء اعترف وشعر ورضي، أم أنكر وغفل وسخط. وهذه الصلة لها جوانب متعددة، فهي اعتراف بالخالق، وبعظم قدرته وسلطانه وقوته، وبنعمه التي أسبغها ويسبغها عليه بلا انقطاع، والترقب لرحمته المبسوطة لمخلوقاته، والممنوحة لعباده، ورجاء نوالها. ومن أعظم معاني صلاة الإنسان بالله التفكر في آياته، وتذكره في النفس، وإخلاص عبوديته، والتمرد على العبودية لسواه. إن الصلة بين الله والإنسان صلة متبادلة، فالحب يكون من العبد لربه، ومن الله لعبده. قال الله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾﴾ [البينة: ٨].

من جوانب الصلة بين الله والإنسان التكليف من الله والمسؤولية بالنسبة للإنسان، فقد خصّه الله بأن جعله في بعض جوانب حياته خاضعاً لسنن الله الكونية لا يستطيع الخروج عنها، ولكنه من جهة أخرى خلق له قدرة وإرادة حرة مختارة، وتختار ما تريد من الأفعال والتصرفات دون إكراه ولا إجبار. وحرية الاختيار واضحة في قوله: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ١٠]، أي: دللناه على الطريقين، وهذا التميز في الخلق بين الإنسان وسائر المخلوقات التي ليس لها إلا طريق واحد لا اختيار فيه، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ۩ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: ١٨]. فجعل كل ما في الوجود يسجد لله، أي: يطيعه عموماً، وأما الناس فقد قال عنهم: ﴿وَكَثِيرٌ﴾، أي: يسجدون ويطيعون، ﴿وَكَثِيرٌ﴾، أي: آخرون أيضاً يعصون ولا يسجدون. وهذا ناشئ عن الإرادة الحرة التي شاء الله أن يمنحها للإنسان بمحض مشيئته. هذه الحرية التي يتصف بها الإنسان من صنع الله وخلقه وتقديره، ولذلك كان كل ما ينشأ عنها من أفعال سواء أكانت خيراً أم شراً بالنسبة إلى الإنسان ليس خارجاً عن مشيئة الله المطلقة.

إن الله تعالى إذا منح الإنسان الحرية والاختيار سهَّل له السبيل إلى ما

يختار فلا يحمله عليه كرهاً. قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾﴾ [الليل: ٥ ـ ١٠]. إن العبد هو الذي يبدأ بالاختيار ثم يكون من الله تيسير الطريق التي يختارها دون أن يكرهه عليها. وفي مقابل ذلك وفي حدود القدرة التي منحه إياها جعله مكلفاً ومسؤولاً، وذلك أن كلفه وأمره بأوامر على سبيل الاختيار والابتلاء والامتحان. ولو أراد الله لجعله مجبراً على العمل الذي يريده له طائعاً بالفطرة، كما جعل كثيراً من أنواع المخلوقات، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩]. وبهذا المعنى وردت الآية الأخرى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ [الأنعام: ١٠٧]، أي: لو شاء أن يحملهم على الهداية ويجبرهم عليها أو يخلقهم كذلك لفعل، ولكنه سبحانه أراد أن يترك ذلك لاختيارهم بمحض إرادتهم.

إن أوامر الله جلّ جلاله، وتعاليمه التي بلّغها عن طريق رسله إلى الناس، ليست لهم كأوامر الله الكونية بالنسبة إلى بقية المخلوقات، لأن انصياعها من أصل خلقتها حتمي وآلي. وأما الأوامر والتعاليم الموجهة إلى البشر فقد وجهت ـ لا على سبيل الإلزام الفطري ـ بل جعل الله للإنسان إرادة حرة يستعملها كما يشاء في تنفيذ هذه الأوامر أو عدم تنفيذها. وذلك هو الابتلاء الذي خصّ به الإنسان. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المائدة: ٤٨]. إن مسؤولية الإنسان أمام الله مسؤولية فردية مباشرة، قال الله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾ [مريم: ٨٠]، لذلك كان لقاء الإنسان بالله سبحانه وتعالى في الآخرة لمناقشة الحساب لقاءً فردياً.

إن الله الذي خلق الكون وقدّر سننه وأجرى حوادثه وفق تلك السنن التي قدّرها عالم به وبحوادثه قبل وقوعها، وهو الذي خلق الإنسان وخلق له إدارة حرة وهو عالم به وبما سيختار. وعلم الله هذا السابق لوقوع

الحوادث، ومن جملتها أفعال البشر، لا يقضي حمل الناس وإكراههم على تنفيذ مقتضى علمه. فما يجري في الكون من حوادث، وما يفعله الإنسان من أفعال جميعها ضمن مشيئة الله سبحانه إنما هو تحقيق لسنن قدَّرها. فلا ينتج عن ذلك وقوف الإنسان موقف الراضي عنها، لأن من تلك التقديرات الإلهية الأوامر الموجهة للإنسان أن يتولى تغيير أحوال واقعة، أي: مقدرة، فالقرآن الكريم يأمر الإنسان بمحاربة الكفر والظلم. إن الأحوال التي يطلب فيها الرضا بالقضاء هي تلك التي لا حول فيها للإنسان كالمصائب التي لا يستطيع دفعها، فليس له في هذه الحالة إلا الصبر. أما إذا كان قادراً على دفعها قبل وقوعها، فيجب عليه أن يفعل مثل: مكافحة الأمراض بالتداوي، أو مكافحة الفقر بالسعي والكسب، فهذه نظرة الإسلام إلى القدر(١).

❋ ❋ ❋ ❋

النبوة

وحقيقتها أن تكون في أعلى طبقات الناس المفْهمُونَ، يمكن لهم أن يُبعثوا لإقامة نظام مطلوب بداعية حقانية. ومن سيرة المفهم أن يكون معتدل المزاج سوي الخَلْق والخُلُق ليس فيه خبابة، أي: اضطراب مفرط. ويكون إلزام الناس بالسُّنَّة الراشدة، ذا سمت حسن في عبادته، ذا عدالة في معاملته مع الناس، ولا يؤذي أحداً إلا بالعَرَض. يرى أنه مؤيَّد من الغيب ينفتح له ما لا ينفتح لغيره من القرب والسكينة. والمفهمون على أصناف كثيرة واستعدادات مختلفة تتلخص في:

١ ـ أن يتلقى من الحق علوم تهذيب النفس بالعبادات فهو (الكامل).

٢ ـ ومَن تلقى الأخلاق الفاضلة وعلوم تدبير المُنزل ونحو ذلك فهو (الحكيم).

---

(١) نظام الإسلام والعقيدة والعبادة، محمد المبارك ص٥٣ ـ ٨١.

٣ ـ ومَن تلقى السياسات الكلية ثم وفق لإقامة العدل في الناس وذب الجور عنهم يسمى (الخليفة).

٤ ـ ومَن ألمّت به الملأ الأعلى، فعلّمته وخاطبته، وتراءت له، وظهرت أنواع من كراماته يسمى (المؤيد بروح القدس).

٥ ـ ومَن جعل منهم في لسانه وقلبه نور، فنفع الناس بصحبته وموعظته، وانتقل منه إلى حواريين من أصحابه سكينة ونور فبلغوا بواسطته مبالغ الكمال، وكان حثيثاً، أي: حريصاً على هدايتهم يسمى (هادياً مزكياً).

٦ ـ ومَن كان أكثر علمه معرفة قواعد الملة ومصالحها، وكان حريصاً على إقامة المندرس منها يسمى (إماماً).

٧ ـ ومَن نفث في قلبه أن يخبرهم بذلك، أو جرد من نفسه في بعض أوقاته، فعرف ما سيكون في القبر والحشر، فأخبرهم بتلك الأخبار يسمى (منذراً).

وإذا اقتضت الحكمة الإلٰهية أن يبعث إلى الخلق واحداً من المفهمين، فيجعله سبباً لخروج الناس من الظلمات إلى النور. وفرض الله على عباده أن يسلموا وجوههم وقلوبهم له، وتأكد في الملأ الأعلى الرضا عمن انقاد له، وانضم إليه، واللعن على مَن خالفه وناوأه، فأخبر الناس بذلك وألزمهم طاعته فهو (النبيّ).

قال الله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾﴾ [الجمعة: ٢].

وأعظم الأنبياء شأناً مَن له نوع من البعثة أيضاً، وذلك أن يكون مراد الله تعالى فيه أن يكون سبباً لخروج الناس من الظلمات إلى النور، وأن يكون قومه خير أمة أُخرجت للناس، فيكون بعثه يتناول بعثاً آخر، قال الله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾ [آل عمران: ١١٠]. ونبينا محمد ﷺ

استوعب جميع فنون المفهمين، واستوجب أتم المبعثين، وكان من الأنبياء قبله مَن يدرك فناً أو فنين ونحو ذلك. إن اقتضاء الحكمة الإلٰهية لبعث الرسل افتراض الطاعة بأن يعلم الله تعالى صلاح أمة من الأمم أن يطيعوا الله ويعبدوه، ويكونوا بحيث لا تستوجب نفوسهم التلقي من الله، ويكون صلاح أمرهم محصوراً يومئذ في اتباع النبيّ، فيقضي الله بوجوب اتباعه. وذلك إما بأن يكون الوقت وقت ابتداء ظهور دولة، وكبت الدول بها، فبعث الله من يقيم دين أصحاب تلك الدولة كبعث سيدنا محمد ﷺ، أو يقدر الله بقاء قوم واصطفاءهم على البشر، فيبعث من يُقَوِّم عوجهم ويعلمهم الكتاب كبعث سيدنا موسى عليه السلام أو يكون نظم ما قضي القوم من استمرار دولة أو دين يقتضي بعث مجدد كداود وسليمان وجمع من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام. وهؤلاء الأنبياء قد قضى الله بنصرتهم على أعدائهم كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣].

وإذا بعث الله النبيّ وجب على المبعوث إليهم أن يتبعوه، وإن كانوا على سنّة راشدة، لأن مناوأة هذا المنوه شأنه يورث لعناً من الملأ الأعلى، فينسد سبيل تقرُّبهم من الله ولا يفيد كيدهم شيئاً، وإذا ماتوا أحاطت اللعنة بنفوسهم. على أن هذه الصورة مفروضة غير واقعة، ولك عبرة باليهود، كانوا أحوج خلق الله إلى بعث الرسول لغلوهم في دينهم وتحريفاتهم في كتابهم.

وثبوت حجة الله على عباده ببعثه الرسل إنما هو بأن أكثر الناس خلقوا بحيث لا يمكن تلقي ما لهم وما عليهم بلا واسطة. بل استعدادهم إما ضعيف يتقوى بأخبار الرسل، أو هناك مفاسد لا تندفع إلا بالقسر على رغم أنفهم. وكانوا بحيث يؤاخذون في الدنيا والآخرة، فأوجب لطف الله أن يوحي إلى أزكى القوم أن يهديهم إلى الحق، ويدعوهم إلى الصراط المستقيم. أما عن المعجزات واستجابة الدعوات فهي أمور خارجة عن أصل النبوة لازمة لها في الأكثر، وظهور معظم المعجزات يكون من أسباب ثلاثة:

١ ـ أن يكون من المفهمين، فإن ذلك يوجب انكشاف بعض الحوادث عليه، ويكون سبباً لاستجابة الدعوات وظهور البركات فيما يبرك من التبريك وهو الدعاء بالبركة. والبركة إما زيادة نفع الشيء، بأن يخيل إليهم مثلاً أن الجيش كثير، فيفشلون، أو زيادة عين الشيء بأن تنقلب المادة الهوائية بتلك الصورة لحلول قوة مثالية ونحو ذلك من الأسباب.

٢ ـ أن تكون الملأ الأعلى مجمعة إلى تمشية أمره، فيوجب ذلك إلهامات وإحالات وتقريباً لم تكن تعهد من قبل، فينصر الأحباء ويخذل الأعداء، ويظهر أمره الله ولو كره الكافرون.

٣ ـ أن تحدث حوادث لأسبابها الخارجية من مجازاة وحدوث الأمور العظام في الجو، فيجعلها الله تعالى معجزة له بوجه من الوجوه إما لتقدم إخبارهم، أو ترتب المجازاة على مخالفة أمره، أو كونها موافقة بما أخبر من سنة المجازاة، أو أوامر مما يشبه ذلك.

والعصمة لها أسباب ثلاثة: أن يخلق الإنسان نقياً عن الشهوات الرذيلة، سمحاً لا سيما فيما يرجع إلى محافظة الحدود الشرعية، وأن يوصي إليه حسن الحسن وقبح القبيح، وأن يحول الله بينه وبين ما يريد من الشهوات الرذيلة. وإن من سيرة الأنبياء عليهم السلام ألا يأمروا بالتفكير في ذات الله تعالى وصفاته، فإن ذلك لا يستطيعه جمهور الناس. وهو قوله ﷺ: «**تفكَّروا في خلق الله ولا تتفكَّروا في الله**»، وقوله في آية: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾﴾ [النجم: ٤٢]. وإنما يؤمرون بالتفكير في نِعَم الله وعظيم قدرته. ومن سيرتهم ألا يكلموا الناس إلا على قدر عقولهم التي خلقوا عليها وعلومهم التي هي حاصلة عندهم بأصل الخلقة، ذلك لأن نوع الإنسان حيثما وجد له في أصل الخلقة حد من الإدراك زائد على إدراك سائر الحيوانات. ومن سيرتهم ألا يشتغلوا بما لا يتعلق بتهذيب النفس وسياسة الأمة، كبيان أسباب حوادث الجو من المطر والكسوف وعجائب النبات والحيوان ومقادير سير الشمس والقمر وقصص الأنبياء والملوك والبلدان ونحوها، اللَّهمَّ إلا كلمات يسيرة يؤتى بها في التذكير بآلاء الله على سبيل

الاستطراد بكلام إجمالي. ولهذا لما سألوا ﷺ عن نقصان القمر وزيادته[(١)]، أعرض الله تعالى عن ذلك إلى بيان فوائد الشهور فقال: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة: ١٨٩]. ويتصل الإنسان من تتبع القرآن الكريم بنوعين من حقائق الوجود: عالم «الشهادة» وهو العالم المحسوس أو الكون أو الطبيعة أو ملكوت السماوات والأرض، وما أكثر ما يلفت القرآن نظر الإنسان إلى حوادث هذا العالم ومشاهدة آفاقه، مستخدماً الألفاظ الدالة على الحواس كالرؤية والنظر والسمع، أو الدالة على التفكير كقوله: (ألم تر، أفلم ينظروا، تبصرون، أولم يتفكروا...)، وهناك عالم آخر، عالم «الغيب» ويشمل من الوجود ما لا تصل إليه الحواس، ولا يدرك العقل حقيقته، ولكنه يرشد إلى الإيمان بخالق العالمين: عالم الغيب والشهادة. هل هناك حياة وراء هذه الحياة؟ ما هو مصير الإنسان النهائي؟ هل من صلة بين الإنسان وخالق الكون؟ ما هي هذه الصلة؟ وهل تُحمِّل الإنسان واجبات معينة وسلوكاً محدوداً؟ إن طريق الوصول إلى هذه الحقائق الذي يدلنا عليه القرآن ويدعونا عن طريق القناعة العقلية إلى الإيمان به طريقاً موصلاً هو النبوة أو الوحي الإلٰهي الملقى إلى أفراد من البشر اصطفاهم الله لتبليغ البشر ما يريد إبلاغه من الحقائق التي قد يصل العقل أو يقصر عن الوصول إليها، وإن كان العقل يبقى هو نفسه وسيلة الإرشاد إلى النبوة.

لقد عني القرآن الكريم بالجانب الأهم من تاريخ البشرية وهو تاريخ النبوات والرسالات والدعوات. ولكنه رسم إطار الجانب الآخر بوضوح وعرض لتاريخه إلى العبرة من الحياة المادية وأنها ليست هي الخالدة كقول الله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَـٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَـٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الدخان: ٢٥ ـ ٢٩]. وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ۖ فَمَا كَانَ

(١) حجة الله البالغة، للإمام الدهلوي، حققه وراجعه: السيد سابق ج١ ص١٧٦ ـ ١٨٠.

ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الروم: ٩]. وهكذا يأتي الحديث عن مدنيات بعض الأمم السابقة في معرض العبرة بعاقبة أعمالهم ونهاية مصيرهم.

إن القرآن الكريم عني أكثر ما عني بذكر شواهد من تاريخ الدعوات المتعاقبة التي وجهت الإنسان إلى التحرر من العبودية لغير الإلٰه الخالق ودفعته إلى الصلة بالله والتفكير في المصير. وأشعرته بالمسؤولية أمام الله وذكّرته بالحساب على الأعمال وأرشدته إلى المثل العليا ومكارم الأخلاق. والقرآن الكريم يعرض قصة الصراع بين الحق والباطل، بين الخير والشر، والهدى والضلال، والعبودية لغير الله، والحرية المتولدة من عبادة الله وحده، وعظماء هذا الصراع وأبطاله هم رسل الله الأنبياء الذين لم تَخْلُ منهم أمة ولا شعب.

والنبوة ليست مقصورة على شعب أو بضعة شعوب بل هي عامة في كل الأمم والشعوب الماضية، قال الله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌۖ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمۡ قُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [يونس: ٤٧]. وقال الله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ [الرعد: ٧]. والأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم ليسوا إذن كل أنبياء الله، وإنما هم بعض الأنبياء، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ مِنۡهُم مَّن قَصَصۡنَا عَلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّن لَّمۡ نَقۡصُصۡ عَلَيۡكَۗ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلۡحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٧٨﴾﴾ [غافر: ٧٨].

إن أهم الأهداف الأساسية لإرسال الرسل تحرير البشر من عبادة الطبيعة كالشمس والقمر أو الحيوانات أو غيرها أو الإنسان وتوجيههم لعبادة الله الخالق وحده. والأنبياء على درجات ومراتب بحسب عظم الرسالة التي يحملونها من جهة شمولها مكاناً وزماناً. فرسول الله ﷺ أُرسل إلى الناس كافة ليكون رحمة للعالمين مبلغاً لخاتمة الرسالات وأشملها وأوسعها وأخلدها. فالقرآن الكريم أوجب الإيمان بالأنبياء بلا تفريق، فكلهم أُوتي النبوة، أي: الاصطفاء الإلٰهي لأداء رسالة معينة، قال تعالى: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ

مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ [البقرة: ٢٨٥].
فإذا عرفنا أن جميع الأمم جاءهم رسول من الله، وأن المذكور منهم خمس وعشرون، لاستنتجنا أن هناك عدداً كبيراً من الأنبياء لم نعرفهم ولم يذكرهم القرآن، إن بين النبوات جميعاً أموراً مشتركة وهي التي ترجع إلى أصل العقيدة ويجب عدم التفريق بينهم من ناحية الأصل وطبيعة الرسالة التي خصّهم الله بها من النبوة. قال الله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء: ٥٥]. قال الله تعالى: ﴿تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۘ مِّنۡهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُۖ وَرَفَعَ بَعۡضَهُمۡ دَرَجَٰتٖۚ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخۡتَلَفُواْ فَمِنۡهُم مَّنۡ ءَامَنَ وَمِنۡهُم مَّن كَفَرَۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وإن كانوا متفاوتين في سعة رسالتهم ومدتها ومقدار عمومها وشمولها.

ليس لدينا من أخبار آدم وذريته إلا ما وقع في المصحف الكريم، وهو معروف بين الأئمة، واتفقوا على أن الأرض عمرت بنسله أجيالاً بعد أجيال إلى عصر نوح عليه السلام، وأن فيهم أنبياء وملوكاً في تلك الأجيال وطوائف مشهورين بالنِّحَل، مثل الكلدانيين ومثل السريانيين(١). وقد أكد الكثير رأي ابن خلدون ثم يأتي بعد آدم عليه السلام خلفاؤه قادة الإنسانية الأولون عليهم السلام وهم:

❊ ❊ ❊ ❊

شيث بن آدم عليهما السلام

فلما مات آدم عليه السلام قام بأعباء الأمر بعده ولده شيث عليه السلام. وكان نبياً، بنص الحديث الذي رواه ابن حبَّان في صحيحه، عن أبي ذر

(١) تاريخ ابن خلدون، العبر ج١ ص٥.

مرفوعاً أنه أنزل عليه خمسون صحيفة. وعن أبي ذر الغفاري قال: قلت: يا رسول الله، كم كتاب أنزله الله عزَّ وجلَّ؟ قال: «**مائة كتاب وأربعة كتب، وأنزل الله على شيث خمسين صحيفة**». وعن محمد بن إسحاق قال: لما حضرت آدم الوفاة فيما يذكرون، والله أعلم، دعا ابنه شيثاً فعهد إليه عهده، وعلّمه ساعات الليل والنهار، وعلّمه عبادة الخلق في كل ساعة منهن، فأخبره أن لكل ساعة صنفاً من الخلق فيها عبادته. وقال له: يا بني إن الطوفان سيكون في الأرض يلبث فيها سبع سنين، وكتب وصيته، فكان شيث فيما ذكر وصي أبيه آدم عليه السلام وصارت الرياسة من بعد وفاة آدم لشيث.

ولما مضى لآدم من عمره مائة وثلاثون سنة بعد قتل قابيل وهابيل بخمس سنين، ولدت له حواء شيثاً. فذكر أهل التوراة أن شيثاً ولد فرداً بغير توأم، وتفسير شيث عندهم «هبة الله» ومعناه أنه خلف من هابيل. أما ابن عباس فقال: ولدت حواء لآدم شيثاً وأخته عزورا، فسمي: هبة الله، اشتق له من هابيل. قال لها جبرائيل حين ولدته: هذا هبة الله بدل هابيل، وهو بالعربية «شث» وبالسريانية «شاث» وبالعبرانية «شيث» وإليه أوصى آدم. وإلى شيث أنساب بني آدم كلهم اليوم، وذلك أن نسل ولد آدم غير نسل شيث، وانقرضوا وبادوا فلم يبقَ منهم أحد، فأنساب الناس كلهم اليوم إلى شيث عليه السلام[1].

❋ ❋ ❋ ❋

إدريس عليه السلام

هو أخنوخ بن يرد بن مهلابيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِدۡرِيسَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيّٗا ٥٦ وَرَفَعۡنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ٥٧﴾ [مريم: ٥٦، ٥٧]. فإدريس عليه السلام قد أثنى الله عليه

---

(١) تاريخ الطبري، ج١ ص١٥٢ ـ ١٥٣.

ووصفه بالنبوة والصديقية، وكان أول بني آدم أعطي النبوة بعد آدم وشيث عليهما السلام[(١)]. وذكر الدينوري في الأخبار الطوال أنه سمي إدريس لكثرة دراسته. وفي حديث معاوية ابن الحكم السلمي لما سأل رسول الله ﷺ عن الخط بالرمل فقال: «**إنه كان نبيّ يخط به، فمَن وافق خطه فذاك**»[(٢)]. وقول الله تعالى: ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾، هو كما ثبت في حديث الإسراء: إن رسول الله ﷺ مرّ به وهو في السماء الرابعة[(٣)].

عن ابن إسحاق: أن أخنوخ بن يرد هو إدريس النبيّ، وكان أول بني آدم أعطي النبوة. وقال غيره من أهل التوراة: ولد ليرد أخنوخ وهو إدريس فنبأه الله عزَّ وجلَّ، وقد مضى من عمر آدم ستمائة سنة واثنان وعشرون سنة، وأُنزل عليه ثلاثون صحيفة. وهو أول مَن خطّ بعد آدم وجاهد في سبيل الله، وقطع الثياب وخاطها. وأن آدم عليه السلام توفي بعد أن مضى من عمر أخنوخ ثلاثمائة سنة وثماني سنين. وأن أخنوخ دعا قومه ووعظهم، وأمرهم بطاعة الله عزَّ وجلَّ ومعصية الشيطان، وألا يلابسوا ولد قابيل، فلم يقبلوا منه. وفي التوراة: إن الله تبارك وتعالى رفع إدريس بعد ثلاثمائة سنة وخمس وستين سنة مضت من عمره. وقد زعم بعضهم أن الله بعث إدريس إلى جميع أهل الأرض في زمانه وجمع له علم الماضين، وأن الله زاده بعد ذلك ثلاثين صحيفة، فذلك قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨﴾ [الأعلى: ١٨]، أي: الصحف التي أُنزلت على ابن آدم هبة الله وإدريس عليهما السلام.

وقال أهل التوراة: ولد لمتوشخ بن أخنوخ وهو (إدريس) بعد ثمانمائة وأربع وسبعين سنة من عمر آدم (لامك)، فأقام على ما كان عليه آباؤه من طاعة الله وحفظ عهوده. قالوا: فلما حضرت متوشلخ الوفاة استخلف للامك على أمره، وأوصاه بمثل ما كان آباؤه يوصون به، قالوا: وكان لامك يعظ

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير ج١ ص٧١.
(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق ج٤ ص١٦٤.
(٣) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق ج٤ ص١٣٣ ـ ١٣٥.

قومه وينهاهم عن النزول إلى ولد قايين فلا يتعظون، حتى نزل جميع من كان في الجبل إلى ولد قايين. ثم ولد للامك نوحاً بعد وفاة آدم بمائة سنة وست وعشرين سنة، وذلك لألف سنة وست وخمسين سنة مضت من يوم أهبط الله آدم إلى مولد نوح(١).

❊ ❊ ❊ ❊

نوح بن لامك عليه السلام

بعث الله نوحاً عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى أهل عصره، وهو نوح بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد ذكر الله تعالى قصته وما كان من قومه، وما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان، وكيف أنجاه وأصحاب السفينة في غير موضع في كتابه العزيز، كما في سورة (الأعراف، ويونس، وهود، والأنبياء، والمؤمنون، والشعراء، والعنكبوت، والصافات). وأنزل الله عزَّ وجلَّ فيه سورة كاملة، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝١﴾ [نوح: ١].

وقد تطاول الزمان والمجادلة بينه وبينهم، كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ ۝١٤﴾ [العنكبوت: ١٤]، أي: ومع هذه المدة الطويلة فما آمن به إلا القليل منهم. وكلما انقرض جيل وصُّوا من بعدهم بعدم الإيمان به ومحاربته ومخالفته، وكانت سجاياهم تأبى الإيمان واتباع الحق ولهذا قال: ﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧]. وقال الله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ۝٣٦﴾ [هود: ٣٦]، وهذه تعزية لنوح في قومه، فاجتمعت عليهم خطاياهم من كفرهم وفجورهم ودعوة نبيهم عليهم. فعند ذلك أمر الله تعالى أن يصنع الفلك وهي السفينة العظيمة، وقدّم الله تعالى إليه أنه إذا جاء أمره، وحلّ

---

(١) تاريخ الطبري، ج١ ص١٧٠ ـ ١٧١.

بهم بأسه أن لا يعاوده فيهم ولا يرجعه، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧]، وقد كانت سجاياهم الكفر الغليظ والعناد البالغ في الدنيا.

وفي الآخرة يجحدون أيضاً أن يكون جاءهم رسول. حدَّث الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**يجيء نوح** عليه السلام **وأمته، فيقول الله عزَّ وجلَّ: هل بلَّغت؟ فيقول: نعم، أي رب، فيقول لأمته: هل بلَّغكم؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبيّ. فيقول لنوح: مَن يشهد لك؟ فيقول: محمد وأمته، فتشهد أنه قد بلّغ**»(١). وهو قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: ١٤٣]، والوسط: العدل، فهذه الأمة تشهد على شهادة نبيها الصادق المصدوق بأن الله قد بعث نوحاً بالحق، وأنزل عليه الحق وأمره به، وأنه بلَّغه إلى أمته. قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ۝٤٠﴾ [هود: ٤٠]. فإذا جاء أمر الله وحلّ بأسه يحمل في هذه السفينة من كل زوجين اثنين من الحيوانات وسائر ما فيه الروح، وأن يحمل معه أهله إلا مَن سبق عليه القول منهم، أي: إلا مَن كان كافراً فإنه قد نفذت فيه الدعوة التي لا تُرد. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٨﴾ [المؤمنون: ٢٨]، أمره أن يحمد ربه على ما سخّر له، وهكذا يؤمر بالدعاء في ابتداء الأمور وأن تكون عاقبتها محمودة. قال الله تعالى: ﴿وَهِيَ تَجۡرِي بِهِمۡ فِي مَوۡجٖ كَٱلۡجِبَالِ﴾ الآية [هود: ٤٢]. وذلك أن الله تعالى أرسل من السماء مطراً لم تعهده الأرض قبله ولم تمطر بعده، وأمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها وسائر أرجائها. قال الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٤٤﴾ [هود: ٤٤]، أي: لما فرغ من أهل الأرض ولم يبقَ بها أحد ممن عبد غير الله، أمر الله

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق ج٤ ص١٦٣.

عزَّ وجلَّ الأرض أن تبلع ماءها وأمر السماء أن تقلع، أي: تمسك عن المطر، وغيض الماء، أي: نقص عما كان عليه، وقضي الأمر، أي: وقع بهم الذي كان قد سبق في علمه وقدره.

قال الله تعالى: ﴿قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾﴾ [هود: ٤٨]، هذا أمر لنوح عليه السلام لما نضب الماء عن وجه الأرض وأمكن السعي فيها والاستقرار عليها، فإن الله لم يجعل لأحد ممن كان من المؤمنين نسلاً ولا عقباً سوى نوح عليه السلام، فقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: ٧٧]، فكل مَن على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بني آدم ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة وهم: (سام، وحام، ويافث)، ففي حديث عن سمرة أن النبيّ ﷺ قال: «**سام أبو العرب، حام أبو الحبش، ويافث أبو الروم**»(١).

وأما مضمون ما جرى له مع قومه فنأخذه من الكتاب والسنّة والآثار. فنوح عليه السلام إنما بعثه الله تعالى لما عُبدَت الأصنام والطواغيت وشرع الناس في الضلالة والكفر، فبعثه الله رحمة للعباد، فكان أول رسول بُعث إلى أهل الأرض. وكان سبب ذلك من حديث ابن جريج قال عطاء عن ابن عباس رضي الله عنهما عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣]، صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعدهم، أما (وُدّ) فكانت لكلب بدُومة الجندل، وأما (سواع) فكانت لهذيل، وأما (يغوث) فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجُوف عند سبأ، وأما (يعوق) فكانت لهمدان، وأما (نسراً) فكانت لحمير لآل ذي الكلاع. قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصاباً وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد حتى إذا هلك أولئك ونُسِخَ العلم عُبِدَت(٢).

---

(١) مسند الإمام أحمد ج٥ ص٩.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير ج٦ ص١٩٩.

ويذكر مؤلف التاريخ العربي وبدايته عن إسهاب الإخباريين وتحدث الأثريين في قصة نوح عليه السلام، وأنهم بحثوا عن عالم ما قبل الطوفان، وعن مساكن قوم نوح على شواطئ الفرات ودجلة وأن قصة الطوفان كما يؤكد ابن خلدون غير معروفة في غير الجزيرة العربية. لقد ظلت قصة الطوفان في رأي الكثير أسطورة من أساطير ما قبل التاريخ إلى أن أخذت البحوث الجيولوجية من جهة والبحوث الأثرية من جهة أخرى تعترف بقصة الطوفان، فآمن به أكثر من كان يساوره الشك فيه، وانصرفت الأبحاث تهتم بما يقال عنه. ويشير إلى أن قوم نوح ومَن سبقهم من شعوب وقبائل انحصرت جموعهم في أرض الرافدين، وأن الحجاز ونجد وشواطئ الخليج العربي والبحر الأحمر وبلاد اليمن وحضرموت كل هذه البلاد عاشت طيلة عصور ما قبل الطوفان خلاءً بلقعاً لا تعرف الإنسان. فإذا وجد من يبحث عن دول ما قبل الطوفان في بلاد ما بين النهرين، فإننا لا نجد مَن يبحث في دول قلب الجزيرة قبل الطوفان. وعلى ضآلة المعلومات عن عالم ما قبل الطوفان في شبه الجزيرة العربية، فإن الباحث في التاريخ القديم لا يمكنه أن يتجاهل الآثار التي وجدت في داخل الجزيرة والتي يرجع تاريخها إلى العصر الحجري. وأن وداً، وسواعاً، ويغوث، ويعوق، ونسراً شعوب انتشرت في طول البلاد العربية وعرضها. فمناخ هذا الجزء في العصور الثلجية هو أفضل من غيره الغارق في الثلوج والمتعرض لعواصفها. وأن الطوفان قد أثر بنوع خاص على البلاد العربية وقلب أوضاعها، وأن عصر ما بعد الطوفان يعتبر بداية حياة جديدة استأنفها الإنسان في البلاد العربية[١].

ذكر ابن إسحاق فيما يزعم أهل التوراة أن عمر نوح عليه السلام بعد أن هبط من الفلك ثلاثمائة سنة وثماني وأربعين سنة. ولا ولد لنوح ولد إلا بعد الطوفان، وبعد خروج نوح من الفلك. وقالوا: إنما الذين كانوا معه في الفلك قوم كانوا آمنوا به واتبعوه غير أنهم بادوا وهلكوا، فلم يبقَ لهم

(١) التاريخ العربي وبدايته، أمين مدني ج١ ص٥٠ ـ ٧٠.

عقب، وإنما الذين هم اليوم في الدنيا من بني آدم ولد نوح وذريته دون سائر ولد آدم[١].

يزعم أهل التوراة أنه في الشهر السابع لسبع عشرة ليلة مضت منه، وفي أول يوم من الشهر العاشر رؤيت رؤوس الجبال، فلما مضى بعد ذلك أربعون يوماً فتح نوح كوة الفلك التي صنع فيها، ثم أرسل الغراب لينظر له ما فعل الماء فلم يرجع إليه، فأرسل الحمامة فرجعت إليه لم يجد لرجلها موضعاً، فبسط يده للحمامة فأخذها فأدخلها. ثم مضت سبعة أيام ثم أرسلها لتنظر له ما فعل الماء فلم ترجع، فرجعت حين أمست وفي فيها ورق زيتونة، فعلم نوح أن الماء قد قلّ عن وجه الأرض. ثم مكث سبعة أيام ثم أرسلها فلم ترجع إليه، فعلم نوح أن الأرض قد برزت. فلما كملت السنة فيما بين أن أرسل الله الطوفان إلى أن أرسل نوح الحمامة ودخل يوم واحد من الشهر الأول من سنة اثنين برز وجه الأرض، وظهر البر وكشف نوح غطاء الفلك. وذكروا أن الله كلّم نوحاً قائلاً له: اخرج من الفلك أنت وامرأتك وبنوك ونساء بنيك معك، وجميع الدواب التي معك، ولينموا وليكثروا في الأرض. فخرجوا وابتنى نوح مذبحاً لله، وأخذ من جميع الدواب الحلال، والطير الحلال فذبحها قرباناً إلى الله وعهد الله إليه أن لا يعيد الطوفان على أهل الأرض، وجعل تذكاراً لميثاقه إليه القوس الذي في الغمام، وهو قوس قزح[٢].

أما كتاب التلمُود الحقود، فيعكس نفسية اليهود وهم قوم بُهْت بمعنى الذي يختلق على غيره ما ليس فيه. فألصقوا بالأنبياء عليهم السلام كل رذيلة، ليجعلوا منهم مثالاً يغري بالسوء. ويكتسح في النفس الإنسانية كل عناصر المقاومة، ولا يجعلها تتمالك إلا ريثما تتهالك وتسارع في الخطايا. وإن المؤمن الذي يقرأ كتب اليهود الدينية سوف يفجأ ويفجع حين يرى أئمة الهدى وشوامخ النبوة تتهاوى على أيدي اليهود وتمرغ في أوحال الخطيئة،

---

(١) تاريخ الطبري، ج١ ص١٩١.

(٢) قصص الأنبياء لابن كثير ج١ ص١١٣ ـ ١١٤.

فهذا شيخ الأنبياء الصبور والشكور نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ يصورونه سكيراً يشرب الخمر، ويتعرى داخل خبائه حتى يرى عورته أصغر أبنائه ويخبر أخويه ساخراً... إلخ. الإصحاح التاسع من سفر التكوين[١].

❋ ❋ ❋ ❋

سام بن نوح

لما مات نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ استخلف ابنه سام، وكان يشتو بأرض جوفي ويُصَيِّف بالموصل، وكان طريقه في مبدئه ومنصرفه على شط دجلة من الجانب الشرقي، فسمي لذلك (سام راه)، وكلمة راه فارسية معناها الطريق. وقد كان تبوأ أرض العراق فسمي (إيران شهر)، وقام بالأمر بعد ابنه (شالخ)، فلما حضرته الوفاة أسند الأمر إلى ابن أخيه (جم) فثبت أساس الملك. وكان لسام بن نوح خمسة بنين: إرم أكبرهم، فخصّ ولده باللسان العربي عند تبليل الألسن، وكانوا سبعة إخوة: عاد، وثمود، وصحار، وطسم، وجديس، وجاسم، ووبار. فارتحل عاد حتى حلّ بأرض اليمن، ونزل ثمود ما بين الحجاز إلى الشام، ونزل طسم عمان والبحرين، ونزل جديس اليمامة، ونزل صحار ما بين الطائف إلى جبل طيء، ونزل جاسم ما بين الحرم إلى سفوان ـ وادٍ من ناحية بدر ـ ونزل وبَّار ما وراء الرمل، وهؤلاء العرب الأول انقرضوا عن آخرهم. ولما خرج جميع أولاد نوح وسام وتفرقوا في سائر الأقطار، فلم يبقَ مع الملك جم إلا ولد أرفخشذ بن سام. ولما كثرت عاد باليمن تجبّروا وعتوا، وعليهم شديد بن عمليق بن عاد بن إرم بن سام، فوجه ابن أخيه الضاحك إلى أرض بابل وقتل الملك جم، واستولى على ملكه[٢].

وهناك الكثير من النظريات عن نشأة الإنسان، تذهب إحداها: إلى أن

---

(١) معركة الوجود بين القرآن والتلمُود، مرجع سابق ص١٥١.

(٢) الأخبار الطوال، للدينوري ص٢ ـ ٤.

الإنسان قد نشأ في إفريقيا ثم انتقل إلى أوروبا وآسيا. وهي النظرية التي تنادي بوحدة الجنس البشري وتنبذ تقسيم هذا الجنس إلى ساميين وحاميين وآريين «نظرية فانرييت أور». وتذهب الأخرى: إلى أن الجنسين السامي والحامي نشآ في العصور القديمة بإفريقيا معتمدة على الصلات التي بين لغاتها «نظرية باجريف». وتذهب الثالثة: إلى أن شمال إفريقيا كان مهد الجنس السامي، ثم هاجر إلى آسيا معتمداً على الصلات اللغوية «نظرية كيرلاند». وتذهب الرابعة: إلى أن الحضارة الفرعونية إنما نشأت على أثر الموجة الأولى من موجات هجرة القبائل التي قذفتها شبه الجزيرة العربية، وهي التي أنشأت أيضاً الحضارة الآشورية والبابلية «رأي أحمد الشقيري عن قضية فلسطين»(١).

ويذهب الرأي العلمي إلى أنه بعد انقضاء العصر الجليدي الذي بلغ فيه الجليد غاية انتشاره، وكانت طبقاته تغشى مساحات واسعة من أوروبا وأواسط آسيا كانت الصحراء الكبرى وبلاد العرب تجودها الأمطار ويكثر فيها الكلأ. وأنه بعد انقضاء العصر الجليدي قامت نهضة في الاختراع والنظام الاجتماعي غيرت حال الناس في الأقاليم الواقعة شرق البحر الأبيض المتوسط وجنوب آسيا الغربي، وأن بعض النباتات التي نشأ عنها القمح كان منبتها الأول جنوب آسيا الغربي حول المنطقة التي سماها «بروستيد»: الهلال الخصيب(٢).

واختلف الباحثون في مهد الإنسان «أي: المكان الذي وجد فيه الإنسان الأول» وظلّ الناس إلى عهد غير بعيد يرجحون أنه وجد في قارة آسيا بين العراق العربي وأرمينيا في البقعة المعروفة ما بين النهرين. وهو قول يؤيد حكاية الخليقة ويطابق نصوص التاريخ القديم، فإن مملكة بابل التي قامت هناك من أقدم ممالك الدنيا(٣).

---

(١) الدولة العربية الكبرى، محمود كامل المحامي ص٢٠ ـ ٢١.
(٢) موسوعة تاريخ العالم، جون هامرتن ج١ ص٢٠٣ ـ ٢٢٧.
(٣) طبقات الأمم، جرجي زيدان ص١٤.

إن التقارب الذي وجد بين اللغات العربية والعبرية والعجزية الحبشية تدل على أن هذه الشعوب التي تتكلم هذه اللغات تنسب في التوراة إلى سام بن نوح. ثم صار الغربيون يستعملون كلمة (سامي) بالمعنى العرقي ليدلوا بها على هذه الشعوب وعلى غيرها من سكان الهلال الخصيب القدماء وقد شملوا بها: الأكاديين والعموريين والبابليين والكنعانيين والفينيقيين والآشوريين والآراميين والعبريين والعرب والأيوبيين، وأن المهد الذي خرجت منه هذه الشعوب هو أحد مشاكل التاريخ القديم، وتدور حوله نظريات عديدة، أرجحها لدى العلماء النظرية التي ترد أصلهم جميعاً إلى الجزيرة العربية، وتجعل خروجهم منها في هجرات دورية اعتباراً من أواخر الألف الرابع (ق.م) بنتيجة التكاثر والجدب، ثم تكاثروا في أرض الرافدين حتى شمال الشام[1].

❋ ❋ ❋ ❋

هود عليه السلام

وهو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح وهو من قبيلة عاد، وكانوا عرباً يسكنون الأحقاف، وهي جبال الرمل. وكانت باليمن بين عمان وحضرموت، وبأرض مطلة على البحر يقال لها: الشحر، واسم واديهم مغيث. وكانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ﴿٨﴾﴾ [الفجر: ٦ ـ ٨]، أي: عاد إرم وهم عاد الأولى. وكانوا أول مَن عبد الأصنام بعد الطوفان، وكانت أصنامهم: صدا، وصمودا، وهرا. فبعث الله فيهم أخاهم هوداً عَلَيْهِ السَّلَامُ فدعاهم إلى الله. قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف: ٦٥]. وقال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰهُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ

(١) موسوعة بهجت المعرفة ج١ مسيرة الحضارة ص٥٤ ـ ٥٥.

بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوۡلِكَ وَمَا نَحۡنُ لَكَ بِمُؤۡمِنِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [هود: ٥٣]. وقال الله تعالى: ﴿۞وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾﴾ [الأحقاف: ٢١]. وقال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ﴿٧﴾ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ ﴿٨﴾﴾ [الحاقة: ٦ ـ ٨]. وقد جرى ذكر عاد في سورة براءة وإبراهيم والفرقان والعنكبوت، وفي سورة ص وفي سورة ق. وفي صحيح ابن حبَّان عن أبي ذر في حديثه الطويل في ذكر الأنبياء والمرسلين قال فيه: (منهم أربعة من العرب: هود، وصالح، وشعيب، ونبيك يا أبا ذر)(١).

❋ ❋ ❋ ❋

صالح عليه السلام

وهو صالح بن عبيد بن أسف بن كماشبح بن إرم بن ثمود بن جاثر بن إرم بن سام بن نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ. بعثه الله إلى ثمود بعد أن عتوا عن ربهم وكفروا به وأفسدوا في الأرض، بعثه رسولاً يدعوهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة. فكان جوابهم له كما قال الله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰصَٰلِحُ قَدۡ كُنتَ فِينَا مَرۡجُوّٗا قَبۡلَ هَٰذَآۖ أَتَنۡهَىٰنَآ أَن نَّعۡبُدَ مَا يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكّٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ مُرِيبٖ ﴿٦٢﴾﴾ [هود: ٦٢]. وكان الله عزَّ وجلَّ قد مدّ لهم في الأعمار، وكانوا يسكنون الحِجْر إلى وادي القرى، بين الحجاز والشام. ولم يزل صالح يدعوهم إلى الله على تمردهم وطغيانهم، فلم يزدهم دعاؤه إياهم إلى الله إلا مباعدة عن الإجابة. فلما طال ذلك من أمرهم وأمر صالح قال الله تعالى: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا فَأۡتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾﴾ [الشعراء: ١٥٤].

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ص١٢٠ ـ ١٢٦.

قال لهم صالح: اخرجوا إلى هضبة من الأرض، فإذا هي تتمخض ثم تفرجت فخرجت من وسطها الناقة. قال الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةًۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [الأعراف: ٧٣]، فلما عقروها قال الله تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود: ٦٥]. ويقال: إن صالح قال لهم غداً: إن آية العذاب أن تصبحوا غداً حمراً واليوم الثاني صفراً واليوم الثالث سوداً، فصبَّحهم العذاب، فلما رأوا ذلك تحنّطوا واستعدوا. فلما أصبحوا اليوم الرابع أتتهم صيحة من السماء فتقطعت قلوبهم في صدورهم، قال الله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [هود: ٦٧]. فأما أهل التوراة فإنهم يزعمون أنه لا ذكر لعاد ولا لثمود ولا لهود وصالح في التوراة[١].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) تاريخ الطبري، ج١ ص٢٢٦ ـ ٢٣٢.

الفصل الثالث
أبو الأنبياء إبراهيم
خليل الرحمٰن عليه السلام

هو إبراهيم بن تارخ «آزر» (٢٥٠) سنة، ابن ناحور (١٤٨) سنة، ابن ساروغ (٢٣٠) سنة، ابن راغو (٢٣٩) سنة، ابن فالغ (٤٣٩) سنة، ابن عابر (٤٦٤) سنة، ابن شالخ (٤٣٣) سنة، ابن أرفخشد (٨٩٣) سنة، ابن سام (٦٠٠) سنة، بن نوح عليه السلام. هذا نص أهل الكتاب في كتابهم موضحاً بها أعمارهم.

وحكى الحافظ ابن عساكر من تاريخه عن إسحاق بن بشر الكاهلي صاحب كتاب المبتدأ، أن اسم أم إبراهيم «أميلة»، وقال الكلبي: اسمها (بونا) بنت كربتا بن كرثي من بني أرفخشد بن سام بن نوح. وروى ابن عساكر عن عكرمة أنه قال: كان إبراهيم عليه السلام يكنى أبا الضيفان. قالوا: ولما كان عمر تارخ «آزر» خمساً وسبعين سنة ولد له إبراهيم عليه السلام وتاحور وهاران، وولد لهاران لوط. وعندهم أن إبراهيم هو الأوسط، وأن هاران مات في حياة أبيه في أرضه التي ولد فيها، وهي أرض الكلدانيين يعنون أرض بابل. وهذا هو الصحيح المشهور عند أهل السِّيَر والتواريخ والأخبار. وصحح ذلك الحافظ ابن عساكر بعد ما روى عن طريق هشام بن عمار، عن الوليد، عن سعيد بن عبدالعزيز، عن مكحول، عن ابن عباس قال: ولد إبراهيم بغوطة دمشق، في قرية يقال لها: برزة، في جبل يقال

له: قاسيون. والصحيح أنه ولد ببابل، وإنما نسب إليه هذا المقام لأنه صلّى فيه إذ جاء معيناً للوط عَلَيْهِ السَّلَامُ(١).

أما الطبري فذكر في تاريخه: هو إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن قينان بن أرفخشد بن سام بن نوح. واختلفوا في الموضع الذي كان فيه، والموضع الذي ولد فيه، فقال بعضهم: كان مولده بالسوس من أرض الأهواز، وقال بعضهم: كان مولده ببابل من أرض السواد، وقال بعضهم: كان بالسواد بناحية كوثي، وقال عامة السلف من أهل العلم: كان مولد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في عهد نمروذ بن كوش، وعن محمد بن إسحاق أن آزر كان رجلاً من أهل كوثي من قرية السواد، سواد الكوفة، وكان إذ ذاك ملك المشرق لنمروذ الخاطئ، وكان يقال له: الهاصر. عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبيّ ﷺ: أن أول ملك ملك في الأرض شرقها وغربها نمروذ بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح. وكانت الملوك الذين ملكوا الأرض كلها أربعة: نمروذ، وسليمان بن داود، وذو القرنين، وبخت نصر: مؤمنان وكافران(٢).

وعن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبيّ ﷺ: كان من شأن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه طلع كوكب على نمروذ، فذهب بضوء الشمس والقمر، ففزع من ذلك فزعاً شديداً. فدعا السحرة والكهنة فسألهم عنه فقالوا: يخرج من ملكه رجل يكون على وجهه هلاكك وهلاك ملكك. وكان مسكنه ببابل الكوفة، فخرج من قريته إلى قرية أخرى، فأخرج الرجال وترك النساء، وأمر ألاّ يولد مولود ذكر إلا ذبحه، فذبح أولادهم. ثم إنه بدت له حاجة في المدينة لم يأمن عليها إلا آزر أبا إبراهيم، فدعاه فأرسله. فقال له: انظر لا تواقع أهلك، فلما دخل القرية نظر إلى أهله فلم يملك نفسه أن وقع عليها فقرّبها إلى قرية بين الكوفة

---

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج١ ص١٦٧ ـ ١٦٨.

(٢) تاريخ الطبري، ج١ ص٢٣٣ ـ ٢٣٤.

والبصرة يقال لها: أور، فجعلها في سرب[١]، فكان يتعاهدها بالطعام والشراب وما يصلحها. وإن الملك لما طال عليه الأمر قال: قول سحرة كذابين، ارجعوا إلى بلدكم، فرجعوا.

وولد إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فكان كل يوم يمر كأنه جمعة، والشهر كالسنة من سرعة شبابه، ونسي الملك ذلك. وكبر إبراهيم ولا يرى أن أحداً من الخلق غيره وغير أبيه وأمه، فقال أبو إبراهيم لأصحابه: إن لي ابناً قد خبأته أفتخافون عليه الملك إن أنا جئت به؟ قالوا: لا، فأتِ به، فانطلق فأخرجه، فلما خرج الغلام من السرب نظر إلى الدواب والبهائم والخلق، فجعل يسأل أباه: ما هذا؟ فيخبره، فقال: ما لهؤلاء الخلق بد من أن يكون لهم رب. وكان خروجه حين خرج من السرب بعد غروب الشمس، فرفع رأسه إلى السماء فإذا هو بالكوكب، وهو المشتري فقال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾ فلم يلبث أن غاب فقال: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾[٢].

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: ٧٦ ـ ٧٩]، أي: فلما ستر الليل بظلمته كل ضياء رأى كوكباً مضيئاً في السماء هو الزهرة أو المشتري، قال: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾، أي: على زعمكم، قاله على سبيل الرد عليهم بالتوبيخ لهم واستدراجاً لهم لأجل أن يُعرِّفَهُم جهلهم في عبادة غير الله. قال الزمخشري: كان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والكواكب، فأراد أن ينبههم على ضلالتهم ويرشدهم إلى الحق من طريق النظر والاستدلال، ويعرِّفهم أن النظر الصحيح مؤدٍّ إلى ألاّ يكون شيء منها

---

(١) السرب: حفير تحت الأرض، وقيل: بيت تحت الأرض. لسان العرب، ابن منظور ج٢ ص١٢٦.

(٢) تاريخ الطبري، ج١ ص٢٣٣ ـ ٢٣٧.

إلٰهاً وأن وراءها محدثاً أحدثها، ومدبراً دبّر طلوعها وأفولها وانتقالها ومسيرها. وقوله: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾، قول من ينصف خصمه مع علمه بأنه مبطل، ثم يكرر عليه فيبطله بالحجة. فلما غاب الكوكب قال: لا أحب عبادة مَن كان كذلك، لأن الرب لا يجوز عليه التغير والانتقال، لأن ذلك من صفات الأجرام. فلما رأى القمر طالعاً منتشر الضوء قال: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾، على الأسلوب المتقدم لفتاً لأنظار قومه إلى فساد ما يعبدونه وتسفيهاً لأحلامهم. فلما غاب القمر قال إبراهيم: لئن لم يثبتني ربي على الهدى لأكونن من القوم الضالين، وفيه تعريض لقومه بأنهم على ضلال. فلما رأى الشمس بازغة، أي: أكبر من الكوكب والقمر قال: ﴿هَٰذَا رَبِّيۖ﴾، فلما غابت الشمس قال: أنا بريء من إشراككم وأصنامكم.

قال أبو حيان: فلما انتفت الإلٰهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار وتحقق ذلك بالدليل القاطع، ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾، ﴿إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ﴾، أي: قصدت بعبادتي وتوحيدي ﴿لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، أي: الله الذي ابتدع العالم وخلق السماوات والأرض ﴿حَنِيفٗاۖ﴾، أي: مائلاً عن الأديان الباطلة إلى الدين الحق ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾، أي: لست من يعبد مع الله غيره(١).

وكان أبوه يصنع الأصنام فيعطيها ولده فيبيعها، وكان يعطيه فينادي: مَن يشتري ما يضره ولا ينفعه، فيرجع إخوته وقد باعوا أصنامهم، ويرجع إبراهيم بأصنامه كما هي. ثم وعاه أباه فقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ [مريم: ٤٢]، ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنۡ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهِ لَأَرۡجُمَنَّكَۖ وَٱهۡجُرۡنِي مَلِيّٗا ٤٦﴾ [مريم: ٤٦]، ثم قال له: إن لنا عيداً لو قد خرجت معنا لأعجبك ديننا، فلما كان يوم العيد فخرجوا إليه خرج معهم إبراهيم. فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه وقال: ﴿إِنِّي سَقِيمٞ﴾، يقول: أشتكي رجلي فتوطئوا رجله وهو صريع، فلما مضوا نادى في آخرهم وقد بقي ضعف الناس: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ

---

(١) صفوة التفاسير، للصابوني ج١ ص٤٠١ ـ ٤٠٢.

مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء: ٥٧] فسمعوها منه. ثم رجع إبراهيم إلى بيت الآلهة، فإذا هو في بهو عظيم، مستقبل باب البهو صنم عظيم إلى جنبه أصغر منه بعضها إلى بعض. وإذا هم قد صنعوا طعاماً فوضعوه بين يدَي الآلهة، قالوا: إذا كان حين نرجع رجعناه وقد باركت الآلهة طعامنا فأكلناها، فلما نظر إليهم إبراهيم عليه السلام وإلى ما بين أيديهم من الطعام قال: ألا تأكلون؟ فلما لم تجبه قال: ما لكم لا تنطقون. فراغ عليهم ضرباً باليمين، فأخذ حديدة فبقر كل صنم في حافيته ثم علّق الفأس في عنق الصنم الأكبر ثم خرج. فلما جاء القوم إلى طعامهم ونظروا إلى آلهتهم: ﴿قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنبياء: ٥٩، ٦٠]، فتى يسبُّها ويعيبها ويستهزئ بها، لم نسمع أحداً يقول ذلك غيره. وبلغ ذلك نمروذ وأشراف قومه، فقالوا: ﴿فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٦١]، أي: ما يصنع به، وكرهوا أن يأخذه بغير بيِّنة.

فلما أتى به واجتمع له قومه مع ملكهم نمروذ ﴿قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء: ٦٢، ٦٣]، غضب من أن يعبد معه هذه الصغار وهو أكبر منها فكسرهن، فرجعوا عنه فيما ادّعوا عليه من كسرهن إلى أنفسهم فيما بينهم فقالوا: لقد ظلمناه وما نراه إلا كما قال. ثم قالوا وعرفوا أنها لا تضر ولا تنفع ولا تبطش: ﴿فَرَجَعُوٓاْ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓاْ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنبياء: ٦٤، ٦٥]، أي: نكسوا على رؤوسهم في الحجة عليهم لإبراهيم حين جادلهم، قال: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧].

قال ابن إسحاق: وحاجَّهُ قومه عند ذلك في الله جلّ ثناؤه يستوصفونه إياه ويخبرونه أن آلهتهم خير مما يعبد، قال الله تعالى: ﴿وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا

تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنعام: ٨٠، ٨١].

ثم إن نمروذ فيما يذكرون قال لإبراهيم: أرأيت إلٰهك هذا الذي تعبد وتدعو إلى عبادته، وتذكر من قدرته التي تعظِّمه بها على غيره ما هو؟ ﴿قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ فقال نمروذ: فأنا، ﴿أُحْىِۦ وَأُمِيتُ﴾، فقال له إبراهيم: كيف تحيي وتميت؟ قال: آخذ الرجلين قد استوجبا القتل في حكمي، فأقتل أحدهم فأكون قد أمَتّه، وأعفو عن الآخر فأتركه فأكون قد أحييته. فقال له إبراهيم عند ذلك: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فبهت عند ذلك نمروذ ولم يرجع إليه شيئاً. يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ يعني: وقعت عليه الحجة. ثم إن نمروذ وقومه أجمعوا في أمر إبراهيم فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨]. وعن مجاهد أن الذي أشار بتحريق إبراهيم رجل من أعراب فارس، وعن شعيب الجبائي قال: إن اسم الذي قال حرقوه: «هينون» فخسف الله به الأرض، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة.

قال ابن إسحاق: فأمر نمروذ بجمع الحطب، فجمعوا له صلاب الحطب، حتى إنه كانت المرأة من قرية إبراهيم فيما يذكر لتنذر في بعض ما تطلب مما تحب أن تدرك: لئن أصابته لتحطبن في نار إبراهيم التي يحرق بها احتساباً في دينها. حتى إذا أرادوا أن يلقوه فيها قدموه وأشعلوا في كل ناحية من الحطب الذي جمعوا له. حتى إذا اشتعلت النار واجتمعوا لقذفه فيها، صاحت السماء والأرض وما فيها من الخلق إلا الثقلين فيما يذكرون إلى الله عزَّ وجلَّ صيحة واحدة: أي ربنا إبراهيم، ليس في أرضك أحد يعبدك غيره يحرق بالنار فيك. قال الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩]. قال ابن عباس: لو لم يتبع بردها سلاماً لمات إبراهيم من بردها، فلم تبقَ يومئذ نار في الأرض إلا طفئت، ظنت أنها تُعْنى. قال ابن إسحاق: بعث الله عزَّ وجلَّ ملك الظل في صورة إبراهيم، فقعد فيها إلى جنبه يؤنسه. فمكث نمروذ أياماً لا يشك إلا أن النار قد أكلت إبراهيم، ثم ركب فمرّ بها فرأى إبراهيم جالساً فيها. فناداه نمروذ: يا إبراهيم، كبِّر إلٰهك الذي بلغت قدرته

وعزته أن حال بين ما أرى وبينك. فقام إبراهيم يمشي فيها حتى خرج منها، فقال نمروذ: يا إبراهيم، إني مقرب إلى إلٰهك قرباناً لما رأيت من عزته وقدرته. فقال إبراهيم: إذاً لا يقبل الله منك ما كنت على شيء من دينك حتى تفارقه إلى ديني، فكفّ عنه نمروذ ومنعه الله عزَّ وجلَّ منه.

قال ابن إسحاق: واستجاب لإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ رجال من قومه حين رأوا ما صنع الله به على خوف من نمروذ وملئهم. فآمن له لوط وكان ابن أخيه وهو لوط بن هاران بن تارخ، وهاران هو أخو إبراهيم، وكان لهما أخ ثالث يقال له: ناحور بن تارخ. فهاران أبو لوط، وناحور أبو بتويل، وبتويل أبو لابان، وربقا ابنة بتويل امرأة إسحاق بن إبراهيم أم يعقوب، وليا وراحيل زوجتا يعقوب ابنتا لابان. وآمنت به سارة وهي ابنة عمه وهي بنت هاران الأكبر عم إبراهيم، وكانت لها أخت يقال لها: ملكا امرأة ناحور.

ثم إن إبراهيم ومَن كان معه من أصحابه الذين اتبعوا أمره أجمعوا لفراق قومهم فقالوا: ﴿إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ﴾ أيها العابدون من دون الله، ﴿وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا﴾، أيها العابدون ﴿حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]. فخرج إبراهيم مهاجراً إلى ربه وخرج معه لوط مهاجراً وتزوج سارة ابنة عمه، فخرج بها معه يلتمس الفرار بدينه والأمان على عبادة ربه حتى نزل حران. ثم خرج منها مهاجراً حتى قدم مصر، وبها فرعون من الفراعنة الألى. وكانت سارة من أحسن الناس فيما يقال، فلما وصفت لفرعون ووصف له حسنها وجمالها أرسل لإبراهيم فقال: ما هذه المرأة التي كانت معك؟ قال: هي أختي. وتخوّف إبراهيم إن قال: هي امرأتي أن يقتله عنها، فقال لإبراهيم: زينها ثم أرسلها إليَّ حتى أنظر إليها، ثم أرسلها إبراهيم إليه. فأقبلت حتى دخلت عليه، فلما قعدت إليه تناولها بيده فيبست إلى صدره. فلما رأى ذلك فرعون أعظم أمرها وقال: ادعي الله أن يطلق عني، فوالله لا أريبك ولأحسن إليك. فأطلق الله يده فردها إلى إبراهيم، ووهب لها هاجر جارية كانت له قبطية[1].

(١) تاريخ الطبري، ج١ ص٢٣٧ ـ ٢٤٥.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لم يكذب إبراهيم عليه السلام قط، إلا ثلاث كذبات. ثنتين في ذات الله قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، والثانية قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾، وواحدة في شأن سارة، فإنه قدم أرض جبار، ومعه سارة وكانت من أحسن الناس، فقال لها: هذا الجبار إن يعلم أنك امرأتي يغلبني عليك، فإن سألك فأخبريه أنك أختي، فإنك أختي في الإسلام، فإني لا أعلم في الأرض مسلماً غيري وغيرك، فلما دخل أرضه رآها بعض أهل الجبار، أتاه فقال: لقد قدم أرضك امرأة لا ينبغي لها أن تكون إلا لك، فأرسل إليها، فأتى بها، وقام إبراهيم عليه السلام إلى الصلاة، فلما دخلت عليه لم يتمالك أن بسط يده إليها، فقُبضت يده قبضة شديدة، فقال لها: ادعي الله أن يطلق يدي، ولا أضرك، ففعلت، وأُطلقت يده، ودعا الذي جاء بها فقال له: إنك إنما أتيتني بشيطان، ولم تأتني بإنسان، فأخرجها من أرضي وأعطها هاجر**»، قال: «**فأقبلت تمشي، فلما رآها إبراهيم عليه السلام انصرف فقال لها: «مهيم»**، ـ أي: ما شأنك وما خبركم؟ ـ **قالت: خيراً كفّ الله يد الفاجر، وأخدم خادماً**»، قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء[1].

لما قدم إبراهيم بمن خرج معه في بدء هجرته وبمن آمن به في طريق رحلته إلى أرض فلسطين لم يطب له المقام بها لأسباب كثيرة منها: أن سكان فلسطين حين أقاموا لهم ما يشبه الممالك التي قسمت بالفعل «الممالك الكنعانية»، كانت هذه الممالك قد قطعت شوطاً في طريق التقدم الزراعي والصناعي، وكان بعض من أهل هذه الممالك تجاراً للسلع التي كانت تنتقل من بلاد ما بين النهرين إلى ساحل البحر الأبيض وبالعكس. بالإضافة إلى أنهم كانوا حراساً للقوافل التي تعبر طريق بلادهم. وقد أقاموا من أجل سلامة هذا العمل والحفاظ عليه المدن المحصنة، والأسوار المنيعة. فلما جاءهم إبراهيم عليه السلام بدعوة الله، لم يتقبل الكنعانيون دعوته ولم يقبلوه بينهم، بعد أن كانوا قد علَّموا بعض أبناء القبائل والجماعات

---

(١) مختصر صحيح مسلم، تحقيق الألباني، كتاب ذكر الأنبياء وفضلهم ص٤٣٢ ـ ٤٣٣.

العبرية التي كانت قد بدأت تجوب البادية والصحراء، وساءهم ما عليه القوم من صلف وحب للسطو الإغارة ولذا اعتزلوهم. فلما جاء إبراهيم عليه السلام بالدعوة الدينية إلى القوم اعتبر الكنعانيون إبراهيم واحداً من العبرانيين ولم يستجيبوا له. فكان على إبراهيم عليه السلام أن يرتحل سريعاً من أرض فلسطين إلى حيث يظن أن تقبل دعوته.

إن صلة الكنعانيين والفلسطينيين التاريخية في الاستيطان المبكر والذي لم يسبقه استيطان في أرض فلسطين والذي يبدأ من «**٣٥٠٠**ق.م»، حين كانت الهجرة المنظمة للكنعانيين، بالإضافة إلى رحلات وأفواج هجرة إلى فلسطين قام بها البابليون والآشوريون والطوائف العربية في المناطق المجاورة على امتداد البادية وعرضها مثل «مملكة ماري» العمورية التي قامت في سوريا، فإن أفواج الهجرة كانت قد تمت واستعمرت الأرض قبل قدوم إبراهيم عليه السلام إلى فلسطين. وحين جاءهم من أرض العراق وجدها تتسمى باسمها العربي المعروف لدينا اليوم. ولما أحسّ عليه السلام عصبية القوم ورفضهم قبول أفكار غريبة عليهم، بل واستعدادهم لنقل موقف الرفض إلى حالة من الحرب والصد. كما يعبّر الإصحاح الحادي والثلاثون من سفر صموئيل الأول من أنهم كانوا يشددون قبضتهم في الحرب، قرّر عليه السلام أن لا تكون له علاقة استيطان أو استقرار بفلسطين. فالعبريون حين بدأوا رحلاتهم على نفس خط سير إبراهيم في الهجرة لم يكونوا يمثلون أخلاق إبراهيم ولا يعبرون عن دينه. ومن هنا فالحروب التي نشأت بين العرب سكان فلسطين والعبرانيين لم يكن إبراهيم وقتئذ يمثلها ولا كان العبريون في قيادته.

هكذا تقرر التوراة، يقول سفر التكوين في الإصحاح الثاني عشر: وقال الرب لإبراهيم: اذهب من أرضك ومن عشيرتك ومن بيت أبيك إلى الأرض التي أريك، فأجعلك أمة عظيمة وأباركك وأعظم اسمك. وتكون بركة وأبارك مباركيك ولاعنك اللعنة، وتتبارك فيه جميع قبائل الأرض. فذهب إبرام كما قال له الرب، وذهب معه لوط، وكان إبرام ابن خمس وسبعين سنة لما خرج من حاران، وخرجوا ليذهبوا إلى أرض كنعان.

واجتاز إبرام في الأرض وظهر الرب لإبرام وقال: لنسلك أعطي هذه الأرض، فبنى هناك مذبحاً للرب الذي ظهر له ثم نقل من هناك إلى جبل شرقي بيت إيل ونصب خيمته ثم ارتحل ارتحالاً متوالياً نحو الجنوب.

ثم قرّر إبراهيم عليه السلام هو ومجموعات من الذين يواصلون الرحلة معه ومن الذين ينضمون إليه إيماناً به، وأيضاً بقصد الحاجة حيث يوجد الحيوان والمرعى قرر أن يتجه إلى مصر. تقول التوراة في الإصحاح الثاني عشر من سفر التكوين: وحدث الجوع في الأرض، وكان شديداً. وحدث لما قرب أن يدخل مصر أنه قال لسارة، أي: امرأته: إني قد علمت أنك حسنة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون: هذه امرأته. فيقتلوني ويستبقونك، قولي: إنك أختي ليكون لي خير بسببك وتحيا نفسي من أجلك. ثم تفسر التوراة في هذا النص جوانب قبيحة في شخصية إبراهيم عليه السلام فتصفه بأنه كان ـ تنزه نبيّ الله عن ذلك ـ جباناً حين قال: يقتلوني ويستبقونك. بل إن في النص بعد ذلك معنى يجرد إبراهيم عليه السلام من رجولته فضلاً عن إبائه وعظمته كنبيّ ورسول، هذا المعنى هو أنه كان (ديوثاً) على أهله، يعيش على ريعهم، وينعم بثمن امرأته، فصنع لإبرام خيراً بسببها، وصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وأتن وجمال.

وقد يصبح من المؤكد بعد ذلك اللفظ التوراتي الذي روي في الإصحاح العشرين من سفر التكوين عن خبر ارتحال إبراهيم عليه السلام إلى أرض الجنوب، وإقامته بين «قادش» و«شور». وغربته على حد تعبير التوراة في «جرار» الذي يقع شرق «خان يونس» والذي يعرف بـ«أم الجرار»، والمنطقة الذي نزل فيها بعد ذلك هي منطقة «بئر سبع» من وجود موقف مشابه تماماً لقصة إبراهيم وسارة مع فرعون مصر. تقول التوراة في الإصحاح العشرين من سفر التكوين: وانتقل إبراهيم من هناك، أي: من مصر إلى أرض الجنوب، وسكن بين قادش وشور، وتَغَرَّب في «جرار». وقال إبراهيم عن سارة امرأته: هي أختي، فأرسل «إبيمالك» ملك جرار وأخذ سارة وقضت معه ليلة. وأيضاً مثلما قدم الفرعون المصري لإبراهيم

الخير الكثير بسبب امرأته سارة «أخذ إبيمالك غنماً وبقراً وعبيداً وإماءً وأعطاها لإبراهيم ورد إليه سارة امرأته»(١).

ومن مظاهر التحريف في التوراة أن أبا الأنبياء صوّرته التوراة في صورة وثنية أو حيوانية تنضح بعقلية المزيف ونفسيته. لقد اتهمت التوراة أبا الأنبياء إبراهيم عليه السلام بالكذب، ولصقت به أخس الصفات وقبيح الفعال من التمايل، والسكوت على الفاحشة، وعلى الاغتصاب، ومن الرضا بالمهانة، والخوف من السلطان، ثم بالتفريط في العرض بإسلام الزوجة للرئيس. وتقول التوراة: إن ملك مصر، وكان من العمالقة الهكسوس، علم بجمال سارة بعد أن أخبرته الحاشية أن امرأة جميلة وفدت إلى مصر مهاجرة ومعها رجل، فاستدعاهما الملك إلى قصره، ومن إبراهيم علم أنها ليست متزوجة وأنها أخت إبراهيم فاتخذها الملك من نسائه بعد أن بالغ في إكرام إبراهيم ومنح له قطعان من «الغنم والثيران والحمير»، ثم سرعان ما ظهر وباء في القصر أصاب الملك وحاشيته، وعرف الملك أن هذا الوباء لا ينزل بجماعة إلا إذا ارتكبت فيها الفاحشة (فاحشة الزنا وفاحشة الكذب) وما لبث الملك أن استدعى إبراهيم وبالغ في تأنيبه لافترائه وكذبه وزعمه أن سارة أخته لا امرأته، وما تمخض عن هذا الكذب من تفشي الوباء في قصر الملك وارتكاب الفاحشة. إذ عامل الملك سارة كإحدى نسائه في الوقت الذي ما زالت هي فيه تحت إبراهيم وعصمته.

ويقول سفر التكوين: إن إبراهيم بعد أن طرده الملك من مصر هو وسارة، وبعد أن سمح له فرعون مصر بأن يحمل معه جميع ما وهب له من مال ومتاع هاجر إلى منطقة «جرار»، ومَثَّل أمام حاكمها الدور الذي مثله أمام فرعون مصر، وكاد الحاكم ويدعى «أبيمالك» يرتكب الإثم مع سارة برضا إبراهيم وتحت سمعه، ولولا أنه رأى رؤيا منامية أطلعه الله فيها على حقيقة سارة، فاستدعى إبراهيم ووبخه، ثم منحه هبة من نعاج وثيران وعبيد، على أن يحمل عصاه وامرأته وما معه ويرحل إلى منطقة أخرى.

---

(١) التاريخ اليهودي العام، د. صابر طعيمة ص٦ ـ ١٤.

وهكذا تصور التوراة المحرفة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ على أنه يتاجر بامرأته. إذ ينتقل بها من بلد إلى أخرى كاذباً مخفياً الحقائق هادفاً جمع المال والهدايا والعطايا، مستخفاً بالشرف، مستهيناً بالطهر في سبيل أن تسلم له حياته، وأن يحصل على ما يبتغيه من مال[١].

أما ظلمات التلمُود الحقود فقد جاء فيه أن الله حنث في يمينه، فقد كذب أيضاً بقصد الإصلاح بين إبراهيم وزوجته سارة، وبناءً على ذلك يكون الكذب حسناً سائغاً لأجل الإصلاح. والله مصدر الشر كما أنه مصدر الخير، وقد جعل للإنسان طبيعة رديئة وسنّ له شرية لولاها لما وقع في خطأ، وقد أجبر اليهود قبولها[٢].

أما القرآن الكريم فإنه يصف إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ بأنه بلغ المرتبة المثالية في الصدق، فلم يكن صادقاً فحسب بل كان صديقاً. قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾﴾ [مريم: ٤١]. ولا عجب فقد كان يدعو ربه قائلاً: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي حُكۡمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَٱجۡعَل لِّي لِسَانَ صِدۡقٖ فِي ٱلۡأٓخِرِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الشعراء: ٨٣، ٨٤]. هذه هي صورة إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن الكريم. وهذه صورته في التوراة مشوهة محرفة، وما أبعد البون بينهما، إنه الفرق بين الصدق والكذب.

كان إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من وقت أن ذهب بسارة إلى الملك قام يصلي لله عزَّ وجلَّ، ويسأله أن يدفع عن أهله، ويرد بأس هذا الذي أراد أهله بسوء. وهكذا فعلت هي أيضاً، فلما أراد عدو الله أن ينال منها أمراً قامت إلى وضوئها وصلاتها، دعت الله وهي تقول: «اللَّهمَّ إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسلك وأحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تسلط عليَّ الكافر». ولهذا قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٣﴾﴾ [البقرة: ١٥٣]، فعصمها الله وأضافها لعصمة عبده ورسوله وحبيبه وخليله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد ذهب بعض العلماء إلى نبوة ثلاثة

---

(١) الشعب الملعون في القرآن، د. محمود بن الشريف ص١١٤ ـ ١١٨.
(٢) من التلمُود، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر ص٢٨.

نسوة: سارة، وأم موسى، ومريم عليهن السلام، والذي عليه الجمهور أنهن «صديقات» رضي الله عنهن وأرضاهن. ورأيت في بعض الآثار أن الله عزَّ وجلَّ كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ وبينها، فلم يزل يراها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه. وكان مشاهداً لها وهي عند الملك، وكيف عصمها الله منه، ليكون ذلك أطيب لقلبه وأقرّ لعينه وأشد لطمأنينته. فإنه كان يحبها حباً شديداً لدينها وقرابتها منه وحسنها الباهر، فإنه قد قيل: إنه لم تكن امرأة بعد حواء في زمانها أحسن منها رضي الله عنها.

ثم إن الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ رجع من بلاد مصر إلى أرض التيمن، وهي الأرض المقدسة التي كان فيها، ومعه أنعام وعبيد ومال جزيل، وصحبتهم هاجر القبطية المصرية. ثم إن لوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ نزح بما له من الأموال الجزيلة إلى أرض «الغور»، المعروف بغور زعر، فنزل بمدينة «سدوم» وهي أم تلك البلاد في ذلك الزمان، وكان أهلها أشراراً كفاراً فجاراً. قالوا: ثم إن طائفة من الجبارين تسلطوا على لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ فأسروه، وأخذوا أمواله واستاقوا أنعامه. فلما بلغ الخبر إبراهيم الخليل سار إليهم في ثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً فاستنقذ لوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ واسترجع أمواله. ثم رجع مؤيداً منصوراً إلى بلاده، وتلقاه ملوك بلاد بيت المقدس معظمين له مكرمين خاضعين، واستقرّ ببلاده صلوات الله وسلامه عليه. فقد أوصى الله تعالى إلى إبراهيم الخليل، فأمره أن يمد بصره وينظر شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً، وبشَّره بأن هذه الأرض كلها سأجعلها لك ولخلفك إلى آخر الدهر، وسأكثر ذريتك حتى يصيروا بعدد تراب الأرض، وهذه الأمة المحمدية[1]. ويؤيد ذلك قول رسول الله ﷺ: «**إن الله زوى** - أي: جمع لي - **الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها**»[2].

وهبت سارة هاجر إلى إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، لعل الله يرزقه منها ولداً، وكانت سارة قد منعت الوالد حين أيست، فوقع إبراهيم على هاجر فحملت

---

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير ص١٩٥ - ١٩٩.

(٢) مختصر صحيح مسلم، للألباني كتاب الفتن ص٥٣١ رقم م/١٧١.

بإسماعيل عليه السلام. وأقام بناحية من أرض فلسطين بين الرملة وإيلياء وهو يُضَيِّف من يأتيه، وقد أوسع الله عليه وبسط له في الرزق. وكان لوط بن هاران ابن أخي إبراهيم عليه السلام، وهو أول من آمن له يوم النار، وكان معه في هجرته، وهو النبيّ المذكور في القرآن المبعوث إلى «سدوم» وسائر القرى الخمس المؤتفكة، وهي: سدوم، عمورا، حصورا، صابوا. قال الزمخشري: قرى قوم لوط كانت خمسة أهلك الله أربعة بأهلها، وبقيت واحدة وهي بلاد بين تخوم الحجاز مما يلي الأردن وبلاد فلسطين، إلا أن ذلك في حيز الشام خراب لا أنيس به ولا حسيس.

قال الثعالبي في العرائس: وإنما سمي لوط لأن حبه ليط بقلب إبراهيم، أي: تعلق ولصق، فكان إبراهيم عليه السلام يحبه حباً شديداً. وهاجر معه إلى مصر وعاد إلى الشام، فأرسله الله إلى أهل (سدوم) القرية التي قيل فيها: أجْوَرُ من قاضي سدوم. وكانوا أهل كفر وفاحشة، فقال لهم لوط: (أتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر)، وكان قطعهم السبيل إتيان الفاحشة لمن ورد عليهم، إذا مرّ عليهم المار أمسكوه وفعلوا به اللواط، وفي ناديهم المنكر: نكاح بعضهم بعضاً، وكانوا يفعلون مثل ذلك بنسائهم.

لقد كَذبوا لوطاً ولم يزدهم وعظه إلا تمادياً، فسأل الله فيهم فأرسل الله الملائكة بقلب سدوم والمؤتفكات. فجعلوا طريقهم على إبراهيم عليه السلام، فما لبث أن جاء بعجل حنيذ، فلم يأكلوا، فأوجس منهم خيفة. فقالت لهم زوجته سارة: ما لكم تمتنعون من طعام نبيّ الله، فبشروها بإسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب. وكانت سارة يومئذ ابنة تسعين سنة وإبراهيم ابن مائة وعشرين سنة، فقالت: ﴿ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ﴾ إلى آخر الآيتين. ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ﴾ قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى ٱلْكِبَرِ إِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾ وسألهم فيما أتوا، فقالوا: أتينا بهلاك قوم لوط، ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ فلما وصلت الملائكة إلى لوط وهم في صورة مُرْدٍ حسان الوجوه رأوه تحت البلد يسقي زرعاً وكان مزارعاً، فقالوا له: هل من قِرى عندك الليلة؟ فقال: إن أهل هذه القرية لعنهم الله قوم سوء ينكحون الرجال ويأخذون

الأموال فما أنتم؟ قالوا: نحن عبيد، وكان آخر النهار. فتركهم وذهب إلى البلد وقال لامرأته: إن كتمت عليَّ الليلة في ضيوف عندي عفوت عما مضى منك. وكانت إذا جاءه ضيف ليلاً توقد فوق السطح، وإن جاءه نهاراً تدخن، علامة بينها وبين قومها، فوعدته الكتمان. فغدا بهم، فلما وصلوا أوقدت النار على السطح، فجاؤوا إليه يهرعون، كما حكى الله تعالى عنهم ذلك وقالوا له: ﴿أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فقال: ﴿يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ يعني: التزويج لأكابركم، ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِى ضَيْفِىٓ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾، فكان من جوابهم قولهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ﴾ إلى آخره، فناشدهم الرحم وهم على العناد.

فقال جبريل: افتح لهم. فقال: ﴿لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾. وقال: مَن أنت؟ قال: جبريل. قال: بماذا أتيت؟ قال: بهلاكهم، قال: متى؟ قال: ﴿مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ﴾ فاستبطأ لوط ذلك، فقال له جبريل عليه السلام: ﴿أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾. فأحاطوا بداره جميعاً وكان جبريل قد أمره أن يطلع ليلاً، فلما جاء عند الصبح رآه باقياً في مكانه فقال له: لمَ لا تطلع؟ فاعتذر بشدة اجتماعهم على داره فضرب جبريل الأرض بقضيب فانفتح سرداب فيه قضيب من نور إلى ظاهر البلد فقال: اتبعه ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾، فخرجوا مسرعين، فتبعتهم امرأته، فسقطت عليها صخرة فأهلكتها. فلما كان الصبح اقتلع جبرائيل أرضهم سدوم وقراها وبمن فيها، فرفعها حتى بلغ بها السماء، وسمع أهل السماء نبح كلابهم وصياح ديكتهم، ثم قلبها عاليها سافلها، وأمطر الله الحجارة على من لم يكن بالقرى فأهلكهم[١].

يقول رحمة الله الهندي في كتابه «إظهار الحق»: إن التوراة المشهورة ليست التوراة التي صنعها موسى ولا التي كتبها عزرا. بل الحق إنها مجموعة من الروايات والقصص المشتهرة بين اليهود وجمعها أحبارهم. وإن هناك الكثير من الأدلة على تحريف التوراة والتي تدل على التبديل والتغير

(١) سمط النجوم العوالي، عبدالملك العصامي ج١ ص١٣٩ ـ ١٤٢.

في النصوص الأصلية. واستنكر ما وقع في الباب التاسع عشر من سفر التكوين من أن لوطاً عَلَيْهِ السَّلَامُ زنى بابنتيه، وحملتا من أبيهما، وتولدهما ابنان هما: أبو الموابين والعمانيين[١].

ولقد اتهمت التوراة رسل الله المصطفين الأخيار بصفات يتنزه عنها الإنسان. فنبيّ الله لوط عَلَيْهِ السَّلَامُ يقع في جريمة الزنا، وبمن؟ بابنتيه، وهل يمكن أن تصدر هذه الاتهامات من موسى على ربه وعلى نفسه وعلى إخوته من الرسل والأنبياء. وهذا ما يؤكد أن التحريف في التوراة كان تحريفاً لفظياً ومعنوياً[٢].

قال أهل الكتاب: إن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ سأل الله ذرية طيبة وأن الله بشره بذلك. وأن سارة قالت لإبراهيم: إن الرب حرمني الولد فأدخل على أمتي هاجر لعل الله يرزقني منها ولداً. فلما وهبتها له حملت منه فتعاظمت على سيدتها فغارت منها سارة فشكت ذلك إلى إبراهيم فقال لها: افعلي ما شئتِ، فخافت هاجر. فقال لها ملك من الملائكة: لا تخافي فإن الله جاعل من هذا الغلام الذي حملت خيراً، يده على الكل، ويد الكل به، ويملك جميع بلاد إخوته. وهذه البشارة إنما انطبقت على ولده محمد صلوات الله وسلامه عليه، فإنه الذي به سادت العرب، وملكت جميع البلاد غرباً وشرقاً، وأتاه الله من العلم النافع والعمل الصالح ما لم تؤت أمة من الأمم قبلهم. وما ذاك إلا بشرف رسولها على سائر الرسل، وبركة رسالته، ويمن بشارته، وكماله فيما جاء به، وعموم بعثه لجميع الأرض.

إن هاجر عليها السلام لما ولد لها إسماعيل، اشتدت غيرة سارة منها، وطلبت من الخليل أن يغيب وجهها عنها. فذهب بها وبولدها، فسار بهما حتى وضعهما حيث مكة اليوم، ويقال: إن ولدها كان إذ ذاك رضيعاً فلما تركهما هناك وولى ظهره عنهما قامت إليه هاجر وتعلقت بثيابه، وقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتدعنا ها هنا وليس معنا ما يكفينا؟ فلم يجبها، قالت

---

(١) الشعب الملعون في القرآن، د. محمد بن الشريف ص١٢٣.
(٢) التوراة، د. محمد شتيوي ص٧٤.

له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: فإذاً لا يُضَيِّعُنَا. وقد ذكر الشيخ أبو محمد بن أبي زيد رحمه الله في كتاب النوادر: أن سارة غضبت على هاجر، فحلفت لتقطعن ثلاثة أعضاء منها، فأقرها الخليل أن تثقب أذنيها، وأن تخفيها فتبر قسمها. وقال السهيلي: فكانت أول من اختتن من النساء، وأول من ثقبت أذنها، وأول من طولت ذيلها(١).

حدثنا عبدالله بن محمد، حدثنا أبو عامر عبدالملك بن عمر، وقال: حدثنا إبراهيم بن نافع، عن كثير بن كثير، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما كان بين إبراهيم وبين أهله ما كان خرج بإسماعيل وأم إسماعيل، ومعهم شنة فيها ماء، فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة، فيدر لبنها على صبيها، حتى قدم مكة فوضعها تحت دوحة، ثم رجع إبراهيم إلى أهله، فاتبعته أم إسماعيل حتى إذا بلغوا كدي نادته من ورائه: يا إبراهيم، إلى مَن تتركنا؟ قال: إلى الله. قالت: رضيت بالله، قال: فرجعت فجعلت تشرب من الشنة ويدر لبنها على صبيها، حتى إذا فني الماء قالت: لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحداً، قال: فذهبت فصعدت الصفا فنظرت، ونظرت هل تحس أحداً، فلم تحس أحداً، فلما بلغت الوادي سعت وأتت المروة وفعلت ذلك أشواطاً، ثم قالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل ـ تعني: الصبي ـ فذهبت فنظرت، لعلي أحس أحداً، فذهبت فصعدت الصفا، فنظرت ونظرت فلم تحس أحداً، حتى أتمّت سبعاً، فقالت: لو ذهبت فنظرت ما فعل، فإذا هي بصوت، فقالت: أغث إن كان عندك خير، فإذا جبريل قال: فقال بعقبه هكذا، وغمز عقبه على الأرض، قال: فانبثق الماء، فدهشت أم إسماعيل فجعلت تحفر، فقال أبو القاسم ﷺ: «**لو تركته كان الماء ظاهراً**»، قال: فجعلت تشرب من الماء ويدر لبنها على صبيها، قال: فمرّ ناس من جرهم ببطن الوادي فإذا هم بطير كأنهم أنكروا ذاك، وقالوا: ما يكون الطير إلا على ماء. فبعثوا رسولهم فإذا هو بالماء، فأتاهم فأخبرهم فأتوا إليها فقالوا: يا أم إسماعيل،

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج١ ص٢٠٠ ـ ٢٠٢.

أتأذنين لنا أن نكون معك أو نسكن معك؟ فبلغ ابنها فنكح فيهم امرأة، قال: ثم إنه بدا لإبراهيم، فقال لأهله: إني مُطَّلع تركتي، قال: فجاء فسلَّم، فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيد، قال: قولي له إذا جاء غيِّر عتبة بابك. فلما جاء أخبرته، قال: أنت ذاك، فاذهبي إلى أهلك، قال: ثم إنه بدا لإبراهيم، فقال لأهله: إني مطلع تركتي. قال: فجاء فقال: أين إسماعيل؟ فقالت امرأته: ذهب يصيد، فقالت: ألا تنزل فتطعم وتشرب؟ فقال: وما طعامكم وشرابكم؟ قالت: طعامنا اللحم وشرابنا الماء. قال: اللَّهمَّ بارك لهم طعامهم وشرابهم. قال: فقال أبو القاسم ﷺ: «**بركة دعوة إبراهيم**»، قال: ثم إنه بدا لإبراهيم فقال لأهله: إني مطلع تركتي. فجاء فوافق إسماعيل من وراء زمزم يصلح نباله. فقال: يا إسماعيل، إن ربك أمرني أن أبني له بيتاً. قال: أطع ربك. قال: إنه قد أمرني أن تعينني عليه. قال: إذن أفعل. قال: فقاما فجعل إبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة ويقولان: ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. قال: حتى ارتفع البناء، وضعف الشيخ على نقل الحجارة، فقام على حجر المقام. وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «**المسجد الحرام**»، قال: قلت: ثم أي؟ قال: «**المسجد الأقصى**»، قلت: كم كان بينهما؟ قال: «**أربعون سنة. ثم أينما أدركتك الصلاة بَعْدُ فصَلِّ فإن الفضل فيه**»(١).

إن الخليل عليه السلام بنى أشرف المساجد في أفضل البقاع في وادٍ غير ذي زرع، ودعا لأهلها بالبركة، وأن يرزقوا من الثمرات، وأن يجعله حرماً آمناً. فاستجاب الله مسألته ولبّى دعوته وآتاه طلبته، قال الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [العنكبوت: ٦٧]. وسأل الله الخليل عليه السلام قال: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٩]، أي: أن ابعث الله فيهم رسولاً، من

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق ج٤ ص١٧٦ ـ ١٧٧.

جنسهم، وعلى لغتهم العظيمة البليغة لتتم عليهم النعمتان الدنيوية والدينية، سعادة الدنيا والآخرة. وقد استجاب الله له، فبعث فيهم رسولاً، وأي رسول، ختم به أنبيائه ورسله، وأكمل له من الدين ما لم يؤتِ أحداً قبله. وعمّ بدعوته أهل الأرض على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وصفاتهم في سائر الأقطار والأمصار والأعصار إلى يوم القيامة. وكان هذا من خصائصه من بين سائر الأنبياء، لشرفه في نفسه وكمال ما أرسل به، وشرف بقعته وفصاحة لغته، وكمال شفقته على أمته ولطفه ورحمته وكمال محتده وعظيم مولده وطيب مصدره ومورده[1].

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾ [البقرة: ٢٦٠]، ذكروا لسؤال إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أسباباً منها: أنه لما قال لنمروذ: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ أحبّ أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين، وأن يرى ذلك مشاهدة فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، وقوله: ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾، اختلف المفسرون في هذه الأربعة ما هي؟ فروى ابن عباس أنه قال: هي الغرنوق والطاووس والديك والحمامة. وقوله: ﴿فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ أوثقهن، فلما أوثقهن ذبحهن ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً. فذكروا أنه عمد إلى ذبحهن ثم قطعهن ونتف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزأهن أجزاءً وجعل على كل جبل منهن جزءاً، قيل: أربعة أجبل. قال ابن عباس: وأخذ رؤوسهن بيده، ثم أمره الله عزَّ وجلَّ أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله عزَّ وجلَّ، فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش والدم إلى الدم واللحم إلى اللحم، والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض حتى قام كل طائر على حدة وأتينه يمشين سعياً ليكون أبلغ له في الرؤية التي سألها. وجعل

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير ج١ ص٢٠٢ ـ ٢٢٨.

كل طائر يجيء ليأخذ رأسه الذي في يد إبراهيم عليه السلام، فإذا قدم له غير رأسه يأباه، فإذا قدم إليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته، ولهذا قال: ﴿وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، أي: عزيز لا يغلبه شيء ولا يمتنع من شيء، وما شاء كان بلا ممانع لأنه القاهر لكل شيء، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره(١).

أمر الله عزَّ وجلَّ إبراهيم الخليل عليه السلام بذبح ابنه الذي أمر بذبحه، فيما ذكر أنه لما نزل به أضياف من الملائكة الذين كانوا أرسلوا إلى المؤتفكة قوم لوط بشَّروهُ بغلام حليم عن أمر الله تعالى إياهم بتبشيره. فقال إبراهيم إذ بشر به: هو إذاً لله ذبيح، فلما ولد الغلام وبلغ السبع قيل له: أوْفِ بنذرك الذي نذرت لله. ذكر مَن قال ذلك: حدثني موسى بن هارون، قال: حدثني عمر بن حماد، قال: حدثنا أسباط عن السدي، قال: قال جبرائيل عليه السلام لسارة: أبشري بولد اسمه إسحاق، ومن وراء إسحاق يعقوب، قالت سارة لجبرائيل: ما آية ذلك؟ فأخذ بيده عوداً يابساً فلواه بين أصابعه فاهتز أخضر، فقال إبراهيم: هو إذاً لله ذبيح. فلما كبر إسحاق رأى إبراهيم في النوم فقيل له: أوفِ بنذرك الذي نذرت إن رزقك الله غلاماً من سارة أن تذبحه. فقال لإسحاق: انطلق نقرّب قرباناً إلى الله، وأخذ سكيناً وحبلاً ثم انطلق معه حتى إذا ذهب به بين الجبال قال له الغلام: يا أبتِ، أين قربانك؟ قال: يا بني، إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى. قال: يا أبت، افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين. قال له إسحاق: اشدد رباطي حتى لا أضطرب وأكنف عني ثيابك حتى لا ينتضح عليها من دمي شيء فتراه سارة فتحزن، وأسرع مر السكين على حلقي ليكون أهون للموت عليَّ، وإذا أتيت سارة فاقرأ عليها السلام. فأقبل عليه إبراهيم عليه السلام يقبّله وقد ربطه وهو يبكي، وإسحاق يبكي، حتى استنقع الدمع تحت خد إسحاق. ثم إنه جرّ السكين عن حلقه فلم يحك السكين، وضرب الله عزَّ وجلَّ صحيفة من نحاس على حلق إسحاق، فلما رأى ذلك

---

(١) تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ج١ ص٣١٥.

ضرب على جنبيه وحزّ في قفاه. يقول: سلما لله الأمر، فنودي: يا إبراهيم، قد صدقت الرؤيا بالحق. التفت، فإذا بكبش، فأخذه وخلّى عن ابنه، فأكبّ على ابنه يقبله وهو يقول: يا بني، اليوم وهبت لي. فرجع إلى سارة فأخبرها الخبر فجزعت سارة وقالت: يا إبراهيم، أردت أن تذبح ابني ولا تعلمني(١).

يذكر الله تعالى عن خليله إبراهيم عليه السلام أنه لما هاجر من بلاد قومه، سأل ربه أن يهب له ولداً صالحاً، قال تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: ١٠١] وهو إسماعيل عليه السلام؛ لأنه أول من ولد له على رأس ست وثمانين سنة من عمر الخليل. وهذا ما لا خلاف فيه بين أهل الملل، لأنه أول ولده وبكره. وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: ١٠٢]، أي: لمّا شبّ وصار يسعى في مصالحه، رأى إبراهيم عليه السلام في المنام أنه يؤمر بذبح ولده هذا. وهذا اختبار من الله عزَّ وجلَّ لخليله في أن يذبح هذا الولد العزيز الذي جاءه على كبر، بعدما أمر بأن يسكنه هو وأمه في بلاد قفر، وواد ليس به حسيس ولا أنيس، ولا زرع ولا ضرع، ثم لما أمر بعد هذا كله بذبح ولده أجاب ربه وامتثل أمره. ثم عرض ذلك على ولده من أن يأخذه قسراً، فبادر الغلام الحليم فقال: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾. وهذا الجواب في غاية السداد والطاعة للوالد ولرب العباد.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [الصافات: ١٠٣ ـ ١٠٧]، تلَّه للجبين، أي: ألقاه على وجهه وأضجعه كما تضجع الذبائح وبقي طرف جبينه لاصقاً بالأرض، وأسلما، أي: سمَّى إبراهيم وكبَّر وتشهَّد الولد للموت. فعند ذلك نودي من الله عزَّ وجلَّ: أن صدقت الرؤيا وحصل المقصود من اختبارك وطاعتك الرؤيا،

(١) تاريخ الطبري، ج١ ص٢٧٢ ـ ٢٧٣.

وبذلك قدمت ولدك للقربان، وسمحت لبدنك بالنيران، ومالك مبذول للضيفان. ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُاْ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾، أي: الاختبار الظاهر البيِّن. وقوله: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾، أي: وجعلنا فداء ذبح ولده ما يسّره الله تعالى له من العوض عنه، والمشهور عن الجمهور أنه كبش أبيض أعْيَن ـ شديد سواد العين ـ أقرن ـ كبير القرنين ـ وقال سعيد بن جبير: كان يرتع في الجنة حتى تشقق عنه ثبير. وعن ابن عباس: هو الكبش الذي قرّبه ابن آدم فتقبل منه، وعنه: أن رأس الكبش لم يزل معلقاً عند ميزاب الكعبة قد يبس.

وهذا دليل على أن الذبيح إسماعيل لأنه كان هو المقيم بمكة، وهذا هو الظاهر في القرآن، بل نصّ على أن الذبيح هو إسماعيل لأنه ذكر قصة الذبح ثم قال بعده: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾، ومستنده أنه إسحاق إنما هو إسرائيليات، وكتابهم فيه تحريف، ولا سيما هاهنا قطعاً لا محيد عنه، فإن عندهم أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه ووحيده، وفي نسخة من المعربة بكره إسحاق، فلفظة إسحاق هاهنا مقحمة مكذوبة مفتراة، لأنه ليس الوحيد ولا البكر إنما ذاك إسماعيل.

وإنما حملهم على هذا حسد العرب، فإسماعيل أبو العرب الذين يسكنون الحجاز الذين منهم رسول الله ﷺ، وإسحاق والد يعقوب، وهو إسرائيل الذي ينتسبون إليه. فأرادوا أن يجرُّوا هذا الشرف إليهم، فحرّفوا كلام الله وزادوا فيه وهم قوم بُهْت، ولم يقروا بأن الفضل بيد الله يؤتيه مَن يشاء. وقد قال بأنه إسحاق طائفة من السلف وغيرهم، وإنما أخذوه والله أعلم من كعب الأحبار أو من صحف أهل الكتاب، وليس في ذلك حديث صحيح عن المعصوم حتى نترك لأجله ظاهر الكتاب العزيز، ولا يفهم هذا من القرآن، بل المفهوم، بل المنطوق، بل النص عند التأمل على أنه إسماعيل.

وما أحسن ما استدل به ابن كعب القرظي على أنه إسماعيل وليس بإسحاق من قوله: (فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب)، قال: فكيف تقع البشارة بإسحاق وأنه سيولد له يعقوب، ثم يؤمر بذبح إسحاق

وهو صغير قبل أن يولد له. هذا لا يكون، لأنه يناقض البشارة المقدمة. والله أعلم. وقال محمد بن إسحاق عن بريدة عن سفيان بن فروة الأسلمي عن محمد بن كعب: إنه حدّثهم أنه ذكر ذلك لعمر بن عبدالعزيز وهو خليفة إذا كان معه بالشام يعني استدلاله بقوله بعد القصة: (فبشرناه بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب)، فقال له عمر: إن هذا الشيء ما كنت أنظر فيه، وإني لأراه كما قلت. ثم أرسل إلى رجل كان عنده بالشام، وكان يهودياً فأسلم وحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علمائهم. قال: فسأله عمر بن عبدالعزيز: أي ابنَيْ إبراهيم أُمر بذبحه؟ فقال: إسماعيل والله يا أمير المؤمنين، وإن اليهود لتعلم بذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أباكم الذي كان من أمر الله فيه، والفضل الذي ذكره الله منه لصبره لما أمر به، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأن إسحاق أبوهم(١).

لقد تنازع الناس في الذبيح، فمنهم مَن ذهب إلى أنه إسحاق، ومنهم مَن رأى أنه إسماعيل. فإن كان الأمر وقع بالذبح بالحجاز فالذبيح إسماعيل، لأن إسحاق لم يدخل الحجاز. وإن كان الأمر بالذبح وقع بالشام فالذبيح إسحاق، لأن إسماعيل لم يدخل الشام بعد أن حمل معه(٢).

ومهما يكن من لفظ وخلط في النصوص التوراتية لبني إسرائيل من وجهة نظرهم، فما تقوله التوراة في الإصحاح الثاني والعشرين من سفر التكوين واضح فيه زج وحشر اسم إسحاق على أنه الولد القريب إلى قلب أبيه وإلى نفسه، بل إن النص التوراتي هنا يدّعي أن إسحاق كان وحيد أبيه في رحلته التي رافقه فيها إلى أحد الجبال وتمّ فيها الفداء الذي تكرّم به الرب على إبراهيم ليخلص إبراهيم من فكرة ذبح الولد الذي أنيطت به تقرباً إلى الله وامتثالاً له. يقول الإصحاح الثاني والعشرون من سفر التكوين: «خذ ابنك وحيدك الذي تحبه إسحاق واذهب إلى أرض المريا وأصعده هناك إلى محرقة على أحد الجبال الذي أقول لك». والمعنى البديهي الواضح من

---

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج١ ص٢١٠ ـ ٢١٧.
(٢) مروج الذهب، للمسعودي ج١ ص٤٦.

سياق ما ترويه التوراة نفسها أن إسحاق ليس الولد الوحيد الذي يحبه ويؤثره. فالولد الوحيد والبكر من غير جدال هو إسماعيل طول المرحلة التي لم يكن إبراهيم فيها قد رزق بالولد الثاني إسحاق من السيدة سارة التي لم تكن أنجبت حين كانت الجارية هاجر كما تعبر التوراة قد حبلت وصغرت مولاتها في عينها. فالصنعة العنصرية المرحلية التي لازمت ظروف التدوين لأسفار العهد القديم قد حشرت اسم إسحاق الأب الذي انتسب إليه بعد ذلك الإسرائيليون حين أرادوا أن يخلعوا على إسحاق قداسة المواقف البطولية التي كانت بين إبراهيم وبين وحيده وبكره إسماعيل قبل أن يرزق إبراهيم بإسحاق. إن محاولة خلق علاقة خاصة بين الولد إسحاق وأبيه إبراهيم يحرم منها الولد الأكبر إسماعيل لينفرد بها إسحاق دون غيره، واضحة في القصد والزيف[1].

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [آل عمران: ٦٥]، ينكر الله تعالى على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في دعوى كل من الفريقين كون الخليل على ملتهم فبرأه الله منهم. فيبين أنه كان على دين الله الحنيف، وهو القصد إلى الإخلاص والانحراف عمداً عن الباطل إلى الحق. كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ [البقرة: ١٣٠]، فنزّه الله عزَّ وجلَّ خليله عليه السلام عن أن يكون يهودياً أو نصرانياً، وبيَّن أنه إنما كان حنيفاً مسلماً ولم يكن من المشركين. ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوۡلَى ٱلنَّاسِ بِإِبۡرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾ [آل عمران: ٦٨]، يعني: الذين كانوا على ملة من أتباعه في زمانه، ومَن تمسك بدينه بعدهم. وهذا النبيّ ـ يعني: محمداً ﷺ ـ فإنه الله شرع له الدين الحنيف الذي شرعه للخليل، وكمَّله الله تعالى له، وأعطاه ما لم يعطِ نبياً ولا رسولاً قبله. كما قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ

(١) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ص١٧ ـ ١٨.

﴿دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٦١﴾ [الأنعام: ١٦١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٠﴾ [النحل: ١٢٠]. وقوله: «أمة»، أي: قدوة إماماً مهتدياً داعياً إلى الخير يقتدى به، «قانتاً لله» أي: خاشعاً لله في جميع حركاته وسكناته، «حنيفاً» أي: مخلصاً على بصيرة ولم يكن من المشركين. وقال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ١٢٥﴾ [النساء: ١٢٥]، يُرَغِّبُ الله تعالى في اتباع إبراهيم عليه السلام، لأنه كان على الدين القويم والصراط المستقيم. والخلة هي غاية المحبة، وهكذا نال هذه المنزلة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد صلوات الله وسلامه عليه. أخبرنا الثوري عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: «**أبرأ إلى كل خليل من خِلّه، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت ابن أبي قحافة خليلاً، وإن صاحبكم خليل الله**»(١). وقد ذكر الله تعالى إبراهيم في القرآن كثيراً في غير ما موضع بالثناء عليه والمدح له، فقيل: مذكور في خمسة وثلاثين موضعاً. وهو أحد أولي العزم الخمسة المنصوص على أسمائهم تخصيصاً من بين سائر الأنبياء.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ٧﴾ [الأحزاب: ٧]، وهو أشرف أولي العزم بعد محمد ﷺ، وما ثبت في الصحيحين من حديث كعب قال: قلنا: يا رسول الله، هذا السلام عليك عرفناه فكيف الصلاة عليك؟ قال: «**قولوا: اللَّهمَّ صلِّ على محمد وعلى آل محمد كما صلّيت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد**»(٢). قال الله تعالى:

---

(١) سنن الترمذي، كتاب المناقب ج٥ ص٦٠٦ حديث رقم ٣٦٥٥.

(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، ج٤ ص١٧٨. صحيح مسلم كتاب الصلاة ج١ ص٣٠٥.

﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧﴾ [النجم: ٣٧] في جميع ما أمر به، وقام بجميع خصال الإيمان وشُعَبه، وكان لا يشغله مراعاة الأمر الجليل عن القيام بمصلحة الأمر القليل. قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ [البقرة: ١٢٤]، أي: فأنت والذين معك من المؤمنين اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم، أي: اختباره بما كلفه به من الأوامر والنواهي فأتمهن. وبكلمات، أي: بشرائع وأوامر ونواهي، وجزاء على ما فعل من قيامه بالأوامر وترك الزواجر جعله الله للناس قدوة وإماماً يقتدى به ويحتذى حذوه. وقد اختلف في تعيين الكلمات التي اختبر الله بها إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ. فعن قتادة قال ابن عباس: ابتلاه الله بالمناسك. وعن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس قال: ابتلاه بالطهارة: خمس في الرأس وخمس في الجسد، في الرأس: قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس، وفي الجسد: تقليم الأظافر وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء. وعن ابن هبيرة عن الصنعاني عن ابن عباس أنه كان يقول في تفسير هذه الآية: إنها عشر، ست في الإنسان وأربع في المشاعر. فأما التي في الإنسان: حلق العانة ونتف الإبط والختان وتقليم الأظافر وقص الشارب والسواك وغسل يوم الجمعة. والتي في المشاعر: الطواف والسعي بين الصفا والمروة ورمي الجمار والإفاضة. وعن عكرمة عن ابن عباس أنه قال: ما ابتلي بهذا الذين أحد قام به كله إلا إبراهيم. فالكلمات التي ابتلى الله إبراهيم بهن فأتمهن: الإسلام ثلاثون سهماً، منها عشر آيات في براءة: ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلۡعَٰبِدُونَ﴾ الآية، وعشر آيات في أول سورة ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١﴾ و﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٖ وَاقِعٖ ١﴾، وعشر آيات في الأحزاب ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾ إلى آخر الآية، فأتمهن أي: فكتب له براءة. قال الله تعالى: ﴿وَإِبۡرَٰهِيمَ ٱلَّذِي وَفَّىٰٓ ٣٧﴾(١).

أما عن ذكر صفة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فعن سمرة أنه قال: قال

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ج١ ص١٦٥.

رسول الله ﷺ: «**أتاني الليلة آتيان، فأتينا على رجل طويل لا أكاد أرى رأسه طولاً، وأنه إبراهيم ﷺ**»، وعن مجاهد أنه سمع ابن عباس رضي الله عنهما وذكروا له: الدجال مكتوب بين عينيه كافر، قال: لم أسمعه، ولكنه قال: أما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم، وأما موسى فجعد دم على جمل أحمر مخطوم بخلبة (الخلبة: الليفة) كأني أنظر إليه انحدر في الوادي. وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اختتن إبراهيم عليه السلام وهو ابن ثمانين سنة بالقدوم**»(١). وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا خير البرية، فقال رسول الله ﷺ: «**ذاك إبراهيم عليه السلام**»(٢).

أما عن ذكر وفاة سارة بنت هاران، وهاجر أم إسماعيل، فإن سارة كانت وفاتها بالشام. وقيل: إنها ماتت بقرية الجبارة من أرض كنعان في حبرون فدفنت في مزرعة اشتراها إبراهيم. أما خبر ذلك عن موسى بن هارون قال: حدثنا عمر بن حماد، قال: حدثنا أسباط عن السدي: أن إبراهيم اشتاق إلى إسماعيل، فقال لسارة: ائذني لي أنطلق إلى بني فأنظر إليه، فأخذت عليه عهداً ألاّ ينزل حتى يأتيها، فركب البراق، ثم أقبل، وقد ماتت أم إسماعيل وتزوج إسماعيل امرأة من جرهم، وإن إبراهيم عليه السلام كان له صديق يقرضه، فقالت له سارة: لو أتيت خليلك فأصبت لنا منه طعام. فركب حماراً له ثم أتاه، فلما أتاه تغيب منه، واستحيا إبراهيم أن يرجع إلى أهله خائباً. فمرّ على بطحاء فملأ منها خُرْجَه ثم أرسل الحمار إلى أهله، فأقبل الحمار وعليه حنطة جيدة. ونام إبراهيم عليه السلام فاستيقظ، وجاء إلى أهله، فوجد سارة قد جعلت له طعاماً، فقالت: ألا تأكل؟ فقال: وهل من شيء؟ فقالت: نعم من الحنطة التي جئت بها من عند خليلك، فقال: صدقت، فزرعها وزكا زرعه وهلكت زروع الناس. فكان أصل ماله منها، فكان الناس يأتونه فيسألونه

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، ج٤ ص١٧٠.

(٢) مختصر صحيح مسلم، تحقيق الألباني، كتاب ذكر الأنبياء وفضلهم ص٤٢٥ رقم ١٦٠٦.

فيقول: مَن قال: لا إله إلا الله فليدخل وليأخذ، ومنهم مَن أبى. وذلك قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴿٥٥﴾﴾ [النساء: ٥٥].

ولما ماتت سارة بنت هاران تزوج بعدها كما ذكر ابن إسحاق قطورا بنت يقطن امرأة من الكنعانيين، فولدت له ستة نفر: يقسان، وزمران، ومديان، ويسبق، وسوح، وبسر. فكان جميع بني إبراهيم ثمانية بإسماعيل وإسحاق، وكان إسماعيل بكره أكبر ولده. ولما مات إبراهيم الخليل عليه السلام دفن عند قبر سارة في مزرعة حبرون. عن أبي ذر الغفاري قال: قلت: يا رسول الله، كم كتاب أنزله الله؟ قال: مائة كتاب وأربعة كتب: أنزل الله عزَّ وجلَّ على آدم عليه السلام عشر صحائف، وعلى شيث خمسين صحيفة، وأنزل على أخنوخ (إدريس) ثلاثين صحيفة، وأنزل على إبراهيم عشر صحائف، وأنزل جلَّ وعزَّ التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. قلت: يا رسول الله، فما كانت صحف إبراهيم؟ قال: كانت أمثالاً كلها. أيها الملك المسلّط المبتلى المغرور، إني لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض، ولكن بعثتك لترد عني دعوة المظلوم، فإني لا أردها وإن كانت من كافر.

وكانت فيها أمثال: وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات، ساعة يناجي فيها ربه، وساعة يفكر فيها في صنع الله عزَّ وجلَّ، وساعة يحاسب فيها نفسه فيما قدّم وأخّر، وساعة يخلو فيها لحاجته من الحلال من المطعم والمشرب. وعلى العاقل ألا يكون ظاعناً إلا في ثلاث: تزود لمعاده، ومرمة لمعاشه، ولذة في غير محرم. وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه، مقبلاً على شأنه، حافظاً للسانه. ومن حسب كلامه من عمله قلّ كلامه إلا فيما يعنيه[١].

❋ ❋ ❋ ❋

(١) تاريخ الطبري، ج١ ص٣٠٨ ـ ٣١٣.

إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام

وقد كان للخليل بنون، ولكن أشهرهم الأخوان النبيان العظيمان الرسولان، أسنهما وأجلهما: الذي هو الذبيح إسماعيل بِكْر الخليل من هاجر القبطية المصرية عليها السلام. وقد أثنى الله تعالى عليه ووصفه بالحلم والصبر وصدق الوعد، والمحافظة على الصلاة، والأمر بها لأهله ليقيهم العذاب، مع ما كان يدعو إليه من عبادة رب الأرباب، قال الله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: ١٠١، ١٠٢]، فطاوع أباه على ما إليه دعاه، ووعد بأن سيصبر، فوفى بذلك وصبر عليه. قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾﴾ [مريم: ٥٤، ٥٥]، فذكر الله عنه كل صفة جميلة، وجعله نبيه ورسوله.

ويقول ابن كثير: إن مَن قال: إن الذبيح هو إسحاق، فإنما تلقاه من نقلة بني إسرائيل الذين بدلوا وحرّفوا وأوّلوا التوراة والإنجيل وخالفوا ما بأيديهم في هذا من التنزيل، فإن إبراهيم أمر بذبح ولده البكر وفي رواية: الوحيد. وأيما كان فهو بنص الدليل، ففي نص كتابهم أن إسماعيل ولد ولإبراهيم من العمر ست وثمانون سنة. وإنما ولد إسحاق بعد مضي مائة سنة من عمر الخليل، فإسماعيل هو البكر لا محالة، وهو الوحيد صورة ومعنى على كل حالة. أما في الصورة، فلأنه كان ولده أزيد من ثلاث عشرة سنة، وأما أنه وحيد في المعنى، فإنه هو الذي هاجر به أبوه ومعه أمه هاجر، وكان صغيراً رضيعاً فيما قيل، فوضعهما في وهاد جبال فاران، وهي الجبال حول مكة، نعم المقيل، وتركهما هنالك ليس معهما من الزاد والماء إلا القليل، وذلك ثقة بالله وتوكلاً عليه، فحاطهما الله تعالى بعنايته وكفايته فنعم الحسب والكافي والوكيل والكفيل. فهذا هو الولد الوحيد في الصورة والمعنى. ولكن أين مَن يتفطن لهذا السر ويدركه. لقد تزوج

إسماعيل عليه السلام امرأة من العماليق، وإن أباه أمره بفراقها ففارقها. ثم نكح غيرها من جرهم فأمره أن يستمر بها، فولدت له اثني عشر ولداً ذكراً وهم: نابت، وقيذر، وإزبل، وميشي، ومسمع، ومامش، ودوصا، وأرر، ويطور، ونبش، وطيما، وقيذما، وهكذا ذكرهم أهل الكتاب في كتابهم، وعندهم أنهم الاثنا عشر عظيماً المبشر بهم المتقدم ذكرهم، وكذبوا في تأويلهم ذلك. وكان إسماعيل عليه السلام رسولاً إلى أهل تلك الناحية وما والاها من قبائل جرهم والعماليق وأهل اليمن. ولما حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق وزوج ابنته نسمة من ابن أخيه العيص بن إسحاق، فولدت له الروم، ويقال لهم: بنو الأصفر لصفرة كانت في العيص، وولدت له اليونان في بعض الأقوال[١].

لقد كان عمر إسماعيل عليه السلام فيما يزعمون ثلاثين ومائة سنة، ومن نابت وقيذر نشر الله العرب، ونبأ الله عزَّ وجلَّ إسماعيل، فبعثه إلى العماليق فيما قيل وقبائل اليمن. وينطق أسماء أولاد إسماعيل في سفر التكوين **٢٥:١٣**: ينابوت، وقيدار، أئبيل، ومبسام، ومشماع، ودومة، ومسا، وحداد، وتيما، وبطور، ونافيس، وقدمة. وقيل: إن إسماعيل لما حضرته الوفاة أوصى إلى أخيه إسحاق وزوج ابنته من العيص بن إسحاق. وعاش إسماعيل فيما ذكر مائة وسبعاً وثلاثين سنة، ودفن في الحجر عند قبر أمه هاجر[٢].

قالوا بخصوص هجرة جرهم والمعتمر: إن قحطان كثروا بأرض اليمن، فوقع بينهم التباغي والتحاسد، لاجتماع ولد يعرب بن قحطان على جرهم بن قحطان، وولد المعتمر بن قحطان، فنفوهم عن اليمن وأرضه. فسارت جرهم نحو الحرم، وسار بنو المعتمر نحو الحجاز، ورئيس جرهم مصاص بن عمر، وأرادوا نزول الحرم، فمنعهم العماليق من ذلك فاقتتلوا، فغلبتهم جرهم على الحرم. فلما قطنوه بلغ ذلك بني المعتمر بن قحطان،

---

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج١ ص**٢٩٢ - ٢٩٥**.
(٢) تاريخ الطبري ج١ ص٣١٤.

فأقبلوا من أرض الحجاز حتى أتوا الحرم، وسألوا جرهم السكني معهم، فأبت عليهم جرهم ورئيس بني المعتمر السميدع، فتداعى الفريقان للحرب. فبحربهم هذه سميت قعيقان والمطابخ وأجياد وفاضح، لأن به فضحت بنو المعتمر، وقتل السميدع، وكان الظفر لجرهم.

قالوا: وكان لنمروذ (فرعون إبراهيم عليه السلام) ثلاثة بنين: أيرج، وسلم، وطوس، ففوَّض إلى أيرج ملكه. فحسد أيرج أخواه إذ خصه أبوه بالأمر دونهما، وهو أصغر سناً منهما، فاغتالاه فسيّر الملك إلى ابن ابنه بنو شهر بن أيرج، وفي عصره كثرت قحطان باليمن، فملكوا عليهم سبأ بن يشجب، واسم سبأ: عبد الشمس. وفي ذلك العصر توفي إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، وخلف ثلاثة بنين: قيدر، ونابت وهو الذي كان يقوم بأمر مكة والحرم، ومدين وهو الذي صار إلى أرض مدين ونزلها، ومن ولده شعيب النبيّ عليه السلام [1].

والراجح من التاريخ أن الله قد أرسل إسماعيل عليه السلام إلى القبائل العربية التي عاش في وسطها. وقد ذكر بعض المؤرخين أن الله قد أرسله إلى قبائل اليمن، وإلى العماليق الذين كانوا يسكنون في تلك الجهات، فبعثته كانت لنفس العرب الذين عاش معهم. وإسماعيل هو الذبيح لا إسحاق من التوراة نفسها، إذ أن الذبيح وصف بأنه ابن إبراهيم الوحيد، يذبحه امتثالاً لأمر ربه له في المنام، وهو أدل على امتثال الأمر ونهاية الطاعة، وهكذا هو الإسلام بعينه. وإذا رجعنا إلى إسحاق لم نجده وحيداً لإبراهيم في يوم من الأيام، لأن إسحاق ولد وعمر إسماعيل نحو أربع عشرة سنة كما هو صريح في التوراة. وأيضاً فإن ذبح إسحاق يناقض الوعد الذي وعد به إبراهيم أن إسحاق سيكون له نسل، وكذلك فإن مسألة الذبح وقعت في مكة، وإسماعيل هو الذي ذهب به أبوه إلى مكة رضيعاً لا إسحاق.

وقد ولد لإسماعيل عليه السلام اثنا عشر ولداً ذكراً، وهم كلهم رؤساء

---

(١) الأخبار الطوال، للدينوري ص٨ ـ ٩.

قبائل، وقد ذكرت التوراة أسماءهم، كما كانت له بنت زوجها لابن أخيه العيص بن إسحاق. ومن نسل إسماعيل جاء العرب الذين يعرفون بالعرب المستعربة، ثم كانت خاتمة المطاف بولادة سيدنا محمد ﷺ خاتم النبيين من نسل إسماعيل. وتذكر التوراة أن إسماعيل مات بأرض فلسطين ودفن فيها، والصحيح أنه مات بمكة ودفن فيها(١).

وتبين آيات التوراة نغمة التعصب المبكر عن الأفضلية المدعاة عنصرياً لإسحاق باعتباره قد أصبح فيما بعد أباً لإسرائيل واليهود، حين أنجب ولده يعقوب. فالصنعة العنصرية التي لازمت ظروف التدوين لأسفار العهد القديم قد حشرت اسم إسحاق الأب الأعلى لهم حين أرادوا أن يخلعوا على إسحاق قداسة المواقف البطولية التي كانت بين إبراهيم وبين وحيده وبكره إسماعيل الذي كبر وأصبح يافعاً قبل أن يرزق إبراهيم بإسحاق. وهناك إجماع تام بين المؤرخين حول قدوم إسماعيل مع إبراهيم واستقراره بمكة، آخذين بما جاء في القرآن الكريم والتوراة عن ذلك. وأن كل ما جاء حول هذه المرحلة وما تعلق بها لم يرد بتفصيل في غير هذين الكتابين. فإسماعيل هو المقصود في آيات التوراة حين الفداء وحين التضحية، وعليه لم يكن هناك من معنى للآيات التوراتية التي تقول فيها هاجر لإبراهيم بعد أن صحبها معه وولده إسماعيل فيها وابتنى البيت الذي ورد ذكره في القرآن الكريم وأراد العودة إلى حيث ترك سارة. فتقول له هاجر: إلى مَن تكلنا؟ فيقول لها: إلى الله، فترد عليه: إذن لا يضيعنا. فإذا صحّ القول اليهودي بأن إسماعيل لم يذهب إلى مكة، فمَن إذن الذي كان مع إبراهيم وزوجه هاجر، أهو إسحاق وهو لم يكن قد ولد بعد؟!

إن دور النبيّ إسماعيل عليه السلام كان في عملية تجميع الجنس العربي في حركة عضوية كبيرة تربط ما بين امتداد الأرض العربية في إفريقيا وآسيا. فهو من ناحية الجنس عراقي آسيوي لأبيه الذي في أور الكلدانية، ومصري إفريقي لأمه هاجر المصرية. وتزوج إسماعيل من جرهم القبيلة العربية

(١) النبوة والأنبياء، محمد علي الصابوني ص٢٥٣ ـ ٢٥٥.

الخالصة من فتاة اسمها «رعلة بنت عمرو»، ثم تزوج من نفس القبيلة بفتاة ثانية اسمها «سعيدة بنت مضاض» واقترن بالثالثة أيضاً من نفس القبيلة فتاة اسمها «الحنفاء بنت الحارث» وبالزوجات الثلاث اللائي اقترن بهن إسماعيل جرى في أعماقه وأعماقهن الدم العربي الخالص ممتزجاً بالدم العراقي الآسيوي، والدم المصري الإفريقي، الذي كان مزاجاً لمكونات قسم جديد من العرب بدأ بأولاد إسماعيل الذين ترد أخبارهم في التوراة بأنهم كانوا اثني عشر ولداً، وهم الذين كانوا نتاج زواجه من البنات الثلاث، وبدأت السلسلة العربية التي كانت مصدراً مباشراً للجنس العربي الذي بدأ يتناكح ويتناسل ويتكاثر. ومن هذه السلسلة الطويلة كانت تتعدد الفروع وتتسع الحلقات، لتمثل بطوناً وقبائل وأفخاذاً وأُسراً عربية. جميعها ترجع في أصلها التاريخي والجنسي إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام.

وقد أصبح إسماعيل أباً لكل هذه السلسلة العربية من خلال تزوجه من بنات العرب الثلاث اللائي أصبح بهن أباً للعرب المستعربة، ذلك القسم من العرب الذي منذ وجد قد جعل من تكامل الطبيعة الاقتصادية لهذه الرقعة الجغرافية الممتدة من الخليج العربي شرقاً إلى المحيط الأطلس غرباً ميداناً واحداً لمزج العناصر الجنسية لسكان هذه المنطقة الشاسعة، التي عملت فيها الرسالات السماوية التي نادى بها أصحابها، وكان كل عملها في التأثير والهداية. فكانت قوة إضافية إلى مقومات التكامل الجغرافي لرقعة الأرض، وقد أضاف التكامل الجنسي لوحدة الشعب معاني جديدة تساعد على المزج والانفعال القومي بقيم الأرض والجنس والدين. وفي هذه الأرض العربية التي شهدت نمواً وتكاثراً وتناسلاً لقسم من العرب الذي ولد لإسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام. كان هناك في رقعة أخرى من وحدة وتراب هذه الأرض ولد آخر لإبراهيم يُعَد أصلاً ومصدراً للجنس الإسرائيلي اليهودي، وهو الولد الثاني لإبراهيم من زوجته سارة، هذا الولد هو النبيّ إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام[(١)].

❊ ❊ ❊ ❊

(١) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ص٢٠ ـ ٢٦.

إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهما السلام

ولد ولأبيه مائة سنة، بعد أخيه إسماعيل بأربع عشرة سنة، وكان عمر أمه سارة حين بُشِّرت به تسعين سنة. قال الله تعالى: ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾﴾ [الصافات: ١١٢، ١١٣]، وقد ذكره الله تعالى بالثناء عليه في غير آية في كتابه العزيز. وذكر أهل الكتاب أن إسحاق لما تزوج «رفقا» بنت بتوئيل في حياة أبيه، كان عمره أربعين سنة، أنها كانت عاقراً فدعا الله لها فحملت، فولدت غلامين توأمين؛ أولهما: سموه «عيصو» وهو الذي تسميه العرب «العيص» وهو أبو الروم. والثاني: خرج وهو آخذ بعقب أخيه فسموه «يعقوب» وهو إسرائيل الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل. قالوا: وكان إسحاق يحب عيصو أكثر من يعقوب، لأنه بكره. وكانت أمهما «رفقة» تحب يعقوب أكثر لأنه الأصغر.

قالوا: فلما كبر إسحاق وضعف بصره اشتهى على ابنه العيص طعاماً، وأمره أن يذهب فيصطاد له صيداً ويطبخه له ليبارك عليه ويدعو له. وكان العيص صاحب صيد، فذهب يبتغي ذلك، فأمرت «رفقة» ابنها يعقوب أن يذبح جديين من خيار غنمه، ويصنع منها طعاماً كما اشتهاه أبوه، ويأتي إليه به قبل أخيه ليدعو له. فقامت فألبسته ثياب أخيه، وجعلت على ذراعيه وعنقه من جلد الجديين، لأن العيص أشعر الجسد ويعقوب ليس كذلك. فلما جاء به وقرّبه إليه قال: مَن أنت؟ قال: ولدك، فضمّه إليه وجسه وجعل يقول: أما الصوت فصوت يعقوب، وأما الجسد والثياب فالعيص. فلما أكل وفرغ دعا له أن يكون أكبر إخوته قدراً، وكلمته عليهم وعلى الشعوب بعده، وأن يكثر رزقه وولده. فلما خرج من عنده جاء أخوه العيص بما أمره به والده فقرّبه إليه، فقال له: ما هذا يا بني؟ قال: هذا الطعام الذي اشتهيته، فقال: أما جئتني به قبل الساعة وأكلت منه ودعوت لك؟ فقال: لا، والله. وعرف أن أخاه قد سبقه إلى ذلك، فوجد في نفسه عليه وجداً كثيراً، وذكروا أنه توعَّده بالقتل إذا مات أبوهما، وسأل أباه فدعا

له دعوة أخرى، وأن يجعل لذريته غيط الأرض، وأن يكثر أرزاقهم وثمارهم[(١)].

وعن رسالته عَلَيْهِ السَّلَامُ يترجح أنه قد أرسل إلى الكنعانيين في تلك الأراضي التي كانوا يسكنونها، وهي بلاد الشام وفلسطين في البيئة التي عاش فيها أبو الأنبياء إبراهيم الخليل. فكانت رسالة إسحاق إلى هؤلاء الأقوام الذين عاش بينهم عَلَيْهِ السَّلَامُ. ولما بلغ إبراهيم من العمر مائة سنة ولدت له زوجته «سارة» المرأة العجوز العقيم إسحاق، قال الله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ [هود: ٧٢]. وقد أوصى إبراهيم ابنه إسحاق ألاّ يتزوج إلا امرأة من أهل أبيه فتزوج إسحاق «رفقة» بنت ابن عمه. وقد أنجب منها ولدين «العيص» ويسميه أهل الكتاب «عيسو» والثاني «يعقوب» عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو المسمى «إسرائيل» وإليه ينتسب اليهود من بني إسرائيل. وعاش إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ مائة وثمانين سنة، ومات في أرض الكنعانيين، ودفن في الخليل «حبرون» في المغارة التي دفن فيها أبوه إبراهيم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ[(٢)].

وإسحاق هو الولد الثاني لإبراهيم، المولود في سن متأخرة من عمر إبراهيم بعد المائة والعشرين كما تحكي التوراة. وما إن أصبح رجلاً في سن الأربعين حتى اتخذ لنفسه زوجاً اسمها «رفقة بنت بتوئيل الأرامي». ومن عجب أن التوراة في نسجها القصصي وسردها للحوادث حريصة على أشياء بذاتها مثل: عقم النساء إلى سن متأخرة ثم إنجابهم الأولاد بعد سن اليأس. يقول سفر التكوين من الإصحاح الخامس والعشرين: وصلّى إسحاق إلى الرب لأجل امرأته لأنها كانت عاقراً. فاستجاب له ربه فحبلت رفقة امرأته، وتزاحم الولدان في بطنها، فقالت: إن كان هكذا فلماذا أنا؟ فمضت لتسأل الرب، فقال لها الرب: في بطنك أمتان، ومن أحشائك يفترق شعبان: شعب يقوى على شعب، وكبير يستعبد لصغير. فلما أكملت أيامها لتلد إذ

---

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج١ ص٢٩٧ ـ ٢٩٨.

(٢) النبوة والأنبياء، للصابوني ص٢٥٦ ـ ٢٥٧.

في بطنها توأمان، فخرج الأول أحمر كله كفروة شعر، فدعوا اسمه «عيسو» وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعى اسمه «يعقوب»، ويمضي الإصحاح من سفر التكوين: فكبر الغلامان، وكان عيسو إنساناً يعرف الصيد إنسان في البرية، ويعقوب يسكن الخيام. فأحبّ إسحاق عيسو لأن في فمه صيداً، وأما رفقة فكانت تحب يعقوب.

وفي نفس المعنى وعلى نفس النسج يمضي سفر التكوين فيقول: فأتى عيسو من الحقل وهو قد أعيا، فقال عيسو ليعقوب: أطعمني من هذا الأحمر لأني قد أعييت، لذلك دعي «أدوم»، فقال يعقوب: بعني اليوم بكوريتك، فقال عيسو: ها أنا ماض إلى الموت فلماذا إلى بكورية؟ فقال يعقوب: احلف لي اليوم، فحلف له فباع بكوريته ليعقوب. فأعطى يعقوب عيسو خبزاً وطبيخ عدس، فأكل وشرب وقام ومضى، فاحتقر عيسو البكورية. فهذا الإصحاح يبرز من خلاله مختلف جوانب الالتواء والأنانية للآباء الذين كانوا بعد ذلك للأبناء نماذج للدس والخديعة والأنانية والذاتية والتسلق والتصيد.

وتقول التوراة في سفر التكوين، في الإصحاح السادس والعشرين: وكان في الأرض جوع، فذهب إسحاق إلى «أبيمالك» ملك الفلسطينيين إلى جرار. وظهر له الرب، وقال: لا تنزل إلى مصر، اسكن الأرض التي أقول لك. تغرب في هذه الأرض فأكون معك وأباركك لأني لك ولنسلك أعطي جميع هذه البلاد، وأفي بالقسم الذي أقسمت لإبراهيم أبيك، وأكثر نسلك كنجوم السماء، وأعطي نسلك جميع هذه البلاد، ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض من أجل أن إبراهيم سمع لقولي وحفظ ما يحفظ لي أوامري وفرائضي وشرائعي. فأقام إسحاق في جرار، وسأله أهل المكان عن امرأته فقال: هي أختي، لأنه خاف أن يقول امرأتي لعل أهل المكان يقتلوني من أجل «رفقة» لأنها حسنة المنظر. وحدث إذ طالت له الأيام هناك أن «أبيمالك» ملك الفلسطينيين أشرف من الكوة ونظر وإذا إسحاق يلاعب «رفقة» امرأته فدعا إسحاق وقال: إنما هي امرأتك فكيف قلت: هي أختي، فقال إسحاق: لأني قلت: لعلي أموت بسببها. فقال أبيمالك: ما هذا الذي صنعت بنا، لولا

قليل لأضجع أحد الشعب من امرأتك فجلبت علينا ذنباً، فأوصى أبيمالك جميع الشعب قائلاً: الذي يمس هذا الرجل وامرأته موتاً يموت.

كما تقول التوراة في سفر التكوين، في الإصحاح السادس والعشرين عن الفترة التي قضاها إسحاق في سيناء: وزرع إسحاق في تلك الأرض، فأصاب في تلك السنة مائة ضعف، وباركه الرب فتعاظم الرجل، وكان يتزايد في التعظام حتى صار عظيماً جداً، فكان له مواشي من الغنم، ومواشي من البقر، وعبيد كثيرون. فحسده الفلسطينيون، وجميع الآبار التي حفرها عبيد أبيه إبراهيم طمسها الفلسطينيون وملؤوها تراباً. وقال «أبيمالك» لإسحاق: اذهب من عندنا لأنك صرت أقوى منا جداً. فمضى إسحاق من هناك، ونزل في وادي جرار، وأقام هناك ونبش آبار الماء التي حفروها في أيام إبراهيم أبيه وطمسها الفلسطينيون بعد موت أبيه، ودعاها بأسماء كالأسماء التي دعاها بها أبوه. وحفر عبيد إسحاق في وادي فوجدوا هناك بئر ماء حي، فخاصم رعاة جرار رعاة إسحاق قائلين: لنا الماء، فدعا إسحاق البئر «عسق» لأنهم نازعوه. ثم حفروا بئراً أخرى، وتخاصموا عليها أيضاً فدعا اسمها «رحوبوت» وقال: إنه الآن قد أرحب لنا الرب وأثمرنا في الأرض، ثم صعد من هناك إلى «بئر سبع» فظهر له الرب في تلك الليلة وقال: أنا إله إبراهيم أبيك. لا تخف لأني معك وأباركك وأكثر نسلك من أجل إبراهيم عبدي. فبنى هناك مذبحاً ودعا باسم الرب، ونصب هناك خيمته، وحفر هناك عبيد إسحاق بئراً. وذهب إليه من جرار «إبيمالك» وأحزات من أصحابه وفيكول رئيس جيشه، فقال لهم إسحاق: ما بكم أتيتم إليّ وأنتم قد أبغضتموني وصرفتموني من عندكم؟ فقالوا: إنا رأينا الرب كان معك، فقلنا: ليكن بيننا وبينك حلف، ونقطع معك عهداً أن لا تصنع بنا شراً كما لم نمسك، وكما لم نصنع بك إلا خيراً وصرفناك بسلام أنت الآن مبارك الرب. فصنع لهم ضيافة فأكلوا وشربوا ثم بكروا وحلفوا بعضهم لبعض، وصرفهم إسحاق ومضوا عنه بسلام. وحدث في ذلك اليوم أن عبيد إسحاق جاؤوا وأخبروه عن البئر التي حفروا وقالوا له: قد وجدنا ماء، فدعاها «شبعة»، لذا فإن اسم المدينة بئر سبع إلى هذا اليوم.

ولسنا نجد تفسيراً مقبولاً لكل ما تقصه التوراة حول هذه البيئة التي كان فيها الآباء الأُول لبني إسرائيل في حال من التركيز حول الأشياء المادية، وارتباط أمور القداسة أو البركة ومعاني الخير فيها. فبركة الأب إسحاق هي خطوة يغتنمها ولد دون آخر، وطاعة الولد أكلة يقدمها للوالد النبيّ. بل وتصور البركة على أنها سلعة عند صاحبها، فإسحاق أب لولدين يتصارعان عليها، وهي تنفذ إذا ما حصل عليها واحد منهما ولو بالوشاية والتزييف. هذا الحوار المصنوع دفينة التدوين الهزيل الذي يفصح عن مدى سقم المؤلف التوراتي في الصياغة، وهو يؤلف لموقف عائلي في بيت الآباء الأُول، الذي يحمل بنو إسرائيل اليوم دعوى زيف جنسي وتاريخي وديني لميراثهم.

ومما يحيّر سر بروز الطبع الملتوي والخلق النهاز والحرص الأناني، والعمل بالوشاية، والدس بالخديعة في البيت الثاني لإبراهيم في إسحاق وولديه ثم ذريتهما. بينما هناك في الجزيرة العربية في مكة حيث نشأ الولد الأول لإبراهيم إسماعيل وحيث واصل حياته واستغرب وعاشر القوم العرب وأصبح منهم بل وأصبح أباً وسيد الرجال والقبائل التي عرفت بالمروءة والقوة والفداء والتضحية، وكل معاني الشهامة والنبل والترفُّع بآداب وأخلاق التعامل الإنساني، مما جعل من هذا البيت الأول للولد الأول من أبناء إبراهيم أمل ورجاء كل ما يمكن أن يحمله أب من ميراث وأمانة دين ليكون مصدراً للهداية والتوجيه(١).

إن النبيّ إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ في كتاب الله العزيز من أنبياء الله يحمل مهمة أناطه الله بها وكلفه إياها في كل ما يتعلق بهداية البشر وتوجيه رسالة الله إليهم، فضلاً عن عصمته لهم من الوقوع في الخطيئة. وقد ذكر الله تعالى بالثناء على إسحاق عَلَيْهِ السَّلَامُ في غير آية في كتابه العزيز. فحديث القرآن الكريم الذي لم يمسه بشر ولم تعمل فيه أهواء المؤمنين به أو المنكرين له فخبره هو الخبر، وحديثه هو الحق الخالص الذي لم يختلط به

---

(١) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ص٢٦ ـ ٣٣.

شيء يختلف تماماً ويغاير قصص العهد القديم، فالتوراة سجل مأثورات وذكريات لأجيال عديدة ومراحل مختلفة فيها القليل من الحق والكثير من الغلو، ومنها هجوم واتهامات، وفيها تجريح وتشويه، وفيها هوى وأهواء. تخرج النبوة عن أهدافها، وتفسد عملها في الناس وتسيء إلى أنبياء الله في عواطفهم وأعراضهم وأخلاقهم ودينهم، ولكن القرآن الكريم يرقى بهؤلاء الكرام إلى مكانتهم الحقيقية في علاقتهم بربهم. فعن أبي هريرة رضي الله عنه سئل رسول الله ﷺ: مَن أكرم الناس؟ قال: «**أتقاهم لله**»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: «**فأكرم الناس يوسف نبيّ الله، ابن نبيّ الله، ابن نبيّ الله، ابن خليل الله**»، قالوا: ليس عن هذا نسألك، فقال: «**فعن معادن العرب تسألوني؟ الناس معادن، خيارهم في الجاهلية، خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**»[1].

❊ ❊ ❊ ❊

يعقوب بن إسحاق عليهما السلام

وأمه «رفقة» بنت بتوئيل بن ناحور بن آزر، وناحور أخو إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ. ويعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ هو أبو الأسباط الاثني عشر، وإليه ينسب شعب بني إسرائيل، ويسمى «إسرائيل» قال الله تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسۡرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦ مِن قَبۡلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوۡرَىٰةُۚ﴾ [آل عمران: ٩٣].

وقد جاء عند أهل التوراة أن الله سمّاه «إسرائيل» ومعناه في العربية «روح الله» وإليه ينتسب اليهود. ويعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ ولد في أرض الكنعانيين «فلسطين» وشبّ في كنف أبيه إسحاق، وقد أمرته أمه «رفقة» أن يسافر إلى خاله «لابان» في «فدان آرام» من أرض بابل بالعراق ويقيم عنده، لأن أخاه العيص قد توعده. فخرج يريد خاله، فأدركه في موضع فنام فيه، فرأى في

(١) صحيح البخاري، كتاب الوصايا ج٤ ص١٨٣.

نومه الملائكة يصعدون إلى السماء وينزلون، ورأى الرب تبارك وتعالى يخاطبه ويقول له: (إني سأبارك عليك، وأُكثر ذريتك، وأجعل لك هذه الأرض ولعقبك من بعدك)، فلما هبّ من نومه فرح بما رأى ونذر أن يبني لله تعالى «معبداً» في ذلك الموضع الذي رأى فيه تلك الرؤيا السارة. فعمد إلى حجر فصبغه بدهن ليتعرف به المكان وسمّي ذلك الموضع «بيت إيل» أي: بيت الله، وهو موضع بيت المقدس اليوم الذي بناه يعقوب بعد ذلك.

وقد تابع يعقوب سفره فلما وصل إلى خاله في أرض العراق وجد عنده ابنتين هما «ليئة» وهي الكبرى، و«راحيل» وهي الصغرى. فخطب يعقوب من خاله ابنته الصغرى «راحيل» وكانت أحسنهما وأجملهما، فوافقه خاله مقابل أن يخدمه سبع سنين يرعى له غنمه. فلما مضت المدة صنع خاله طعاماً وجمع الناس عليه وزفّ إليه «ليئة» وكانت ضعيفة العينين قبيحة المنظر. فقال لخاله: لمَ غدرتَ بي وأنا إنما خطبت «راحيل»؛ فقال له: إنه ليس من سنّتنا أن نزوج الصغرى قبل الكبرى، فإن أحببت أختها فارعَ لي غنمي سبع سنين أخرى وأزوجك «راحيل» فعمل سبع سنين أخرى فزوّجه إياها. وجمع بين الأختين، ولم يكن الجمع بين الأختين في شريعتهم محرّماً، ثم نسخ في شريعة التوراة كما هو الحال في الشريعة الإسلامية.

وقد وهب «لابان» لكل واحدة من ابنتيه جارية، فوهب «زلفى» لابنته ليئة، ووهب «بلها» لابنته راحيل. فوهبت كل منها جاريتها ليعقوب فأصبح عنده أربع نسوة، وقد ولدن له أولاده الاثني عشر، الذين يسمون بالأسباط. أما «ليئة» فقد ولدت له ستة أولاد وهم: «روبيل، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وإيساخر، وزابلون» وروبيل هو أكبر أولاده، ولاوي جاء من نسله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكلمة يهود أخذت من يهوذا أحد أبناء يعقوب. وأما «راحيل» فقد ولدت له ولدين وهما «يوسف الصدِّيق عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبنيامين»، وأما «بلها» جارية راحيل فقد ولدت له ولدين وهما: «دان، ونفتالي»، وأما «زلفى» جارية ليئة فقد ولدت له ولدين وهما: «جاد، وأشير»؛ فأصبح أولاد يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ اثني عشر، وهؤلاء كلهم إخوة يوسف الصدِّيق الذي رأى

في منامه أحد عشر كوكباً والشمس والقمر له ساجدين. وقد أصبح كل واحد من أولاد يعقوب أباً لسبط من أسباط بني إسرائيل(١).

وذكر أهل الكتاب أن يعقوب وأهله بقوا يقيمون بأرض حران، وهو يرعى لخاله غنمه بعد دخوله على البنتين ست سنين أخرى، فصارت مدة مقامه عشرين سنة. فطلب يعقوب من خاله «لابان» أن يسرحه ليمر إلى أهله، فقال له خاله: إني قد بورك لي بسببك فسلني من مالي ما شئت. فقال: تعطيني كل حمل يولد من غنمك هذه السنة أبقع ما فيه سواد وبياض، وأملح ما يخالط بياضه سواد، وأجلح ما لا قرن له، فعمد بنوه فأبرزوا من غنم أبيهم ما كان على هذه الصفات. وأوصى الله تعالى إلى يعقوب أن يرجع إلى بلاد أبيه وقومه، ووعده بأن يكون معه. فعرض ذلك على أهله فأجابوه مبادرين إلى طاعته، فتحمّل بأهله وماله، وسرقت راحيل أصنام أبيها. ولم يكن عند يعقوب علم بأصنام خاله لابان، فأنكر أن يكون أخذوا له أصناماً. وكانت راحيل قد جعلتهن في برذعة الجمل وهن تحتها، فلم تقم، واعتذرت بأنها طامث.

فلما اقترب يعقوب من أرض «ساعير» تلقته الملائكة يبشرونه بالقدوم وبعث البرد إلى أخيه العيصو يترفق له ويتواضع له، فرجعت البرد وأخبرت يعقوب بأن العيص قد ركب إليك في أربعمائة رجل. فخشي يعقوب ذلك، ودعا الله عزَّ وجلَّ وصلّى له وتضرّع إليه وتمسكن إليه، وناشده عهده ووعده الذي وعد به، وسأله أن يكف عنه شر أخيه العيص. وأعدّ لأخيه هدية عظيمة، وأمر عبيده أن يسوقوا المواشي كل صنف على حدة. وليكن بين كل قطيع وقطيع مسافة، فإذا لقيهم العيص فقال الأول: لمَن أنت ولمَن هذه معك؟ فليقل لعبدك يعقوب أهداها لسيدي العيص، وليقل الذي بعده كذلك وكذا الذي بعده، ويقول كل منهم: وهو جاء بعدنا.

وتأخر يعقوب بزوجتيه وأمتيه وبنيه الإحدى عشر بعد الكل بليلتين،

---

(١) النبوة والأنبياء، للصابوني ص٢٥٨ ـ ٢٦٠.

وجعل يسير ليلاً ويكمن نهاراً. فلما كان وقت الفجر من الليلة الثانية تبدّى له ملك من الملائكة في صورة رجل، فظنّه يعقوب رجل من الناس. فأتاه يعقوب ليصارعه ويغالبه، فظهر عليه يعقوب فيما يرى، إلا أن الملك أصاب وركه فعرج يعقوب. فلما أضاء الفجر قال له الملك: ما اسمك؟ قال: يعقوب، قال: لا ينبغي أن تدعى بعد اليوم إلا إسرائيل. فعلم أنه ملك من الملائكة، وأصبح يعقوب وهو يعرج من رجله، فلذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النساء. ورفع يعقوب عينه فإذا أخوه عيصو قد أقبل في أربعمائة رجل، فلما رأى أخاه العيص سجد له سبع مرات، وكانت هذه تحيتهم في ذلك الزمان. وكان مشروعاً لهم كما سجدت الملائكة لآدم تحية له. ورجع العيص، ولحقه يعقوب بأهله وما معه من الأنعام والمواشي والعبيد قاصدين جبال «ساعير»، فلما مرّ بساحور ابتنى له بيتاً، ثم مرّ على «أورشليم» قرية شخيم فنزل قبلي القرية، واشترى مزرعة شخيم ابن جمور بمائة نعجة. فضرب هناك فسطاطه، وابتنى مذبحاً فسمّاه «إيل» إلٰه إسرائيل، وأمره الله ببنائه ليستعلن له فيه، وهو بيت المقدس اليوم، وهو مكان الصخرة التي علمها بوضع الدهن عليها.

وذكر أهل الكتاب هنا قصة «دينا» بنت يعقوب بنت «ليئة»، وما كان من أمرها مع شخيم بن جمور الذي قهرها على نفسها، وأدخلها منزله. ثم خطبها من أبيها وإخوتها، فقال إخوتها: إلا أن تختتنوا كلكم فنصاهركم وتصاهرونا، فإنا لا نصاهر قوماً غلفاً، فأجابوهم إلى ذلك واختتنوا كلهم. فلما كان اليوم الثالث واشتد وجعهم من ألم الختان، مال عليهم بنو يعقوب فقتلوهم عن آخرهم. وقتلوا شيخماً وأباه جمور لقبيح ما صنعوا إليهم، مضافاً إلى كفرهم، وما كانوا يعبدونه من أصنام، فلهذا قتلهم بنو يعقوب وأخذوا أموالهم غنيمة.

ثم حملت راحيل زوجة يعقوب فولدت غلاماً هو «بنيامين»، إلا أنها جهدت في طلقها به جهداً شديداً، وماتت عقيبه، فدفنها يعقوب في «أفراث» وهي بيت لحم. وجاء يعقوب إلى أبيه إسحاق فأقام عنده بقرية حبرون التي في أرض كنعان حيث كان يسكن إبراهيم. ثم مرض إسحاق

ومات عن مائة وثمانين سنة، ودفنه ابناه العيص ويعقوب مع أبيه إبراهيم الخليل. يقول ابن كثير: هذا الخبر الطويل عن يعقوب وأخيه مروي عن أهل الكتاب، وليس في الأخبار الإسلامية تعرض له[١].

إن أبناء يعقوب عليه السلام انقسموا رغم الوحدة الأسرية التي كان يمثلها إلى قسمين: قسم منها يدين بالولاء الأسري لنعرة الاسم والصفة القديمة التي خلعت على الأب «إسرائيل» فكانوا يحافظون على تداول التنادي بإسرائيل. والقسم الثاني بتقديم يعقوب الولد الرابع «يهوذا» على سائر إخوته، فنصب نفسه على إخوته ورضوا بأن يكونوا تحت لواء يهوذا من أبناء أبيهم يعقوب. وعندما نطق العرب الكلمة يهوذا أبدلوا الذال بالدال، وأصبحت تُنْطق لفظتا: الإسرائيليون واليهود، وهو ما يستفاد من السياق العام لآيات التوراة.

وقد ذهب الشهرستاني إلى أن لفظة «اليهود» من: هاد الرجل، أي: رجع وتاب، وإنما لزمهم هذا الاسم لقول موسى عليه السلام: ﴿إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: رجعنا وتضرعنا. واليهود هم أمة موسى عليه السلام، وكتابهم التوراة[٢].

وتقول الندوة العالمية للشباب الإسلامي، في تعريف اليهودية: بأنها هي ديانة العبرانيين المنحدرين من إبراهيم عليه السلام، والمعروف بالأسباط من بني إسرائيل الذين أرسل الله إليهم موسى عليه السلام مؤيداً بالتوراة ليكون لهم نبياً[٣]. وأصبحت قبيلة يهوذا تعني الولاء للولد الرابع ليعقوب «يهوذا»، والعجيب هو ذلك الارتباط التعصبي العنصري للإسرائيليين واليهود. حتى الجماعات الأولى من أبناء يعقوب، فالقوة والوشاية والمؤامرة هي كل صنعة صنعها القوم وخلعوها على أنفسهم. فيعقوب يلبس لفظة «إسرائيل» عن طريق الغلبة والقهر، و«يهوذا» يلبس السيادة على أبناء أبيه بالوصاية والتسلط، لتصبح هذه الصفات بعد ذلك جزءاً من الطبع الملتوي والخلق

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ج١ ص٢٩٩ ـ ٣٠٥.

(٢) كتاب الملل والنحل للشهرستاني، تحقيق الوكيل ج٢ ص١٥.

(٣) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة ص٥٦٥.

النهّاز والصفات النفسية التي نشأ القوم عليها. فيهوذا مثلاً الذي ارتبط به بعض أبناء أبيه وأصبح اسمه يمثل معنًى أسرياً ودينياً في تاريخ أولئك القوم عندما كبر وطعن في السن، وأصبح في حال كان من الممكن أن يعف فيه وأن تترفع جوارحه عن الخطيئة وإتيان النساء يمارس الزنا في فاحشة مفضوحة. وتقص علينا التوراة بعض ملامحه في جزء متأخر من عمره، وتكشف لنا عن سر التصاق الخلق الاجتماعي اليهودي بأساليب الدعارة والفسق العلني، واحتضان هذا الخلق المتوارث عند اليهود لدعوات العراة وموضوعات الشذوذ الجنسي واستغلال النساء في مآرب ومقاصد الحياة الصاخبة دونما تحرُّج، باعتباره خلقاً موروثاً حمله الأبناء وتعلقوا به، بل وأصبح عندهم هو ميراث الآباء الدينيين الذي يلتصق بهم.

تقول التوراة عن يهوذا في الإصحاح الثامن عشر: ولما طال الزمان ماتت ابنة شوع امرأة يهوذا، ثم تعزى يهوذا فصعد إلى جزَّاز غنمه إلى تمنة هو وحيرة صاحبه العدلامي، فأخبرت ثامار، وقيل لها: هو ذا حموك صاعد إلى تمنة ليجز غنمه، فخلعت عنها ثياب ترملها، وتغطت ببرقع وتلفلفت وجلست في مدخل «غينايم» التي على طريق تمنة، لأنها رأت أن «شيلة» قد كبر وهي لم تُعْطَ له زوجة. فنظر يهوذا وحسبها زانية لأنها كانت قد غطت وجهها، فمال إليها على الطريق وقال: هاتي أدخل عليك، لأنه لم يكن يعلم أنها كُنَّتَه. فقالت: ماذا تعطيني لكي تدخل علي؟ فقال: إني أرسل جدي معز من الغنم. فقالت: هل تعطيني رهناً حتى ترسله؟ فقال: ما الرهن الذي أعطيك؟ فقالت: خاتمك وعصابتك وعصاك التي في يدك، فأعطاها ودخل عليها. فحبلت منه ثم قامت ومضت وخلعت عنها برقعها ولبست ثياب ترملها. فأرسل يهوذا جدي الماعز بيد صاحبه العدلامي ليأخذ الرهن من يد المرأة، فلم يجدها فسأل أهل مكانها قائلاً: أين الزانية التي كانت في غينايم على الطريق؟ فقالوا: لم تكن هناك زانية. فرجع إلى يهوذا وقال: لم أجدها، وأهل المكان أيضاً قالوا: لم تكن هنا زانية، فقال يهوذا: لتأخذ لنفسها لئلا نصير إهانة. إني قد أرسلت هذا الجدي وأنت لم تجدها. ولما كان نحو ثلاثة أشهر أخبر يهوذا، وقيل له: قد زنت «ثاماد» كنتك وها

هي حبلى أيضاً من الزنا، فقال يهوذا: أخرجوها فتحرق. أما هي فلما أخرجت أرسلت إلى حميها قائلة: مَن الرجل الذي هذه له أنا حبلى؟ وقالت: حقق لمن الخاتم والعصابة والعصا هذه. ففتحها يهوذا، وقال: هي أَبَرُّ مني لم أعطها «لشيلة» ابني فلم يعرفها أيضاً.

ومن مثل هذا الخلق المنحرف، وبسجايا الطبع الملتوي، وبعنف الغرائز الحسية المتدفقة، وبقيم الدين الاجتماعي والقائم على عنف حياتهم اليومية وزيفها. حرّف اليهود هذا الدين الذي جعلوه بديلاً لكل دين ساقه الآباء إليهم ولم يتح لهم إلا أن يزيفوه(١).

❋ ❋ ❋ ❋

يوسف الصدِّيق بن يعقوب عليهما السلام

وقد ذكره الله تعالى في مجموعة الرسل الكرام الذين يجب الإيمان بهم تفصيلاً، ووصفه بالعفة والنزاهة والصبر والاستقامة. وقد ذكر اسم يوسف في القرآن الكريم في «٢٦» آية، وقد وصفه الله تعالى بالصديقية، ولهذا يسمى «يوسف الصدِّيق»، وهو عليه السلام من ذرية إبراهيم الخليل ومن سلالة النبوة، ومن أشهر أنبياء بني إسرائيل. وله سورة ذكرت فيها قصته بالتفصيل، وهي من طوال سور القرآن وتسمى «سورة يوسف» وفيها بيان لحياته عليه السلام، ومحنته مع إخوته، ومحنته مع امرأة العزيز، ودخوله السجن، ودعوته إلى الله، ثم خروجه من السجن، وتعبير الرؤيا للملك، واستلامه لخزائن الأرض، ثم يجيء إخوته إلى مصر بسبب القحط، واحتيال يوسف لإبقاء أخيه «بنيامين» عنده. ثم التعرُّف على أبيه وإخوته، ودخولهم عليه وسجودهم له، حسب الرؤيا التي رآها في صغره، إلى غير ما هنالك من إشارات دقيقة، وعظات بالغة، من حياة النبيّ الكريم.

وقد ذكر المفسرون أن يوسف عليه السلام رأى في المنام وهو صغير لم

---

(١) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ص٣٤ ـ ٣٦.

يحتلم بعد رؤيا عجيبة. رأى في نومه أحد عشر كوكباً والشمس والقمر قد سجدوا له، فهاله ذلك الأمر، واستعظم تلك الرؤيا، فلما استيقظ قصَّها على أبيه، فعرف أبوه أنه سيكون لابنه شأن عظيم، وسينال رتبة عالية، ورفعة سامية في الدنيا والآخرة، بحيث يخضع له أبوه وأمه وجميع إخوته فيها فأمره بكتمانها، وألاّ يقصها على إخوته خوفاً عليه منهم، لئلا يحسدوه ويكيدوا له ويدبروا له أنواع المكائد. قال الله تعالى إشارة إلى هذه الرؤيا: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾ [يوسف: ٤، ٥].

والظاهر من النص القرآني أن يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ قد قصَّ الرؤيا على والده في غيبة إخوته، وأن أباه قد أوصاه بعدم إخبار إخوته بما رأى، وعبارة التوراة تفيد أن ذلك كان بحضرة إخوته، وأن أباه انتهره على هذا القول قائلاً: لعلنا نسجد لك أنا وأمك وإخوتك ـ قالها متهكماً ـ وهذا الذي ذكر في التوراة خطأ، لأن التوراة محرَّفة قطعاً، والصحيح ما ذكر في القرآن الكريم[1].

وقد روى ابن جرير وابن حاتم في تفسيرهما، وأبو يعلى والبزار في مسنديهما من حديث الحكم بن ظهير، وقد صنفه الأئمة عن السدي عن عبدالرحمٰن عن جابر قال: أتى النبيّ ﷺ رجل من اليهود يقال له: بستانة اليهودي، فقال: يا محمد، أخبرني عن الكواكب التي رآها يوسف أنها ساجدة له، ما أسماؤها؟ قال: فسكت النبيّ ﷺ ولم يجبه بشيء، ونزل جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بأسمائهم. قال: فبعث إليه رسول الله ﷺ فقال: «**هل أنت مؤمن إن أخبرتك بأسمائها؟**»، قال: نعم، فقال: «**هي جريان، والطارق، والذيال، وذو الكتفان، وقابس، ووثاب، وعمران، والفيلق، والمصبح، والضروح، وذو الفرع، والضياء، والنور**»، فقال اليهودي: أي، والله إنها لأسماؤها. وعند أبي يعلى: فلما قصَّها على أبيه قال: هذا أمر مشتت يجمعه الله، والشمس أبوه والقمر أمه.

---

(١) النبوة والأنبياء، الصابوني ص٢٦١ ـ ٢٦٣.

قال الله في كتابه العزيز: ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ۝١٠﴾ [يوسف: ٧ ـ ١٠]، ينبّه الله تعالى على ما في هذه القصة من الآيات والحكم، والدلالات والمواعظ. ثم ذكر حسد إخوته له على محبة أبيه له ولأخيه، يعنون شقيقه لأمه بنيامين أكثر منهم، وهم عصبة ـ أي: جماعة ـ يقولون: فكنا نحن أحق بالمحبة من هذين، أي: بتقديمه حبهما علينا. ثم اشتوروا فيما بينهم في قتل يوسف أو إبعاده إلى أرض لا مرجع فيها ليخلو لهم وجه أبيهم، أي: لتتمحض محبته لهم وتتوفر عليهم، وأضمروا التوبة على ذلك. فلما تمالأوا على ذلك وتوافقوا عليه ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ﴾ قال مجاهد: هو شمعون، وقال السدي: هو يهوذا، وقال قتادة وابن إسحاق: هو أكبرهم روبيل: ﴿لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ﴾ أي المارة من المسافرين ﴿إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ ما تقولون لا محالة، فليكن هذا الذي أقول لكم، فهو أقرب حلاً من قتله أو نفيه أو تغريبه. فأجمعوا رأيهم على هذا، فعند ذلك ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَ۫نَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ۝١١ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝١٢ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ۝١٣ قَالُوا۟ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ۝١٤﴾ [يوسف: ١١ ـ ١٤]، طلبوا من أبيهم أن يرسل معهم أخاهم يوسف، وأظهروا له أنهم يريدون أن يرعى معهم، وأن يلعب وينبسط، وقد أضمروا له ما الله به عليم. فأجابهم الشيخ عليه من الله أفضل الصلاة والتسليم: يا بَنِيَّ يشق عليّ أن أفارقه ساعة من النهار، ومع هذا أخشى أن تشتغلوا في لعبكم عليه، فيأتي الذئب فيأكله، ولا يقدر على دفعه عنه لصغره وغفلتكم عنه. قالوا: لئن عدا عليه الذئب فأكله من بيننا، أو اشتغلنا عنه حتى وقع هذا ونحن جماعة، إنا إذاً لخاسرون، أي: عاجزون هالكون.

وعن أهل الكتاب: أنه أرسله وراءهم يتبعهم، فضلَّ عن الطريق حتى أرشده رجل إليهم. وهذا أيضاً من غلطهم وخطئهم، فإن يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ كان أحرص عليه من أن يبعثه معهم، فكيف يبعثه وحده؟

ثم كان من أمر يعقوب ما قصَّ الله تبارك وتعالى في كتابهم من مسألتهم إياه إرساله إلى الصحراء معهم، ليسعى وينشط ويلعب في ضمانهم. وإعلام يعقوب إياهم حزنه بمغيبه عنه، وخوفه عليه من الذئب، ثم إرساله معهم، وخروجهم به، وعزمهم حين برزوا به إلى الصحراء على إلقائه في غيابة الجب. فكان من أمره حينئذ فيما ذكر ما جاء عن ابن وكيع، عن العنقزي، عن أسباط، عن السدي قال: أرسله معهم، فأخرجوه وبه عليهم كرامة، فلما برزوا إلى البرية أظهروا له العداوة، فجعل أخوه يضربه فيستغيث بالآخر فيضربه، فجعل لا يرى منهم رحيماً، فضربوه حتى كادوا يقتلونه. فجعل يصيح ويقول: يا أبتاه يا يعقوب، لم تعلم ما يصنع بابنك بنو الإماء. فلما كادوا أن يقتلونه، قال يهوذا: أليس قد أعطيتموني موثقاً ألاّ تقتلوه، فانطلقوا به إلى الجب ليطرحوه، فجعلوا يدلونه على البئر فيتعلق بشفير البئر، فربطوا يديه، ونزعوا قميصه، فقال: يا إخوتاه، رُدُّوا عليَّ قميصي أتوارى به في الجُبّ. فقالوا: ادعُ الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً تؤنسك، قال: إني لم أرَ شيئاً، فدلُّوه في البئر حتى إذا بلغ نصفها ألقوه إرادة أن يموت، فكان في البئر ماء فسقط فيه، ثم آوى إلى صخرة فيها، فقام عليها، فلما ألقوه في الجب جعل يبكي، فنادوه، فظنّ أنها رحمة أدركتهم، فأجابهم، فأرادوا أن يرضموه بحجر فيقتلوه فقام يهوذا، فمنعهم وقال: قد أعطيتموني موثقاً ألاّ تقتلوه، وكان يهوذا يأتيه بالطعام.

ثم خبره تبارك وتعالى عن وحيه إلى يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو في الجب لينبئن إخوته الذين فعلوا به ما فعلوا بفعلهم ذلك وهم لا يشعرون بالوحي الذي أوحى إلى يوسف. كذلك روي عن قتادة في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: ١٥]، قال: أوحي إلى

يوسف وهو في الجب أن ينبئهم بما صنعوا به، وهم لا يشعرون بذلك الوحي. ثم أخبره جلّ جلاله عن مجيء السيارة، وإرسالهم واردهم، وإخراج الوارد يوسف وإعلامه أصحابه بقوله: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞ﴾ [يوسف: ١٩] يبشرهم. وعن قتادة قال: تباشروا به حين أخرجوه، وهي بئر بأرض بيت المقدس. وقد قيل: إنما نادى الذي أخرج يوسف من البئر صاحباً له يسمى بشرى. ثم خبره عن السيارة وواردهم الذي استخرج يوسف من الجب إذ اشتروه إخوته ﴿بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ﴾ [يوسف: ٢٠]، على زهد فيه وإسرارهم إياه بضاعة، خيفة ممن معهم من التجار مساءلتهم الشركة فيه، إن هم علموا أنهم اشتروه. وقيل: إنهم باعوه بعشرين درهم معدودة بغير وزن، لأن الدراهم حينئذ فيما قيل: إذا كانت أقل من أوقية وزنها أربعون درهماً لم تكن توزن، لأن أقل أوزانهم يومئذ كانت أوقية. وتبعهم إخوته يقولون للمدلي وأصحابه: استوثقوا منه لا يأبق حتى وقفوه بمصر فقال: مَن يبتاعني ويبشر؟ فاشتراه الملك والملك مسلم. وذكر أن بائعه الذي باعه بمصر كان مالك بن دعر بن تويب بن عفقان بن مديان بن إبراهيم الخليل عليه السلام. وأما الذي اشتراه بها وقال ﴿لِٱمۡرَأَتِهِۦٓ أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ [يوسف: ٢١]، فإن اسمه فيما ذكر عن ابن عباس «قطفير» وهو العزيز، وكان على خزائن مصر، والملك يومئذ: الريان بن الوليد، رجل من العماليق.

وذكر بعض أهل التوراة أن في التوراة: أن الذي كان من أمر يوسف وإخوته والمصير به إلى مصر، وهو ابن سبع عشرة سنة يومئذ، وأنه أقام في منزل العزيز الذي اشتراه ثلاث عشرة سنة، وأنه لما تمت له ثلاثون سنة استوزره فرعون مصر، الوليد بن الريان، وأنه مات يوم مات وهو ابن مائة وعشرين سنة وأوصى إلى أخيه يهوذا، وأنه كان بين فراقه يعقوب واجتماعه معه بمصر اثنتان وعشرون سنة، وأن مقام يعقوب معه بمصر بعد موافاته بأهله سبع عشرة سنة، وأن يعقوب أوصى إلى يوسف عليه السلام.
قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٢ وَرَٰوَدَتۡهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ وَقَالَتۡ هَيۡتَ لَكَۚ

﴿قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٢ ـ ٢٤]. عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَٰهُ حُكۡمٗا وَعِلۡمٗاۚ﴾ قال: العقل والعلم قبل النبوة. ﴿وَرَٰوَدَتۡهُ﴾ حين بلغ السن الأشد ﴿ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيۡتِهَا عَن نَّفۡسِهِۦ﴾ وهي (راعيل) امرأة العزيز (أطفير) ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلۡأَبۡوَٰبَ﴾ عليه وعليها للذي أرادت منه. ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ فقام حين رأى برهان ربه هارباً يريد باب البيت فراراً مما أرادته، واتبعته (راعيل) فأدركته قبل خروجه من الباب فجذبته بقميصه من قِبَل ظهره، فقدَّت قميصه وألفى يوسف وراعيل سيدها وهو زوجها (أطفير) جالساً عند الباب مع ابن عم راعيل. قال الله تعالى: ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ وَقَدَّتۡ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٖ وَأَلۡفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلۡبَابِۚ قَالَتۡ مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَٰوَدَتۡنِي عَن نَّفۡسِيۚ وَشَهِدَ شَاهِدٞ مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٖ فَصَدَقَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ فَكَذَبَتۡ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٖ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيۡدِكُنَّۖ إِنَّ كَيۡدَكُنَّ عَظِيمٞ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَاۚ وَٱسۡتَغۡفِرِي لِذَنۢبِكِۖ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلۡخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف: ٢٥ ـ ٢٩]. عن السدي قال: لما رأت سيدها وابن عمها جالساً عند الباب قالت: إنه راودني عن نفسي، فدفعته عن نفسها فأبى فشققت قميصه. قال يوسف: هي راودتني عن نفسي فأبيت وفررت منها، فأدركتني فشقّت قميصي. فقال ابن عمها: تبيان هذا في القميص فوجده قد قُدَّ من دُبُر. وقد اختلف في الشاهد الذي شهد من أهلها، فقال بعضهم: كان صبياً في المهد. عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبيّ ﷺ قال: «**تكلم أربعة وهم صغار**»، وذكر فيهم شاهد يوسف. وعن مجاهد قال: قميصه مشقوق من دبر، فتلك الشهادة.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسۡوَةٞ فِي ٱلۡمَدِينَةِ ٱمۡرَأَتُ ٱلۡعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفۡسِهِۦۖ قَدۡ شَغَفَهَا حُبًّاۖ إِنَّا لَنَرَىٰهَا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتۡ بِمَكۡرِهِنَّ أَرۡسَلَتۡ إِلَيۡهِنَّ وَأَعۡتَدَتۡ لَهُنَّ مُتَّكَـٔٗا وَءَاتَتۡ كُلَّ وَٰحِدَةٖ مِّنۡهُنَّ سِكِّينٗا وَقَالَتِ ٱخۡرُجۡ عَلَيۡهِنَّۖ فَلَمَّا رَأَيۡنَهُۥٓ

أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف: ٣٠ ـ ٣٤]، وتحدّث النساء بأمر يوسف وأمر امرأة العزيز بمصر ومراودتها إياه على نفسها، وقلن: قد وصل حب يوسف إلى شغاف قلبها فدخل تحته حتى غلب على قلبها، وشغاف القلب غلافه وحجابه. وعن مجاهد عن ابن عباس: ﴿وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾، قال: أعطتهن أترجاً، وأعطت كل واحدة منهن سكيناً. فلما فعلت امرأة العزيز ذلك بهن، قالت ليوسف: ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ فخرج يوسف عليهن، فلما رأينه أجللنه وأكبرنه وأعظمنه، وقطّعن أيديهن بالسكاكين، وهن يحسبن أنهن يقطعن بها الأترج، وقلن: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ﴾ ما هذا إنسي ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ﴾، فلما حلّ بهن ما حلّ من قطع أيديهن من أجل نظرة نظرنها إلى يوسف وذهاب عقولهن، وعرّفتهن خطأ قيلهن، وإنكارهن ما أنكرن من أمرها أقرّت عند ذلك لهن بما كان من مراودتها إياه عن نفسها. ثم قالت لهن: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ من إتيانها ﴿لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾، فاختار السجن على الزنا ومعصية ربه، فقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ من الزنا، واستغاث بربه عزَّ وجلَّ فقال: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، فأخبر الله عزَّ وجلَّ أنه استجاب له دعاءه، فصرف عنه كيدهن ونجاه من ركوب الفاحشة، ثم بدا للعزيز من بعد ما رأى من الآيات ما رأى من قدِّ القميص من الدبر، وخمش الوجه وقطع النسوة أيديهن وعلمه ببراءة يوسف مما قذف به في ترك يوسف مطلقاً، وقد قيل عن السدي: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾. قال: قالت المرأة لزوجها: إن هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس، يعتذر إليهم ويخبرهم أني راودته عن نفسه، ولست أطيق أن أعتذر بعذري، فإما أن تأذن لي فأخرج فأعتذر، وإما تحبسه كما حبستني، فذلك قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا

رَأَوُا۟ ٱلْـَٔايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ [يوسف: ٣٥]. عن عكرمة قال: سبع سنين[(١)].

يذكر الله تعالى عن العزيز وامرأته أنهم بدا لهم، أي: ظهر لهم من المرائي بعدما علموا براءة يوسف أن يسجنوه إلى وقت. ليكون ذلك أقل الكلام للناس في تلك القضية، وأخمد لأمرها، وليظهروا أنه راودها عن نفسها فسجن بسببها، فسجنوه ظلماً وعدواناً. وكان هذا مما قدّر الله له، ومن جملة ما عصمه به، فإنه أبعد له عن معاشرتهم ومخالطتهم[(٢)].

دخل يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ السجن على غير جريمة اقترفها، ودخل معه السجن فتيان؛ أحدهما: رئيس سقاة الملك، والثاني: رئيس الخبّازين، فرأى كل منهما حلماً وعرضه على يوسف. أما رئيس السقاة فقد رأى أنه يعصر في كأس الملك الخمر، وأما الثاني فرأى أنه يحمل فوق رأسه طبقاً من الخبز، والطير تأكل من ذلك الخبز، وطلبا منه أن يخبر كل واحد منهما بتفسير رؤياه فقال للأول: إنك ستخرج من السجن وتعود إلى عملك فتسقي الملك خمراً، وقال للثاني: إنك ستُصلب وتأكل الطير من رأسك، وكان الأمر كما أخبر يوسف الصدِّيق عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقال للذي ظن أنه ناج منهما: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ يقول ابن كثير: يعني اذكر أمري وما أنا فيه من السجن بغير جرم عند الملك. وفي هذا دليل على جواز السعي في الأسباب، ولا ينافي ذلك التوكل على رب الأرباب. وقوله: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾، أي: فأنسى الناجي منهما الشيطان أن يذكر ما وصَّاه به يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ.

فأما قول ابن حبان في صحيحه، عند ذكر السبب الذي من أجله لبث يوسف في السجن ما لبث: حدثنا محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن

---

(١) تاريخ الطبري، ج١ ص٣٣١ ـ ٣٤٢.
(٢) قصص الأنبياء، لابن كثير ج١ ص٣٢٦.

أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**رحم الله يوسف، لولا الكلمة التي قالها: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ ما لبث في السجن ما لبث**»، ويذكر أنه حديث منكر من هذا الوجه.

بعد تلك السنين الشديدة التي مرّت على يوسف وهو في السجن جاء الفرج من الله، فقد رأى الملك في نومه رؤيا عجيبة غريبة. رأى سبع بقرات قد خرجت من النهر، وأخذت ترتع في روضة، ثم رأى سبع بقرات عجافاً هزيلة قد خرجت من النهر وأكلت البقرات السمينة. كما رأى سبع سنابل خضراء حسنة، قد عَدَتْ عليها سبع سنابل يابسة فأكلتها، فاستيقظ الملك فزعاً من رؤياه، وطلب من السحرة والعلماء تأويلاً فلم يجد جواباً شافياً. وهناك تذكر ساقي الملك قدرة يوسف على تأويل الأحلام فطلب من الملك أن يرسله إلى السجن ليأتيه بالخبر اليقين. فذهب إلى يوسف وقصَّ عليه رؤيا الملك، فأخبره بتعبيرها على الوجه الدقيق، قال له يوسف: إن البلاد ستمر عليها سبع سنوات فيها الخيرات تجود فيها الأرض بالغلاَّت الوافرة، ثم يعقبها سبع سنين مُجْدبة، تأكل الأخضر واليابس، وأن عليهم أن يقتصدوا من سني الرخاء إلى سني الجدب والقحط. وقد أعجب الملك بتأول يوسف فأمر بإخراجه من السجن، ليجعله من خاصته المقربين، ولكن يوسف أبى أن يخرج من السجن وعليه سمة المجرمين. حتى يقر خصومه ببراءته، فتبرأ ساحته من تلك التهمة، ويشهد الناس بنزاهته، وذلك هو منتهى العزة النفسية والكرامة النبوية، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾﴾ [يوسف: ٥٠، ٥١]، وقصة يوسف طويلة وقد فصّلها القرآن أجمل تفصيل، وذكر في النهاية أن أباه وأمه وجميع إخوته قد جاؤوا إلى مصر، ودخلوا عليه وهو في عز وسلطان وجاه عظيم، فسجدوا له سجود تحية وتكريم، وذكَّر أباه بما

رأى وهو صغير حيث تحققت رؤياه كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [يوسف: ٩٩، ١٠٠].

لقد مرّ يوسف عليه السلام بمِحَن شديدة، وكانت حياته حياة عصيبة، فقد تنقّل بين عسر ويسر، وشدة ورخاء، وضيق وسعة، ثم كانت نتيجة هذه المحن والمصائب العظيمة أن وسّع الله عليه وأكرمه بالعز والسلطان، فخرج من السجن إلى الملك. فملكه الله خزائن أرض مصر، حتى أصبح الناس يأتون إليه من كل صقع وبلد ليمتاروا، ومن ضمنهم إخوته الذين أضرّ بهم الجدب فجاؤوا إليه فعرفهم وهم له منكرون. ولقد كانت محنته سبباً لتلك المنّة العظيمة عليه بعد أن مرت عليه محن ثلاث:

المحنة الأولى: وذلك حين حسده إخوته فدبّروا له مكيدة أرادوا بها قتله، ثم اكتفوا بإلقائه في «الجب» ولولا عناية الله ورحمته به لكان من الهالكين.

المحنة الثانية: حين أحبته امرأة العزيز، وراودته عن نفسها، وعملت كل حيلة من أجل إغرائه ولكن الله حفظه من كيدها ونجاه.

المحنة الثالثة: وهي دخوله السجن ظلماً ومكثه فيه سبع سنين بسبب تلك التهمة الملفقة. قال المؤرخون: لما اجتمع يوسف بأبيه كان عمر يعقوب مائة وثلاثين سنة، ثم توفي يعقوب بعدها بسبع عشرة سنة، وعاش يعقوب من السنين مائة وعشراً ومات في مصر وهو في الحكم ودفن فيها. وقد أمر إخوته أن يحمل معهم إذا خرجوا من مصر فيدفن مع آبائه، وقد نقل رفاته أيام موسى عليه السلام ودفن بنابلس

على الأرجح[١].

وعند أهل الكتاب: أن الملك لما ذكره له الساقي، استدعاه إلى حضرته، وقصَّ عليه ما رآه ففسره له. وهذا غلط، والصواب ما قصَّه الله في كتابه القرآن لا ما ذكره هؤلاء الجهلة من فرى وهذيان. وعند أهل الكتاب: أن فرعون عظّم يوسف عليه السلام جداً، وسلّطه على جميع أرض مصر، وألبسه خاتمه، وألبسه الحرير، وطوّقه الذهب، وحمله على مركبه الثاني، ونودي بين يديه: أنت رب ومسلط، قال له: لست أعظم منك إلا بالكرسي. وقالوا: وكان يوسف إذ ذاك ابن ثلاثين سنة، وزوجه امرأة عظيمة الشأن. وحكى الثعالبي أنه عزل (قطفير) عن وظيفته وولاها يوسف. وقيل: إنه لما مات (قطفير) زوَّجه امرأته (زليخا) فوجدها عذراء، لأن زوجها كان لا يأتي النساء، فولدت ليوسف عليه السلام رجلين وهما: إفراييم، ومنشا. وقال: واستوثق ليوسف ملك مصر، وعمل فيهم بالعدل فأحبه الرجال والنساء. وعند أهل الكتاب: أنه لما قدم إخوة يوسف عليه سجدوا له فعرفهم، وأراد أن لا يعرفوه فأغلظ لهم في القول، وقال: أنتم جواسيس جئتم لتأخذوا خير بلادي. فقالوا: معاذ الله، إنما جئنا لقومنا من الجهد والجوع الذي أصابنا. ونحن بنو أب واحد من كنعان، ونحن اثنا عشر رجلاً ذهب منا واحد، وصغيرنا عند أبينا. فقال: لا بد أن أستعلم أمركم. وعندهم: أنه حبسهم ثلاثة أيام ثم أخرجهم، واحتبس شمعون عنده ليأتوا بالأخ الآخر. وعند أهل الكتاب: أن يعقوب لما وصل أرض جاشر وهي أرض بلبيس خرج يوسف لتلقيه، وكان يعقوب قد بعث يهوذا بين يديه مبشراً بقدومه، وعندهم أن الملك أطلق لهم أرض جاشر يكونون فيها ويقيمون بها بنعمهم ومواشيهم. وقالوا: إنهم كانوا سبعين نفساً وسموهم. وقيل: خرجوا مع موسى وهم أزْيَد من ستمائة ألف مقاتل.

---

(١) النبوة والأنبياء، للصابوني ص٢٦٧ ـ ٢٧١.

وعند أهل الكتاب: أن يوسف باع أهل مصر وغيرهم من الطعام الذي كان تحت يده بأموالهم كلها، من الذهب والفضة، والعقار والأثاث وما يملكونه كله، حتى باعهم بأنفسهم فصاروا أرقّاء. ثم أطلق لهم أرضهم وأعتق رقابهم على أن يعملوا، ويكون خُمس ما يَغُلُّونه من زرعهم وثمارهم للملك. وقد ذكر أهل الكتاب أن يعقوب أوصى بنيه واحداً واحداً، وأخبرهم مما يكون من أمرهم، وبشّر يهوذا بخروج نبيّ عظيم من نسله تطيعه الشعوب، هو عيسى ابن مريم، والله أعلم[١].

وقال بعض أهل الكتاب: دخل يوسف وله سبع عشرة سنة، فأقام في منزل العزيز ثلاث عشرة سنة، فلما تمت له ثلاثون سنة استوزره فرعون ملك مصر، واسمه الريان بن الوليد، وأن هذا الملك آمن. ثم ملك بعده قابوس بن مصعب فدعاه يوسف للإيمان بالله فلم يستجب إليه. وأن يوسف أوصى إلى أخيه يهوذا، ومات وقد أتت له مائة وعشرون سنة، وأن فراق يعقوب إياه كان اثنتين وعشرين سنة، وأن يعقوب لما حضرته الوفاة أوصى إلى يوسف، وكان دخول يعقوب مصر في سبعين إنسان من أهله. وتقدم إلى أنه أوصى يوسف عند وفاته أن يحمل جسده حتى يدفن بجنب أبيه إسحاق، ففعل يوسف ذلك ومضى به حتى دفنه بالشام، ثم انصرف إلى مصر. وأوصى يوسف أن يحمل جسده حتى يدفن إلى جنب آبائه فحمل موسى تابوت جسده عند خروجه من مصر معه. وولد يوسف إفراييم بن يوسف ومنشا بن يوسف، وولد لإفراييم نون، فولد لنون بن إفراييم يوشع بن نون وهو فتى موسى. وولد لمنشا موسى بن منشا، وقيل: إن موسى بن منشا نبيّ قبل موسى بن عمران، ويزعم أهل التوراة أنه الذي طلب الخضر[٢].

تقول التوراة في سفر التكوين من الإصحاح السادس والأربعين: فقام يعقوب من بئر سبع، وحمل بنو إسرائيل يعقوب أباهم وأولادهم ونساءهم في العجلات التي أرسل فرعون لحمله، وأخذوا مواشيهم ومقتناهم الذي اقتنوه في أرض كنعان. وجاؤوا إلى مصر، يعقوب وكل نسله معه بنوه وبنو

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج١ ص٣٣٢ ـ ٣٥٨.

(٢) تاريخ الطبري، ج١ ص٣٦٣ ـ ٣٦٤.

بنيه وبناته وبنات بنيه، وكل نسله جاء بهم معه إلى مصر. تقول الآيات: إن جميع النفوس ليعقوب التي أتت إلى مصر الخارجة من صلبه، ما عدا نساء بني يعقوب، جميع النفوس ست وستون نفساً، وابنا يوسف اللذان ولدا له في مصر نفسان، جميع نفوس بيت يعقوب التي جاءت إلى مصر سبعون.

وتروي التوراة في سفر التكوين من الإصحاح **٤٢** إلى الإصحاح **٤٧**، قصة بني إسرائيل في مصر. فتذكر أن يعقوب علم بتوافر القمح في مصر، فقال لأولاده: «إني قد سمعت أنه يوجد قمح في مصر، انزلوا إلى هناك واشتروا لنا من هناك لنحيا ولا نموت»، وخرج أبناء يعقوب إلى حيث تقابلوا مع أخيهم يوسف وطلب منهم القدوم إلى مصر «لأن الجوع في الأرض سنتين، وخمس سنين أيضاً لا تكون فيها فلاحة ولا حصاد». وعاد إخوة يوسف إلى أبيهم يعقوب ينقلون إليه رغبة يوسف في هجرتهم إلى مصر، حيث أصبح يوسف كما وصف نفسه: «قد جعلني الله أباً لفرعون وسيداً لكل بيته، ومتسلط على كل أرض مصر». وفي مصر أحاطهم يوسف بعنايته ورعايته، وأكرمهم فرعون مصر إذ رأى يوسف يهتم بهم. وتذكر التوراة في سفر الخروج من الإصحاح الأول(١): أن هذا الإكرام والاهتمام أدى إلى زيادة عددهم زيادة كثيرة حيث امتلأت الأرض منهم.

عاش بنو إسرائيل في مصر في عزلة وابتعدوا عن الاختلاط بالشعب المصري، فهم في كل زمان ومكان يميلون إلى الانعزالية والانفصالية، مما لم يوجد الألفة والتفاهم بينهم وبين سائر الشعوب. فقد تولى العرش في مصر فرعون جديد فبدأ الخطر يتهدد بني إسرائيل، فقد أوجس الفرعون الجديد منهم خيفة. وتقول التوراة في سفر الخروج من الإصحاح الأول(١): «ثم قام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف، فقال لشعبه: هو ذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا، هلم نحتال لهم لئلا ينمون فيكون إذا حدثت حرب ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا ويصعدون من الأرض، فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلوهم بأثقالهم. فبنوا الفرعون مدينتي مخازن

(١) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ص٣٨ ـ ٤٠.

ميثوم ورعسيس. ولكن بحسبما أذلوهم هكذا نموا وامتدوا، فخشوا من بني إسرائيل فاستعبد المصريون بني إسرائيل بعنف، ومرروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين واللَّبِن وفي كل عمل في الحقل(١).

هناك عدة دوافع دفعت فرعون مصر إلى انتهاج هذه السياسة من بني إسرائيل. فلم يكن فرعون ينظر إلى بني إسرائيل على أنهم جزء من قومه، فقد عاشوا في عزلة تامة عن الشعب المصري. وأنهم قدموا إلى مصر لا ليقيموا فيها أو يندمجوا بأهلها، بل ليخرجوا منها بعد أن تجمع لهم في مصر قوة المال والعدد. وكان فرعون قد نظر إلى بني إسرائيل نظرة ريبة وشك وتخوُّف، فقد خشي أن ينضموا إلى الأعداء إذا دخلت مصر في حرب. فقد كانت أنظارهم وعواطفهم تتجه دائماً إلى خارج مصر وليس إلى داخلها، كما أنهم اعتادوا ألاّ يعيشوا في ظل حكم سياسي إلا واستغلوه لتحقيق مطامعهم الاقتصادية. فما أن تضاءل نفوذ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفقد الإسرائيليون مركزهم الذي كان يحقق لهم الثراء بدون جهد، حتى سخطوا على مصر وفرعونها وشعبها، واتهموه بالظلم والقسوة. فبنو إسرائيل رفضوا أن يعملوا في الزراعة والبناء، وهما الصناعتان الرئيسيتان في مصر القديمة حينئذ. ولذا اعتبروا تكليف فرعون لهم بممارسة هاتين الصناعتين تعذيباً وقسوة. بينما كان فرعون يريد ربط الإسرائيليين بالأرض، وأن يشغلهم بالعمل عند تدبير المكائد والمؤامرات والتحالف مع أعداء مصر(١).

❊ ❊ ❊ ❊

النبيّ أيوب عليه السلام

هو أيوب بن موص بن رزاح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. وهو من الأنبياء المنصوص على الإيحاء إليهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ

(١) الصهيونية، د. محمد نصر ص٤١.

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣]، فهو من سلالة العيص بن إسحاق، وامرأته قيل: اسمها «ليا» بنت يعقوب، وقيل: «رحمة» بنت إفراييم بن يوسف، وقيل: «ليا» بنت منشا بن يوسف، وهذا أشهر(١).

ذكر اسم أيوب في القرآن الكريم أربع مرات: في سورة النساء، وسورة الأنعام، وفي سورة الأنبياء، وسورة ص. وقد ذكره الله تعالى في عداد مجموعة الرسل الذين يجب الإيمان بهم تفضيلاً، وهو من ذرية إبراهيم عليه السلام على وجه التحقيق لقول الله تعالى في معرض الحديث عن إبراهيم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَۚ كُلًّا هَدَيْنَاۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنعام: ٨٤]، وقد ابتلي أيوب عليه السلام بلاءً شديداً في أهله، وبدنه، وماله، ولكنه كان مثالاً للعبودية الحقّة لله تعالى، فصبر على ذلك. وقد أثنى الله تبارك وتعالى عليه بقوله: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٤].

وقد كان عليه السلام من الأغنياء صاحب ثروة ومال وبنين، وكان يملك أرضاً واسعة وحقولاً وبساتين. وقد ابتلاه الله بالنعمة والرخاء فآتاه الغنى والصحة وكثرة الأهل والولد فكان عبداً تقياً ذاكراً شاكراً لأنعم الله عليه، لم تفتنه الدنيا ولم تخدعه. ثم ابتلاه الله بسلب النعمة، ففقد المال والأهل والولد، ونشبت به الأمراض المضنية المضجرة، فصبر على البلاء وحمد الله وأثنى عليه. وما زال على حاله من التقوى والعبادة والرضى عن ربه، فكان في حالتي الرخاء والبلاء، مثلاً لعباد الله الصالحين في إرضاء الرحمٰن، وإرغام أنف الشيطان. قالوا: وكانت له امرأة مؤمنة صالحة اسمها «رحمة» من أحفاد يوسف عليه السلام، وقد رافقت هذه المرأة حياة نعمته وصحته، وزمن بؤسه وبلائه، فكانت في الحالتين مع زوجها شاكرة وصابرة. ثم إن الشيطان حاول أن يدخل على أيوب في زمن بلائه

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير ج١ ص٣٦٠.

فلم يؤثر فيه، فحاول أن يدخل إليه عن طريق امرأته فوسوس لها: إلى متى تصبرين؟ فجاءت إلى أيوب وفي نفسها اليأس والضجر مما أصابه فقالت له: إلى متى هذا البلاء؟ فغضب أيوب وقال لها: كم لبثتِ في الرخاء؟ قالت: ثمانين، قال: كم لبثتِ في البلاء؟ قالت: سبع سنين، قال: أما أستحيي أن أطلب من الله رفع بلائي، وما قضيت فيه مدة رخائي؟ ثم قال: والله لئن برئت لأضربنك مائة سوط، وحرّم على نفسه أن تخدمه بعد ذلك، ثم نادى ربه في حالة الوحدة والشدة: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤]، فأجاب الله دعاءه، وكشف بلاءه، وأوصى إليه أن يضرب برجله الأرض، فضرب الأرض فتفجر منها الماء البارد، فأمره أن يشرب منه ويغتسل، فشفاه الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ ۖ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤١ ـ ٤٤]، أمر الله أن يبر بيمينه بأن يضربها بحزمة من قضبان خفيفة فيها مائة عود، فيضربها بها ضربة واحدة ويبر بيمينه ولا يحنث. وقد شرع الله ذلك رحمة عليه وعليها لحسن خدمتها إياه، وتحملها معه وقت الشدة والبلاء صنوف المحنة والابتلاء.

وقد ذكر ابن كثير: وهذا من الفرج والمخرج لمن اتقى الله وأطاعه ولا سيما في حق امرأته الصابرة المحتسبة. ولهذا عقب الله هذه الرخصة وعللها بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، ثم قال: وقد استعمل كثير من الفقهاء هذه الرخصة في باب الأيمان والنذور، وتوسع آخرون فيها حتى وضعوا الحيل في الخلاص من الأيمان، وصدروه بهذه الآية الكريمة وأتوا فيه بأشياء من العجائب والغرائب(١).

(١) البداية والنهاية، ابن كثير ج١ ص٢٧٦ ـ ٢٧٩.

وقد ذكرت أمور لا يجوز اعتقادها بالنسبة لبلاء أيوب عليه السلام، وهي منقولة عن إسرائيليات مثل قولهم: إن أيوب حين اشتد به المرض وطال به البلاء عافه الجليس، وأوحش منه الأنيس وانقطع عنه الناس، وتعفن جسده حتى كان الدود يخرج منه، فأُخرج من البلد وأُلقي على مزبلة خارجها. إلى غير ما هنالك من الحكايات المنقولة عن التوراة المحرّفة. وهذا مما يتنافى مع منصب النبوة، وقد قرر علماء التوحيد أن الأنبياء منزَّهون عن الأمراض المنفرة، فكيف يتفق هذا القول مع منصب النبوة(١).

وكان أيوب في عصر يوسف عليه السلام، وذلك في بلاد الشام من أرض حوران والبثينة من بلاد الأردن بين دمشق والجابية. وكان كثير المال والولد، فابتلاه الله في نفسه وماله وولده، فصبر، وردّ الله عليه ذلك وأقال عثرته، وقصّ ما قصّ من أخباره في كتابه على لسان نبيه ﷺ. ومسجده والعين التي اغتسل منها مشهوران ببلاد نوى والجولان فيما بين دمشق وطبرية، وهذا المسجد على بُعد ثلاثة أميال من مدينة نوى، والحجر الذي كان يأوي إليه في حال بلائه هو وزوجته واسمها (رحمة) في ذلك المسجد(٢).

وذكر أن عمر أيوب كان ثلاثاً وتسعين سنة، وأنه أوصى عند موته إلى ابنه «حرمل» وأن الله عزَّ وجلَّ بعث ابنه «بشر» بن أيوب نبياً وسمّاه «ذو الكفل» الذي ذكره القرآن في ضمن الرسل الكرام، وأنه كان مقيماً عمره بالشام حتى مات، وكان عمره خمساً وسبعين سنة. وأن بشراً أوصى إلى ابنه عبدان، وأن الله عزَّ وجلَّ بعث بعده «شعيب» بن صيغرن بن عنقا بن نابت بن مدين بن إبراهيم إلى أهل مدين(٣).

❊ ❊ ❊ ❊

---

(١) النبوة والأنبياء، الصابوني ص٢٧٦ ـ ٢٧٩.
(٢) مروج الذهب، للمسعودي ج١ ص٤٨.
(٣) تاريخ الطبري، ج١ ص٣٢٤ ـ ٣٢٥.

النبيّ شعيب عليه السلام

هو شعيب بن ميكيل بن يشجر بن مدين أحد أولاد إبراهيم الخليل عليه أفضل الصلاة والتسليم، وأمه بنت لوط عليه السلام. وقد ورد ذكر شعيب عليه السلام في القرآن عشر مرات، في مواطن متفرقة من سورة: الأعراف، وهود، والشعراء، والعنكبوت. ويعرفون أيضاً بأصحاب الأيكة لقول الله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ لَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [الشعراء: ١٧٦، ١٧٧]، ويرى بعض المفسرين أن أصحاب الأيكة قوم آخرون غير أهل مدين، أرسله الله إليهم بعد هلاك مدين فكذبوه فأخذهم عذاب «يوم الظُّلَّة»، والصحيح أن أهل مدين هم أنفسهم أصحاب الأيكة، لأن سورة الشعراء وضحت أنهم كانوا يطففون المكيال والميزان، وهذا وصف أهل مدين، وسموا بأصحاب الأيكة لأن الأيكة هي الغوطة التي يكثر فيها الشجر، وكانوا بين التجارة والزراعة. وأراضيهم كانت كثيرة الأشجار، وافرة الثمار، وفيها الحدائق، فلذلك سمُّوا بأصحاب الأيكة.

كان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون في بلاد الحجاز، مما يلي جهة الشام، قريباً من خليج العقبة. وأهل مدين ينسبون إلى أحد أولاد إبراهيم وهو «مدين»، وفي التوراة يسمى «مديان»، وإنما سميت القبيلة باسم مدين نسبة إليه، حيث عاش بينهم وصاهرهم فصار له فيهم رهط. كان أهل مدين أهل تجارة وزراعة، وقد كانوا على دينهم الذي ورثوه عن إبراهيم، ولكن العهد لم يطل بهم حتى غيّروا وبدّلوا وكفروا بالله، وانحرفوا عن الصراط المستقيم. لقد فشت فيهم منكرات عديدة، منها التطفيف في المكاييل والموازين، فكانوا يبخسون الناس أشياءهم، ويفسدون في الأرض ولا يصلحون. وقد بعث الله إليهم شعيباً عليه السلام فدعاهم إلى توحيد الله وذكَّرهم بعذابه، ونهاهم عن تطفيف المكيال والميزان وأمرهم بالإصلاح وعدم الإفساد، فآمن به القليل وكذبه الأكثرون. وقد كان هؤلاء المكذبون على غاية من الضلال والجحود، يقعدون على الطريق ويرصدون الذين

يأتون إلى شعيب ليصدوهم عن الدين. ولما ألحّ عليهم شعيب في الدعوة والموعظة جاهروه بالعداء وادَّعوا أنهم لا يفقهون كلامه، وتوعدوه بأنه لولا أن له أنصار لقتلوه، كما قال الله تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا ۖ وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَـٰكَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود: ٩١]. إن دعوته في غاية الوضوح فهو يدعوهم إلى ترك عبادة غير الله، فيتوعدونه بالطرد من القرية، وإخراجه هو ومَن آمن معه، ولقد كان من شدة حماقتهم أن طلبوا إلى شعيب أن يُسقط عليهم كسفاً «قطعاً» من السماء، إن كان من الصادقين في دعوته. فأخذهم عذاب «يوم الظُّلَّة» بأن سلّط الله عليهم الحر سبعة أيام حتى غلت مياههم، ثم ساق إليهم غمامة فاجتمعوا تحتها للاستظلال فراراً من شدة الحر. فلما تكامل عددهم في ظلها تزلزلت بهم الأرض، وجاءتهم الصيحة وأمطرت عليهم السماء ناراً فاحترقوا وصدق الله حيث يقول: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء: ١٨٩]، وقد عاش شعيب بعد هلاك قومه، وذلك في الفترة الواقعة بين وفاة يوسف ونشأة موسى عليه السلام. ويغلب على الظن أن أحداث هلاك قومه كانت بعد انتقال بني إسرائيل إلى مصر[١].

وكان أهل مدين قوماً عرباً يسكنون مدينتهم «مدين» من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز، ومدين قبيلة عرفت بها المدينة، وهم من بني مدين بن مديان بن إبراهيم الخليل. وشعيب نبيهم هو ابن مكيل بن يشجن، ذكر ابن إسحاق، قال: ويقال له بالسريانية: يترون. ويقال: شعيب بن يشخر بن لاوي بن يعقوب، ويقال: شعيب بن نويب بن عينا بن مدين بن إبراهيم، وقيل غير ذلك في نسبه. قال ابن عساكر: ويقال: جدته، ويقال: أمه، بنت لوط. وفي حديث أبي ذر الذي في صحيح ابن حبان في ذكر الأنبياء والرسل قال: «أربعة من العرب: هود وصالح وشعيب ونبيك يا أبا ذر...»، وكان بعض السلف يسمِّي شعيباً خطيب الأنبياء، يعني لفصاحته وعلو عبارته، وبلاغته في دعاية قومه إلى الإيمان برسالته. وقد

---

(١) النبوة والأنبياء، للصابوني ص٢٧٢ ـ ٢٧٥.

روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ إذا ذكر شعيباً قال: «**ذلك خطيب الأنبياء**». وكان أهل مدين كفاراً يقطعون السبيل ويخيفون المارة، ويعبدون الأيكة وهي شجرة من الأيك حولها غيضة ملتفة بها. وكانوا من أسوأ الناس معاملة، يبخسون المكيال والميزان، ويطففون فيها، يأخذون بالزائد ويدفعون بالناقص. وقال إسحاق بن بشر عن ابن عباس، قال: كانوا قوماً طغاة بُغَاة يجلسون على الطريق، يبخسون الناس، يعني يغشونهم، وكانوا أول مَن سنّ ذلك.

روى ابن عباس وسعيد بن جبير والثوري أنهم قالوا: كان شعيب ضرير البصر. وقد روي في حديث مرفوع: أنه بكى من حب الله حتى عمي، فردّ الله عليه بصره، وقال: يا شعيب، أتبكي من خوفك من النار أو من شوقك إلى الجنة؟ فقال: لمحبتك، فإذا نظرت إليك فلا أبالي ماذا يُصنع بي. فأوحى الله إليه: هنيئاً يا شعيب لقائي، فلذلك أخدمتك موسى بن عمران كليمي. وهو غريب جداً، وقد ضعفه الخطيب البغدادي.

قال الله تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف: ٧٨]، أي: رجفت بهم أرضهم، وزلزلت زلزالاً شديداً حتى أزهقت أرواحهم، وأصبحت جثثهم جاثية لا روح فيها ولا حواس لها. وقد جمع الله عليهم أنواعاً من العقوبات، وذلك لما اتصفوا به من قبيح الصفات سلّط الله عليهم رجفة شديدة أسكتت الحركات، وصيحة عظيمة أخمدت الأصوات، وظُلَّة أرسل عليهم منها شرر النار من سائر أرجائها والجهات. وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في تاريخه عن ابن عباس: أن شعيباً عليه السلام كان بعد يوسف عليه السلام. وعن وهب بن منبه: أن شعيباً عليه السلام مات بمكة ومَن معه من المؤمنين[1].

❊ ❊ ❊ ❊

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير ج١ ص٢٧٤ ـ ٢٩٠.

ذو الكفل عليه السلام

قال أهل التاريخ هو ابن أيوب عليه السلام، واسمه في الأصل «بشر» وقد بعثه الله بعد أيوب وسمّاه «ذو الكفل» لأنه تكفل بالطاعات فوفى بها. وكان مقامه في الشام، وأهل دمشق يتناقلون أن قبره في جبل هناك يشرف على دمشق يسمى جبل قاسيون. ويرى بعض العلماء أنه ليس بنبيّ وإنما هو رجل من الصالحين من بني إسرائيل، وقد رجح ابن كثير نبوته لأن الله تعالى قرنه مع الأنبياء فقال جلّ وعلا: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥، ٨٦]، فالظاهر من ذكره في القرآن العظيم بالثناء عليه مقروناً مع هؤلاء السادة الأنبياء أنه نبيّ عليه الصلاة والسلام وهذا هو المشهور[١].

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القصص: ٤٣]، أي: قبل نزول التوراة، كما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم والبزار من حديث عوف الأعرابي عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدري قال: ما أهلك الله قوماً بعذاب من السماء أو من الأرض بعدما نزلت التوراة على وجه الأرض، غير أهل القرية الذين مسخوا قردة. فدلّ على أن كل أمة أهلكت بعامة قبل موسى عليه السلام ومن هؤلاء:

❋ ❋ ❋ ❋

أصحاب الرس

قال الله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَأَصْحَٰبَ ٱلرَّسِّ وَقُرُونًۢا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا ﴿٣٨﴾﴾ [الفرقان: ٣٨]، روى ابن جرير قال: قال ابن عباس: أصحاب الرس أهل قرية من قرى ثمود. وروى ابن حاتم عن ابن عباس قال: الرس بئر

(١) النبوة والأنبياء، للصابوني ص٢٨٠.

بأذربيجان، وقال الثوري عن عكرمة قال: الرس بئر رسوا فيها نبيهم، أي: دفنوه فيها. وقال ابن جريج: قال عكرمة: أصحاب الرس بفلج وهم أصحاب يّس، وقال قتادة: فلج من قرى اليمامة. وقد ذكر الحافظ ابن عساكر في أول تاريخه عند ذكر بناء دمشق، أن أصحاب الرس كانوا بحضور، فبعث الله إليهم نبياً يقال له: «حنظلة بن صفوان» فكذبوه وقتلوه. فسار عاد من الرس فنزل الأحقاف وأهلك الله أصحابها وانتشروا في اليمن كلها. ونزل جيرون بن سعد بن عاد دمشق وبنى مدينتها، وسماها جيرون. ويشير ابن كثير بأن هذا يقضي أن أصحاب الرس قبل عاد بدهور متطاولة، فالله أعلم[(١)].

فمَن ذكر أنه نبيّ «حنظلة بن صفوان» وكان من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وأرسل إلى أصحاب الرس، وكانوا من ولد إسماعيل، وهم قبيلتان يقال لإحداهما: قدمان، وللأخرى: يامن، وقيل: رعويل، وذلك في اليمن. فقام فيهم حنظلة بأمر الله عزَّ وجلَّ فقتلوه، فأوحى الله إلى نبيّ من أنبياء بني إسرائيل من سبط يهوذا أن يأمر (بخت نصر) بأن يسير إليهم، فسار إليهم، فأتى عليهم، فذلك قوله عزَّ وجلَّ: ﴿فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ﴾ إلى قوله: ﴿حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾، وقيل: إن القوم كانوا من حمير[(٢)].

❊ ❊ ❊ ❊

قوم يّس

وهم أصحاب القرية في سورة يّس، قال الله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾ [يّس: ١٣، ١٤]، أي: اضرب مثلاً لقومك يا

---

(١) قصص الأنبياء، ابن كثير ج١ ص٣٧٥ ـ ٣٧٧.
(٢) مروج الذهب، للمسعودي ج١ ص٦٥.

محمد أصحاب القرية الذين أرسلنا إليهم اثنين من الرسل، وأيدناهم بثالث في الرسالة. فردوا عليهم بأنهم بشر مثلهم، كما قالت الأمم الكافرة لرسلهم، يستبعدون أن يبعث الله نبياً بشرياً. فأجابوهم بأن الله يعلم أنا رسله إليكم ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾﴾، أي: إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم والله هو الذي يهدي مَن يشاء ويضل مَن يشاء، ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ أي: تشاءمنا بما جئتمونا به، ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ﴾ قيل: بالمقال، وقيل: بالفعال، ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يٓس: ١٨]، توعدوهم بالقتل والإهانة ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾، أي: مردود عليكم، ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أي: بسبب أنا ذكرناكم بالهدى ودعوناكم إليه، توعدتمونا بالقتل والإهانة، ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [يٓس: ١٩] أي: لا تقبلون الحق ولا تريدونه. وقول الله تعالى: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ يعني: لنصرة الرسل وإظهار الإيمان بهم، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُواْ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾ [يٓس: ٢٠، ٢١] أي: يدعونكم إلى الحق المحض بلا أجرة. ثم دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له، ونهاهم عن عبادة ما سواه، ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [يٓس: ٢٤] أي: تركت عبادة الله وعبدت معه ما سواه. ثم قال مخاطباً للرسل: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [يٓس: ٢٥]، قيل: فاستمعوا مقالتي واشهدوا لي بها عند ربكم، وقيل: معناه: فاسمعوا يا قومي إيماني برسل الله جهرة، فعند ذلك قتلوه، قيل: رجماً، وقيل: عضاً، وقيل: وثبوا إليه فقتلوه. وحكى ابن إسحاق عن بعض أصحابه عن ابن مسعود قال: وطئوه بأرجلهم، حتى أخرجوا قصبته.

وقد روى الثوري: كان اسم هذا الرجل «حبيب بن مري». وعن ابن عباس: كان حبيب النجار قد أسرع فيه الجذام، وكان كثير الصدقة فقتله قومه، ولهذا قال الله تعالى: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ يعني: لما قتله قومه أدخله الله الجنة فبسبب ما رأى فيها من النضرة والسرور ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يٓس: ٢٦، ٢٧] رواه ابن أبي حاتم. وكذلك قتادة: لا يلقى المؤمن إلا ناصحاً. لا يلقى غاشًا لما عاين

ما عاين من كرامة الله. قال: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾، تمنّى والله أن يعلم قومه بما عاين من كرامة الله وما هو عليه. قال قتادة: فلا والله ما عاتب الله قومه بعد قتله، ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [يس: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾﴾ [يس: ٢٨]، أي: وما احتجنا في الانتقام منهم إلى إنزال جند من السماء عليهم، ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [يس: ٢٩]. قال المفسرون: بعث الله إليهم جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأخذ بعضادتَي الباب الذي لبلدهم، ثم صاح صيحة واحدة فإذا هم خامدون، أي: قد أخذت أصواتهم وسكنت حركاتهم، ولم تبقَ منهم عين تطرف. قال ابن إسحاق فيما بلغه عن ابن عباس وكعب ووهب أنهم قالوا: وكان لها ملك اسمه أنطيخس بن أنطيخس وكان يعبد الأصنام، فبعث الله إليه ثلاثة من الرسل وهم: صادق وصدوق، وشلوم، فكذبهم[(١)].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج١ ص٣٨٠ ـ ٣٨٣.

الفصل الرابع
موسى بن عمران كليم الله
عليه السلام

هو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام(١). وعن ابن إسحاق قال: موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب. وقال غيره: كان عمر يعقوب بن إسحاق مائة وسبعاً وأربعين سنة، وولد لاوي له، وقد مضى من عمره تسع وثمانون سنة، وولد للاوي قاهث بعد أن مضى من عمر لاوي ست وأربعون سنة، ثم ولد لقاهث يصهر، ثم ولد ليصهر عمرم وهو عمران، وكان عمر يصهر مائة وسبعاً وأربعين سنة، وولد له عمران بعد أن مضى من عمره ستون سنة، ثم ولد لعمران موسى، وكانت أمه يوخايذ وامرأته صفوزا ابنة تبزون، وهو شعيب النبيّ عليه السلام. وولد موسى جوشون، وإيلعازر، وخرج إلى مدين خائفاً وله إحدى وأربعون سنة، وكان يدعو إلى دين إبراهيم ورأى الناس بطور سيناء، وله ثمانون سنة. وكان فرعون مصر في أيامه قابوس بن مصعب، وكانت امرأته آسية ابنة مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد، فرعون يوسف الأول. فلما نودي موسى أُعْلِمَ أن قابوس بن مصعب قد مات، وقام أخوه الوليد بن مصعب مكانه، وكان أعتى من قابوس وأكفر وأفجر، وأمر أن يأتيه هو وأخوه هارون بالرسالة. ويقال: إن الوليد تزوج

---

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج٢ ص٣.

آسية ابنة مزاحم بعد أخيه، وكان عمر عمران مائة سنة وسبعة وثلاثين سنة، وولد موسى وقد مضى من عمر عمران مائة وسبع سنين. ثم صار موسى إلى فرعون رسولاً مع هارون، وكان من مولد موسى إلى أن خرج بنو إسرائيل من مصر ثمانون سنة، ثم صار إلى التيه بعد أن عبر البحر، فكان مقامهم هناك إلى أن خرجوا مع يوشع بن نون أربعين سنة، فكان ما بين مولد موسى إلى وفاته في التيه مائة وعشرين سنة.

وأما ابن إسحاق فقد قال: قبض الله يوسف وهلك الملك الذي كان معه الريان بن الوليد، وتوارث الفراعنة من العماليق ملك مصر، فنشر الله بها بني إسرائيل فبقوا تحت أيدي الفراعنة، وهم بقايا من دينهم مما كان يوسف ويعقوب وإسحاق وإبراهيم، شرعوا فيهم من الإسلام متمسكين به حتى كان فرعون موسى الذي بعثه الله إليه. ولم يكن منهم فرعون أعتى منه على الله ولا أعظم قولاً ولا أطول عمراً في ملكه منه. وكان اسمه الوليد بن مصعب، ولم يكن من الفراعنة فرعون أشد غلظة، ولا أقسى قلباً، ولا أسوأ ملكاً لبني إسرائيل منه، يعذبهم فيجعلهم خدماً وخولاً. وصنّفهم في أعماله، فصنف يبنون، وصنّف يحرثون، وصنف يزرعون له، ومَن لم يكن منهم في صنعة له من عمله فعليه الجزية. وقد استنكح منهم امرأة يقال لها: آسية بنت مزاحم، من خيار النساء المعدودات، فعمر فيهم وهم تحت يديه عمراً طويلاً يسومهم سوء العذاب، فلما أراد الله أن يفرّج عنهم وبلغ موسى أشده أُعطي الرسالة(١).

وقد ذكر الله تعالى موسى في مواضع كثيرة متفرقة من القرآن، وذكر قصته في مواضع متعددة مبسوطة مطولة وغير مطولة. وسيرته من ابتدائها إلى آخرها من الكتاب والسنّة، وما ورد في الآثار المنقولة والإسرائيليات. قال الله تعالى: ﴿طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝٢ نَتۡلُواْ عَلَيۡكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرۡعَوۡنَ بِٱلۡحَقِّ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ۝٣ إِنَّ فِرۡعَوۡنَ عَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَجَعَلَ أَهۡلَهَا شِيَعٗا يَسۡتَضۡعِفُ طَآئِفَةٗ مِّنۡهُمۡ يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ وَيَسۡتَحۡيِۦ نِسَآءَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ

---

(١) تاريخ الطبري، ج١ ص٣٨٥ ـ ٣٧٨.

ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٤﴾ [القصص: ١ ـ ٤]. ذكر الله تعالى أنه يتلو على نبيه خبر موسى وفرعون بالحق، أي: بالصدق الذي كان سامعه مشاهد للأمر معاين له. إن فرعون علا في الأرض، أي: تجبّر وعتى وطغى وبغى وآثر الحياة الدنيا، وأعرض عن طاعة الرب الأعلى وجعل أهلها شيعاً، أي: قسم رعيته إلى أقسام، يستضعف طائفة منهم، وهم شعب بني إسرائيل الذين هم من سلالة نبيّ الله يعقوب، وكانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض وقد سلّط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر يستعبدهم ويستخدمهم في أخس الصنائع والحِرَف وأرداها، ومع هذا يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين. وكان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بني إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يؤثرونه عن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك مصر على يديه.

يقول ابن كثير: وذلك والله أعلم حين جرى ما جرى لسارة امرأة الخليل من ملك مصر، من إرادته إياها على السوء وعصمة الله لها. وكانت هذه البشارة مشهورة في بني إسرائيل، فتحدث بها القبط فيما بينهم، ووصلت إلى فرعون، فذكرها له بعض أمرائه وندمائه وهم يسهرون عنده. فأمر عند ذلك بقتل أبناء بني إسرائيل، حذراً من وجود هذا الغلام، ولن يغني حذر من قدر. وذكر السدي عن ابن عباس عن ابن مسعود وعن أناس من الصحابة: أن فرعون رأى في منامه، كأن ناراً أقبلت من نحو بيت المقدس، فأحرقت دور مصر وجميع القبط ولم تضُرَّ بني إسرائيل. فلما استيقظ هاله ذلك، فجمع الكهنة والحذقة والسحرة وسألهم عن ذلك، فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء، يكون سبب هلاك مصر على يديه، فلهذا أمر بقتل الغلمان وترك النسوان.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص: ٥، ٦] أي: سنجعل الضعيف قوياً والمقهور قاهراً والذليل عزيزاً. وقد جرى هذا كله لبني إسرائيل.

إن فرعون احترز كل الاحتراز أن لا يوجد موسى، حتى جعل رجالاً وقوابل يدورون على الحبالى، فلا تلد امرأة ذكراً إلا ذبحه. وعند أهل الكتاب: أنه إنما كان يأمر بقتل الغلمان، لتضعف شوكة بني إسرائيل، فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم. وهذا هو الباطل، فالأمر بقتل الولدان بعد بعثة موسى، فالصحيح أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولاً حذراً من وجود موسى. هذا، والقدر يقول: يا أيها الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده وسلطة بأسه واتساع سلطانه، قد حكم العظيم الذي لا يغالب ولا يمانع، ولا تخالف أقداره، أن هذا المولود الذي تحترز منه، وقد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد ولا يحصى، لا يكون مرباه إلا في دارك وعلى فراشك، ولا يغذّى إلا بطعامك، وأنت الذي تتبناه وتربيه وتغذيه، ثم يكون هلاكك في دنياك وأخراك على يديه، لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين، وتكذيبك ما أوحي إليه لتعلم أنت وسائر الخلق أن رب السماوات والأرض هو الفعال لما يريد، وأنه هو القوي الشديد، ذو البأس العظيم، والحول والقوة، والمشيئة التي لا مرد لها.

وقد ذكر غير واحد من المفسرين: أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بني إسرائيل، بسبب قتل ولدانهم الذكور، وخشي أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار، فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون. فأمر فرعون بقتل الأبناء عاماً وأن يتركوا عاماً، فذكروا أن هارون عليه السلام ولد في عام المسامحة عن قتل الأبناء، وأن موسى عليه السلام ولد في عام قتلهم[(١)].

عن ابن إسحاق قال: وذكر لي أنه لما تقارب زمن موسى أتى منجمو فرعون إليه، فقالوا: تعلم أنا نجد في علمنا أن مولوداً من بني إسرائيل قد أظلك زمانه الذي يولد فيه، ويسلبك ملكك، ويغلبك على سلطانك، ويخرجك من أرضك، ويبدل دينك. فلما قالوا له ذلك أمر بقتل كل مولود يولد من بني إسرائيل من الغلمان وأمر النساء يستحيين، فجمع القوابل من نساء أهل مملكته فقال لهن: لا يسقطن على أيديكن غلام من بني إسرائيل

---

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج٢ ص٥ ـ ٧.

إلا قتلتموه، فكنّ يفعلن ذلك. وكان يذبح من فوق ذلك من الغلمان، ويأمر بالحبالى فيعذَّبن حتى يطرحن ما في بطونهن. وعن مجاهد قال: ذكر لي أنه كان يأمر بالقصب فيشق حتى يجعل أمثال الشفار ثم يصف بعضه إلى بعض، ثم يأتي بالحبالى من بني إسرائيل فيوقفن عليه فيجز أقدامهن، حتى إن المرأة منهن تمصع بولدها فيقع بين رجليها لما بلغ من جهدها، حتى أسرف في ذلك، وكاد يفنيهم، فقيل له: أفنيت الناس، وقطعت النسل، وإنهم خولك وعمالك. فأمر أن يقتل الغلمان عاماً ويستحيوا عاماً، فولد هارون في السنة التي يستحيي فيها الغلمان، وولد موسى في السنة التي فيها يقتلون، فكان هارون أكبر منه بسنة.

عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب رسول الله ﷺ: فلما كان في السنة التي يذبحون فيها حملت بموسى أمه فلما أرادت وضعه حزنت من شأنه، فأوحى الله إليها: ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧]، واليم: هو النيل، فلما وضعته أرضعته، ثم دعت له نجاراً فجعل له تابوتاً، وجعل مفتاح التابوت من داخل، وجعلته فيه وألقته في اليم: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾﴾ [القصص: ١١]، تعني: قصّي أثره. فأقبل الموت بالتابوت حتى أدخله بين أشجار عند بيت فرعون، فخرج جواري آسية امرأة فرعون يغتسلن، فوجدن التابوت فأدخلنه إلى آسية وظنوا أن فيه مالاً، فلما نظرت إليه آسية وقعت عليه رحمتها وأحبّته. فلما أخبرت به فرعون أراد أن يذبحه، فلم تزل آسية تكلمه حتى تركه لها، قال: إني أخاف أن يكون هذا من بني إسرائيل، وأن يكون هذا الذي على يده هلاكنا، فذلك قول الله تعالى: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]، فأرادوا له المرضعات، فلم يأخذ من أحد من النساء. وجعل النساء يطلبن ذلك لينزلن عند فرعون في الرضاع، فأبى أن يأخذ، فذلك قول الله تعالى: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾﴾ [القصص: ١٢] فأخذوا أخته، وقالوا: إنكِ قد عرفت هذا الغلام فدلِّينا على أهله، فقالت: ما أعرفه ولكني

إنما قلت: هم للملك ناصحون. ولما جاءت أمه أخذ منها ثديها فكادت أن تقول: هو ابني، فعصمها الله، فذلك قول الله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص: ١٠].

وإنما سمي موسى لأنهم وجدوه في ماء وشجر، والماء بالنبطية «مو»، والشجر «شا»، فاتخذه فرعون ولداً، فبينما أمه آسية ترقصه وتلعب به إذ ناولته لفرعون، وقالت: خذه قرة عين لي ولك، قال فرعون: هو قرة عين لك ولي لا. قال ابن عباس: لو أنه قال: وهو لي قرة عين، إذاً لآمن به، ولكنه أبى. فلما أخذه إليه أخذ موسى بلحيته فنتفها، فقال فرعون: عليّ بالذبّاحين، فقالت آسية: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: ٩]، إنما هو صبي لا يعقل، وإنما صنع هذا من صباه، أنا أضع له حلياً من الياقوت، وأضع له حجراً، فإن أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحه، وإن أخذ الحجر فإنما هو صبي. فأخرجت له ياقوتها فوضعت له طستاً من حجر، فجاء جبرائيل فطرح في يده جمرة فطرحها موسى في فيه فأحرق لسانه، قال تعالى على لسانه عند بعثته: ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾﴾، فزالت عن موسى من أجل ذلك[1].

شبّ موسى في بيت فرعون، وكان يعيش عيشة أبناء الملوك فيركب مراكب فرعون، ويلبس ملابس فرعون، وكان الناس يدعونه ابن فرعون. وترعرع موسى حتى إذا بلغ أشُدَّه دخل المدينة، وبينما هو يتجول في طرقها، وكان الوقت وقت ظهيرة والأسواق قد أغلقت والناس في بيوتهم قائلون. إذا هو برجلين يقتتلان؛ أحدهما: من بني إسرائيل، والآخر: قبطي من آل فرعون، وقد اعتدى القبطي على الإسرائيلي، فلما مرّ موسى استغاثه الإسرائيلي ليخلصه من شر ذلك القبطي، فأقبل نحوه موسى يريد أن يمنعه عن الاعتداء ويدفع الأذى عن الإسرائيلي، فوكزه أي: ضربه بجمع يده فقضى عليه، ولم يرد موسى قتله إنما أراد إبعاده فكانت القاضية، فحزن

(١) تاريخ الطبري، ج١ ص٣٨٥ ـ ٣٩٠.

موسى على قتله، وتنحّى يستغفر الله. ولم يكن أحد قد رآه حين قتل القبطي إلا الله تعالى والإسرائيلي، فلما قتله أصبح في المدينة خائفاً يترقب الأخبار، فأتى الأقباط فرعون وقالوا له: إن بني إسرائيل قد قتلوا رجلاً منا، ولا تتساهل معهم فيتجرؤوا علينا، فقال لهم: ائتوني بقاتله وبمن يشهد على قتله. فبينما هم يبحثون عن قاتله إذ مرّ موسى فرأى ذلك الإسرائيلي يقاتل فرعونياً، فاستغاثه فجاء موسى مغضباً وظنّ الإسرائيلي أنه يريده لأنه رأى في وجهه آثار الغضب، قال الله تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص: ١٨، ١٩]، فظنّ الإسرائيلي أنه يريد البطش به، فسمع ذلك الفرعوني كلامه فتركه فأخبر جماعته بأن موسى هو الذي قتل القبطي بالأمس. فذهبوا إلى فرعون وأخبروه، فأمر جنده أن يبحثوا عن موسى ويأتوه به ليقتله حتى لا يتجرأ بنو إسرائيل على قتل أحد. فذهبوا يفتشون في طرقات المدينة عنه، وجاء رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه وهو «حزقيل» فأخبر موسى بالخبر، وأمره أن يخرج من أرض مصر لأنهم يبحثون عنه يريدون قتله. فتوجه موسى إلى أرض «مدين» ودعا ربه أن يهديه الطريق وينجيه من شر فرعون، ويأخذ العيون عنه حتى لا يبصره أحد من أعدائه، قال الله تعالى: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص: ٢٠، ٢١].

وخرج كليم الله من أرض مصر فارًّا يريد النجاة، وتوجه نحو أرض مدين ماشياً على قدميه يتلفت خشية أن يدركه أحد من آل فرعون. ولم يكن معه زاد، فكان يأكل ورق الشجر، وبقي يمشي مسيرة ثمان ليالٍ حتى وصل إلى أرض مدين، فجلس تحت ظل شجرة وقد أنهكه الجوع والتعب. وبينما هو جالس أبصر ابنتين ترعيان الأغنام تريدان سقي أغنامها من تلك البئر التي يسقي منها الرعاة، ولكنهما كانتا تحبسان الغنم لئلا يختلط بغنم

الآخرين. وسألهما عن سبب تعهدهما لرعاية الغنم بأنفسهما، فأخبرتاه بأن أباهما شيخ كبير وليس عنده من الأولاد من يرعى له هذه الأغنام. ولذلك فإنهما يتعهدان رعايتها وسقايتها، فسقى لهما ثم جلس بجانب الظل يدعو ربه. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: ٢٣، ٢٤].

ومكث موسى عليه السلام في أرض مدين بعد أن تزوج بابنة شعيب وهو يرعى الغنم، حتى أتمّ المدة وهي عشر سنين. وكانت الرعاية هي المهر الذي دفعه موسى لقاء تزويجه بابنة شعيب، وإذا كان موسى بن عمران قد رعى الغنم، فإن سيد الخلق محمد ﷺ رعى الغنم. عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم**»، فقال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: «**وأنا رعيتها لأهل مكة بالقراريط**»[1]، وهي أجزاء من الدراهم. والحكمة في رعاية الغنم من جهة الأنبياء والمرسلين تكمن في التعود على السكينة والتواضع، وليكون ذلك مقدمة لسياسة الأمة وقيادتها، كما يقود الراعي غنمه، ويتعهدها بما يصلح شأنها. وهكذا الأنبياء الكرام انتقلوا من رعاية الغنم إلى قيادة الأمم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين[2].

يقول ابن كثير: وعند أهل الكتاب أنهن كنّ سبع بنات، وهذا من الغلط، ولعلهن كن سبعاً، ولكن إنما كان يسقي اثنتان منهن، وهذا الجمع ممكن إن كان الجمع محفوظاً، وإلا فالظاهر أنه لم يكن سوى بنتين. وقد اختلفوا في هذا الشيخ من هو، فقيل: هو شعيب عليه السلام، وهذا هو المشهور عند كثيرين، وصرح طائفة بأن شعيباً عليه السلام عاش عمراً طويلاً بعد هلاك قومه، حتى أدركه موسى عليه السلام وتزوج بابنته. وروى ابن أبي

---

(١) سنن ابن ماجه ج٢ ص٦، ٧.

(٢) النبوة والأنبياء، للصابوني ص١٧٩ ـ ١٨٥.

حاتم وغيره عن الحسن البصري: أن صاحب موسى عليه السلام اسمه شعيب، وكان سيد الماء، ولكن ليس بالنبيّ صاحب مدين. وقيل: إنه ابن أخي شعيب، وقيل: ابن عمه، وقيل: رجل مؤمن من قوم شعيب، وقيل: رجل اسمه «يثرون» هكذا هو في كتب أهل الكتاب: يثرون كاهن مدين، أي: كبيرها وعالمها. والمقصود أنه لما أضافه وأكرم مثواه، وقصّ عليه ما كان من أمره بشَّره بأنه قد نجا، فعند ذلك قالت إحدى البنتين لأبيها: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ﴾، أي: لرعي غنمك، ثم مدحته بأنه قوي أمين. قال عمرو بن عباس وشريح القاضي: لما قالت ذلك، قال لها أبوها: وما علمك بهذا؟ فقالت: إنه رفع صخرة لا يطيق رفعها إلا عشرة، وإنه لما جئت معه تقدمت أمامه، فقال: كوني من ورائي، فإذا اختلف الطريق فاحذفي لي بحصاة أعلم بها كيف الطريق.

قال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثة: صاحب يوسف حين قال لامرأته: أكرمي مثواه، وصاحبة موسى: ﴿قَالَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسۡتَـٔۡجِرۡهُۖ إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: ٢٦]، وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب. قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [القصص: ٢٧]. عن علي بن رباح اللخمي قال: سمعت عتبة بن المنذر السلمي صاحب رسول الله ﷺ يحدّث أن رسول الله ﷺ قال: «**إن موسى عليه السلام آجر نفسه بعفة فرجه وطعمة بطنه**». وعن سعيد بن جبير قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على حبر العرب فأسأله، فقدمت فسألت ابن عباس فقال: قضى أكثرهما وأطيبهما، إن رسول الله إذا قال فعل. قضى موسى عليه السلام أتم الأجلين وأكملها، وعن مجاهد أنه أكمل عشر وعشراً بعدها.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [القصص: ٢٩]. وقوله: ﴿وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ﴾،

أي: من عند صهره، فيما ذكره غير واحد من المفسرين. وغيرهم أنه اشتاق إلى أهله فقصد زيارتهم ببلاد مصر في صورة مختلفة، فلما سار بأهله ومعه ولدان منهم وغنم قد استفادها مدة مقامه. وقالوا: واتفق ذلك في ليلة مظلمة باردة، وتاهوا في طريقهم فلم يهتدوا إلى السلوك في الدرب المألوف، وجعل يواري زناده فلا يوري شيئاً، واشتد الظلام والبرد. فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بُعد ناراً تأجج في جانب الطور، وهو الجبل الغربي منه عن يمينه ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ وكأنه والله أعلم رآها دونهم، لأن هذه النار هي نور في الحقيقة. فدلّ على وجود الظلام وكونهم تاهوا عن الطريق. وجمع الكل في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِأَهْلِهِۦٓ إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا سَـَٔاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ ءَاتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾﴾ [النمل: ٧]. وقد أتاهم منها بخبر وأي خبر، ووجد عندها هدى، واقتبس منها نوراً وأي نور.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ مِن شَـٰطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَـٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [القصص: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهَا نُودِىَ أَنۢ بُورِكَ مَن فِى ٱلنَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨﴾﴾ [النمل: ٨]. وقال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَـٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾﴾ [طه: ١١ ـ ١٣].

قال غير واحد من المفسرين: لما قصد موسى النار التي رآها فانتهى إليها، وجدها تأجج في شجرة خضراء من العوسج «الشوك». فوقف متعجباً، وكانت تلك الشجرة في لحف جبل غربي منه عن يمينه، وكان موسى في واد اسمه «طوى» فكان موسى مستقبل القبلة، وتلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب. فناداه ربه بالواد المقدس طوى، فأمر أولاً بخلع نعليه تعظيماً وتوقيراً لتلك البقعة المباركة، ولا سيما في تلك الليلة المباركة. ثم قال الله تعالى لموسى مخاطباً ومؤانساً ومبيناً له أنه القادر على كل شيء: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا

﴿هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه: ١٧ ـ ٢٠]، وهذا خارق عظيم وبرهان قاطع على أن الذي يكلمه هو الذي يقول للشيء كن فيكون.

قال الله تعالى: ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾﴾ [القصص: ٣١]، أي: قد صارت حيَّة عظيمة لها ضخامة وأنياب تصك، وهي مع ذلك في سرعة حركة الجان، فلما عاينها موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا﴾، أي: هارباً منها، لأن طبيعة البشر تقتضي ذلك، ﴿وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾، أي: ولم يلتفت، فناداه ربه قائلاً له: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ﴾ فلما رجع أمره الله تعالى أن يمسكها، ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾﴾ [طه: ٢١]، فيقال: إنه هابها هيبة شديدة، فوضع يده في كم مدرعته، ثم وضع يده في وسط فمها. ثم أمره الله تعالى بإدخال يده في جيبه، ثم أمره بنزعها فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضاً من غير سوء، أي: من غير برص ولا بهق، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ فَذَٰنِكَ بُرْهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: ٣٢]، قيل: معناه: إذا خفت فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك، أي: هاتان الآيتان وهما (العصا واليد) هما البرهانان.

وعند أهل الكتاب وأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وضع يده على وجهه من شدة ذلك النور مهابة له ومخافة على بصره. وعندهم كذلك: أنه سأل برهاناً صادقاً على صدقه عمن يكذبه من أهل مصر، فقال له الرب عزَّ وجلَّ: ما هذا الذي في يدك؟ قال: عصا، قال: ألقها إلى الأرض، فألقاها فإذا هي حية تسعى، فهرب موسى من قُدَّامها، فأمره الرب عزَّ وجلَّ أن يبسط يده ويأخذها بذنبها، فلما استمكن منها ارتد عصاه في يده(١).

خلال الفترة التي بدأت عام ١٧١٠ق.م حتى عام ١٤٥٧ق.م، كان

---

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج٢ ص١٦ ـ ٢٩.

الشعب المصري قد تعرض لصنوف من الآلام والعذاب على أيدي الهكسوس. وكانت هي تلك الفترة التي قدم فيها أبناء يعقوب إلى مصر، فإن التوراة تصور ملامح الحاكم المصري على أنه كان واحداً من المصريين وفرعونياً، إلا أن وجود أبناء يعقوب بعد عدة أجيال قد أصبحت تشكل أكثر من عبء على كيان الشعب المصري. ومن هذا الموقف الذي عبّرت عنه آيات العهد القديم من الفرعون المصري الذي قال ليوسف عليه السلام حسبما هو موجود في سفر التكوين الإصحاح الحادي والأربعون: «أنت تكون على بيتي، وعلى فمك يقبل جميع شعبي إلا الكرسي أكون فيه أعظم منك». إن العبرانيين وهم الإسرائيليون اليهود في فترة وجودهم في مصر، جاؤوا لا كغيرهم، غزاة فاتحين، وإنما سائلين ومتسولين ومستجدين كما تقول آيات العهد القديم، إلا أنهم بغرائز الطبع الملتوي، والخلق النهّاز استغلوا فرصة ضياع الشخصية المصرية وسيطرة الأجنبي. وابتدأوا يتقربون إلى العدو الذي يسيطر على البلاد في نواحي الحياة العامة ونفذوا هم بالفعل إليها، واستطاعوا أن يسيطروا على كثير من مقومات الحياة. وخصصوا لأنفسهم بالسطو وتوسيع الحيازة عن طريق الرشوة والاختلاس مساحات شاسعة من الأرض الزراعية. ثم جعلوا لهم أسواقاً خاصة بهم، وجعلوا مواسم خاصة لهم في تسويق ما يريدون أو بيع ما يرغبون. ثم جاؤوا إلى الحاكمين، واندسوا في صفوفهم خدماً ووشاة.

ولما كان بيدهم صنع حلي النساء لاتساع مجالات العمل فيها في جو السمسرة والمقايضة، وهي الهوايات والمهن التي غلبت على السلوك العام لأخلاق القوم وآدابهم. اختلسوا الطريق إلى القائمين على أمور الحياة العامة، وبيدهم علاقات نسائية خاصة قائمة على الرشوة والدس بالنساء بدعوى الخدمة العامة. واستطاعوا في الفترة التي كان فيها الهكسوس حكاماً على مصر أن يدخلوا المرحلة التي أوشكوا فيها أن يكونوا هم أيضاً مستعمرين لمصر. وما أن انجلت الغمة عن مصر بطرد الهكسوس إلا وقد شعر المصريون أن العبرانيين من أبناء أجيال إسرائيل واليهود يشكلون خطراً ضد المصريين، وبدأت سموم هذه القوى تصل إلى أفواه الشعب. فكان رد

الفعل المصري ضد أساليب التسلط والسيطرة الإسرائيلية، وضد كل ما قاموا به من وشاية ودس وخديعة هي التي حدت بالمصريين شعباً وسلطاناً أن يتخذوا من بني إسرائيل موقفاً مضاداً لهم، تمثّل في عزلهم عن الحياة العامة، والأمور الدقيقة التي يمكن أن تتخذ كأداة في يد اليهود للضغط على الشعب أو مساومته، بل أعملوهم في التسخير لبناء المعابد وشق الترع وتعبيد الطرق وغير ذلك. ولما رفضوا أن يحيوا الحياة بالشكل الذي يمكن أن تعيش به فئة قليلة، وجالية منبوذة وأرادوا أن ينظموا حركات تمرد وتخريب ضد الفرعون المصري، قاومهم المصريون بشدة إلى حد ذهبوا فيه إلى محاولة القضاء عليهم، وذلك حين صدرت الأوامر الفرعونية كما تحكي التوراة. يقول سفر الخروج في الإصحاح الأول: (وكلم ملك مصر، قابلتي العبرانيات التي اسم إحداهما «شفرة» واسم الأخرى «فرعة»، وقال: حينما تولدان العبرانيات، وتنظرانهن على الكراسي إن كان ولداً فاقتلاه، وإن كانت بنتاً فتحيا».

إلا أنه بطرق الالتواء أمكن للإسرائيليين عن طرق القابلات أن يتخلصوا من قرار فرعون، ومن مقاومة المصريين لهم حتى كثروا وتكاثروا وأصبحوا يمثلون خطراً. وكان من الممكن أن يستمر اضطهاد المصريين لبني إسرائيل حتى يتيسر لهم التخلص نهائياً من هذه الفئة التي استشرى خطرها، وأصبحت مرضاً لا بد من التخلص منه. إلا أن الموقف طرأت عليه عوامل كثيرة بعد أن استردت مصر سيادتها، وامتد نشاطها بتوسيع أملاكها وتأمين حدودها بالانتشار إلى خارج هذه الحدود. ولولا ذلك لما أمكن أن تقوم للإسرائيليين قائمة ولم يتيسر لهم الخروج من مصر أو البقاء فيها في أيام رمسيس الثاني، إلا أن الموقف قد طرأ عليه مجموعة من المواقف هي التي أدت إلى المسيرة التاريخية التي ارتبط بها الإسرائيليون، ذلك أنه قد ظهرت شخصية كبيرة في تاريخ مصر وتاريخ الإسرائيليين، ونعني بهذه الشخصية الفذة النبيّ الرسول موسى عليه السلام.

وفي محاولة لإلقاء بعض الضوء على هذه الصورة العامة في تصور القرآن الكريم لها، فإننا ندرك عمل المعجزة الإلٰهية وسط هذا الجو الرهيب

حين مولد موسى حيث ألقى الله المحبة على موسى مما كان له تأثير نفسي عميق في قلب كل مَن ألقت به قدرة الله في طريق موسى على غير الموقف الذي كان عليه القوم جميعهم ضد الإسرائيليين. وقد أصبح موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مقصداً ورجاءً لكل أبناء جلدته في قضاء حوائجهم أو محاولة التخفيف ورفع الأذى عنهم، إلا أنه يبدو من السرد العام للرواية التي تقدمها التوراة أن حالات التعاطف التي كانت تحدث كثيراً بين موسى وبين أبناء جنسه، قد جعلت الفرعون المصري لا يطمئن كثيراً لموسى. خاصة بعد الحادث الذي أفاضت فيه التوراة، وأشار إليه القرآن الكريم صراحة من قتل موسى للمصري قتلاً في غير عمد مناصرة للإسرائيلي على المصري. وبعد وشاية بعض أبناء جنسه عند فرعون، نصح موسى بأن يخرج من مصر ليعيش بعد ذلك في «مدين»، وأن الذين نصحوا موسى لم يكونوا من بني جنسه الإسرائيليين بل كانوا من المصريين. ومن العجب أنه قبل أن يذهب إلى مدين ويفر إلى خارج مصر وجد في الطريق موقف نزاع بين رجلين من بني جنسه، فما كان من أحد الرجلين إلا أن أفصح عن موقف غريب عبّر عن علاقة بني إسرائيل بموسى بأنه قال له كما تعبّر التوراة بالحرف: «مَنْ حَكَّمَك وجعلك قاضياً علينا؟ لعلَّك تريد قتلي كما قتلت المصري بالأمس»، ولا جدال في أن هذه الصورة التي تقدمها التوراة عن علاقة القوم بواحد كان حتى الأمس من كبار القوم، تدل على انعدام الصلة وانقطاع كل علاقات التقدير والاحترام[1].

إن الله سبحانه وتعالى لما أمر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالذهاب إلى فرعون. يقول الله تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وكليمه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ في جوابه لربه عزَّ وجلَّ حين أمره بالذهاب إلى عدوه الذي خرج من ديار مصر فراراً من سطوته وظلمه، حين كان من أمره ما كان في قتل ذلك القبطي[2]: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ

(١) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ص٨٢ ـ ٩١.
(٢) المرجع السابق.

أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِيٓ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِـَٔايَٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٣ ـ ٣٥].

وأمره الله تعالى: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [طه: ٢٤ ـ ٣٦]، قيل: إنه أصابه في لسانه لثغة، بسبب تلك الجمرة التي وضعها على لسانه، حين أخذ بلحية فرعون وهو صغير فهمّ بقتله، فخافت عليه آسية وقالت: إنه طفل، فاختبره بوضع تمرة وجمرة بين يديه، فهمّ بأخذ التمرة فصرف الملك يده إلى الجمرة، فأخذها فوضعها على لسانه فأصابه لثغة بسببها، فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله. وقال الحسن البصري: والرسل إنما يسألون بحسب الحاجة، ولهذا بقيت في لسانه بقية. ولهذا قال فرعون قبّحه الله فيما زعم يعيب به الكليم: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ أي: يفصح عن مراده، ويعبر عما في ضميره.

قال الله تعالى: ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى ﴿٤٢﴾ ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٠ ـ ٤٤].

يقول تعالى مخاطباً لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه لبث مقيماً في أهل مدين فارًّا من فرعون وملئه، يرعى على صهره حتى انتهت المدة وانقضى الأجل، ثم جاء موافقاً لقدر الله وإرادته من غير ميعاد، والأمر كله لله، وهو المسيِّر عباده وخلقه فيما يشاء، ولهذا قال: ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ﴾، قال مجاهد: أي: على موعد. وقوله: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى ﴿٤١﴾﴾، أي: اصطفيتك واجتبيتك رسولاً لنفسي، أي: كما أريد وأشاء. وقوله: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِى﴾، أي: بحججي وبراهيني ومعجزاتي، ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: لا تبطئا، وقال مجاهد عن ابن عباس:

لا تضعفا. والمراد أنهما لا يفتران في ذكر الله، بل يذكران الله في حالة مواجهة فرعون ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه. وقوله: ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾﴾ أي: تمرد وعتى وتجبّر على الله وعصاه ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾، وهذه الآية فيها عبرة عظيمة وهي أن فرعون في غاية العتو والاستكبار وموسى صفوة الله من خلقه إذ ذاك، ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون إلا بالملاطفة واللين ﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾، أي: لعله يرجع عما هو فيه من الضلال والهلكة أو يخشى، أي: تحدث لديه طاعة من خشية ربه، كما قال تعالى: ﴿لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [الفرقان: ٦٢]، فالتذكرة والرجوع عن المحذور والخشية تحصيل الطاعة.

يقول الله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾ فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [طه: ٤٥ ـ ٤٨].

يقول تعالى إخباراً عن موسى وهارون عليهما السلام أنهما قالا مستجيرين بالله تعالى شاكيين إليه: ﴿إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾، يعنيان أن يبدر إليهما بعقوبة أو يعتدي عليهما. ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾﴾، أي: لا تخافا منه فإنني معكما أسمع كلامكما وكلامه، وأرى مكانكما ومكانه، لا يخفى عليَّ من أمركم شيء، واعلما أن ناصيته بيدي فلا يتكلم ولا يتنفس ولا يبطش إلا بإذني، وبعد أمري، وأنا معكما بحفظي ونصري وتأييدي، ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾، عن ابن عباس أنه قال: مكثا على بابه حيناً لا يؤذن لهما. ﴿قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ أي: بدلالة ومعجزة من ربك، ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾، أي: والسلام عليك إن اتبعت الهدى، ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾، أي: قد أخبر الله فيما أوحاه إلينا من الوحي المعصوم أن العذاب متمحض لمن كذّب بآيات الله وتولى عن طاعته.

يقول الله تعالى: ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾﴾ [طه: ٤٩ ـ ٥٢]. يقول تعالى عن فرعون

أنه قال لموسى منكراً وجود الصانع الخالق، قال: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾، أي: الذي بعثك وأرسلك مَن هو؟ وما علمت لكم من إله غيري، ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ عن ابن عباس: يقول خلق لكل شيء زوجه. وقال سعيد بن جبير: أعطى كل ذي خلق ما يصلحه من خلقه، ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾ شرع فرعون يحتج بالقرون الأولى، أي: الذين لم يعبدوا الله، أي: فما بالهم إذا كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره. فقال موسى: هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم وسيجزيهم بعملهم ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾، أي: لا يشذ عنه شيء ولا تفوته صغيرة ولا كبيرة ولا ينسى بضعف علمه تعالى بأنه على كل شيء محيط[1]. وعند أهل الكتاب: إن الله قال لموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إن هارون اللاوي ـ يعني: الذي من نسل لاوي بن يعقوب ـ سيخرج ويتلقاك. وأمره أن يأخذ معه مشايخ بني إسرائيل عند فرعون، وأمره أن يظهر ما آتاه من الآيات وقال له: إني سأقسي قلبه فلا يرسل الشعب، وأكثر آياتي وإعجابي بأرض مصر. وأوحى الله إلى هارون أن يخرج إلى أخيه يتلقاه بالبرية عند جبل حوريب، فلما تلقاه أخبره موسى بما أمره به ربه. فلما دخلا مصر جمعا شيوخ بني إسرائيل وذهبا إلى فرعون، فلما بلّغاه رسالة الله قال: مَن هو الله؟ لا أعرفه ولا أرسل بني إسرائيل.

لقد ذكر موسى لفرعون عظمة الرب وقدرته على خلق الأشياء، وجعله الأرض مهاداً والسماء سقفاً محفوظاً، وتسخير السحاب والأمطار لرزق العباد ودوابهم وأنعامهم. ولما ذكر إحياء الأرض بالمطر، واهتزازها بإخراج نباتها فيه نبّه على الميعاد. قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾ [الروم: ٢٧]. ثم قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن

---

(١) التيسير لتفسير ابن كثير، د. عبدالله آل الشيخ ج٣ ص٤٦ ـ ٤٩.

يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى ﴿٥٩﴾﴾ [طه: ٥٦ ـ ٥٩]، يخبر الله تعالى عن شقاء فرعون وقلة عقله في تكذيبه بآيات الله واستكباره عن اتباعها، وقوله لموسى: إن هذا الذي جئت به سحر، ونحن نعارضك بمثله. ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم ومكان معلوم. وكان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام، أن يُظهر آيات الله وحججه وبراهينه جهرة. ولهذا قال: ﴿مَوۡعِدُكُمۡ يَوۡمُ ٱلزِّينَةِ﴾، وكان عيداً من أعيادهم، ﴿وَأَن يُحۡشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحٗى﴾ أي: من أول النهار فيكون الحق أظهر وأجلى لأنه على بصيرة من ربه ويقين أن الله سيُظهر كلمته ودينه.

قال الله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرۡعَوۡنُ فَجَمَعَ كَيۡدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيۡلَكُمۡ لَا تَفۡتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا فَيُسۡحِتَكُم بِعَذَابٖۖ وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ ﴿٦١﴾ فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ وَقَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡيَوۡمَ مَنِ ٱسۡتَعۡلَىٰ ﴿٦٤﴾﴾ [طه: ٦٠ ـ ٦٤]، يخبر الله تعالى عن فرعون أنه ذهب فجمع كل ما في بلاده من السحرة فاجتمع منهم خلق كثير وجم غفير، فقيل: كانوا ثمانين ألفاً، وقيل: اثني عشر ألفاً، وعن ابن عباس: كانوا سبعين رجلاً. وحضر فرعون وأهل دولته وأهل بلده ليحضروا هذا الموقف العظيم. وتقدم موسى عليه السلام إلى السحرة فوعظهم وزجرهم، ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾، قيل: إنهم اختلفوا فيما بينهم. فمنهم مَن قال: إن هذا وأخاه هارون ساحران عليمان، ومرادهما أن يستأصلاكم عن آخركم، وإنما قالوا ذلك ليتدبروا ويأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة والخديعة والسحر والبهتان. وهيهات أن يعارض السحر خوارق العادات التي أجراها الديّان على يدي عبده الكليم ورسوله الكريم المؤيَّد بالبرهان. وقولهم: ﴿فَأَجۡمِعُواْ كَيۡدَكُمۡ ثُمَّ ٱئۡتُواْ صَفّٗاۚ﴾، أي: جميع ما عندكم جملة واحدة، ثم حضُوا بعضكم بعضاً على التقدم لأن فرعون كان قد وعدهم ومنَّاهم، وما يعدهم الشيطان إلا غروراً، ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلۡقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنۡ أَلۡقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ فَإِذَا حِبَالُهُمۡ وَعِصِيُّهُمۡ يُخَيَّلُ إِلَيۡهِ مِن سِحۡرِهِمۡ أَنَّهَا تَسۡعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلۡنَا لَا تَخَفۡ إِنَّكَ

أَنتَ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلۡقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلۡقَفۡ مَا صَنَعُوٓاْۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيۡدُ سَٰحِرٖۖ وَلَا يُفۡلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيۡثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: ٦٥ ـ ٦٩]، لما اصطفّ السحرة ووقف موسى وهارون عليهما السلام تجاههم قالوا له: إما أن تلقي قبلنا وإما أن نلقي قبلك ﴿قَالَ بَلۡ أَلۡقُواْۖ﴾ وكانوا قد عمدوا إلى حبال وعصي، فأودعوها الزئبق وغيره من المواد التي تضطرب بسببها تلك الحبال والعصي اضطراباً يخيل للرائي أنها تسعى باختيارها. فعند ذلك سحروا أعين الناس واسترهبوهم وهم يقولون: ﴿بِعِزَّةِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّا لَنَحۡنُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾، فعند ذلك ألقى موسى عصاه، فصارت حية عظيمة ذات قوائم وعنق عظيم وشكل هائل، بحيث إن الناس انحازوا منها وهربوا وأقبلت هي على ما ألقوه من الحبال والعصي فجعلت تلقفه واحداً واحداً في أسرع ما يكون، والناس يتعجبون منها. وأما السحرة فإنهم رأوا ما هالهم، واطَّلعوا على أمر لم يكن في خلدهم، فعند ذلك تحققوا أن هذا ليس بسحر، بل حق لا يقدر عليه إلا الحق. وكشف الله عن قلوبهم غشاوة الغفلة وأنابوا إلى ربهم وخَرُّوا له ساجدين.

قال الله تعالى: ﴿فَأُلۡقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدٗا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمۡ لَهُۥ قَبۡلَ أَنۡ ءَاذَنَ لَكُمۡۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحۡرَۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيۡدِيَكُمۡ وَأَرۡجُلَكُم مِّنۡ خِلَٰفٖ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمۡ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخۡلِ وَلَتَعۡلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابٗا وَأَبۡقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغۡفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكۡرَهۡتَنَا عَلَيۡهِ مِنَ ٱلسِّحۡرِۗ وَٱللَّهُ خَيۡرٞ وَأَبۡقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه: ٧٠ ـ ٧٣]، وذلك أن فرعون لما رأى هؤلاء السحرة قد أسلموا وأشهروا اسم موسى وهارون في الناس على هذه الصفة الجميلة، أفزعه ذلك فقال مخاطباً للسحرة: هلا شاورتموني فيما صنعتم؟ ثم تهدّد. وعن عكرمة والأوزاعي وغيرهم: لما سجد السحرة رأوا منازلهم وقصورهم في الجنة تُهيأ لهم، وتزخرف لقدومهم، ولهذا لم يلتفتوا إلى تهويل فرعون وتهديده ووعيده.

إن فرعون كذب وافترى وكفر، إلا أن السحرة قالوا له: لن نطيعك ونترك ما وقر في قلوبنا من البيِّنات والدلائل القاطعات فافعل ما قدرت

عليه، إنما حكمك علينا في هذه الحياة الدنيا، فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة صرنا إلى حكم الذي أسلمنا له واتَّبَعْنَا رسله، وثواب الله خيرٌ مما وعدتنا به من الترهيب والترغيب. والظاهر من السياقات أن فرعون ـ لعنه الله ـ صلبهم وعذّبهم رضي الله عنهم. قال ابن عباس وابن عمير: كانوا من أول النهار سحرة، فصاروا من آخره شهداء بررة.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ [الأعراف: ١٢٧ ـ ١٢٩]، يخبر الله تعالى عن الملأ من قوم فرعون وهم الأمراء والكبراء، أنهم حرّضوا ملكهم فرعون على أذية نبيّ الله موسى عليه السلام، ومقابلته بدل التصديق لما جاء به، بالكفر والأذى. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَقَٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾﴾ [غافر: ٢٣، ٢٤]. وكان فرعون الملك، وهامان الوزير، وقارون إسرائيلياً من قوم موسى، إلا أنه كان على دين فرعون، وكان ذا مال جزيل(١).

فرجع فرعون عدو الله مغلوباً ملعوناً، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر والتمادي في الشر، فتابع الله عليه بالآيات، والأخذ بالسنين. وأبى فرعون أن يؤمن بموسى أو يرسل معه بني إسرائيل، وقال لقومه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجْعَل لِّى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى﴾ [القصص: ٣٨]، فلما بنى له الصرح ارتقى فوقه، فأمر بنشابة فرمى بها نحو السماء فردت إليه، وهي ملطخة دماً، فقال: قتلت إلٰه موسى. عن قتادة قال: كان أول مَن طبخ الأجر يبني به الصرح. وفي حديث السدي: إن الله أرسل عليهم الطوفان وهو المطر، فغرق كل شيء

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج٢ ص٣٩ ـ ٥٥.

لهم، فقالوا: يا موسى، ادعُ لنا ربك يكشف عنا، ونحن نؤمن لك ونرسل معك بني إسرائيل. فكشفه الله عنهم، ونبتت زروعهم، فقالوا: ما يسرُّنا أنا لم نمطر. فبعث الله عليهم الجراد فأكل حروثهم، فسألوا موسى أن يدعو ربه فيكشفه ويؤمنوا به، فدعا فكشفه، وقد بقي من زروعهم بقية، فقالوا: لن نؤمن وقد بقي لنا من زروعنا بقية، فبعث الله عليهم الدبا وهو القمل، فلحس الأرض كلها، وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده فيعضه، وكان أحدهم يأكل الطعام فيمتلئ دباً، فلم يصبهم بلاء كان أشد عليهم من الدبا، وهو الرِّجْزُ الذي ذكره الله تعالى في القرآن. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ ۖ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝١٣٤﴾ [الأعراف: ١٣٤]، فسألوا موسى أن يدعو ربه فيكشفه عنهم ويؤمنوا به، فلما كشف عنهم أبوا أن يؤمنوا، فأرسل الله عليهم الدم، فكان الإسرائيلي يأتي هو والقبطي يستقيان من ماء واحد، فيخرج ماء هذا القبطي دماً، ويخرج ماء الإسرائيلي ماء، فلما اشتد ذلك عليهم سألوا موسى أن يكشفه ويؤمنوا به فكشف ذلك عنهم، فأبوا أن يؤمنوا، فذلك حين يقول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَـٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ۝١٣٥ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَـٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَـٰفِلِينَ ۝١٣٦﴾ [الأعراف: ١٣٥، ١٣٦].

ثم أمر الله تعالى موسى أن يخرج ببني إسرائيل فقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِىٓ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ۝٥٢ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ ۝٥٣ إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ۝٥٤ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَآئِظُونَ ۝٥٥ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَـٰذِرُونَ ۝٥٦ فَأَخْرَجْنَـٰهُم مِّن جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٥٧ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَـٰهَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ۝٥٩ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ۝٦٠ فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَـٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ۝٦٢ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ۝٦٦﴾ [الشعراء: ٥٢ ـ ٦٦]. أمر موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بني إسرائيل أن يخرجوا، وأمرهم أن لا ينادي إنسان صاحبه، وأن يسرجوا في بيوتهم حتى الصباح. ثم خرج موسى ببني إسرائيل ليلاً والقبط لا يعلمون،

وكان موسى على ساقة بني إسرائيل في مؤخرتهم، وكان هارون أمامهم يقدمهم. فخرج موسى في ستمائة ألف وعشرين ألف مقاتل، وتبعهم فرعون، وعلى مقدمته هامان، في ألف ألف وسبعمائة ألف حصان ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ﴾ فنظرت بنو إسرائيل إلى فرعون قد دنا منهم، قالوا: يا موسى، أوذينا من قبل أن تأتينا، كانوا يذبحون أبناءنا، ويستحيون نساءنا، ومن بعد ما جئتنا اليوم يدركنا فرعون فيقتلنا إنا لمدركون البحر من بين أيدينا وفرعون من خلفنا. فتقدم فضرب البحر فأبى أن ينفتح، حتى أتاه موسى، وضربه، فانفلق كالجبل العظيم، فدخلت بنو إسرائيل، وكان في البحر اثنا عشر طريقاً، في كل طريق سبط، وكأن الطرق إذا انفلقت بجدران، فقال كل سبط: قد قتل أصحابنا، فلما رأى ذلك موسى دعا الله فجعلها لهم قناطر كهيئة الطيقان، فنظر آخرهم إلى أولهم، حتى خرجوا جميعاً.

ثم دنا فرعون وأصحابه، فما نظر فرعون إلى البحر منغلقاً، فذلك قول الله تعالى: ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٦٤﴾﴾، أي: قربنا ثَمَّ الآخرين وهم آل فرعون. فلما قام فرعون على أفواه الطرق أبت خيله أن تقتحم، فنزل جبريل على ماذيانة، فشامت الحصن ريح الماذيانة فاقتحمت في أثرها حتى إذا هم أولهم أن يخرج ودخل آخرهم، أمر البحر أن يأخذهم فالتطم عليهم. يقول الله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً ۚ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩٠ ـ ٩٢]، نادى فرعون حين رأى من سلطان الله وقدرته ما رأى، وعرف ذله وخذلته نفسه، ﴿فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً﴾ أي: سواء لم يذهب منك شيء، وتكون عبرة وبينة[1].

فموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان نبياً رسولاً يتلقى الوحي من ربه ويوجه دعوة الله إلى البشر. وإن مقومات الدعوة في مراحلها الأولى كانت ضمن الرسالة

---

(١) تاريخ الطبري، ج١ ص٤١٠ ـ ٤٢١.

الدينية التي هي من عند الله، وأن عليه أن يبدأ بالإسرائيليين في مصر، وبالمصريين لمن يستجيب له. غير أن التوراة في سفر الخروج (الإصحاح الرابع) تحصر رسالة موسى في أمور كثيرة بالجنس الإسرائيلي فمثلاً يقول: «قال الرب لموسى في «مديان» اذهب ارجع إلى مصر، لأنه قد مات جميع القوم الذين كانوا يطلبون نفسك، فأخذ موسى امرأته وبنيه وأركبهم على الحمير ورجع بهم إلى أرض مصر، وأخذ موسى عصا الله في يده». ثم يقول الإصحاح السادس من نفس السفر: «ثم كلم الرب موسى قائلاً: ادخل، قل لفرعون ملك مصر أن يطلق بني إسرائيل من أرضه، فتكلم موسى أمام الرب قائلاً: هو ذا بني إسرائيل لم يسمعوا إليّ فكيف يسمعني فرعون، وأنا أغلق الشفتين»، وكما هو واضح من هذا النص التوراتي فإن موسى حين وصل إلى مصر وابتدأ يوجه دعوة الله إلى الناس ويدعو الإسرائيليين وقفوا منه في عناد. وكان موسى قد ابتدأ الدعوة مع قومه من بني إسرائيل، بجهد جهيد، يحاول أن ينتقل بهم من سلوكهم الوثني في مظاهر العبادة وشعائرها إلى العبادة التي يدعوهم إليها محذّراً مما هم عليه. فمثلاً يوضح سفر التثنية الإصحاح الثالث عشر: إذا أغواك سراً أخوك ابن أمك، أوصي بك الذي مثل نفسك قائلاً: تذهب وتعبد آلهة أخرى لم تعرفها أنت ولا آباؤك من آلهة الشعوب التي حولك، القريبين منك أو البعيدين منك من أقصى الأرض إلى أقصاها فلا ترضَ منه، ولا تسمع له، ولا تشفق عينك عليه، ولا تَرِقَّ له، ولا تشتره بل قتلاً تقتله، يدك تكون عليه أولاً لقتله، ثم أيدي جميع الشعب ترجمه بالحجارة حتى يموت، لقد فوجئ موسى بموقف الرفض عند الإسرائيليين لقضايا محذورة دعاهم إلى اجتنابها، غير أنهم كما يقول سفر الخروج رفضوها وظلوا على ما هم عليه: «إذا بيع لك أخوك العبراني أو أختك العبرانية، وخدمك ست سنين ففي السنة السابعة تطلقه حراً من عندك، وحين تطلقه حراً من عندك لا تطلقه فارغاً، تزوده من غنمك ومن بيدرك ومن معصرتك»، وكما هو واضح على بدء توجيه موسى الدعوة ودخوله معهم مرحلة حاول فيها إصلاح الأحوال العامة للإسرائيليين وهدايتهم، إلا أنهم منذ عودته من أرض «مدين» كانوا

يقفون منه ومن دعوته على طرفي نقيض، إلا أن موسى طلب من بني إسرائيل الامتثال لدعوته والخروج معه من مصر، بعدما بذل جهداً مضنياً معهم، بعد أن أكد سلامة الرحلة ووعوداً وأماني كثيرة.

لقد اتجهت النية عند موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حين قرر الخروج من مصر بأن يتجه إلى فلسطين أرض كنعان. ولم يكن عليها وقتئذ ملك بالمعنى التقليدي في اتخاذ العروش وعمل الحدود الجغرافية المغلقة مما يسهل حركة الهجرة إذا ما تمت. فكانت فلسطين بهذه الاعتبارات هي التي جعلت موسى ينظر إليها على أنها من المقاصد المأمونة، ثم هي موقع يمكن مناله في حركة هجرة برية سهلة من مصر. ففي شمال شرق مصر سيناء، وهي المعبر البري الأسلم والأضمن للخروج من مصر إلى فلسطين العربية. أما الرواية التوراتية فتقص أن فلسطين هي الأرض التي تركها يعقوب ومعه أولاده حين قصدوا مصر، فإن يعقوب حسبما دوّن القوم عنه قد أوصى أبناءه أو قد تنبأ لهم بالعودة إلى هذه الأرض فلسطين بعد طول الإقامة في مصر. ولما كان شبه ميراث يدّعيه القوم ويلوكونه فيما بينهم عن هذه الدعوى أو الوصية التي دوّنت عن أبيهم يعقوب، في أنهم سيعودون إلى حيث كانوا في أرض كنعان.

وعلى مثل هذا المعنى يكون موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ حتى حزة الرسالة قد نذر نفسه للعمل من أجل تحقيق ما يردده القوم من وعد الله للأنبياء إبراهيم وإسحاق ويعقوب وهذا تقرير توراتي يميل إليه بعض شرّاح التوراة. إلا أنه قد يكون الأقرب إلى الروح العام للحركة الدينية، ذلك المعنى الآخر الذي جاء في التوراة صراحة، حين كُلِّفَ موسى من قِبَل ربه بالتوجه من أرض مدين حيث كان يقيم ـ حسب سياق التوراة ـ مهاجراً إلى أرض مصر لإخراج بني إسرائيل وتوجيههم إلى أرض فلسطين. وقد يكون هذا المعنى الصريح أقرب إلى كمال الرسالة الدينية وطبيعة التكليف الإلٰهي فيها، خاصة أن هذا المعنى ـ الذي يسوق أمر توجه موسى إلى مصر للخروج منها بعد ذلك في شكل الأمر بأسلوب المعجزة الإلٰهية ـ يجد قبولاً مع ما ورد في القرآن الكريم من توجيه الدعوة إلى موسى بالنسبة إلى أهمية قداسة أرض

فلسطين. تقول التوراة في الإصحاح الثالث من سفر الخروج: «رأيت مذلة شعبي الذي في مصر، وسمعت صراخهم من أجل مُسَخِّريهم، إني علمت أوجاعهم، فنزلت لأنقذهم من أيدي المصريين وأصدهم من تلك الأرض إلى أرض جيدة وواسعة، إلى أرض تفيض لبناً وعسلاً، إلى مكان الكنعانيين والحيثيين والأموريين والفرزيين واليبوسيين».

وعلى هذا المعنى كان على موسى عليه السلام أن يستجيب وأن يبدأ بمجال عملي لرسالته، ويأخذ من يستجيب للدعوة من الإسرائيليين ويتجه إلى فلسطين فهل نجح، قال الله تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ ۚ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ ۖ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ ۚ وَفِى ذَٰلِكُم بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿١٤١﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤١]. وعن حديث السدي: إن جبرائيل أتى موسى يذهب به إلى الله عزَّ وجلَّ، فقيل حين رآه: إن لهذا لشأناً، فأخذ من تربة الحافر حافر الفرس. فانطلق موسى واستخلف هارون على بني إسرائيل، وواعدهم ثلاثين ليلة، وأتمّها بعشر، فقال لهم هارون: يا بني إسرائيل، إن الغنيمة لا تحل لكم، وإن حُلِيَّ القبط إنما هو غنيمة، فاجمعوها جميعاً فاحفروا لها حفرة فادفنوها فيها، فإن جاء موسى فأحلها أخذتموها، وإلا كان شيئاً لم تأكلوه. فجمعوا ذلك الحلي في تلك الحفرة، وجاء السامري بتلك القبضة فقذفها، فأخرج الله من الحلي عجلاً جسداً له خوار. وعدت بنو إسرائيل موعد موسى، فعدوا الليلة يوماً واليوم يوماً، فلما كان العشرين خرج لهم العجل فلما رأوه قال لهم السامري هذا إلٰهكم وإلٰه موسى، قال الله تعالى: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾﴾ [طه: ٨٨]، يقول: ترك موسى إلٰهه هنا، وذهب يطلبه، فعكفوا عليه يعبدونه، وكان يخور ويمشي، فقال لهم هارون: قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾﴾ [طه: ٩٠]، فأقام هارون ومَن معه

من بني إسرائيل لا يقاتلونهم، وانطلق موسى إلى إلٰهه يكلمه، فلما كلمه قال له: ﴿وَمَآ أَعۡجَلَكَ عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ ۝٨٣ قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ ۝٨٤ قَالَ فَإِنَّا قَدۡ فَتَنَّا قَوۡمَكَ مِنۢ بَعۡدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٥﴾ [طه: ٨٣ ـ ٨٥]، فلما أخبره خبرهم قال موسى: يا رب، هذا السامري أمرهم أن يتخذوا العجل، أرأيت الروح من نفخها فيه؟ قال الرب: أنا. قال: رب أنت إذاً أضللتهم.

ثم إن موسى لما كلمه ربه أحب أن ينظر إليه، قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡجَبَلِ فَإِنِ ٱسۡتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوۡفَ تَرَىٰنِيۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلۡجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكّٗا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقٗاۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝١٤٣﴾ [الأعراف: ١٤٣]. عن ابن عباس، أنه قال: تجلى منه مثل طرف الخنصر، فجعله دكاً وخرَّ موسى صعقاً، فلم يزل صعقاً ما شاء الله، ثم إنه أفاق فقال: سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين، يعني أول المؤمنين من بني إسرائيل، فقال: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذۡ مَآ ءَاتَيۡتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝١٤٤ وَكَتَبۡنَا لَهُۥ فِي ٱلۡأَلۡوَاحِ مِن كُلِّ شَيۡءٖ مَّوۡعِظَةٗ وَتَفۡصِيلٗا لِّكُلِّ شَيۡءٖ﴾ من الحلال والحرام ﴿فَخُذۡهَا بِقُوَّةٖ﴾ يعني بجد واجتهاد ﴿وَأۡمُرۡ قَوۡمَكَ يَأۡخُذُواْ بِأَحۡسَنِهَاۚ﴾ [الأعراف: ١٤٤، ١٤٥] أي: بأحسن ما يجدون فيها. فكان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد ذلك لا يستطيع أحد أن ينظر إلى وجهه، وكان يلبس وجهه بحريرة. فأخذ الألواح ثم رجع إلى قومه ﴿غَضۡبَٰنَ أَسِفٗا﴾ يقول حزيناً: ﴿يَٰقَوۡمِ أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًاۚ﴾ إلى أن قالوا: ﴿مَآ أَخۡلَفۡنَا مَوۡعِدَكَ بِمَلۡكِنَا﴾ يقولون: ليس بطاقتنا ﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلۡنَآ أَوۡزَارٗا مِّن زِينَةِ ٱلۡقَوۡمِ﴾ يقول: من حلي القبط ﴿فَقَذَفۡنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلۡقَى ٱلسَّامِرِيُّ﴾ [طه: ٨٦، ٨٧] ذلك حين قال لهم هارون: احفروا لهذه الحلي حفرة، واطرحوه فيها، فطرحوه فقذف السامري تربته، فألقى موسى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه، ﴿قَالَ يَبۡنَؤُمَّ لَا تَأۡخُذۡ بِلِحۡيَتِي وَلَا بِرَأۡسِيٓۖ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقۡتَ بَيۡنَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَمۡ تَرۡقُبۡ قَوۡلِي ۝٩٤﴾ [طه: ٩٤] فترك موسى هارون، ومال إلى السامري، فقال: ﴿فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾ قال السامري: ﴿بَصُرۡتُ بِمَا لَمۡ

يَبۡصُرُواْ بِهِۦ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾ [طه: ٩٥ ـ ٩٧]، ثم أخذه فذبحه ثم حَرَّقه ثم ذراه في البحر، ثم قال لهم موسى: اشربوا منه، فشربوا، فمَن كان يحبه خرج على شاربه الذهب، فذلك حين يقول: ﴿وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ﴾ [البقرة: ٩٣]. وكان الله وعد بني إسرائيل حين أنجاهم وأهلك عدوهم جانب الطور الأيمن. وكان موسى حين سار ببني إسرائيل من البحر قد احتاجوا إلى الماء، فاستقى لقومه. فأمر أن يضرب بعصاه الحجر، فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً، لكل سبط عين يشربون منها قد عرفوها.

فأبى الله عزَّ وجلَّ أن يقبل توبة بني إسرائيل إلا بالحال التي كرهوا أن يقاتلوهم حين عبدوا العجل، فقال لهم موسى: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّكُمۡ ظَلَمۡتُمۡ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلۡعِجۡلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمۡ فَٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [البقرة: ٥٤]، فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف، فكان من قتل من الفريقين شهيداً، حتى كثر القتل وكادوا أن يهلكوا، حيث قتل بينهم سبعون ألفاً، حتى دعا موسى وهارون: ربنا هلكت بنو إسرائيل، ربنا البقية البقية. فأمرهم أن يضعوا السلاح، وتاب عليهم، فذلك قوله تعالى: ﴿فَتَابَ عَلَيۡكُمۡۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٥٤].

ثم اختار موسى منهم سبعين رجلاً: الخَيِّر فالخَيِّر، وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم وسلوه التوبة على مَن تركتم وراءكم من قومكم، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وَقَّتَهُ له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم. فقال له السبعون حين صنعوا ما أمرهم به، وخرجوا معه للقاء ربه: اطلب لنا نسمع كلام ربنا، فقال: أفعل، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا، وكان موسى إذا كلمه وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه الحجاب. ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجَّداً، فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه، فلما فرغ إليه من أمره انكشف عن موسى الحجاب فأقبل إليهم فقالوا لموسى: ﴿لَن نُّؤۡمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ﴾

[البقرة: ٥٥]. ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥]، فانفلتت أرواحهم فماتوا جميعاً، وقام موسى يناشد ربه ويدعوه، ويرغب إليه ويقول: ﴿رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَ﴾ [الأعراف: ١٥٥]. قد سفهوا فيهلك من ورائي من بني إسرائيل بما فعل السفهاء منا إن هذا هلاك لهم. اخترت منهم سبعين رجلاً الخَيِّر فالخَيِّر، ثم أرجع إليهم وليس معي رجل واحد، فما الذي يصدقوني به، فلم يزل موسى يناشد ربه، ويسأله ويطلب إليه حتى ردّ إليهم أرواحهم. فتاب عليهم وعفا عنهم، وأمر موسى أن يرفع عنهم السيف(١).

لما أهلك الله فرعون وجنوده، ونجا بنو إسرائيل من العذاب المهين، أمره أن يتوجه بهم إلى «بيت المقدس» فخرجوا حتى إذا كانوا في الطريق عطشوا عطشاً شديداً. فشكوا إلى موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ متذمرين، واستسقوه، فأمره الله أن يضرب الحجر بعصاه، فلما ضربه انبجست ـ تفجرت ـ منه اثنتا عشرة عيناً، لكل سبط من الأسباط عين تجري بالماء يشرب منها. وأرسل الله لهم ﴿ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ﴾ رزقاً منه جلّ وعلا، يحصلون عليه دون جهد أو تعب. ثم أمر موسى أن يدخل بهم الأرض المقدسة، التي كان قد وعدهم بها على لسان نبيه وكليمه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلما اقتربوا منها وجدوا فيها قوماً من الجبارين، وهم من «الكنعانيين» ومن البقايا «الحيثانيين» فأمرهم موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بالدخول ومقاتلتهم وإجلائهم عن بيت المقدس، ولكنهم أبوا ونكلوا عن الجهاد وجبنوا عن مقابلة عدوهم، وقالوا قولتهم الفاجرة لنبيهم الكريم: ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدْخُلَهَآ أَبَدًا مَّا دَامُوا۟ فِيهَا ۖ فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: ٢٤].

يذكر المؤرخون أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ كان قبل أن يطلب إلى بني إسرائيل دخول تلك الأرض قد أرسل ناساً من قبله ليأتوه بالأخبار. ويقول المفسرون إنهم كانوا اثني عشر رجلاً، فرأوا من ضخامة أولئك القوم ما هالهم وأفزعهم. فلما عادوا أخبروا بني إسرائيل بما رأوا، فضعفت نفوسهم وخارت قواهم، ولم يعد لهم طاقة للقتال أو الجهاد. وكان بنو إسرائيل قد

(١) تاريخ الطبري، ج١ ص٤٢١ ـ ٤٢٨.

ألقوا الذل والهوان منذ أن كانوا في أرض الفراعنة، وتحت سلطان الأقباط، لذلك امتنعوا عن تنفيذ أمر الله، وجبنوا عن جهاد الأعداء، فألقاهم الله في التيه وضيَّعهم في الصحراء أربعين سنة يسيرون ويَحِلُّون، ويرتحلون ويذهبون ثم يرجعون إلى مكانهم الذي خرجوا منه كما قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٦]. وكان ذلك عقوبة من الله تعالى لهم، حتى انقرض ذلك الجيل الذي عاش على الذل وألف الهوان، وجاء من بعدهم من الأبناء الذين عاشوا في الصحراء على الحرية والعزة، فدخلوا مع «يوشع بن نون» الأرض المقدسة(١).

وعند أهل الكتاب: أن بني إسرائيل لما أمروا بالخروج من مصر، جعل الله ذلك الشهر أول سنتهم، وأُمروا أن يذبح كل أهل بيت جملاً من الغنم. فإذا ذبحوه فلينضحوا من دمه على أعتاب أبوابهم ليكون علامة لهم على بيوتهم. ولا يأكلونه مطبوخاً، ولكن مشوياً برأسه وأكارعه وبطنه، ولا يبقوا منه شيئاً. وليكن خبزهم فطيراً سبعة أيام. ابتداؤها من الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم، وكان ذلك في فصل الربيع، فإذا أكلوا فلتكن أوساطهم مشدودة، وخفافهم في أرجلهم، وعصيهم في أيديهم، وليأكلوا بسرعة قياماً، ومهما فضل عن عشائهم فما بقي إلى الغد فيمرقوه بالنار. وشرع لهم هذا عيداً لأعقابهم ما دامت التوراة معمولاً بها، فإذا نسخت بطل شرعها. وقد وقع.

قالوا: وقتل الله عزَّ وجلَّ في تلك الليلة أبكار القبط وأبكار دوابهم، ليشتغلوا عنهم. وخرج بنو إسرائيل حين انتصف النهار، وأهل مصر في مناحة عظيمة على أبكار أولادهم وأبكار أموالهم ليس من بيت إلا وفيه عويل. وحين جاء الوحي إلى موسى خرجوا مسرعين، فحملوا العجين قبل اختماره، وحملوا الأزواد والأدوية وألقوها على عواتقهم، وكانوا قد استعاروا من أهل مصر جلباً كثيراً، فخرجوا وهم ستمائة ألف رجل سوى

(١) النبوة والأنبياء، للصابوني ص١٩٢ ـ ١٩٤.

الذراري بما معهم من الأنعام، وكانت مدة مقامهم بمصر أربعمائة سنة وثلاثين سنة. هذا نص كتابهم. وهذه السنة عندهم تسمى سنة الفسخ، وهذا العيد عيد الفسخ، ولهم عيد الفطير، وعيد الحمل وهو أول السنة، وهذه الأعياد الثلاثة آكد أعيادهم منصوص عليها في كتابهم. ولما خرجوا من مصر أخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام، وخرجوا على طريق يحرسون، وكانوا في النهار يسيرون والسحاب بين أيديهم يسير أمامهم في عمود نور، والليل أمامهم عمود نار، فانتهى بهم الطريق إلى ساحل البحر فنزلوا هنالك، وأدركهم فرعون وجنوده من المصريين، وهم هناك حلول على شاطئ اليم، فقلق كثير من بني إسرائيل، حتى قال قائلهم: كان بقاؤنا بمصر أحب إلينا من الموت بهذه البرية. فقال موسى عليه السلام لمن قال هذه المقالة: لا تخشوا فإن فرعون وجنوده لا يرجعون إلى بلدهم بعد هذا.

قالوا: وأمر الله موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه، وأن يقسمه ليدخل بنو إسرائيل في البحر واليبس. وصار الماء من هاهنا وهاهنا كالجبلين، وصار وسطه يابساً، لأن الله سلّط عليه ريح الجنوب والسموم. فجاز بنو إسرائيل البحر وأتبعهم فرعون وجنوده، فلما توسطوه أمر الله موسى فضرب البحر بعصاه، فرجع الماء كما كان عليهم، لكن عند أهل الكتاب أن هذا كان في الليل، وأن البحر ارتطم عليهم عند الصبح، وهذا من غلطهم وعدم فهمهم. وذكروا أنهم لما جاوزوا البحر وذهبوا قاصدين إلى بلاد الشام مكثوا ثلاثة أيام لا يجدون ماء، وتكلم مَن تكلم منهم بسبب ذلك. فوجدوا ماءً زعافاً أجاجاً لم يستطيعوا شربه، فأمر الله موسى فأخذ خشبة فوضعها فيه، فحلا وساغ شربه. وعَلَّمَهُ الرب هنالك فرائض وسنناً، ووصاه وصايا كثيرة.

أما عن دخولهم في التيه ونكول بني إسرائيل عن قتال الجبارين، وأن الله تعالى عاقبهم بالتيه، وحكم بأنهم لا يخرجون منه إلى أربعين سنة. فلم يذكروا قصة نكولهم عن قتال الجبارين، ولكن في كتابهم: أن يوشع جهزه موسى لقتال طائفة من الكفار، وأن موسى وهارون وخور جلسوا على رأس أكمة، ورفع موسى عصاه، فكلما رفعها انتصر يوشع عليهم، وكلما

مالت يده بها من تعب أو نحوه غلبهم أولئك، وجعل هارون وخور يدعمان يديه ذلك اليوم إلى غروب الشمس، فانتصر حزب يوشع عليه السلام. وعندهم أن «يثرون» خِتْنَ موسى، قدم على موسى مسلماً ومعه ابنته «صفورا» زوجة موسى، وابناها منه «جرشون، وعازر» وذكروا أنه رأى كثرة اجتماع بني إسرائيل على الخصومات التي تقع بينهم، فأشار على موسى أن يجعل على الناس أمناء يبغضون الرشاء والخيانة، فيجعلهم على الناس فيقضوا بينهم.

قالوا: ونزل بنو إسرائيل حول طور سيناء، وصعد موسى الجبل فكلمه ربه، وأمره أن يُذَكِّر بني إسرائيل ما أنعم به عليهم، من إنجائه إياهم من فرعون وقومه، وكيف حملهم على مثل جناحي نسر من يده وقبضته. وأمره أن يأمر بني إسرائيل بأن يتطهروا ويغتسلوا ويغسلوا ثيابهم وليستعدوا إلى اليوم الثالث. فإذا كان اليوم الثالث فليجتمعوا حول الجبل، ولا يقتربن أحد منهم إليه، فمن دنا منه قتل، حتى ولا شيء من البهائم، ما داموا يسمعون صوت القرن ـ البوق ـ فإذا سكن القرن فقد حلّ لكم أن ترتقوه، فسَمَّع بني إسرائيل ذلك فأطاعوه واغتسلوا وتنظّفوا وتطيّبوا. فلما كان اليوم الثالث ركب الجبل غمامة عظيمة وفيها أصوات وبروق، ففزع بنو إسرائيل من ذلك فزعاً شديداً. وغشي الجبل دخان عظيم في وسطه عمود نار، زلزل الجبل كله زلزلة شديدة، وموسى عليه السلام فوق الجبل والله يكلمه ويناجيه. وأمر الرب عزَّ وجلَّ موسى أن ينزل فيأمر بني إسرائيل أن يقتربوا من الجبل ليسمعوا وصية الله وأمر الأحبار وهم علماؤهم، أن يدنوا فيصعدوا الجبل ليتقدموا. فقال موسى: يا رب إنهم لا يستطيعون أن يصعدوا، وقد نهيتهم عن ذلك، فأمر الله تعالى أن يذهب فيأتي معه بأخيه هارون، وليكن الكهنة وهم العلماء، والشعب وهم بقية بني إسرائيل غير بعيد، ففعل موسى. وكلمه ربه عزَّ وجلَّ، فأمره حينئذ بالكلمات العشر. وعندهم أن بني إسرائيل سمعوا كلام الله، ولكن لم يفهموا حتى فَهَّمَهُم موسى.

فبلغهم عنه فقال هذه العشر كلمات وهي: الأمر بعبادة الله وحده لا شريك له، والنهي عن الحلف بالله كاذباً، والأمر بالمحافظة على السبت، ومعناه تفرغ يوم من الأسبوع للعبادة: وهذا حاصل يوم الجمعة الذي نسخ الله

به السبت، أكرم أباك وأمك ليطول عمرك في الأرض، الذي يعطيك الله ربك، لا تقتل، لا تزن، لا تسرق، لا تشهد على صاحبك شهادة زور، لا تمد عينك إلى بيت صاحبك، ولا تشتهي امرأة صاحبك، ولا عبده ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره، ولا شيئاً من الذي لصاحبك. ومعناه النهي عن الحسد. وذكروا بعد الكلمات العشر وصايا كثيرة وأحكاماً متفرقة عزيزة، وكانت فزالت، وعمل بها حيناً من الدهر، ثم طرأ عليها عصيان من المكلفين بها. ثم عمدوا إليها فبدلوها وحرّفوها، ثم بعد ذلك كله سلبوها فصارت منسوخة مُبَدَّلة، بعدما كانت مشروعة مكملة[١].

وقد قال الله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٞ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا ثُمَّ ٱهۡتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: ٨٠ ـ ٨٢]. يذكر تعالى منّته وإحسانه إلى بني إسرائيل بما أنجاهم من أعدائهم وخَلَّصهم من الضيق والحرج، وأنه وعدهم صحبة نبيهم إلى جانب الطور الأيمن، أي: منهم. لينزل عليه أحكاماً عظيمة فيها مصلحة لهم في دنياهم وأخراهم، وأنه تعالى أنزل عليهم في حال شدتهم وضرورتهم وسفرهم في الأرض التي ليس فيها زرع ولا ضرع «مَنًّا» من السماء يصبحون فيجدونه خلال بيوتهم، فيصنعون منه مثل الخبز، وهو في غاية البياض والحلاوة. فإذا كان من آخر النهار غشيتهم طير السلوى، فيقتضون منه بلا كلفة ما يحتاجون إليه حسب كفايتهم لعشائهم.

وإذا كان فصل الصيف ظلّل الله عليهم الغمام، وهو السحاب الذي يستر عنهم حر الشمس وضوءها الباهر. قال الله تعالى: ﴿وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡغَمَامَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة: ٥٧]، فذكر الله تعالى إنعامه عليهم، وإحسانه إليهم بما يسر لهم من المن والسلوى، وأنبع الماء لهم من اثنتي عشرة عيناً، لكل سبط عين، وظلّل عليهم الغمام من الحر. وهذه نِعَم

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج٢ ص٩٠ ـ ١٠٦.

من الله عظيمة وعطيات جسيمة، فما رعوها حق رعايتها، ولأقاموا بشكرها. ثم ضجر كثير منهم منها وتبرموا بها، وسألوا أن يستبدلوا بها مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وثومها وعدسها وبصلها. فقرَّعهم الكليم على هذه المقالة وعنّفهم قائلاً: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ﴾ [البقرة: ٦١]، أي: هذا الذي تطلبونه وتريدونه بدل هذه النعَم التي أنتم فيها، وإذا هبطتم إليها، أي: ونزلتم عن هذه المرتبة التي لا تصلحون لمنصبها. تجدون بها ما تشتهون وما ترومون مما ذكرتم من المآكل الدنية والأغذية الردية، ولكني لست أجيبكم إلى سؤال ذلك هاهنا، ولا أبلغكم ما تعنتم به من المنى.

قال ابن عباس ومجاهد والسدي وغير واحد من السلف: كان رجل في بني إسرائيل كثير المال، وكان شيخاً كبيراً وله بنو أخ وكانوا يتمنون موته ليرثوه، فعمد أحدهم فقتله في الليل وطرحه في مجمع الطرق، ويقال على باب رجل منهم. فلما أصبح الناس اختصموا فيه، وجاء ابن أخيه فجعل يصرخ وتظلم، فقالوا: ما لكم تختصمون ولا تأتون نبيّ الله، فجاء ابن أخيه فشكا أمر عمه إلى رسول الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. فقال موسى: «أنشد الله رجلاً عنده علم من أمر هذا القتل إلا أعلمنا به»، فلم يكن عند أحد منهم علم منه. وسألوه أن يسأل في هذه القضية ربه عزَّ وجلَّ.

فسأل ربه عزَّ وجلَّ في ذلك، فأمره الله أن يأمرهم بذبح بقرة. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: ٦٧]، يعنون: نحن نسألك عن أمر هذا القتيل، وأنت تقول لنا هذا، قال: أعوذ بالله أن أقول عنه غير ما أوحي إليّ. قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد: فلو أنهم عمدوا إلى أي بقرة فذبحوها لحصل المقصود منها، ولكنهم شدّدوا فَشُدِّدَ عليهم. والمقصود أنهم أمروا بذبح بقرة عَوَان، وهي الوسط النصف بين الفارض وهي الكبيرة، والبكر وهي الصغيرة. ثم شدّدوا وضيّقوا على أنفسهم فسألوا عن لونها، فأمروا بصفراء فاقع لونها، أي: مشرب بحمرة، تسر الناظرين،

وهذا اللون عزيز، ثم شدّدوا أيضاً بطلبهم إن البقر تشابه عليهم. قال الله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُواْ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾ [البقرة: ٧١]. وهذه الصفات أضيق مما تقدم، حيث أمروا بذبح بقرة ليست بالذلول وهي المذللة بالحراثة وسقي الحرث، مُسَلَّمَة وهي الصحيحة ليس فيها لون يخالف لونها. فلما حددها بهذه الصفات، وحصرها بهذه النعوت والأوصاف قالوا: الآن جئت بالحق. ويقال: إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم كان بارًّا بأبيه فطلبوها منه فأبى عليهم، فأرغبوه في ثمنها حتى أعطوه بوزنها ذهباً فأبى عليهم حتى أعطوه بوزنها عشر مرات فباعها لهم. فأمرهم نبيّ الله موسى بذبحها، ثم أمرهم عن الله أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها، قيل: بلحم فخذها، وقيل: بالبضعة التي بين الكتفين. فلما ضربوه ببعضها أحياه الله تعالى، فقام وهو يسحب أوداجه، فسأله نبيّ الله موسى: مَن قتلك؟ قال: قتلني ابن أخي، ثم عاد ميتاً كما كان. قال الله تعالى: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَاۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٧٣].

أما عن قصة موسى والخضر عليهما السلام فإن موسى رحل إليه في طلب ما عنده من العلم، وقصَّ الله خبرهما في كتابه العزيز في سورة الكهف. وقد اختلف في اسم الخَضِر، فيقال: إنه الخضر ابن آدم عليه السلام لصلبه، وإني له في أجله حتى يكذب الدجال، وقالوا: إن أطول بني آدم عمراً الخضر، وأسمع خضرون بن قابيل بن آدم. وقد قيل: هو خضرون بن عميابيل بن اليفز بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، ويقال: هو أرميا بن حلقيا. قال البخاري عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «**إنما سمي الخَضِر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هي تهتز من خلفه خضراء**». وعن الثوري عن مجاهد قال: إنما سمي الخَضِر لأنه كان إذا صلّى اخْضَرَّ ما حوله. قال بعض أهل الكتاب: إن موسى هذا الذي رحل إلى الخضر هو موسى بن منشا بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل. والصحيح الذي دلّ عليه ظاهر سياق القرآن ونص الحديث الصحيح المتفق

عليه: أنه موسى بن عمران صاحب بني إسرائيل[(١)]. عن ابن عباس أنه تمارى هو والحر بن قيس الفزاري في صاحب موسى. قال ابن عباس: هو خضر فمرّ بهما أبَيُّ بن كعب، فدعاه ابن عباس فقال: إني تماريت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأله السبيل إلى أن لقيه، هل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟ قال: نعم، سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«بينما موسى في ملأ من بني إسرائيل إذ جاءه رجل فقال: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال: لا، فأوحى الله إلى موسى، بلى عبدنا خضر، فسأل موسى السبيل إليه، فجعل له الحوت آية، وقيل له: إذا فقدت الحوت فارجع فإنك ستلقاه، فكان يتبع أثر الحوت في البحر، فوجد خضراً، فكان من شأنه الذي قصَّ الله في كتابه»**[(٢)].

وقصة قارون مع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوۡمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيۡهِمۡۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ وَلَا تَبۡغِ ٱلۡفَسَادَ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَهۡلَكَ مِن قَبۡلِهِۦ مِنَ ٱلۡقُرُونِ مَنۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرُ جَمۡعٗاۚ وَلَا يُسۡـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ فِي زِينَتِهِۦۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا يَٰلَيۡتَ لَنَا مِثۡلَ مَآ أُوتِيَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّمَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗاۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٖ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٨١]. قال الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: كان قارون ابن عم موسى، وهو قارون بن يصهب بن قاهث، وموسى بن عمران بن قاهث. قال قتادة: وكان يسمى المنور لحسن صوته بالتوراة،

---

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج٢ ص١٤٠ ـ ١٤٤.

(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، ج٤ ص١٨٧ ـ ١٨٨.

ولكن عدو الله نافق كما نافق السامري، فأهلكه البغي لكثرة ماله. وقال شهر بن حوشب: زاد في ثيابه شبراً طولاً ترفُّعاً على قومه، وقد ذكر الله تعالى كنوزه حتى إن مفاتحه كان يثقل حملها عن «الفئام» الجماعة من الناس، وقد قيل: إنها كانت من الجلود، وإنها كانت تحمل على ستين بغلاً. وقد قيل: إن قارون لما خرج على قومه في زينته مرّ بجحفله وبغاله وملابسه على مجلس موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهو يُذَكِّر قومه بأيام الله. فلما رآه الناس انصرفت وجوه كثير من الناس ينظرون إليه، فدعاه موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، فقال له: ما حملك على هذا؟ فقال: يا موسى أما لئن كنت فُضِّلْتَ عليَّ بالنبوة، فقد فُضِّلْتُ عليك بالمال، ولئن شئت لتخرجن فلتدعون عليّ ولأدعون عليك. فخرج موسى وخرج قارون في قومه، فقال له موسى: تدعو أو أدعو أنا؟ قال: أدعو أنا، فدعا قارون فلم يجب له في موسى، فقال موسى: أدعو؟ قال: نعم. فقال موسى: اللَّهمَّ مُرِ الأرض فلتطعني اليوم، فأوحى الله إليه: إني قد فعلت. فقال: يا أرض، خذيهم، فأخذتهم إلى أقدامهم، ثم قال: خذيهم، فأخذتهم إلى ركبهم، ثم إلى مناكبهم. ثم قال: أقبلي بكنوزهم وأموالهم، فأقبلت بها حتى نظروا إليها. ثم أشار موسى بيده فقال: اذهبوا بني لاوي فاستوت بهم الأرض[(١)]. حدثنا بشر بن محمد، أخبرنا عبيدالله، أخبرنا يونس عن الزهري، أخبرني سالم أن ابن عمر حدثه أن النبيّ ﷺ قال: «**بينما رجل يَجُرُّ إزاره من الخيلاء خسف به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة**»[(٢)].

عن ابن عباس وعن مُرَّة الهمداني عن عبدالله بن مسعود وعن ناس من أصحاب النبيّ ﷺ: ثم إن الله تبارك وتعالى أوصى إلى موسى، أني مُتَوفِّي هارون، فأتِ به جبل كذا وكذا. فانطلق موسى وهارون نحو ذلك الجبل، فإذا هما بشجرة لم يرَ مثلها، وإذا هما ببيت مبني، وإذا هما فيه بسرير عليه فرش، وإذا فيه ريح طيبة، فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل

---

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج**٢** ص.
(٢) صحيح البخاري، حديث الغار ج**٤** ص**٢١٥**.

والبيت وما فيه أعجبه فقال: يا موسى إني لأحب أن أنام على هذا السرير. قال له موسى: فنم عليه، فلما نام أخذ هارون الموت، فلما قبض رفع ذلك البيت ورفع السرير إلى السماء. فلما رجع موسى إلى بني إسرائيل وليس معه هارون قالوا: فإن موسى قتل هارون وحده لحب بني إسرائيل له. وكان هارون أكف عنهم وألين لهم من موسى، وكان في موسى بعض الغلظة عليهم، فلما بلغه ذلك قال لهم: ويحكم كان أخي، أفتروني أقتله. فلما أكثروا عليه قام فصلّى ركعتين ثم دعا الله فنزل بالسرير حتى نظروا إليه بين السماء والأرض فصدّقوه(١). وقبض الله عزَّ وجلَّ هارون في التيه فدفن في جبل و(موات) في جبل مران من نحو جبل الشراء مما يلي الطور. وقبره مشهور في مغارة عادية يسمع منها في بعض الليالي دوي عظيم يجزع منه كل ذي روح، وقيل: إنه غير مدفون، بل هو موضوع في تلك المغارة، وكان ذلك قبل وفاة موسى بسبعة أشهر، وقبض الله هارون وهو ابن مائة وثلاث وعشرين سنة(٢).

وتوفي كليم الله عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد أخيه هارون عَلَيْهِ السَّلَامُ في أرض التيه، ولم يدخل الأرض المقدسة ببني إسرائيل. ولم يبقَ ممن أبى أن يدخل قرية الجبارين مع موسى إلا مات وأنه لم يخرج أحد من التيه ممن كان مع موسى، سوى يوشع بن نون، وكالب بن يوفنا وهو زوج مريم أخت موسى وهارون، وهما الرجلان المذكوران اللذان أشارا على ملأ بني إسرائيل بالدخول عليهم. وذكر وهب بن منبه أن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مرّ بملأ من الملائكة يحفرون قبراً، فلم يرَ أحسن منه ولا أنضر، فقال: يا ملائكة الله، لمَن تحفرون هذا القبر؟ فقالوا: لعبد من عباد الله كريم، فإن كنت تحب أن تكون هذا العبد فادخل هذا القبر، وتمدد فيه وتوجه إلى ربك، وتنفس أسهل تنفس، ففعل ذلك. فمات صلوات الله وسلامه عليه، فصلّت عليه الملائكة ودفنوه(٣).

---

(١) تاريخ الطبري، ج١ ص٤٣٢.

(٢) مروج الذهب، للمسعودي ج١ ص٤٩ ـ ٥٠.

(٣) قصص الأنبياء، لابن كثير ج٢ ص١٩٧ ـ ١٩٨.

حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ: جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام فقال له: أجب ربك، ومعناه: جئت لقبض روح. قال: فلطم موسى عليه السلام عين ملك الموت ففقأها. قال: فرجع الملك إلى الله تعالى فقال: إنك أرسلتني إلى عبد لك لا يريد الموت، وقد فقأ عيني. قال: فردّ الله إليه عينه وقال: ارجع إلى عبدي فقل: الحياة تريد، فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور، فما تورات يدك من شعره. فإنك تعيش بها سنة. قال: ثم مه؟ قال: ثم تموت. قال: فالآن من قريب. ربِّ أَمَتَّني من الأرض المقدسة. رمية حجر. قال رسول الله ﷺ: «**والله لو أني عنده لأريتكم قبره إلى جانب الطريق، عند الكثيب الأحمر**»(١). عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أتيت** ـ مررت ـ **على موسى ليلة أُسري بي عند الكثيب الأحمر، وهو قائم يصلي في قبره**»(٢).

لقد أكثر القرآن الكريم الحديث عن بني إسرائيل، وأفاض في ذكر حوادثهم ووقائعهم، ليأخذ الإنسان العبرة من حياة هذه الأمة الطاغية الباغية التي تقابل النعمة بالجحود، والإحسان بالعصيان. فقد أغدق الله عليهم نعمه، ونجَّاهم من كيد عدوهم، وأهلك فرعون وجنوده، فما كان منهم بعد هذا الجميل والإحسان إلا أن عبدوا العجل، وتنكروا لدعوة نبيهم موسى عليه السلام. وكانت نهايتهم أن مسخهم الله قردة وخنازير، وغضب الله عليهم ولعنهم وضرب عليهم الذلة والمسكنة.

❊ ❊ ❊ ❊

الخليل يوشع بن نون

وهو يوشع بن نون بن إفراييم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام. وقد ذكره الله تعالى في كتابه العزيز ـ غير مصرح

---

(١) صحيح مسلم، باب فضائل موسى عليه السلام (٤٢) ج٢ ص١٨٤٣ حديث ١٥٨.

(٢) مختصر صحيح مسلم للألباني، كتاب ذكر الأنبياء وفضلهم ص٤٢٨ رقم ١٦١٤ م١٠٢٧.

باسمه ـ في قصة الخضر. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾﴾ [الكهف: ٦٠].

وهو متفق على نبوته عند أهل الكتاب، فإن طائفة منهم وهم السامرة، لا يقرُّون بنبوة أحد بعد موسى إلا يوشع بن نون، لأنه مصرح به في التوراة، ويكفرون بما وراءه وهو الحق، فعليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة.

وأما ما حكاه ابن جرير وغيره من المفسرين عن محمد بن إسحاق من أن النبوة حولت من موسى إلى يوشع في آخر عمر موسى، فكان موسى يلقى يوشع فيسأله ما أحدث الله إليه من الأوامر والنواهي، حتى قال له: يا كليم الله، إني كنت لا أسألك عما يوحي الله إليك حتى تخبرني أنت ابتداءً من تلقاء نفسك فعند ذلك كره موسى الحياة وأحبّ الموت. ففي هذا نظر، لأن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يزل الأمر والوحي والتشريع والكلام من الله إليه من جميع أحواله، حتى توفاه الله عزَّ وجلَّ. فهذا الذي ذكره محمد بن إسحاق إن كان إنما يقوله من كتب أهل الكتاب. ففي كتابهم الذي يسمونه التوراة: أن الوحي لم يزل ينزل على موسى في كل أمر يحتاجون إليه إلى آخر مدة موسى، كما هو المعلوم من سياق كتابهم عند تابوت الشهادة.

ولقد ذكر في السفر الثالث (اللاويين): أن الله أمر موسى وهارون أن يعد بني إسرائيل على أسباطهم، وأن يجعل على كل سبط من الاثني عشر أميراً وهو النقيب، وما ذاك إلا ليتأهبوا للقتال، قتال الجبارين عند الخروج من التيه، وكان هذا عند اقتراب انقضاء الأربعين سنة. وهكذا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كان الله قد أمره أن يجنّد بني إسرائيل، وأن يجعل عليهم نقباء كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾﴾ [المائدة: ١٢].

يقول: لئن قمتم بما أوجبت عليكم، ولم تنكلوا عن القتال كما نكلتم أول مرة، لأجعلن ثواب هذه مكفراً لما وقع عليكم من عقاب تلك. ثم ذمّهم تعالى على سوء صنيعهم ونقضهم مواثيقهم.

والمقصود أن الله تعالى أمر موسى عليه السلام أن يكتب أسماء المقاتلة من بني إسرائيل، ممن يحمل السلاح ويقاتل، ممن بلغ عشرين سنة فصاعداً، وأن يجعل على كل سبط نقيباً منهم. السبط الأول: سبط روبيل لأنه بكر يعقوب، وكان عدد المقاتلة منهم (٤٦٥٠٠) ونقيبهم النصون. السبط الثاني: سبط شمعون، وكانوا (٥٩٣٠٠) ونقيبهم شاموال. السبط الثالث: سبط يهوذا، وكانوا (٧٤٦٠٠) ونقيبهم فخشون. السبط الرابع: سبط إيساخر، وكانوا (٥٤٤٠٠) ونقيبهم نشائيل. السبط الخامس: سبط يوسف عليه السلام، وكانوا (٤٠٥٠٠) ونقيبهم يوشع بن نون. السبط السادس: سبط ميشا، وكانوا (٣١٢٠٠) ونقيبهم جمليئيل. السبط السابع: سبط بنيامين، وكانوا (٣٥٤٠٠) ونقيبهم أبيدن. السبط الثامن: سبط حاد، وكانوا (٤٥٦٥٠) ونقيبهم إلياساف. السبط التاسع: سبط أشير، وكانوا (٤٠٥٠٠) ونقيبهم فجعئيل. السبط العاشر: سبط دان، وكانوا (٦٢٧٠٠) ونقيبهم أخيعزر. والسبط الحادي عشر: سبط نفتالي، وكانوا (٥٣٤٠٠) ونقيبهم الباب بن حيلون. هذا نص كتابهم، وليس فيهم «بنو لاوي» فقد أمر الله موسى أن لا يعدهم معهم لأنهم موكلون بحمل قبة الشهادة، وهم سبط موسى وهارون عليهما السلام، وكانوا (٢٢٠٠٠). وجملة ما ذكر من المقاتلة غير بني لاوي (٥٧١٦٥٦). والمقصود أن بني إسرائيل لم يبقَ منهم أحد ممن كان قد نكل عن دخول مدينة الجبارين[١].

عن ابن إسحاق عن سالم بن أبي النضر، أنه حدث أن موسى لما نزل أرض بني كنعان من أرض الشام، وكان بلعم ببالعة ـ قرية من قرى البلقاء ـ فلما نزل موسى ببني إسرائيل قد جاء يخرجنا من بلادنا، ويقتلنا ويحلها بني إسرائيل، وأنت رجل مجاب الدعوة، فاخرج فادعُ الله عليهم،

---

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج٢ ص١٩٩ ـ ٢٠٤.

فقال: ويلكم نبيّ الله معه الملائكة والمؤمنين. كيف أذهب أدعو عليهم، وأنا أعلم من الله ما أعلم؟ قالوا: ما لنا من منزل. فلم يزالوا به حتى فتنوه، فافتتن فركب حماراً له متوجهاً إلى الجبل الذي يطلعه على عسكر بني إسرائيل، وهو جبل حسبان، فما سار عليها غير قليل حتى ربضت به، فضربها حتى أدلقها فقامت فركبها، فلم تسر به كثيراً حتى ربضت به، ففعل بها مثل ذلك. فانطلقت به حتى إذا أشرفت على جبل حبان، على عسكر موسى وبني إسرائيل، جعل يدعو عليهم فلا يدعو عليهم بشيء إلا صرف الله لسانه إلى قومه، فقال له قومه: أتدري يا بلعم ما تصنع؟ إنما تدعو لهم، وتدعو علينا، قال: فهذا ما لا أملك، هذا شيء قد غلب الله عليه، واندلع لسانه فوقع على صدره، فقال لهم: قد ذهبت الآن مني الدنيا والآخرة، فلم يبقَ إلا المكر والحيلة، فأمكر لكم وأحتال. جَمِّلوا النساء وأعطوهن السلع، ثم أرسلوهن إلى المعسكر يبعنها فيه، ومروهن فلا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها، فإنه إن زنى رجل واحد منهم كفيتموهم، ففعلوا. فلما دخل النساء المعسكر مرت امرأة من الكنعانيين اسمها «كسى» ابنة كبيرهم برجل من عظماء بني إسرائيل وهو «زمري بن شلوم» رأس سبط شمعون. فقام إليها فأخذها ثم أقبل حتى وقف بها على موسى، فقال: إني أظنك ستقول: هذا حرام عليك، قال: أجل هي حرام عليك لا تقربها. قال: لا نطيعك في هذا، ثم دخل بها قبته فوقع عليها، فأرسل الله الطاعون في بني إسرائيل. وكان فنحاص بن العيزار بن هارون صاحب أمر موسى، وكان رجلاً قد أعطي بسطة في الخلق، وقوة في البطش. فأخذ حربته ثم دخل عليهما القبة وهما متضاجعان فانتظمهما بحربته، وهو يقول: اللَّهمَّ هكذا نفعل بمن يعصيك. ورفع الطاعون فحسب من هلك منهم سبعون ألفاً. ففي بلعم بن باعور، أنزل الله تعالى على محمد ﷺ: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ يعني: بلعم بن باعور ﴿فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ إلى قوله: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ

﴿كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف: ١٧٦] يعني: بني إسرائيل.

ثم إن موسى قدم يوشع بن نون إلى أريحا في بني إسرائيل فدخلها بهم، وقتل بها الجبابرة الذين كانوا فيها، وبقيت بقية في اليوم الذي أصابهم فيه، وجنح عليهم الليل. وخشي إن لبسه الليل أن يُعجزوه، فاستوقف الشمس، دعا الله أن يحبسها، ففعل الله عزَّ وجلَّ حتى استأصلهم. ثم دخل موسى ببني إسرائيل، فأقام فيها ما شاء الله أن يقيم، ثم قبضه الله إليه، لا يعلم بقبره أحد من الخلائق.

وأما أهل التوراة فإنهم يقولون: هلك هارون وموسى في التيه، وإن الله أوحى إلى يوشع بعد موسى، وأمره أن يعبر الأردن إلى الأرض التي أعطاها بني إسرائيل، ووعدها إياهم، وأن يوشع جدّ في ذلك وتوجه إلى أريحا يعرف خبرها. ثم سار ومعه تابوت الميثاق، حتى عبر الأردن، وصار له ولأصحابه فيه طريق، فأحاط بمدينة أريحا ستة أشهر، فلما كان السابع نفخوا في القرون، وضجّ الشعب ضجّة واحدة، فسقط سور المدينة فأباحوها وأحرقوها، وما كان فيها ما خلا الذهب والفضة وآنية النحاس والحديد، فإنهم أدخلوها بيت المال. ثم إن رجلاً من بني إسرائيل غلّ شيئاً، فغضب الله عليهم وانهزموا، فجزع يوشع جزعاً شديداً فأوحى الله إلى يوشع أن يقرع بين الأسباط، ففعل حتى انتهت القرعة إلى الرجل الذي غل، فاستخرج غلوله من باسم صاحب الغلول، وهو غور عاحر. ثم نهض بهم يوشع إلى ملك عاني وشعبه، فأرشدهم الله إلى حربه، وأمر يوشع أن يكمن لهم كميناً ففعل، وغلب على عاني وصلب ملكها على خشبة، وأحرق المدينة وقتل من أهلها اثني عشر ألفاً من الرجال والنساء. واحتلا أهل «عماق جبعون» ليوشع حتى جعل لهم أماناً، فلما ظهر على خديعتهم دعا الله عليهم أن يكونوا حطّابين وسقّائين، فكانوا كذلك، وأن يكون «يارق» ملك أورشليم يتصدق. ثم أرسل ملوك الأرمانيين، وكانوا خمسة بعضهم إلى بعض، وجمعوا كلهم على جيعون، فاستنجد أهل جيعون يوشع، فأنجدهم وهزموا أولئك الملوك حتى حددوهم إلى هبطة حوران، ورماهم الله بأحجار البرد، فكان من قتله البرد

أكثر ممن قتله بنو إسرائيل بالسيف. وسأل يوشع الشمس أن تقف والقمر أن يقوم حتى ينتقم من أعدائه قبل دخول السبت، ففعلا ذلك وهرب الخمسة ملوك فاختفوا في غار، فأمر يوشع بسد باب الغار حتى فرغ الانتقام من أعدائه. ثم أمر بهم فأُخرجوا، فقتلهم وصلبهم ثم أنزلهم من الخشب، وطرحهم في الغار الذي كانوا فيه، وتتبع سائر الملوك بالشام، فاستباح منهم واحداً وثلاثين ملكاً، وفرق الأرض التي غلب عليها. ثم مات يوشع، فلما مات دفن في جبل إفراييم. وقام بعده سبط يهوذا وسبط شمعون بحرب الكنعانيين، فاستباحوا حريتهم، وقتلوا منهم عشرة آلاف بيارق، وأخذوا ملك بارق فقطعوا إبهامَيْ يديه ورجليه، فقال عند ذلك ملك بارق: قد كان يلتقط الخبز من تحت مائدتي سبعون ملكاً مقطعي الأباهيم، فقد جزاني الله بصنيعتي، وأدخلوا ملك بارق أورشليم، فمات بها. وحارب بنو يهوذا سائر الكنعانيين واستولوا على أرضهم، وكان عمر يوشع مائة سنة وعشرين سنة. وتدبيره أمر بني إسرائيل منذ توفي موسى إلى أن توفي يوشع بن نون سبعة وعشرين سنة[(١)]. وكان موسى قد ضرب التابوت الذي فيه السكينة من الذهب من ستمائة ألف مثقال وسبعمائة وخمسين مثقالاً، فصار الكافل بعد هارون يوشع بن نون سبط يوسف. ولما قبض الله عزَّ وجلَّ موسى بن عمران سار يوشع بن نون ببني إسرائيل إلى بلاد الشام، وقد كان غلب عليها الجبابرة من ملوك العماليق وغيرهم من ملوك الشام. فأرسل إليهم يوشع بن نون سرايا، وكانت له معهم وقائع، ففتتح بلاد أريحاء وزغر من أرض الغور، وهي أرض البحيرة المنتنة التي لا تقبل الغرقى، ولا يتكون فيها ذو روح من سمك ولا غيره، وإليها ينتهي ماء بحيرة طبرية، وهو الأردن. وساء ملك الشام وهو السميع بن هوبر بن مالك، فكانت بينهم حروب إلى أن قتله يوشع، واحتوى على جميع ملكه، وشنّ الغارات بأرض الشام. وكانت مدة يوشع بن نون بن إفراييم بن يوسف في بني إسرائيل بعد وفاة موسى تسعاً وعشرين سنة[(٢)].

---

(١) تاريخ الطبري، ج١ ص٤٣٥ ـ ٤٤٢.

(٢) مروج الذهب، للمسعودي ج١ ص٥٠ ـ ٥٢.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝٥٩﴾ [البقرة: ٥٨، ٥٩]. يقول الله تعالى لائماً لهم على نكولهم عن الجهاد، ودخولهم الأرض المقدسة، لما قدموا من بلاد مصر في صحبة موسى عليه السلام، أُمروا بدخول الأرض المقدسة وقتال مَن فيها من العماليق الكفرة فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا، فرماهم الله في التيه عقوبة لهم. كما ذكر الله تعالى في سورة المائدة، ولهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هي بيت المقدس. كما نصّ على ذلك السدي والربيع بن أنس، وقال آخرون هي أريحاء. وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون عليه السلام، وفتحها الله عليهم عشية جمعة، وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلاً، حتى أمكن الفتح. ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب، باب البلد ﴿سُجَّدًا﴾ أي: شكراً لله تعالى على ما أنعم به عليهم، عن الفتح والنصر، وإنقاذهم من التيه والضلال. عن عبدالله بن مسعود، قيل لهم: ادخلوا الباب سُجَّداً، فدخلوا مقنعي رؤوسهم، أي: رافعي رؤوسهم خلاف ما أُمروا، وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾، عن ابن عباس قال: مغفرة استغفروا، وقال الحسن وقتادة: أي: احطط عنا خطايانا ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ وقال هذا جواب الأمر، أي: إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات، وضاعفنا لكم الحسنات. وقوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾، عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «**دخلوا الباب الذي أُمروا أن يدخلوا فيه سُجَّداً يرجعون على إستاهم وهم يقولون: حنطة في شعيرة**»، وعن ابن مسعود أنه قال: «**إنهم قالوا: حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء**»، فذلك قوله تعالى: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾، وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة، ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وهو خروجهم عن طاعته. ولهذا قال: ﴿فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾، وعن ابن

عباس: كل شيء في كتاب الله من الرجز يعني به العذاب، وقال الشعبي: إما الطاعون وإما البَرَد(١).

يقول سفر يوشع وهو يلقى أكثر من دليل على أن النبيّ موسى لم يكن بين القوم، بل ولا حياً حين قرر الإسرائيليون بعد طول تفتت وتشتت أن يشدوا رحالهم ويتجهوا إلى فلسطين، غزاة مغيرين. وكان بعد موت موسى عبد الرب أن الرب كلّم يوشع بن نون قائلاً: «موسى عبدي قد مات، فالآن قم اعبر هذا الأردن أنت وكل هذا الشعب إلى الأرض التي أنا معطيها لهم، أي: لبني إسرائيل، كل موضع تدوسه بطون أقدامكم لكم أعطيته، كما كلّمت موسى من البرية ولبنان هذا، إلى النهر الكبير نهر الفرات جميع أرض الحيثيين، وإلى البحر الكبير نحو مغرب الشمس يكون تخمكم، لا يقف إنسان في وجهك كل أيام حياتك، كما كنت مع موسى أكون معك لا أهملك ولا أتركك. تشَدَّد وتشجَّع لأنك أنت تقسم لهذا الشعب الأرض التي حلفت لآبائهم أن أعطيهم»، وواضح أن ما جاء في النص الذي أوردناه، يشجب الموقف المدعى، ويرفض اللفظ في القوم المدعي، ويؤكد أن موسى عليه السلام قد مات في رواية التوراة، وأن القوم بعد طول معاناة وتشتت وتفتت وبعد وفاة موسى عقدوا العزم حسبما تقص التوراة أيضاً على دخول أرض فلسطين مهما فرض الموقف عليهم من استعمال شتى الأساليب، وأعنف سلوك الفتك والإغارة، والإبادة والتدمير، وقد فعلوا.

يقول سفر يوشع من الإصحاح الثاني: «فأرسل يوشع بن نون من شطيم رجلين جاسوسين سراً قائلاً: اذهبا انظرا الأرض وأريحا. فذهبا ودخلا بيت امرأة زانية اسمها «راحاب» واضطجعا هناك. فقيل لملك أريحا: هو ذا قد دخل إلى هنا الليلة رجلان من بني إسرائيل لكي يتجسسا الأرض، فأرسل ملك أريحا إلى راحاب يقول: أخرجي اللذين أتيا إليك ودخلا بيتك، لأنهما قد أتيا لكي يتجسسا الأرض كلها». فالمؤلف التوراتي أهمل

(١) التيسير لتفسير ابن كثير، د. عبدالله آل الشيخ ج١ ص٨٤ ـ ٨٦.

أو تجاوز ما يمكن أن يعبر عنه النص من هزال هذا التدوين الذي وقع فيه، حين أفصح عن غير قصد منه عن جوانب الخطيئة والوشاية والجاسوسية في تاريخ بني إسرائيل. فإن في النص معاني غريبة سجلتها التوراة دون قصد من المؤلف التوراتي. ذلك أن النص قد أفاد أن شعب الأرض العربية في فلسطين وما جاورها قد أدرك خطر الغزو الإسرائيلي والنيات المبيَّتة والدعاوي المضللة منذ تحرش بهم الإسرائيليون على مشارف الأرض التي تقع في جنوب سيناء إلى الشرق منها. كما عبّرت التوراة فيما أوردته في النص الذي سقناه عن أن العرب منذ عصر حركات الغزو الإسرائيلي الأولى ـ والتي روّج لها القوم قديماً ـ كانوا يقفون عقبة أمام نيّات بني إسرائيل ومقاصدهم. فهم لم يستسلموا لحركة الغزو واستعدوا للمواجهة، واعتبروا وحدة تراب الأرض العربية مسألة حياة أو موت. وهذا الرجل العربي هو الذي سمّته التوراة ملك أريحا، ولم يستطع المؤلف التوراتي أن يشجب هذا المعنى العربي المرتبط بتاريخ القوم منذ سكنوا الأرض العربية قبل غيرهم، حيث كانوا قد استوطنوا الأرض ودافعوا عنها وارتبطوا بها.

يقول سفر يشوع (الإصحاح الثالث): «فقال الرب ليشوع: اليوم أبتدئ أُعظِّمك في أعين جميع إسرائيل لكي يعلموا أني كما كنت مع موسى أكون معك. وتعلمون أن الله الحي في وسطكم وطرداً يطرد من أمامكم الكنعانيين والحيثيين والحويين والفرزيين والجرجاشيين والأموريين واليبوسيين» لماذا؟ لست أدري، كذلك أنه ليس يدري مؤلف التوراة ومسجلها، لماذا يطرد الرب وهو رب الجميع كل هذه الطوائف والشعوب من الأرض التي استقرت بها وارتبطت بها من أجل بني إسرائيل؟ وهم الذين ألفوا الغربة والارتكان إلى عديد من المواقع والبلدان. وهم الذين انصرف عنهم نبيهم لبعض شؤون دينه واستراحوا منه وتمنوا عدم عودته وقالوا: «انصرف الرجل موسى عنَّا» لماذا وهم الذين رفضوا آيات الدعوة التي وجهها إليهم موسى في مصر ثم رفضوها في كل مراحل الهجرة، وتنكروا لها وتمردوا عليها، وقالوا صراحة وفي سخط: «الرب بسبب بغضه لنا أخرجنا من مصر لكي يُهلكنا على أيدي الأموريين». ومن عجب أن هذا النمط من التسجيل الديني

يجد له في بعض جوانب المعتقد الديني عند بعض مصادر التاريخ الديني استجابةً وتفهُّماً.

إن قصة زحف بني إسرائيل على غرب الأردن، الذي هو أرض كنعان على ما تفيده عبارات الأسفار وسيرتهم بقيادة يشوع، وفي ظل وتوجيه الخطة الرهيبة العدوانية التي ذكرناها في سفر يشوع الذي يأتي في الترتيب بعد سفر التثنية، وهو أربعة وعشرون إصحاحاً، وفيه كثير من المبالغة والخيال والتناقض، ولكن فيه شيئاً كثيراً من الحقيقة فيما ترجح، وعباراته تدل على أنه كتب بعد يوشع بمدة ما، قد تكون طويلة، مما تجعل الروايات المتداولة بالخيال والمبالغة والتناقض رائجة لذلك، ويحكي إصحاحه الأول خطاب الرب ليوشع وأمره بعبور الأردن إلى الأرض التي أعطاها لبني إسرائيل ووعده له بالتأييد وحثه على الشجاعة والتمسك بالشريعة. ومما قال له الرب كما جاء فيه: «كل ما كان تطؤه أخامص أرجلكم أعطيته لكم كما قلت لموسى من البرية ولبنان، هذا إلى النهر الكبير الذي في جهة مغارب الشمس تكون تخومكم في حين أن الموقف كان عبور الأردن إلى الضفة الغربية وكانت أولى حركات «يوشع» نحو مدينة «أريحا» التي هي أولى مدن الضفة الغربية. وكانت حركات يوشع الثانية نحو مدينة العي على ما ذكر في الإصحاح الثاني عشر من سفر التكوين والتي هي في طريق نابلس. وقد قصّ الإصحاحان السابع والثامن أن يوشع أرسل مَن تجسسوا عليها فرجعوا وهوّنوا من شأنها وارتأوا أن يصعد إليها عدد قليل فصعد ثلاثة آلاف فخرج عليهم أهل المدينة وهزموهم. فذاب قلب بني إسرائيل وصار كالماء، وحثا شيوخهم التراب على رؤوسهم، ومزّق يوشع ثيابه وسقط على وجهه وخاطب الرب قائلاً: «لماذا أجزت هذا الشعب الأردن لتسلمنا إلى أيدي الأموريين حتى يبيدونا. يا ليتنا ارتضينا وأقمنا بعبر الأردن. وإذا سمع الكنعانيون وسكان الأرض بما صار أحاطوا بنا ومحوا اسمنا من الأرض»، وهذا موقف تكرر كثيراً من بني إسرائيل إزاء ما كان يقف أمامهم من عقبات أو يلقونه من عنت ومقاومة، كما كان شأنهم في حياة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقد ذكر الإصحاح السابع أن الرب أخبر يشوع بأنه

إنما خذلهم لأن أحدهم سرق من غنائم أريحاء بعض سبائك من الذهب والفضة فأمر برجمه، وحينئذ وعده بالنصر، فأرسل جيشاً عظيماً. وخرج ملك العي بجيشه لصدهم فوقع في كمين ودارت عليه الدائرة بمعجزة ربانية، فانهزم فطارده بنو إسرائيل وقتلوا جميع رجاله وأسروه وصلبوه على باب المدينة، ثم دخلوها وضربوه بحد السيف. ثم أمر يوشع بحرق المدينة بعد أن استولى على جميع ما فيها من أموال ومواشي حسب أمر الرب(١).

وقد ذكر الإصحاح التاسع حادثاً عجيباً خلاصته أن أهل مدن جبعون وكفرة وبتروت وقرية بعارم، وهذه في منطقة نابلس، لما سمعوا بما حلّ بأريحا والعي أرسلوا وفداً إلى يوشع يعرضون ولاءهم ويطلبون عهد أمان. وادعى الوفد أنه يتكلم باسم مدن بعيدة جداً، ولبسوا ثياباً بالية ونعالاً مرقّعة وحمَّلوا زاداً يابساً للتدليل على ذلك فأجابهم يوشع لما طلبوا. غير أنهم لم يلبثوا أن عرفوا أن هذه المدن قريبة جداً منهم وأن الوفد قد خدعهم، فاكتفوا بأن قرروا أن يكون أهلها محتطبي حطب ومستقي ماء للجماعة ولمذبح الرب في الموضع الذي يختارونه. وحكى الإصحاح العاشر أن ملك أورشليم أموني صادق لما رأى ما فعل بنو إسرائيل في أريحا والعي، ورأى ما كان من خوف أهل جبعون ورفاقهم مع أن مدينتهم كانت عظيمة ورجالها كانوا جبابرة فخُشي من عاقبة روح الهزيمة. فاستدعى هوهام ملك جبرون وفرام ملك يرموث ويافيع ملك لاكيش ودبير ملك عجلون. والملوك الخمسة أموريون، وعرض عليهم التحالف ضد جبعون فوافقوا وزحفوا عليها فأرسل أهلها يستنجدون ببني إسرائيل. فزحف يوشع على رأس المحاربين، واشتبك مع الملوك وهزم قواتهم وأسر الملوك الخمسة وشنقهم. وهذه الواقعة هي التي ذكر الإصحاح أن الشمس قد وقفت بدعوة يوشع حتى تمّ له النصر وأن يوشع ضرب أرض الجبل والجنوب والسهل والسفوح وأهلك كل نسمة كما أمر الرب، ولم يبقَ باقية منهم. فضربهم من قادش برنيع إلى غزة وانتصر عليهم لأن الرب كان يحارب مع إسرائيل.

(١) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ج١ ص١٠٩ ـ ١١٨.

وذكر الإصحاح الحادي عشر أن يابين ملك حاصنور لما سمع بما وقع أرسل إلى الملوك الذين إلى الشمال في الجبل والغور وفي السهل والبقاع، وإلى الكنعانيين شرقاً وغرباً، وإلى الأموريين والجبليين والفرزيين واليبوسيين والحوريين، فخرجوا بكل جيوشهم ونزلوا مياه ميروم لمحاربة إسرائيل. وشجع الرب يوشع وقال له: غداً أجعلهم صرعى أمام إسرائيل. فخرج يوشع بناءً على ذلك فأسلمهم الرب إلى أيديهم فضربوهم وتعقبوهم حتى لم تبقَ منهم باقية، وأخذ كل مدائن أولئك الملوك مع ملوكها وأبادهم جميعاً، وقد أخذ بنو إسرائيل جميع غنائم هذه المدن وبهائمها. وهكذا ملك يوشع تلك الأراضي، والمبالغة بادية في ما ذكرته الإصحاحات، وأن يوشع أبادها وأحرقها ولم يبق منها بقية. والمتبادر أن سفر القضاة قد دوِّن بعد يوشع بمدة غير قصيرة، خلط كاتبه الحقائق بالخيال والمبالغة. ويلحظ أن الإصحاحات سمّت بعض المواقع باسم جبل إسرائيل وباسم جبل يهوذا، مع أن هذه المواقع لم تكن تسمى بهذه الأسماء. وقد ذكر الإصحاح الثالث أن يوشع هتف لربه قائلاً: إنه شاخ وأنه بقي أرض كثيرة جداً للامتلاك وهي كل بقاع الفلسطينيين وكل أرض الجشوريين إلى تخوم عقرون وهي أرض الكنعانيين وأرض أقطاب الفلسطينيين الخمسة العزي والأشدودي «سدود» ولاشقوني «عسقلان والحبتي والعقروني ومن الجنوب كل أرض الكنعانيين» وجميع لبنان جهة مشرق الشمس إلى مدخل حماة. وأن الرب وعده بأنه سيطردهم من وجه بني إسرائيل ثم أمره بقسمة الأرض على الأسباط التسعة والنصف بالقرعة. واحتوت الإصحاحات من الثالث عشر إلى التاسع عشر أسماء المدن والحدود التي كانت من نصيب كل سبط. والمدن كثيرة جداً، وقد ذكر أنه كان لكل مدينة قرى كثيرة تابعة لها حيث يدل هذا على ما كان من ضخامة العمران في غرب الأردن وازدهاره، وعلى أن بني إسرائيل عاشوا عليه. وأن جملة هذه المدن مائة وعشرون مدينة، وربما كان عدد القرى التابعة لها ألفاً أو نحو ذلك. وكثير من أسماء المدن باق اليوم بشيء من التعديل في مختلف أنحاء فلسطين. واللحمة العربية القديمة بادية على الأسماء، مما يؤكد أن منشئيها الأولين هم من الأرومات العربية على اختلاف أسمائها. على أن عبارة

الإصحاحات تفيد أن مناطق ومدناً كثيرة لم تكن كلها مما استولى عليه بني إسرائيل في حياة يوشع بل ظلّ منها في حوزة أهله، ولم يستولِ عليه بنو إسرائيل إلا بعده. بل ومنها ما لم يستولِ عليه بنو إسرائيل ويصبح لهم موطناً مستقراً قط كبلاء الفلسطينيين في الجنوب.

وفي الإصحاح الثالث والعشرين والرابع والعشرين أن يوشع جمع شيوخ بني إسرائيل وذكرهم بما كان من عناية الرب بهم، وقرضه لأعدائهم وإسكانهم في أرضهم مع ما هم عليه من قوة وكثرة، لأن الرب هو الذي كان يحاسب عنهم. ووصاهم بالتمسك الشديد بكل ما في توراة موسى، ومن ذلك عدم الاختلاط بالأمم الباقية معهم، وأنذرهم بوخيم العواقب ونكال الرب إذا هم فعلوا. وأن الشعب وعده بذلك فأشهدهم على أنفسهم وسجل عهدهم في سفر التوراة. ثم ذكر الإصحاح الرابع والعشرون بعد ذلك خبر موت يوشع بعد أن بلغ مائة وعشر سنين ودفنه في أرض ميراثه في ثمنة سارع التي في جبل إفراييم قرب نابلس. يقول سفر القضاة من الإصحاح الأول: وكان بعد موت يوشع أن بني إسرائيل سألوا الرب قائلين: «مَن منا يصعد إلى الكنعانيين أولاً لمحاربتهم؟ فقال الرب: «يهوذا» يصعد قد دفعت الأرض ليده» فصعد يهوذا وشمعون أخيه معه، ودفع الرب الكنعانيين والفرزيين بيدهم فضربوا منهم في بازق عشرة آلاف رجل. ولم يتيسر للغزاة الإسرائيليين رغم كل ما فعلوا خلال فترات طويلة احتلال مدينة «القدس» وهي التي كان يدافع عنها بقية أجيال أبنائها من اليبوسيين وحشود من الطوائف العربية إلا بعد أن دخلوا في معارك وحشية من جانب إسرائيل، استعملوا فيها كل سلاح القتل والإبادة حتى استغلال النساء في إثارة المحاربين وتعبئة مشاعرهم. ويمضي سفر القضاة إلى أن يقول في غير ما قصد مبرزاً جوانب الخطيئة والإغراق وتبرير الفاحشة في خُلُق القوم وعقيدتهم: «قال كالب الذي يضرب قرية «سفر» ويأخذها أعطية «عكسة»: ابنتي امرأة» أي: هبّ واحد من قواد الجند وهو كالب يطلب إلى رجل أن يواصل ضراوة حدة القتال وعنفه، وليكن له بعد ذلك ثمن النصر ابنته يتمتع بها كيفما يشاء.

ومع كل ذلك فإنه أمام الغزو الإسرائيلي لفلسطين منذ عصر يوشع لم يستسلم العرب القدامى أمام عمليات الغزو، لم يستسلم العرب بل هبُّوا وحاصروا الإسرائيليين في حصونهم وجبالهم وسهولهم، وكل المواقع التي استولوا عليها بالغدر، وأشبعوهم مقاومة ومطاردة حتى تيسر للعرب إمكانية إجلاء أبناء إسرائيل الغزاة عن أجزاء كثيرة من الأرض العربية. ولم تقم لهم بعدها قائمة إلا في ظل عهود جديدة كانت لملوك أنبياء خدمت الرسالة الدينية في طبيعة انفتاحها واتساع أرجائها ورفضها للأفكار العنصرية التعصبية التي يتشدق بها الإسرائيليون، أولئك الذين كانوا أمام النخوة العربية وإباء الشعب العربي، ورفضه للاحتلال قد أوشكوا على الضياع في طول الأرض العربية وعرضها لولا قضية الرسالة الدينية قبل أي اعتبار آخر[١].

وبعد موت موسى عليه السلام خلفه «يوشع» في قيادة الشعب اليهودي، وهو الذي اتبع خطة غير مألوفة باختراق كنعان من طرفها الشرقي، حيث نتج عن هذا الغزو استقرار عبر الأردن. ولما كان لا يوجد في مصر تنظيم قبلي فمن الصعب تحرير القبائل التي اشتركت في «الخروج» أو في الغزو. فقد عاش الإسرائيليون بعد الغزو حياة غير سهلة مع جيرانهم، ربما للشعور الذي ينتابهم بالتخوف من الهزيمة والضياع. على أن التوراة إذ تروي دخول الإسرائيليين كنعان لا تعده غزواً بل عودة قبائل إلى ماضي لا يُنسى. وها هي التوراة تحدثنا أن «يوشع» فتى موسى وخليفته يأمر قومه اليهود بالاستيلاء على أريحا أن: «اقتلوا كل مَن في المدينة من رجل وامرأة، وأحرقوا المدينة بالنار مع كل ما بها»[٢]. ثم تحدثنا التوراة أن موكب الخراب قد انتقل وعلى رأسه يوشع من «أريحا» إلى «عاي» فيقتل كل أهلها، حتى تفاخر التوراة بأنه «لم يبقَ منهم شارد ولا متقلب» وبلغ عدد القتلى اثنا عشر ألفاً جميع أهل «عاي» ثم أحرق يوشع عاي وجعلها تلاً أبدياً خراباً.

وتضم هذه المساحة الضئيلة من الأرض التي استولى عليها «يوشع»

---

(١) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ص١١٩ ـ ١٣١.

(٢) التوراة: سفر يوشع ٢٢ ـ ٣٩.

فيما بين البحر المتوسط وصحراء العرب وحدود سوريا في الشمال وشبه جزيرة سيناء في الجنوب ألواناً شتى من المناخ والتضاريس. حيث نطاق خصيب من حول نهر الأردن، ونطاق غني من غابات في الجليل، ثم سهل ساحلي. ولقد كان لجغرافية فلسطين أثر في التنظيم القبلي إذ ساعد تنوع تضاريسها من مرتفعات جبل «حرمون» وثلوجه إلى أشد المناطق انخفاضاً في العالم حول البحر الميت على انتشار القبائل في تلك المناطق، واختلاف طبيعة حياتها. وفي هذا المكان استطاع الإسرائيليون أن يكونوا أمة زراعية صغيرة. ولم يكن هناك كما تشير التوراة ملك إسرائيل، بل كان كل يفعل ما يراه وفقاً لهواه. فكانت الفترة التي استولى اليهود فيها على بعض الأراضي في فلسطين غير هادئة، بل كانت مليئة بالحروب والاضطرابات، لأنهم كانوا دخلاء فيها.

ولقد مات «يوشع بن نون» ولم يتمكن من تحقيق حلم موسى عليه السلام، فقد بقيت أرض الجبلين وكل لبنان. مات موسى قبله وفي أعماق نفسه حسرة لمشاهدة أرض الميعاد، تقول التوراة: «وتضرعت إلى الرب في ذلك الوقت قائلاً: دعني أعبر وأرى الأرض الجديدة في عبر الأردن هذا الجبل الجديد، ولبنان»[(١)]. لم تكن إسرائيل بعد أن دخلت كنعان قد أحرزت بعد مقومات الأمة. إذ كان عليها أن تقضي زمناً حتى تتحول من شبه رعوية إلى مجتمع زراعي، وإلى وضع سياسي خاص بها تتحول من قبيلة إلى أمة بحكم اتصالها بشعب كنعان، واختلاف نوعية المجتمع الإسرائيلي نفسه[(٢)].

إن قصة «يوشع» وأرض الميعاد: الأسطورة التي أصبحت تاريخاً تعتبر من غرائب التناقضات التي يعيشها الوعي الإنساني في عصرنا الحديث. فالعلماء والباحثون في عصرنا يصرُّون على تواجد دليل مادي كشرط لقبول الحقيقة التاريخية لأي حدث. نجد دوائر المعارف العالمية، بما فيها

---

(١) التوراة: سفر التثنية ٣: ٢٣، ٢٥.

(٢) المفهوم السياسي والاجتماعي لليهود عبر التاريخ، د. حسين شريف ج١ ص٢٥ ـ ٢٧.

المصادر العربية، تجمع على قبول أسطورة «يوشع» وغزو بني إسرائيل لأرض الميعاد، وكأنها حقيقة لا تحتمل الشك. وتقول القصة الإسرائيلية: إنه بعد موت موسى عليه السلام قاد «يوشع بن نون» قبائل بني إسرائيل الاثنتي عشرة في حملة عسكرية خاطفة استولى فيها على أرض كنعان، ثم قام بتوزيعها على القبائل. فلدينا العديد من الأدلة التي لا تقبل الشك، التي تنكر قيام بني إسرائيل بغزو أرض كنعان أيام «يوشع» خلال القرن الثالث عشر ق.م.

ويوشع هو الذي عيّنه موسى خليفة له في قيادة بني إسرائيل، والغريب في الأمر أن كتب التوراة الخمسة لا تذكر لنا شيئاً عن يوشع وعن العائلة التي ينتمي إليها سوى أنه كان «ابن نون». واسم نون هذا الذي لا تذكر التوراة عنه شيئاً، كذلك في اللغة العبرية، يعني: «سمكة»، وإن كانت رواية لاحقة في كتاب «أخبار الأيام» تشير إلى أن «نون» كان من بين الأسماء التي ظهرت لسلالة «إفراييم بن يوسف». وتقول إحدى قصص التفسير اليهودية في كتابات «الآجادا» أن يوشع لم يكن في الأصل ينتمي إلى سلالة إسرائيلية، حيث إن يوشع نفسه كان من سلالة الأميين الذين دخلوا الديانة الموسوية، فقد كانت جدته الكبرى هي «أسيناث» المصرية التي تزوجها يوسف. وكان بنو إسرائيل الذين ينسبون الولد لأمه لا يقبلون في جماعتهم من ولد لأم غير إسرائيلية.

ويقول كتاب «يوشع» إنه بعد موت موسى كان بنو إسرائيل يعسكرون شرق نهر الأردن في مواجهة مدينة «أريحا»، قام يوشع بقيادة بني إسرائيل بعبور نهر الأردن غرباً. ومنذ اللحظة الأولى نلاحظ الطابع الأسطوري للرواية. فكل الأحداث تتم على شكل معجزات، فمياه الأردن من فوق تنفلق وتقف نداً واحداً لتسمح لبني إسرائيل بالعبور. والرواية الثانية: إن بني إسرائيل بدأوا بحصار مدينة «أريحا» فبكّر يوشع في الغد وحمل الكهنة تابوت الرب. وتقدم السبعة الكهنة الحاملون أبواق الهتاف السبعة سائرون سيراً وضاربون الأبواق. وداروا بالمدينة في اليوم الثاني مرة واحدة ثم رجعوا إلى المحلة. هكذا فعلوا ستة أيام، وكان في اليوم السابع إنهم بكروا

عند طلوع الفجر وداروا دائرة المدينة على هذا المنوال سبع مرات. وكانت في المرة السابعة عند ضرب الكهنة بالأبواق أن يوشع قال للشعب: اهتفوا. فهتف الشعب وضرب بالأبواق. وكان حين سمع الشعب صوت البوق إن الشعب هتف هتافاً عظيماً فسقط السور في مكانه وصعد الشعب إلى المدينة، وأحرقوا المدينة مع كل ما بها. وهكذا عن طريق «اللف سبع مرات» والهتاف والزمامير. انهارت حصون أريحا ودخل «الشعب المختار» ليحرقها ويقتل كل مَن فيها.

ثم سار بنو إسرائيل إلى مدينة محصنة أخرى اسمها «عاي» غرب أريحا، وفي هذه المرة قسم يوشع جيشه إلى قسمين، وبينما اختبأ أحد القسمين شمال عاي، تظاهر القسم الثاني بالهزيمة، أمام المدينة والانسحاب وتبعهم ملك عاي وجنوده. وهنا خرج القسم الأول من مخبئه ودخل المدينة المفتوحة واستولى عليها، هكذا من دون قتل أيضاً. وخشيت باقي ممالك كنعان من أنها لو انتظرت طويلاً فسوف يكون مصيرها على يد «يوشع» وهو نفس مصير أريحا وعاي. فتحالف ملوك خمس مدن وهم ملوك: القدس والخليل واليرموك والدوير والحصى، وخرجوا لملاقاة «يوشع» فقال الرب ليوشع: «لا تُخفهم لأني بيدك قد أسلمتهم لا يقف رجل منهم بوجهك» فأتى إليهم «يوشع» بغتة فأزعجهم الرب أمام إسرائيل وضربهم ضربة عظيمة. وبينما هم هاربون من أمام إسرائيل رماهم الرب بحجارة عظيمة من السماء فماتوا. فتوقفت الشمس في كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل. ولم يكن مثل ذلك اليوم قبلة ولا بعده لأن الرب حارب عن بني إسرائيل.

وتمضي قصة كتاب «يوشع» فتقول: إن بني إسرائيل استمروا في انتصاراتهم حتى تمكنوا من الاستيلاء على وسط فلسطين وجنوبها. وعاد «يوشع» بعد ذلك يواجه تحالفاً آخر في شمال فلسطين لمجموعة من الملوك يتزعمهم ملك إحدى المدن القوية في ذلك الزمان وهي «حاصور»، واجتمع هؤلاء الملوك الذين خرجوا هم وكل جيوشهم معهم شعباً غفيراً كالرمل في الكثرة بخيل ومركبات كثيرة. فاجتمع جميع هؤلاء الملوك بميعاد وجاء واد نزلوا معاً على مياه ميروم لكي يحاربوا إسرائيل. وفي هذه المرة كذلك قال

الرب ليوشع: لا تخفهم لأني غداً في مثل هذا الوقت أدفعهم جميعاً قتلى أمام إسرائيل فتعرقب خيولهم وتحرق مركباتهم بالنار. فجاء «يوشع» وجمع رجال الحرب معه عليهم عند مياه ميروم وسقطوا عليهم فدفعهم الرب بيد إسرائيل فضربوهم وطردوهم. ثم رجع «يوشع» في ذلك الوقت وأخذ حاصور وضرب ملكها بحد السيف. وضربوا كل نفس بحد السيف وحرقوهم ولم يبقَ نسمة، وأحرقوا حاصور بالنار. واستولى بنو إسرائيل على أرض كنعان «**٣١**» مملكة.

وظلت هذه القصة هي المصدر الوحيد الموجود للطريقة التي دخل بها بنو إسرائيل إلى أرض كنعان. إلى أن بدأ الباحثون الغربيون يعملون الفكر في محاولة لإعادة تقويم كل المصادر القديمة، وأصبح علم التاريخ الحديث يعطي معلومات دقيقة عن أحداث العالم القديم. فأول ما لاحظه الباحثون هو الطبيعة الأسطورية التي يتسم بها وصف المعارك، حيث تقف الشمس استجابة لنداء «يوشع» وتنهار الحصون لصراخ بني إسرائيل، وتنهزم العجلات الحربية أمام جماعات ليس لديها أسلحة تقاتل بها.

ثم بمقارنة ما جاء في كتاب «يوشع» بما جاء في «كتاب القضاة» الذي تلاه، يظهر أن بني إسرائيل لم يبدأوا في دخول أرض كنعان إلا بعد أن مات يوشع، وهذا الكتاب يقول: إن بني إسرائيل بعد خروجهم من سيناء ظلوا مدة طويلة يقيمون في منطقة جبال سعير جنوب البحر الميت. وأن دخولهم كنعان لم يكن في حرب شاملة ضد أهل البلاد. وإنما في محاولات فردية قام بها بعض القبائل للتسلل إلى المناطق غير المأهولة بالسكان. وتوصل علماء الدراسات التوراتية إلى أن «كتاب يوشع» لا يمثل أي حقيقة تاريخية. وإنما قام بصياغته كتبة بني إسرائيل أثناء سبي بابل خلال القرن السادس ق.م، مستعملين بعض الروايات القديمة السابقة على عصر بني إسرائيل، والتي تتضمن أخباراً تتعلق بحروب ممالك كنعان فيما بينها. ويؤكد هذا طبيعة أسلوب الكتابة المستصلحة، إذ من الواضح أنه يحتوي على مجموعة من المقتطفات المكتوبة بأساليب مختلفة. ومع ذلك فالغالبية من العلماء وإن وافقت على

اعتبار كتاب «يوشع» عملاً أدبياً لا قيمة تاريخية له لم تذكر وجود يوشع خليفة موسى كشخصية تاريخية.

ويبدو من الطريقة التي حاول بها الكتبة إخفاء كل المعلومات عن أصل يوشع وتاريخ علاقته بموسى، ثم نسبة كتاب كامل إليه ليس له في الحقيقة أي علاقة بما جاء به. أن هناك تعمداً من جانبهم في إخفاء الشخصية الحقيقية لخليفة موسى. وأياً كان السر وراء محاولة كتبة بني إسرائيل إخفاء القصة الحقيقية ليوشع، فهم ينكرون صراحة أن «يوشع» كان مسيحهم، وهم ما زالوا حتى الآن في انتظار هذا المسيح. وأنه بعد حوالى «**٣٥**» قرناً من الزمان استطاع علماء الحفريات في عصرنا هذا ليس فقط كذب أسطورة غزو بني إسرائيل لأرض كنعان وإنما نفضوا الغبار عن القصة الحقيقية لتسلل قبائل بني إسرائيل إلى المناطق المهجورة في كنعان[(١)].

وقام في بني إسرائيل بعد يوشع بن نون كالب بن يوقنا بن بارض بن يهوذا، ويوشع وكالب هما الرجلان اللذان أنعم الله عليهما. وقال المسعودي: وجدت في نسخة أن القائم في بني إسرائيل بعد وفاة يوشع بن نون وشان الكعري، وأنه أقام فيهم ثماني سنين وهلك. وملك «عمايل بن قائم» من سبط يهوذا أربعين سنة. وإن بني إسرائيل كفرت بعد ذلك، فملك الله عليهم «كنعان» عشرين سنة، وهلك. فكان على بني إسرائيل «علان الأخباري» أربعين سنة. ثم قام «سمويه» إلى أن وليهم طالوت، وخرج عليهم جالوت الجبار ملك البربر من أرض فلسطين.

قال المسعودي: فأما على الرواية الأولى من أن القيّم بعد يوشع في بني إسرائيل كالب بن يوقنا، وأن القائم بعده في بني إسرائيل والمدبر لهم فنحاص بن العازر بن هارون بن عمران ثلاثين سنة. ولما هلك فنحاص بن العازر دبر أمرهم كوشان بن لاسم ملك الجزيرة، فتعبد بني إسرائيل، وأخذهم البلاء ثماني سنين. ثم دبرهم عنيائيل بن يوقنا أخو كالب من سبط

---

(١) تاريخ اليهود، أحمد عثمان ج٣ ص٩٥ ـ ١٠٢.

يهوذا أربعين سنة. ثم دبرهم أعلون ملك مواب بجهد شديد ثماني عشرة سنة. ثم دبرهم أهوز من ولد إفرايم خمساً وخمسين سنة، والخمس وثلاثين سنة خلت من أيامه ثم للعالم «أربعة آلاف سنة». ثم دبرهم شاعان بن أهوز خمساً وعشرين سنة، ثم دبرهم فليش الكنعاني ملك الشام عشرين سنة، ثم دبرتهم امرأة يقال لها: دبورا، وقيل: إنها ابنته، وضمت إليها رجلاً من نفتالي يقال له: باراق، أربعين سنة. ثم تداولتهم رؤوس من بني مدين وهم «عريب وزريب وبنو ريّا ودارع» وصلتا سبع سنين. ثم دبرهم كدعون من آل منشا أربعين سنة، وقتل ملوك مدين. ثم ابنه أبيمالخ ثلاث سنين، ثم دبرهم تولع من آل إفراييم ثلاثاً وعشرين سنة، ثم يامين من آل منشا اثنتين وعشرين سنة. ثم ملوك عمان ثماني عشرة سنة، ثم نحشون من بيت لحم سبع سنين، ثم شنشون عشرين سنة، ثم أملج عشر سنين، ثم عجران ثماني سنين. ثم قهرهم ملوك فلسطين أربعين سنة، ثم عيلان الكاهن بعد ذلك أربعين سنة، وفي زمانه ظفر البابليون ببني إسرائيل، وغنموا التابوت فحملوه إلى بابل، وأخرجوهم من ديارهم وأبنائهم، وكان ما كان من أمر قوم حزقيل(١).

❋ ❋ ❋ ❋

حزقيل بن بوذي

وهو ابن العجوز، عن ابن إسحاق قال: إنما سمي حزقيل ابن العجوز أنها سألت الله الولد، وقد كبرت وعقمت، فوهبه الله لها، فبذلك قيل له: ابن العجوز. وهو الذي دعا للقوم الذين ذكر الله في كتابه فيما بلغنا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ﴾ [البقرة: ٢٤٣]. عن ابن عباس، عن ابن مسعود، وعن ناس من أصحاب النبيّ ﷺ: كانت قرية يقال لها: (داوران) قبل واسط، فوقع بها الطاعون، فهرب عامة أهلها فنزلوا

(١) مروج الذهب، للمسعودي ج١ ص٥٢ ـ ٥٤.

ناحية منها، فهلك أكثر مَن بقي في القرية وسلم الآخرون. فلما ارتفع الطاعون رجعوا سالمين، فقال الذين بقوا: أصحابنا هؤلاء كانوا أحزم منا، لو صنعنا كما صنعوا بقينا، ولئن وقع الطاعون ثانية لنخرجن معهم. فوقع في قابل فهربوا وهم بضعة وثلاثون ألفاً، حتى نزلوا ذلك المكان، وهو وادي أفيح، فناداهم ملك من أسفل الوادي، وآخر من أعلاه أن موتوا، فماتوا حتى هلكوا، وبليت أجسادهم. فمرّ بهم نبيّ يقال له: حزقيل، فلما رآهم وقف عليهم فجعل يتفكر فيهم، يلوي شدقه وأصابعه، فأوحى الله إليه: يا حزقيل، أتريد أن أريك كيف أجيبهم؟ قال: نعم، فقيل له: ناد، فنادى: يا أيتها العظام، إن الله يأمرك أن تجتمعي، فجعلت العظام تطير بعضها إلى بعض حتى كانت أجساداً من عظام. ثم أوحى الله أن ناد: يا أيتها العظام، إن الله يأمرك أن تكتسي لحماً، فاكتست لحماً ودماً وثيابها التي ماتت فيها، ثم قيل له: ناد، فنادى: يا أيتها الأجساد إن الله يأمرك أن تقومي، فقاموا. عن مجاهد أنهم قالوا حين أُحيوا: سبحانك ربنا وبحمدك لا إلٰه إلا أنت، فرجعوا إلى قومهم أحياء يعرفون أنهم كانوا موتى، محنة الموت على وجوههم، لا يلبسون ثوباً إلا عاد دسماً مثل الكفن، حتى ماتوا لآجالهم التي كتبت لهم[(١)].

❁ ❁ ❁ ❁

يونس بن متى عليه السلام

لم يذكر المؤرخون نسباً ليونس عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنما اتفقوا على أن اسمه يونس بن متى، قالوا: و«متَّى» هي أمُّه، ولم ينسب إلى أمه من الرسل غير «يونس وعيسى» عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. ويونس من بني إسرائيل، ويتصل نسبه بـ«بنيامين» أحد أولاد يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو أخو يوسف الشقيق.

ذُكر يونس عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن الكريم أربع مرات في سورة (النساء،

---

(١) تاريخ الطبري، ج١ ص٢٥٧ ـ ٤٥٩.

والأنعام، ويونس، والصافات) وذكر بالوصف في موضعين حيث لقبه الله بـ(ذي النون) أي: الحوت في سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ...﴾ [الأنبياء: ٨٧] الآية. وبلفظ صاحب الحوت في سورة القلم في قوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ﴾ [القلم: ٤٨] الآية. فيكون قد ذكر في القرآن ست مرات، أربع مرات بالاسم، ومرتين بالوصف. أما دعوته عَلَيۡهِ السَّلَامُ فإن الله تعالى أرسله إلى أهل «نينوى» من أرض الموصل بالعراق. وكان أهل نينوى قد دخلت إليهم الوثنية، وانتشرت فيهم عبادة الأصنام، ولهم صنم يسمونه «عشتار» فذهب يونس من بلاد الشام إلى «نينوى» فدعاهم إلى الله عزَّ وجلَّ، فكذبوه ولم يستجيبوا لدعوته، فبقي معهم يذكّرهم ويعظهم ويدعوهم إلى الله، ولكنه لم يلقَ منهم إلا آذاناً صُمًّا وقلوباً غُلْفاً، فضاق بهم ذرعاً. ثم أوعدهم بالعذاب إن لم يؤمنوا، فلما طال ذلك عليه من أمرهم خرج من بين أظهرهم غاضباً عليهم، متوعداً لهم بالعذاب بعد ثلاث. ويظهر أن قومه توعّدوه وغضبوا منه ولاحقوه فأبق فارًّا منهم. فخرج من بينهم قبل أن يأمره الله تعالى بالخروج، وظنّ أن الله تعالى لن يؤاخذه على هذا الخروج، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ ...﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فهو ذهب مغاضباً لقومه لا مغاضباً لربه فإن ذلك معصية لله وهو يتنافى مع «عصمة الأنبياء».

قال ابن مسعود ومجاهد وطائفة من السلف: فلما خرج من بين أظهرهم وتحققوا نزول العذاب بهم، قذف الله في قلوبهم التوبة والإنابة، وندموا على ما كان فيهم مع نبيهم. ثم رجعوا إلى الله عزَّ وجلَّ، وصرخوا وتضرّعوا، فكشف الله العظيم بحوله وقوته ورأفته ورحمته عنهم العذاب الذي دار على رؤوسهم كقطع الليل المظلم، ولهذا قال تعالى: ﴿فَلَوۡلَا كَانَتۡ قَرۡيَةٌ ءَامَنَتۡ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوۡمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفۡنَا عَنۡهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ٩٨]. أما يونس فإنه حين ترك قومه ركب السفينة، ولما توسطوا البحر هاج بهم، فاستهموا فيما بينهم على مَن وقع عليه السهم ألقوه في البحر، وألقوا يونس في اليم فالتقمه حوت

عظيم بأمر الله وسار به في الظلمات بحفظ الله ويونس يسبّح الله ويستغفره، وينادي في الظلمات: ﴿أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، فاستجاب الله له ونجّاه من الغم، ثم أوصى الله إلى الحوت أن يقذف به في العراء، فألقى به وهو سقيم، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين، وعافاه الله من سقمه وتاب عليه. وعاد إلى قومه فوجدهم مؤمنين بالله منتظرين عودة رسولهم ليأتمروا بأمره ويتبعوه. ومتّع الله أهل «نينوى» في مدينتهم مدة إقامة يونس عليه السلام فيهم. ثم بعد ذلك لما أفسدوا وضلُّوا سلّط عليهم مَن دمّر مدينتهم. وكان عدد القوم الذين بعث إليهم يونس مائة وعشرين ألفاً على رواية ابن عباس، لأن الله تعالى قال: ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ١٤٧﴾ [الصافات: ١٤٧]. وقد ورد في ذلك بعض الآثار، والله أعلم(١).

ويسمى يونس عند أهل الكتاب «يونان بن أمتاي» وله كتاب من ضمن الكتب القانونية التي قبلتها الكنيسة وكتابه يقع في أربعة إصحاحات «فصول»، ومضمونه أن الله أمر يونان أن يذهب إلى «نينوى» لأن شرهم قد كثر. فقام يونان ليهرب إلى «ترشيش» من وجه الرب فنزل إلى «يافا» ووجد سفينة ذاهبة إلى «ترشيش» فنزل بعد أن دفع الأجر. فأرسل الله ريحاً شديدة فحصل نوء عظيم حتى كادت السفينة تغرق ويهلك مَن فيها. وكان كل واحد ينادي إلٰهه ويونان نائم في قاع السفينة فأيقظوه. وعملوا قرعة لمعرفة مَن كان سبباً في غضب الله، فخرجت القرعة عليه، وحدّثهم بقصته، وأرادوا الرجوع إلى الساحل فلم يقدروا، فأشار عليهم بأن يلقوه في اليمن ليسكن عنهم غضب الله، فألقوه فالتقمه حوت عظيم وسكن هيجان البحر عن القوم. فدعا «يونان» إلٰهه من جوف الحوت وتضرّع واستغاث وظلّ على ذلك ثلاثة أيام وثلاث ليالي. ثم لفظه الحوت بالساحل، ثم أمره الله أن يذهب إلى «نينوى» فذهب وأوحى إليه أن ينادي بأن نينوى ستهلك بأن تنقلب على أهلها بعد أربعين يوماً. فآمن أهل «نينوى» بالله وصلُّوا وصاموا

---

(١) النبوة والأنبياء، للصابوني ص٣١٤ ـ ٣١٧.

وتضرّعوا إلى الله وأنابوا. وبلغ الأمر ملك نينوى ففعل مثل أهل مملكته وأمر بفصل صغار البهائم عن أمهاتها والحيلولة بين الدواب والعلف والماء. ولما مضت الأربعون لم يحصل لأهل نينوى شيء مما أُنذروا به. فاغتمّ يونان لأن وعيده لم يتحقق، فخرج من المدينة واتخذ لنفسه كنًا يكون فيه. فأنبت الله عليه يقطينة فأسرعت في النمو وأظلّت كنَّه بأوراقها ففرح بها. وفي اليوم الثاني سلّط الله عليها ريحاً حارة فجففتها، فاغتاظ يونان وقال: «موتي خير من حياتي» فأوحى الله إليه: هل اغتظت من أجل اليقطينة التي لم تتعب فيها ولا ربّيتها التي بنت ليلة نبتت وبنت ليلة هلكت، أفلا أشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التي يوجد فيها أكثر من اثنتي عشرة ربوة من الناس الذين لا يعرفون يمينهم من شمالهم وبهائم كثيرة. هذا مجمل ما جاء في كتاب يونان، والحق ما جاء في القرآن الكريم(١).

❋ ❋ ❋ ❋

إلياس عليه السلام

هو إلياس النشبي، ويقال: ابن ياسين بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران. وكان إرساله إلى أهل بعلبك، فدعاهم إلى الله عزَّ وجلَّ وأن «يتركوا عبادة صنم لهم كانوا يسمونه بعلاً» ولهذا قال لهم: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الصافات: ١٢٤ ـ ١٣٢]، فكذّبوه وخالفوه وأرادوا قتله، فيقال: إنه هرب منهم واختفى عنهم. وتوعدهم الله بالعذاب في الدنيا والآخرة إلا مَن آمن منهم، وأبقينا له ذكراً حسناً له في العالمين فلا يذكر إلا بخير. سلام على إلياس، والعرب تلحق النون في أسماء كثيرة، وتبدلها من غيرها كما قالوا: إلياس وإلياسين. وقد

---

(١) قصص الأنبياء، للنجار ص٤٠٨ ـ ٤٠٩.

قرئ: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ١٣٠﴾، أي: على آل محمد. وما ذكره وهب بن منبه وغيره: أنه لما دعا ربه عزَّ وجلَّ أن يقبضه إليه لما كذبوه وآذوه جاءته دابة لونها لون النار فركبها، فجعل الله له ريشاً وألبسه النور، وقطع عنه لذة المطعم والمشرب وصار ملكياً بشرياً سماوياً أرضياً، وأوصى إلى اليسع بن أخطوب. ففي هذا نظر، وهو من الإسرائيليات التي لا تصدق ولا تكذب، بل الظاهر أن صحتها بعيدة، والله أعلم[1].

❊ ❊ ❊ ❊

اليسع عليه السلام

واسمه أسباط بن عدي بن شوتلم بن إفرايم بن يوسف الصديق عَلَيْهِ السَّلَامُ. وهو من أنبياء بني إسرائيل، وقد أوجز القرآن الكريم عن حياته فلم يذكر عنها شيئاً، وإنما اكتفى بعَدِّه في مجموعة الرسل الكرام الذين يجب الإيمان بهم تفصيلاً. قال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلٌّ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ٤٨﴾ [ص: ٤٨][2]. وقال الله تعالى: ﴿وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًاۚ وَكُلًّا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٨٦﴾ [الأنعام: ٨٦].

قام عَلَيْهِ السَّلَامُ بتبليغ دعوته بعد انتقال إلياس إلى جوار الله، فقام يدعو إلى الله مستمسكاً بمنهاج نبيّ الله إلياس وشريعته. وقد كثرت في زمانه الأحداث والخطايا وكثر الملوك الجبابرة، ولم يأبهوا بدعوته ثم توفاه الله، وسلّط على بني إسرائيل مَن يسومهم سوء العذاب، كما قصَّ علينا القرآن الكريم، ويذكر أن دعوته ظهرت في مدينة تسمى «بانياس» إحدى مدن الشام قرب اللاذقية[3]. ثم خلف فيهم لك يقال له: «إيلاف» وكان الله قد بارك لهم في جبلهم، فكان أحدهم يجمع التراب على الصخرة ثم يبذر فيه

---

(١) قصص الأنبياء، للنجار ص٤٠٨ ـ ٤٠٩.
(٢) تاريخ الطبري، ج١ ص٢٥٧ ـ ٤٥٩.
(٣) للمؤلف.

الحَب، فيخرج الله ما يأكل منه سنته هو وعياله. فلما عظمت أحداثهم، وتركوا عهد الله إليهم نهض بهم عدو فخرجوا إليه وأخرجوا التابوت كما كانوا يخرجونه، ثم زحفوا به فقوتلوا حتى استبى من أيديهم. فأتى ملكهم «إيلاف» فأخبر أن التابوت قد أخذ، فمالت عنقه فمات كمداً عليه. فمرج أمرهم عليهم واختلف ووطئهم عدوهم حتى أصيب من أبنائهم ونسائهم. فمكثوا على اضطراب من أمرهم، يتمادون أحياناً في غيهم وضلالهم، فيسلط الله عليهم مَن ينتقم به منهم، ويرجعون إلى التوبة أحياناً فيكفيهم الله عند ذلك شر من بغاهم(١).

❊ ❊ ❊ ❊

شمويل بن بالي عليه السلام

هو شمويل ويقال: أشمويل بن بالي بن علقمة بن يرخام بن اليهو بن قهو بن صوف بن علقمة بن ماحث بن عوصا بن عزريا. حكى السدي بإسناده عن ابن عباس وابن مسعود والثعلبي وغيرهم أنه لما غلبت العمالقة من أرض غزة وعسقلان على بني إسرائيل وقتلوا منهم خلقاً كثيراً، وسبوا من أبنائهم جمعاً كثيراً، وانقطعت النبوة من سبط لاوي ولم يبقَ فيهم إلا امرأة حبلى فجعلت تدعو الله عزَّ وجلَّ أن يرزقها ولداً ذكراً، فولدت غلاماً فسمّته أشموي، ومعناه بالعبرانية إسماعيل، أي: سمع الله دعائي. فلما ترعرع أسلمته عند رجل صالح ليتعلم من خيره وعبادته فكان عنده، فلما بلغ أشده بينما هو ذات ليلة نائم إذا صوت يدعوه فانتبه مذعوراً فظنه الشيخ يدعوه فكره أن يفزعه. ثم ناداه الثانية ثم الثالثة فإذا جبريل يدعوه، فجاء فقال: إن ربك قد بعثك إلى قومك. فكان من أمره معهم ما قصَّ الله في كتابه.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ

(١) النبوة والأنبياء للصابوني ص٣١٢ ـ ٣١٣.

قَالُواْ لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُواْۖ قَالُواْ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَاۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾[1]. قال أكثر المفسرين: كان نبيّ هؤلاء القوم المذكورين في هذه القصة هو «شمويل». والمقصود أن هؤلاء القوم لما أنهكتهم الحرب وقهرتهم الأعداء سألوا نبيّ الله في ذلك الزمان، وطلبوا منه أن ينصب لهم ملكاً يكونون تحت طاعته ليقاتلوا، قالوا: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، أي: وأي شيء يمنعنا من القتال ﴿وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَاۖ﴾، فحقيق علينا أن نقاتل عن أبنائنا المنهوبين المستضعَفين. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦]، فإنه لم يجاوز النهر مع الملك إلا القليل والباقون رجعوا ونكلوا عن القتال. قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾ [البقرة: ٢٤٧]. قال الثعلبي: وهو طالوت بن قيش بن أسال بن صرار بن تحورت بن أفيح بن أنس بن بنيامين بن يعقوب عليه السلام. قال عكرمة: كان سَقَّاء. وقال ابن منبه: كان دبّاغاً، وقيل غير ذلك. وقد ذكروا أن النبوة كانت في سبط لاوي وأن الملك كان في سبط يهوذا، فلما كان سبط بنيامين نفروا منه وطغوا في إمارته عليهم، وقالوا: نحن أحق بالملك منه. قال لهم نبيهم شمويل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ﴾، قيل: في أمر الحروب، وقيل: مطلقاً، والظاهر من السياق أنه كان أجملهم وأعلمهم بعد نبيهم عليه السلام.

قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ

---

(١) تاريخ الطبري، ج١ ص٤٦٤.

هَـٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: ٢٤٨]، أي: إن ولاية هذا الرجل الصالح عليهم أن يرد الله عليهم التابوت الذي كان لمست منهم، وقد كانوا ينصرون على أعدائهم بسببه. قيل: طست من ذهب كان يغسل فيه صدور الأنبياء، وقيل: فيه التوراة أيضاً، وقيل: كان فيه رضاض الألواح وشيء من المن الذي كان نزل عليهم بالتيه. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩]. قال ابن عباس وكثير من المفسرين: هذا النهر هو نهر الأردن، فكان من أمر طالوت وجنوده عند هذا النهر عن أمر نبيّ الله له عن أمر الله له اختباراً وامتحاناً: أن مَن شرب من هذا النهر فلا يصاحبني في هذه الغزوة، ولا يصحبني إلا مَن لم يطعمه إلا غرفة بيده. قال السدي: كان الجيش ثمانين ألفاً فشرب منه ستة وسبعون ألفاً، فبقي معه أربعة آلاف. قال الله تعالى: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥٠، ٢٥١]، طلبوا من الله أن يُفْرِغَ عليهم الصبر فتستقر قلوبهم، وأن يثبت أقدامهم في مجال الحرب. فأجابهم العظيم القدير إلى ما طلبوا وأنالهم ما إليه رغبوا. فهزموهم بحول الله لا بحولهم، وبقوة الله ونصره لا بقوتهم وعددهم، مع كثرة عددهم. وأن قتل داود جالوت فيه دلالة على شجاعة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ وقد ذكر السدي: أن داود كان أصغر أولاد أبيه، وقد سمع طالوت ملك بني إسرائيل وهو يحرّض بني إسرائيل على قتل جالوت وجنوده، وهو يقول: مَن قتل جالوت زوَّجته ابنتي وأشركته في ملكي. وكان داود يرمي بالقذافة وهو المقلاع، فأخذ ثلاثة أحجار فوضعها

في القذافة ثم أدارها فصارت حجراً واحداً. ثم رمى بها جالوت ففلق رأسه وفرّ جيشه منهزماً، فوفى له طالوت بما وعده فزوّجه ابنته وأجرى حكمه في ملكه. وعظم داود عليه السلام عند بني إسرائيل وأحبُّوه ومالوا إليه أكثر من طالوت. فترك الملك لداود وقاتل في سبيل الله، فذلك قوله تعالى: ﴿وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُۗ﴾[1].

****

اليهود في عصر الممالك القديمة

وهو العصر الذي يرتبط بالفترة التي بدأت عقب المرحلة المسماة بعهد القضاة، والتي كان فيها الزعماء والقواد الذين يتصارعون في المجتمع الإسرائيلي ويتصدرون قيادته يسمون أنفسهم بـ«القضاة». وكانت البداية لهذه المرحلة على يد الإسرائيلي المدعو في التوراة باسم «شاؤول» واعتبر أول مؤسس وأقوى مؤسس لعصر الممالك، لأنه في تقديرهم حارب الفلسطينيين وهزمهم ووسَّع الأرض التي كانت تتعرض للمقاومة، منذ عصر يوشع بن نون حتى عصر القضاة الذي لم يخلُ من كثير من الثورات وحالات الاضطراب والقلاقل التي كانت تقوم في وجه الإسرائيليين من العرب أصحاب الأرض. والأرض الفلسطينية في أيدي وسيطرة أبنائها العرب حيث لم تتمكن منها جماعات اليهود بالاحتلال التام. فمن بين زيف الدعوى التوراتية حول دور شاؤول تصور عن المملكة الإسرائيلية ووجودها رغم أن تناقضات التوراة نفسها ترفض هذا التصور. وتفصح التوراة في آياتها كما يقول الإصحاح الحادي والثلاثون من سفر صموئيل الأول دون قصد من المؤلف التوراتي، إلى ما يمكن تصوره لهذه المرحلة التي قادها شاؤول ثم انتهت تماماً في يد الفلسطينيين بقتل وهزيمة الإسرائيليين، ومصرع شاؤول نفسه بالنهاية الأثيمة التي تصورها التوراة.

---

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج٢ ص٢٥٥ ـ ٢٦٣.

وكانت مقدمات العصر المنصور عند اليهود بأنه بداية مرحلة الملوك الأول في التاريخ الإسرائيلي. ولم يصبح القوم ولا تاريخهم إلا حين عملت المعجزة الدينية عملها على أيدي رجال مخلصين طاهرين يرفضون العنصرية والتعصب وكل مظاهر السيطرة والاستعباد، بل كانوا خيِّرين وكانت أساليب هدايتهم مجالات مفتوحة لكل القِيَم الإنسانية، ولكل معاني الخير التي تفيض بها دائماً الرسالات السماوية. وما إن تقوم مثل هذه الدعوات لكي تنتقل بمرحلة من عمر الصراع الإسرائيلي وتطاحنه مع بعضه البعض، ومع الشعب الذي يحارب في أرضه إلى حالة من السلام إلا وتواجه بالمواقف التقليدية من رفض الإسرائيليين وتنكرهم لكل القِيَم الدينية وما تمثله من دعوة للخير والحب والسلام[١].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ج١ ص١٦٩ ـ ١٧٥.

الفصل الخامس
أنبياء بني إسرائيل
من النبيّ داود إلى مولد المسيح عيسى ابن مريم عليهم السلام

النبيّ داود عليه السلام

هو داود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن فحشون بن عويناذب بن إرم بن حصرون بن قارص بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمٰن عليه السلام. قال ابن إسحاق عن بعض أهل العلم: كان داود عليه السلام قصيراً أزرق العينين قليل الشعر طاهر القلب ونقيه. فلما قتل داود عليه السلام جالوت عند قصر أم حكيم بقرب مرج الصفر، صار الملك إلى داود، وجمع الله له بين الملك والنبوة وبين خير الدنيا والآخرة. وكان الملك يكون في سبط والنبوة في آخر، فاجتمعا في داود عليه السلام. قال الله تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾ [البقرة: ٢٥١]، أي: لولا إقامة الملوك حكاماً على الناس لأكل قوي الناس ضعيفهم. وقال أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه: «إن الله ليَزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن».

قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: ١٠، ١١]، أعانه الله على عمل الدروع من الحديد لتحصين المقاتلة من الأعداء، وأرشده إلى صنعتها فقال: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ﴾، أي: لا تدق المسمار فيغلق ولا تغلظه فيفصم. قال الحسن البصري وقتادة: كان الله قد ألان له الحديد حتى كان يفتله بيده لا يحتاج إلى نار ولا مطرقة. قال قتادة: فكان أول مَن عمل الدروع من زرد. قال ابن شوذب: كان يعمل كل يوم درعاً يبيعها بستة آلاف درهم[(١)]. ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**خفف على داود القرآن، فكان يأمر بدوابه أن تُسْرَجَ، فيقرؤه قبل أن تُسرَج دوابه، ولا يأكل إلا من عمل يديه**»[(٢)].

بعد أن لمع اسم داود عليه السلام بين شعب بني إسرائيل، وتتابعت الانتصارات على يديه وأعزّ الله بني إسرائيل بعد أن كانوا في ذل وهوان. فاجتمع بنو إسرائيل بعد وفاة طالوت وبايعوا هذا الغلام الفتى على الملك، فأصبح ملكاً عليهم. وكان عمره لا يزيد عن ثلاثين عاماً، وقد حكم بين شعبه بالعدل، وساسهم بالمساواة، وطبّق عليهم أحكام التوراة، إلى أن أوحى الله بالزبور، أحد الكتب الأربعة السماوية. ولما بلغ عليه السلام من العمر أربعين سنة آتاه الله النبوة مع الملك وأرسله رسولاً إلى بني إسرائيل. وأنزل عليه الزبور فيه مواعظ وعِبَر، ورقائق وأذكار، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب. وقد كان داود عليه السلام حسن الصوت جميل الإنشاد، حتى أصبح يُضرب به المثل في حُسن الصوت، فيقال مزماراً من مزامير داود. كان داود عليه السلام إذا قرأ الزبور تكف الطير عن الطيران، وتقف على الأغصان والأشجار، فترجع بترجيعه، وتسبّح بتسبيحه، وكذلك الجبال تردد معه في العشي والإبكار. قال الله تعالى: ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا

---

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج٢ ص٢٦٥ - ٢٦٧.

(٢) جامع الأصول في أحاديث الرسول، لابن الأثير ج٨ ص٥١٩ رقم ٦٣١٥.

﴿ٱلۡأَيۡدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝١٧ إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ۝١٨﴾ [ص: ١٧، ١٨]. وقد كان داود عَلَيْهِ السَّلَامُ كثير العبادة لله سبحانه وتعالى، كان يقوم الليل ويصوم النهار، فكان ذا قوة في العبادة والطاعة وعمل الصالحات. قال ابن عباس: (الأيد): القوة في الطاعة والعبادة.

عن ابن عباس عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: قال لي رسول الله ﷺ: «**ألم أنبأ أنك تقوم الليل وتصوم النهار؟**»، فقلت: نعم، فقال: «**فإنك إذا فعلت ذلك هجمت العين، ونفهت النفس، صم من كل شهر ثلاثة أيام، فذلك صوم الدهر** ـ أو ـ **كصوم الدهر**» قلت: إني أجدني، قال: مسعر يعني قوة، قال: «**فصم صوم داود** عَلَيْهِ السَّلَامُ**، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى**»[1].

وهناك الكثير من المزايا التي خصّ الله تعالى بها داود عَلَيْهِ السَّلَامُ منها: تسخير الجبال معه يسبِّحن بكرةً وعشياً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرۡنَا ٱلۡجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحۡنَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِشۡرَاقِ ۝١٨﴾ [ص: ١٨].

وترجيع الطير معه كلما قرأ الزبور، قال الله تعالى: ﴿وَٱلطَّيۡرَ مَحۡشُورَةٗۖ كُلّٞ لَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝١٩﴾ [ص: ١٩]. وقال الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيۡمَٰنُ دَاوُۥدَۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمۡنَا مَنطِقَ ٱلطَّيۡرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيۡءٍۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡمُبِينُ ۝١٦﴾ [النمل: ١٦]. وإلانة الحديد له، فكان بين يديه كالعجين. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضۡلٗاۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَٱلطَّيۡرَۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلۡحَدِيدَ ۝١٠﴾ [سبأ: ١٠]. وعلّمه الله صناعة الدروع لدرء خطر الحرب. قال الله تعالى: ﴿وَعَلَّمۡنَٰهُ صَنۡعَةَ لَبُوسٖ لَّكُمۡ لِتُحۡصِنَكُم مِّنۢ بَأۡسِكُمۡۖ فَهَلۡ أَنتُمۡ شَٰكِرُونَ ۝٨٠﴾ [الأنبياء: ٨٠]. وقوّى الله ملكه وجعله منصوراً على أعدائه مهاباً في قومه. قال الله تعالى: ﴿وَشَدَدۡنَا مُلۡكَهُۥ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ۝٢٠﴾ [ص: ٢٠]. والحكمة و«النبوة» وفصل الخطاب: تمييز الحق عن الباطل[2].

لقد افترى اليهود على داود عَلَيْهِ السَّلَامُ أكاذيب كثيرة، كما كذبوا على

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، ج٤ ص١٩٥.
(٢) النبوة والأنبياء، للصابوني ص٢٨٧ ـ ٢٩٠.

أنبياء الله من قبله ومن بعده، وقتلوا بعض الأنبياء. فقد ادَّعوا أن داود خرج يتمشى على سطح بيت الملك مساءً، فوجد امرأة جميلة تغتسل، فأرسل رجالاً فأخذوها وجاؤوا بها إلى داود، فدخلت عليه فاضطجع معها وحبلت منه، وأنه عمل على قتل زوجها. فقد جاء في الإصحاح الحادي عشر من سفر صموائيل الثاني، في الفقرة الثانية منه: «وكان في وقت المساء أن داود قام عن سريره وتمشى على سطح بيت الملك، فرأى على السطح امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة جداً». وفي الفقرة الثالثة: «فأرسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: أليست هذه بتشبع بنت أليعام امرأة أوريا الحثي» وفي الفقرة الرابعة: «فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها ثم رجعت إلى بيتها». وفي الفقرة الخامسة: «وحبلت المرأة فأرسلت وأخبرت داود وقالت: إني حبلى»، وبعد أن يسوق سفر صموائيل الثاني محاولة داود التخلص من أوريا زوج المرأة وإرساله إلى الحرب ليُقتل، بعد ذلك يقول السفر في الفقرة «**٢٦**»: «فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات أوريا رجلها ندبت بعلها». وفي الفقرة «**٢٧**»: «ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة وولدت له ابناً، وأما الأمر الذي فعله داود فقبح في عين الرب». ثم يتابع السفر المذكور سرد معاتبة الرب لداود وإماتة الله للولد الذي جاءت به بتشبع. ثم توبة داود وصيامه ثم دخوله على امرأة أوريا واضطجاعه معها فتحبل وتلد ولداً اسمه سليمان.

والعجيب الغريب أن هذه الأكذوبة انطلت على بعض مَن ينتحي إلى علم التفسير ففسروا بها قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَـٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّـٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص: **٢١ ـ ٢٥**].

وتفسير هذه الآيات بأن داود عشق امرأة أوريا وقهره على التنازل له عنها، وسعى في قتله حتى قتل، وكان لداود تسع وتسعون امرأة ولأوريا هذه المرأة الواحدة. ومجيء ملكين في صورة متخاصمين لداود لتنبيهه على قبح ما فعل. أقول: إن تفسير هذه الآيات الكريمات بهذا هو تفسير عاطل باطل فاسد كاسد، وإنه مفترى مبتدَع، ومكر يهودي مخترَع تمجه الأسماع وتنفر منه الطباع. ولذلك أُثِرَ أن علياً رضي الله عنه قال: مَن حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص جلدته مائة وستين جلدة، وهي حد الفرية على الأنبياء. كما أُثِرَ أن رجلاً صالحاً من أهل العلم كان جالساً مع عمر بن عبدالعزيز بالمسجد، وبالقرب منهما رجل يقص على الناس هذه القصة المخترعة على داود، فقال الرجل الصالح: يا هذا إن كان الأمر على خلاف ما تزعم فقد افتريت على نبيّ الله داود، وإن كان على ما تزعم وستر الله على نبيه داود وكنى وقال: نعجة، ولم يقل: امرأة، فما يحل لك أن تفضح نبيّ الله داود. فقال عمر بن عبدالعزيز: هذا الكلام أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس.

والمعروف أن القرآن العظيم كالدر العظيم كل آية منه مرتبطة تمام الارتباط بما قبلها وبما بعدها. فهل يأمر الله عزَّ وجلَّ رسوله محمد ﷺ بالصبر اقتداء بداود العبد الصالح الأوّاب، ثم يصف هذا الأوّاب بأنه العاشق الطامع في زوجة رجل ليس له غيرها، ولداود تسع وتسعون امرأة، إن ذلك لمنكراً من القول وزوراً. وإنما يأمر الله رسوله محمداً ﷺ في هذه الآيات بالصبر على أذى قومه له، ويذكّره بما كان من أخيه العبد الصالح الأوّاب داود عندما تسوّر عليه المحراب، أي: القصر، متخاصمون، ففزع منهم وخاف أن يغتالوه، ولما طمأنوه بأنهم لم يجيئوا لإلحاق أذى به، وإنما جاؤوا متخاصمين وتقدّم المدعي، وقال مشيراً إلى المدعى عليه: ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسۡعٌ وَتِسۡعُونَ نَعۡجَةً﴾، أي: شاة من الغنم، ﴿وَلِىَ نَعۡجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾، أي: شاة من الغنم واحدة، وأنه رحمني عندما رآني، فلما مضت مدة وجئت لأطلبها منه أنكر حقي فيها. فلما سمع داود عَلَيْهِ السَّلَامُ المدعي ولم يسمع من المدعى عليه، حكم داود على المدعى عليه وقال: ﴿لَقَدۡ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعۡجَتِكَ إِلَىٰ

نِعَاجِهِۦ﴾ وإن هذا دأب الخلطاء الذين لا يخافون الله، فلما انصرفوا من عنده راضين بحكمه عاتب نفسه على الفزع منهم، وظنّ أنه فُتن بسبب فزعه منهم عندما رآهم يتسورون المحراب فخر ﴿رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ لله، فغفر الله ما وقع منه. وكأن الله تعالى يقول لشيخ المرسلين وإمام المتقين وسيد أولي العزم محمد ﷺ: إياك أن تفزع من تهديدات قريش لك، واذكر قصة أخيك العبد الصالح الأوّاب داود عليه السلام عندما تُسُوِّر عليه المحراب. فأنت أولى أن لا تفزع من قريش مهما تمالؤوا عليك وهدّدوك، فإن العاقبة الحسنى في الدنيا والآخرة لك، والله يعصمك من الناس»[1].

لقد حصلت حروب بين رجال داود ورجال أبشبوشت بن شاؤول إلى أن هلك ابن شاؤول بعد سنتين. وأقام داود ملكاً في حبرون، وجاء إليه بقية رؤساء إسرائيل وملّكوه عليهم، وأقام في حبرون سبع سنوات. ثم انتقل إلى صهيون وهو حصن سماه مدينة داود، وكان المقيمون في جبل الموريا من اليبوسيين. فأقام داود بجانبهم في صهيون إلى أن صارت جميعها لبني إسرائيل. قام داود في أيام ملكه بحروب كثيرة كان موفَّقاً فيها منصوراً على أعدائه، واتسع ملكه حتى صار من أيلة بخليج العقبة، فدانت له تلك البلاد كلها. ففتح بلاد الفلسطينيين، وأخذ دمشق عاصمة ملك الأراميين بعد حرب شديدة، وحارب الأقوام الذين على الفرات ونصر عليهم، وملك شرقي الأردن بعد أن حاربه بنو عمون.

لقد ذكر الله لداود مواقف صالحات، وأنعم عليه نِعَماً عظيمة في القرآن الكريم، فمن ذلك: أنه سخَّر الجبال مع داود يُسَبِّحْنَ بكرةً وعشياً، وتسبّح الطير معه كما تفعل الجبال، وعُلِّم منطق الطير، وإلانة الحديد له، وعمله الدروع المركبة من حِلَق حديد، وتشديد ملكه، ذلك أن الله تعالى قوَّاه في الملك، وجعله منصوراً على أعدائه، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب. والمراد بالحكمة النبوة، وأصل معناها اللغوي وضع كل شيء في محله، أي: يقول الإنسان القول لا خلل فيه. وأن الله تعالى أعطاه

---

(١) قصص الأنبياء، عبدالقادر شيبة الحمد ج١ ص٢٣٧ ـ ٢٤٢.

(الزبور) كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾﴾ [النساء: ١٦٣]. وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ أَعۡلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَلَقَدۡ فَضَّلۡنَا بَعۡضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعۡضٖۖ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء: ٥٥]. والزبور عبارة عن قصائد وأناشيد تتضمن تسبيح الله وحمده والثناء عليه والتضرع له، وبعض أخبار مستقلة كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٥] أي: أنه تضمن الأخبار بشأن النبيّ الآتي وهو محمد ﷺ وأصحابه.

أن العبرة من قصص داود عَلَيْهِ السَّلَامُ في كتاب الله العزيز تتلخص في:

أولاً: أن داود اختار الله ليفعل العجائب بيده، ولم يكن من أهل تلك الأفعال، لأنه كان غلاماً راعياً للغنم، فقتل الله بيده جالوت الجبار. ولم يقتله بسيف وإنما قتله بحجر أرسله من المقلاع، فكان ذلك أدل على قهر الله للجبابرة بأحقر الأشياء على يد أضعف العباد.

ثانياً: أن الشخص الضعيف لا ينبغي له أن ييأس من النجاح ما دام معتصماً بأسباب التقوى والشكر لنِعَم الله.

ثالثاً: أن انتصار داود على جالوت لم يغير من طباع داود ولم يذهب به مذهب أهل الكبرياء، بل لم يزده هذا الأمر إلا تواضعاً، وكان الله يرفعه درجات كلما تواضع وشكر.

رابعاً: طاعة الله تعالى وشكر نِعَمه، فإن الله لما رأى طاعة داود وشكره زاده من نِعَمه، وأنعم عليه بولده سليمان الذي ورثه ملكه وعلمه وحكمته[1].

وقع بعض المفسرين في خطأ فاحش، حين نقلوا بعض القصص الإسرائيلية في تفاسيرهم، اعتماداً على ما جاء عند أهل الكتاب، مما لم

(١) قصص الأنبياء، عبدالوهاب النجار ص٣٥٠ ـ ٣٥٧.

يصح سنده، لأنه من ضلالات أهل الكتاب. ولأنه يتنافى مع عقيدة المسلمين في «عصمة الأنبياء». من هذه الأباطيل المدسوسة ما روي عن داود عليه السلام من أمر عشقه لزوجة قائد جنده وهو «أوريا» فأراد أن يتخلص منه ليتزوج بها. فأرسله في أحد الحروب وحمَّله الراية وأمره بالتقدم، وكان قد أوعز إلى الجنود أن يتأخروا عنه إذا تقدم نحو الأعداء، وبهذه الوسيلة قتل الرجل وتزوج داود بتلك المرأة التي عشقها. ويدّعي أهل الكتاب أن داود عاشرها في غياب زوجها ثم دبّر تلك المكيدة ليتخلص منه، وأن سليمان جاء من تلك المرأة العشيقة... إلى آخر ما هنالك من زور وضلال وبهتان على هذا النبيّ الكريم، وهذه القصة مفتراة على داود، ومَن يقرأ في كتب أهل الكتاب يجد فيها الشيء الكثير من نسبة الكبائر إلى أنبيائهم يلفقونها ليبرروا لأنفسهم ارتكاب الآثام، والوقوع في الكبائر.

ولسنا نعجب من افتراء أهل الكتاب على رسلهم وأنبيائهم، ولكن نعجب من اغترار بعض علماء المسلمين بمثل هذه المفتريات والحكايات الإسرائيلية على الأنبياء والمرسلين حتى ينقلوها في كتبهم ويرووها على أنها من قصص القرآن فهل تليق هذه الأساطير بمقام نبيّ الله الكريم داود عليه السلام الذي قال عنه القرآن: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٤٤]. وقال عنه: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ [ص: ٢٥]. والأغرب أن نجد في التوراة ما يلي: «وكان داود يدخل المعابد الوثنية فيقيم الطقوس الدينية إرضاء لرغبات زوجاته الوثنيات». ينبغي على العلماء التثبُّت في نقل الأخبار، وخاصة ما ذكر في كتب أهل الكتاب من قصص إسرائيلية. فإنه مما لا شك فيه أن الكتب السماوية السابقة على القرآن قد دخل إليها التحريف والتبديل، وكل ما خالف العقيدة الإسلامية فهو باطل مردود[1].

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لما خلق الله آدم مسح ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة. وجعل بين عينَيْ كل إنسان منهم وميضاً** - بريق - **من نور، ثم عرضهم على آدم فقال:**

(١) النبوة والأنبياء، للصابوني ص٢٩٠ - ٢٩٣.

أي رب مَن هؤلاء؟ قال: هؤلاء ذريتك، فرأى رجلاً فأعجبه وميض ما بين عينيه فقال: أي رب مَن هذا؟ قال: هذا رجل من آخر الأمم من ذريتك يقال له: داود، قال: ربِ وكم جعلت عمره؟ قال: ستين سنة، قال: أي رب زده من عمري أربعين سنة. فلما انقضى عمر آدم جاءه ملك الموت، قال: أوَلم يبقَ من عمري أربعون سنة؟ قال: أوَلم تعطها ابنك داود؟ قال: فجحد فجحدت ذريته، ونسي آدم فنسيت ذريته، وخطئ آدم فخطئت ذريته»[(١)].

وزعم أهل الكتاب أن داود لم يزل قائماً بالملك بعد طالوت إلى أن كان من أمره وأمر امرأة أوريا ما كان، فلما وقع ما وقع من الخطيئة اشتغل بالتوبة منها فيما يزعمون. واستخفّ به بنو إسرائيل، ووثب عليه ابن له يقال له: «إيشى» فدعا إلى نفسه فاجتمع إليه أهل الزيغ من بني إسرائيل. قالوا: فلما تاب الله على داود، حارب ابنه حتى هزمه. وأصاب بني إسرائيل في زمانه طاعون جارف، فخرج بهم إلى موضع بيت المقدس، يدعون الله ويسألونه كشف ذلك البلاء عنهم، فاستجيب لهم، فاتخذوا ذلك الموضع مسجداً، وكان ذلك فيما قيل لإحدى عشرة سنة مضت من مُلكه، وتوفي قبل أن يستتم بناءه، فأوصى إلى سليمان باستتمامه. وقيل: في بناء داود ذلك المسجد، عن عبدالصمد بن معقل أنه سمع وهيب بن منبه يقول: إن داود أراد أن يعلم عدد بني إسرائيل كم هم فبعث لذلك عرفاء ونقباء، وأمرهم أن يرفعوا إليه ما بلغ عددهم، فعتب الله عليه ذلك، وقال: قد علمت أني وعدت إبراهيم أن أبارك فيه وفي ذريته حتى أجعلهم كعدد نجوم السماء، وأجعلهم لا يحصى عددهم، فأردت أن تعلم عدد ما قلت: إنه لا يحصى عددهم. فاختاروا بين أن أبتليكم بالجوع ثلاث سنين، أو أسلط عليكم العدو ثلاثة أشهر، أو الموت ثلاثة أيام. فاستشار داود في ذلك بني إسرائيل فقالوا: ما لنا بالجوع ثلاث سنين من صبر، ولا بالعدو ثلاثة أشهر، فإن كان لا بد فالموت. فذكر وهب بن منبه أنه مات منهم في ساعة من نهار ألوف لا يدري ما عددهم. فلما رأى ذلك داود شقّ عليه ما بلغه من

(١) النبوة والأنبياء، للصابوني ص٢٩٠ ـ ٢٩٣.

كثرة الموت فتبتّل إلى الله ودعاه فقال: يا رب أنا آكل الحماض ما في جوف الأترجة وبنو إسرائيل يضرسون، فاعفُ عن بني إسرائيل، فاستجاب الله له ورفع عنهم الموت. فرأى داود الملائكة سالِّين سيوفهم يغمدونها يرتقون في سُلَّم من ذهب إلى الصخرة إلى السماء، فقال داود: هذا مكان ينبغي أن يُبنى فيه مسجد، فأراد أن يأخذ في بنائه، فأوحى الله إليه أن هذا بيت مقدّس، وأنك قد صبغت يديك في الدماء، فلستَ ببانيه، ولكن ابن لك أملِّكه بعدك اسمه سليمان، أسلمه من الدماء. وكان عمر داود فيما وردت به الأخبار عن رسول الله ﷺ مائة سنة[١]. وأما بعض أهل الكتب فإنه زعم أن عمره سبعاً وسبعين سنة[٢].

وأما وفاته عليه السلام فقال الإمام أحمد في مسنده: حدثنا قتيبة حدثنا يعقوب بن عبدالرحمٰن بن محمد بن عمرو بن أبي عمرو، عن المطلب، وعن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: «**كان داود عليه السلام فيه غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلق الأبواب فلم يدخل على أهله أحد حتى يرجع**» قال: «**فخرج ذات يوم وغلقت الدار فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار فإذا رجل قائم وسط الدار، فقالت لمَن في البيت: من أين دخل هذا الرجل والدار مغلقة، والله لنعتصمن بداود، فجاء داود فإذا الرجل قائم وسط الدار فقال له داود: مَن أنت؟ فقال: أنا الذي لا أهاب الملوك ولا أمتنع من الحجاب. فقال داود: أنت والله ملك الموت، مرجعاً بأمر الله. ثم مكث حتى قبضت روحه، فلما غُسِّل وكُفِّن وفُرغ من شأنه طلعت عليه الشمس، فقال سليمان للطير: أظلِّي على داود. فأظلّته الطير حتى أظلمت عليه الأرض، فقال سليمان للطير: اقبضي جناحاً**»، قال أبو هريرة: فطفق رسول الله ﷺ يرينا كيف فعلت الطير، وقبض رسول الله ﷺ بيده، وغلبت عليه يومئذ المطرجية، أي: غلبت على التظليل عليه، وهي الصقور الطوال الأجنحة. (انفرد بإخراجه الإمام أحمد وإسناده جيد قوي ورجاله ثقات).

---

(١) سنن الترمذي، باب: من سورة الأعراف ج٥ ص٤٨ رقم ٣٠٧٦.
(٢) تاريخ الطبري، ج١ ص٤٨٤ ـ ٤٨٥.

وقال إسحاق بن بشر عن وهب بن منبه قال: إن الناس حضروا جنازة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ فجلسوا في الشمس في يوم صائف قال: وكان قد شيّع جنازته يومئذ أربعون ألف راهب عليهم البرانس سوى غيرهم من الناس. ولم يمت في بني إسرائيل بعد موسى وهارون أحد كانت بنو إسرائيل أشد جزعاً عليهم منهم على داود. قال: فآذاهم الحر، فنادوا سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يجعل لهم وقاية لما أصابهم من الحر، فخرج سليمان فنادى الطير فأجابت، فأمرها فأظلّت الناس، فتراص بعضها إلى بعض من كل وجهة، حتى استمسكت الريح فكاد الناس أن يهلكوا غمًّا فصاحوا إلى سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ من الغم، فخرج سليمان فنادى الطير أن أظلِّي الناس من ناحية الشمس وتنحِّي عن ناحية الريح، ففعلت. فكان الناس في ظل وتهب عليهم الريح، فكان ذلك أول ما رأوه من مُلك سليمان[(١)].

حسبما تقص أخبار التوراة عن نسب داود عَلَيْهِ السَّلَامُ وأصله أنه ليس من بني إسرائيل خالصاً بالمفهوم العنصري عند بني إسرائيل. فمَن يطَّلع على سفر «راعوث» والذي هو عبارة عن سجل خاص لنسب النبيّ داود، يجد فيه وعلى طول إصحاحاته الأربعة ما يستفاد منه: أن رجلاً إسرائيلياً من أهل «بيت لحم» ومن سبط «يهوذا» نزح مع زوجته وولديه إلى «مواب» وتزوج أحد الولدين واسمه «كليون» بامرأة «مؤابية» اسمها «راعوث». ثم بعد فترة مات «كليون» تاركاً راعوث في أرض موآب العربية، وكان قد زال الجوع من أرض كنعان، فعادت الحماة ومعها كنتها إلى بيت لحم. وهناك تزوجت راعوث برجل من أقارب الحماة اسمه «بوعز»، فولدت له ولداً سمي «عوبيد»، وكبر هذا الولد وتزوج لينجب ولداً ويسمِّيه «يسى» وهو والد النبيّ داود عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وفي ضوء سجلات العهد القديم، والتي تستفاد في إيجاز مما في سفر «راعوث» فإنه يتضح أن الآباء الأول لداود ليسوا إسرائيليين بميراث نقي. وإنما يجري في دمه مزيج آخر من دم غير إسرائيلي، يجري دم من قبيلة

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج٢ ص٢٨٠ ـ ٢٨٣.

موآب العربية في أعماقه. ومن هنا تتضح خرافة دعوى نقاء الجنس اليهودي وعدم اختلاطه بغيره من الأجناس، فمنذ عصر الآباء الأوَل بل حتى منذ عصر الأنبياء، وزيف دعوى الجنس ونقائه غير مقبولة نتيجة انعدام التكامل الموضوعي في آيات التوراة المحرّفة حول نسب رجل عظيم في مرحلة الآباء الأول لإسرائيل سنداً عن زيف دعوى الجنس النقي. واللفظ الإسرائيلي حول مثل هذه الدعاوي العنصرية المتعصبة التي لا يرتضيها نظام حياة ولا يدّعيها دين.

وحسبما تقرر التوراة فإن عصر الملوك، يبدأ بسلسلة ملوك الدور الأول في إسرائيل وهم: شاؤول، وأبشبوشت ابنه، وداود، وأبشالوم بن داود ثائراً في حياة أبيه، وسليمان بن داود بعد أبيه. ومن التتبع لما في التوراة عن داود وكيفية نشأته تظهر جوانب من الغلو والخيال اليهودي الذي زيّف معاني كثيرة لهذه المرحلة المسماة بعصر الملوك. ذلك أن التوراة في كثير مما قصّته عن داود صوّرت لنا نشأته الاجتماعية والعسكرية بأنه كان واحداً من الجماهير البسيطة وسط مظاهر التناقض التي كان عليها القوم. فلم يُعَدّ داود إعداداً خاصاً، ولم يكن يرجع في بيته إلى حال من سعة العيش، أو ينتمي إلى جماعات المتسلِّطين والمسيطرين من رجال بني إسرائيل. وجميع ما نسب إليه لا يمكن قبوله، لانعدام اعتبارات كثيرة كان يفتقدها القوم جميعاً. وجاء داود عليه السلام دونما سند أو حماية، ومارس سلوكاً غير المفهوم في تاريخ بني إسرائيل وأن المعاني التوراتية التي اقترنت بشخصية داود من شجاعة وتضحية، ودعوته إلى قضية العدل الاجتماعي، كل ذلك يرجع إلى الدعوة الدينية. وعمل المعجزة الإلٰهية غير مرتبط بجهد القوم وغير مقترن بتاريخهم وحوادثهم، بل إن النبيّ هو الذي يصنع الحوادث على غير ما تألف أخلاق الطبع الملتوي. فإذا ما نجح فإنما هي قيمة الدعوة الدينية، وإذا رفضت الدعوة أو ترك منها بعض آداب وتقاليد، فإنها فيما صنعته تصبح غريبة، وإن استمرت ميراثاً دينياً للذين رفضوا الدعوة. وكل ما يتعلق بالارتباط بها بعد ذلك مواقف مدَّعاة ومصنوعة، ولا سند لها من دين أو تاريخ.

ذكر سفر صموئيل الأول من الإصحاح السابع عشر: «أن فترة نشأة داود في المجتمع الإسرائيلي كانت في الفترة التي حارب فيها «شاؤول» الفلسطينيين وانهزم أمامهم معركة بعد أخرى». ونقتطف بعض آيات من هذا الإصحاح منها: «وجمع الفلسطينيون جيوشهم للحرب، فاجتمعوا في «سوكسوة» التي ليهوذا، ونزلوا بين سوكسوة وعزيقفة في أفس دميم. واجتمع شاؤول ورجال إسرائيل، ونزلوا في وادي البطم واصطفوا للحرب للقاء الفلسطينيين. وكان الفلسطينيون وقوفاً على جبل من هنا، وإسرائيل وقوفاً على جبل هناك، والوادي بينهم. فخرج رجل مبارز من جيوش الفلسطينيين اسمه «جليات» من «جت» فوقف ونادى صفوف إسرائيل، وقال لهم: لماذا تخرجون لتصطفوا للحرب. اختاروا لأنفسكم رجلاً ولينزل إليَّ، فإن قدر أن يحاربني ويقتلني، فإننا نصير لكم عبيداً، وإن قدرت أنا عليه وقتلته تصيرون لنا عبيداً. ولما سمع شاؤول وجميع إسرائيل كلام الفلسطيني هذا ارتاعوا وخافوا. وكان الفلسطيني يتقدم ويقف صباحاً ومساءً أربعين يوماً، فقال «يسى» لداود ابنه خذ لإخوتك إيفة من هذا الفريك وهذه العشر الخبزات، واركض إلى إخوتك، وهذه العشر القطعات من الجبن قدّمها لرئيس الألف. فبكّر داود صباحاً، وذهب كما أمره «يسى» وأتى والجيش خارج للاصطفاف وهتفوا للحرب. فترك داود الأمتعة التي معه وركض إلى الصف، فإذا برجل مبارز اسمه «جليات» صاعداً من صفوف الفلسطينيين وتكلم فلما رأوه جميع رجال بني إسرائيل هربوا منه. فقال رجال إسرائيل: إن الرجل الذي يقتله يغنيه الملك غنًى جزيلاً ويعطيه ابنته. فكلّم داود الرجال الواقفين معه قائلاً: ماذا يفعل الرجل الذي يقتل ذلك الفلسطيني ويزيل العار عن إسرائيل؟

وسمع الكلام الذي تكلم به داود وأخبر به أمام شاؤول فاستحضره، فقال داود لشاؤول: لا يسقط قلب أحد بسببه، عبدك يذهب ويحارب هذا الفلسطيني. فقال شاؤول لداود: لا تستطيع أن تذهب إلى هذا الفلسطيني تحاربه لأنك غلام. فقال داود لشاؤول: كان عبدك يرعى لأبيه غنماً فجاء أسد مع دب وأخذ شاة من القطيع فخرجت وراءه فقتلته، وأنقذتها من فيه،

ولما قام عليَّ أمسكته من ذقنه وضربته فقتلته، قتل عبدك الأسد والدب جميعاً، وهذا الفلسطيني يكون كواحد منها لأنه غقد غيّر صفوف الله الحي. وقال داود: الرب الذي أنقذني من يد الأسد ومن الدب هو ينقذني من يد الفلسطيني، فقال شاؤول: اذهب وليكن الرب معك. فأخذ داود عصاه بيده، وانتخب له خمسة أحجار ماس من الوادي وجعلها في كتف الرعاة التي معه، أي: في الجراب، ومقلاعه بيده، وتقدم نحو الفلسطيني، ولما نظر الفلسطيني ورأى داود استحقره لأنه كان غلاماً، ولعن الفلسطيني داود، وقال له: تعالَ إليّ فأعطي لحمك لطيور السماء ووحوش البرية. فقال داود له: أنت تأتي إليّ بسيف وأنا آتي إليك باسم رب الجنود. ومدّ داود يده إلى الكتف، وأخذ منه حجراً ورماه بالمقلاع وضرب الفلسطيني في جبهته، فارتدّ الحجر في جبهته وسقط وجهه على الأرض. وتقول التوراة في هذا المعنى من سفر صموئيل الأول الإصحاح الثاني عشر: «وكان عند مجيئهم حين رجع داود من قتل الفلسطيني بالمقلاع والحجر، ولم يكن سيف بيده، فركض داود ووقف على الفلسطيني، وأخذ سيفه واخترطه من غمده وقطع به رأسه، فلما رأى الفلسطينيون أن جبارهم قد مات، هربوا. وعلى هذا المنهج التوراتي جاءت قصة قتل داود لجالوت أياً كانت الحقيقة عند القوم ونسبة الخطأ والصواب فيما صوّرته التوراة بروايتها هذه عند بدء ظهور داود في المجتمع الإسرائيلي.

وتقول التوراة في هذا المعنى من سفر صموئيل الأول الإصحاح الثاني عشر: «وكان عند مجيئهم حين رجع داود من قتل الفلسطيني أن النساء خرجت من جميع مدن إسرائيل بالغناء والرقص للقاء الملك شاؤول بدفوف وفرح. فأجاب النساء اللاعبات وقلن ضرب شاؤول ألوفه وداود ربواته، فاحتمى شاؤول جداً وساء هذا الكلام في عينه. فكان شاؤول يعاين داود من ذلك اليوم فصاعداً، وكان الروح الردي من قِبَل الله قد اقتحم شاؤول، وكان الرمح بيده، فشرعه وقال: أضرب داود. وكان شاؤول يخاف داود لأن الرب معه، وقد فارق شاؤول، فأبعده شاؤول عنه وجعله رئيس ألف، وكان جميع إسرائيل ويهوذا يحبون داود لأنه يخرج إليهم. وقال

شاؤول لداود: هو ذا ابنتي الكبيرة «ميرب» أعطيك إياها امرأة إنما كن لي ذا بأس وحارب حروب الرب». وتكشف التوراة عن معنى أخلاقي يرتبط دائماً بالخلق اليهودي وهو دور العلاقات النسائية في تاريخ بني إسرائيل بالقضايا الدقيقة حول شخصيات الكبار منهم. فعند عودة داود على حد تعبير التوراة من المعركة التي قتل فيها القائد الفلسطيني أنهن عندما لمحن داود هتفن باسمه. فقتلت الغيرة قلب شاؤول وأفقدته صوابه، وكانت بداية الغيرة هذه من شاؤول هي بداية الصراع الطويل الذي لم يخمد أو ينتهي إلا حين استقرت نبوة داود وتأكدت بعد أن تمّ التخلص من شاؤول.

يتضح لنا من آيات الإصحاح الثاني عشر من سفر صموئيل أنه عقب عودة داود من قتله الفلسطيني خرجت الجموع لاستقبال شاؤول ثم لما جاء داود هتفت باسمه النساء وحيَّته. فإن المؤلف التوراتي ذكر أن داود عقب قتله الفلسطيني كان فتًى بسيطاً من سواد الشعب ولم يكن معروفاً. وعندما أحضر رأس الفلسطيني سأله شاؤول: ابن مَن أنت يا غلام؟ فقال داود: ابن عبدك «يسى البيت لحمي» على حد تعبير التوراة بطلاً شعبياً تهتف باسمه النساء، وهو غلام توضع اليد على رأسه ولما ينتهي من مخاطرة كان قد أقدم عليها، ولو أنها ليست مخاطرة في دعوى القوم وزيف ما يعتقدون. باعتبار أن المخاطرات التي قام بها الفتى داود ليست عندهم سبيلاً لكل هذه الشهرة وخاصة لغلام مغمور وغير معروف متجاهلين عمل المعجزة الإلٰهية على يد الأفراد الذين تقترن أعمالهم الخارقة للمألوف بمقدمات الرسالة الدينية ومظاهر النبوة والهداية. وبدأ يتضح زيف الصنعة التوراتية حين التدوين المتأخر إلى ما بعد مراحل التبعثر والتفتت إلى حين جلس كل مؤلف يكتب على هواه، وحسبما تحمله الأماني أو دعوى العصبية والعنصرية، فكان هذا الغلط والتناقض الذي لا يخدم فكرة دين أو دعوى تاريخ(١).

لقد تعرّض داود لمرحلة، وفي ضوء ما تصوره التوراة عن البداية

(١) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ج١ ص١٧٨ ـ ٢٠٠.

التاريخية التي سبقت الدور الذي قام به النبيّ داود بين الجماعات الإسرائيلية. فتقول: إنه ما إن بدأ نجم داود يلمع بين الجماعات الإسرائيلية حتى دخلت معه القوى السياسية والدينية في معارك، وكانت تتمثل هذه القوى في «شاؤول» القائد الإسرائيلي الذي تحدثت عنه التوراة كثيراً: بأن الرب كان يكلمه ويباركه أحياناً، وبأنه أيضاً كان يطارده ويحل به روحاً شريرة أحياناً أخرى. وقد يعجب الإنسان إذا علم أن روح الشر والعداء والصراع قد عملت في نفس شاؤول كل عملها. ففي الإصحاح الثاني والعشرين من سفر صموئيل: أن المعركة التي خاضها داود دون قيادة شاؤول بل ولا عمله ضد الفلسطينيين كان سبباً في أن يشيع اسم داود وينتشر في الجماعات الإسرائيلية كلها، الأمر الذي ضايق شاؤول، واضطر فيه لأن يجاهر الإسرائيليين بقوله: «واسمعوا يا بنيا ميثيون، هل يعطيكم جميعكم ابن يسى «يقصد داود» حقولاً وكروماً، وهل يجعلكم جميعاً رؤساء ألوف ورؤساء مئات حتى يفتكم كلكم عليَّ وليس منكم مَن يخبرني بعهد ابني من ابن يسى، وليس منكم مَن يحزن عليّ»، وواضح من هذه الآيات أن التيار العام كله بل حتى خاصة شاؤول وأهله قد تخلوا عنه. كما ذكر نفس الإصحاح: أن شاؤول عبأ ثلاثة آلاف رجل لكي يتخلص من داود ورجاله على صخور الوعول التي كانوا يقيمون فيها. ثم علم بخبر تجمُّع الفلسطينيين فأمر أن يلتقي أولاً بالفلسطيني، وبعد انتهاء المعركة وقع في كمين كان قد أعدّه له داود، وفي هذا اللقاء تمكن داود من كشف عن نيته وتسامحه لشاؤول. فالتوراة تقول: «فقال رجال داود: له ذا اليوم الذي قال لك عنه الرب: ها أنذا أدفع عدوك ليدك فتفعل به ما يحسن في عينك. فقام داود وقطع طرف جبّة شاؤول سراً، وكان بعد ذلك أن قلب داود ضربه على قطعة طرف جبّة شاؤول، فقال لرجاله: حاشا لي من قبل الرب أن أعمل هذا الأمر بيدي بمسيح الرب، فأمد يدي إليه، لأنه مسيح الرب هو، فوبّخ داود رجاله بالكلام ولم يدعهم يقومون على شاؤول»[1].

---

(١) سفر صموئيل الأول، الإصحاح الرابع والعشرون: ٤ ـ ٧.

والقصص التاريخية في التوراة تُظهر بوضوح مدى عقم الرواية، وعدم انسجام التركيبة الإخبارية في النص التوراتي. وعلى حد هذه الرواية كيف يكون عبدان لله بل رسولان له؛ أحدهما: يكلم الرب أو يهمس له الرب، والثاني: مسيح لهذا الرب، أي: الاثنان يلتقيان في الهدف والسلوك والاعتقاد عند الرب، ثم يكون في نفس الوقت كل منهما عدو للآخر. يرضى الرب على أحدهما ويغضب على الآخر، فتسوء عاقبة هذا الذي يتحالف مع الرب. ومَن عجب أن هذا الحال في التوراة لا يدوم، فقد تنقلب هذه العلاقة إلى النقيض مرة بعد الأخرى.

وفي الإصحاح الحادي والثلاثين من سفر صموئيل: تعمد الفلسطينيون أن يتصيدوا شاؤول والقوى التي تحيط به، وتمثل العداء ضد الشعب العربي. وقد تمكن الفلسطينيون بالفعل من قتل «يوناتان، وإبيناداب، وملكيشوع» ابنا شاؤول. واشتدت الحرب على شاؤول حتى أصيب وأدرك أنه انتهى وانتهت معه أحلامه. فحين أصابه الرماة ورجال القسي العرب قال لحامل سلاحه: استل سيفك واطعنّي به لئلا يأتي الفلسطينيون ويمثلوا بي، ولم يفعل حامل سلاحه ما أمره به شاؤول فانكفأ على سيفه وسقط عليه منتحراً. وأخيراً ينتهي شاؤول من على مسرح الأحداث ليخلو الجو لداود إلا وقد فوجئ بتجمعات الفلسطينيين مرة أخرى ضده بعد أن علموا أنه قد نصب ملكاً على إسرائيل. وفي هذه المعركة التي واجهها داود لأول مرة منذ أصبح وحده المسؤول عن بني إسرائيل.

التوراة في هذا الموضوع من الإصحاح الخامس من سفر صموئيل الثاني تقول: «وقد سمع الفلسطينيون أنهم قد مسحوا داود ملكاً على إسرائيل، فصعد جميع الفلسطينيين ليفتشوا عن داود. ولما سمع داود نزل إلى الحصن وجاء الفلسطينيون، فانتشروا في وادي الرفائين، وسأل داود من الرب قائلاً اصعد إلى الفلسطينيين لتدفعهم ليدي، فقال الرب لداود: اصعد لأني دفعاً أدفع الفلسطينيين ليدك. فجاء داود إلى بعل فراصيم وضربهم داود هناك وقال: قد اقتحم الرب أعدائي أمامي كاقتحام المياه، فسأل داود الرب فقال: لا تصعد بل دُرْ من ورائهم، وهلمّ عليهم مقابل أشجار البكاء.

وعندما تسمع صوت خطوات في رؤوس أشجار البكاء حينئذ احترس لأنه إذ ذاك يخرج الرب أمامك لضرب محل الفلسطينيين، ففعل داود كذلك كما أمر الرب، وضرب الفلسطينيين من جبع، أي: مدخل جازر». ومع أن هذا التقرير الذي تقصُّه التوراة من بدء عهد داود في إسرائيل حين دخل الحرب مع الفلسطينيين. فإن المنهج العقلي الذي يحكم الباحث في نظرته للسياق العام لرواية التوراة يجعله ينظر لمثل هذه الآيات كسابقتها من الآيات التي تتحدث عن نصر الله لمجموعة إسرائيل الذين يجعلون من زيف ادعاءاتهم علاقة خاصة بربهم، ينزل إليهم ويحارب مع صفوفهم حين يريدون، ويبتعدون عنه حين لا تصبح حاجة عنده إليه، فالله سبحانه وتعالى يتنزّه عن الصفات التي يخلعها القوم عليه في علاقتهم به وأن داود عليه السلام دخل في حرب مع الفلسطينيين وهزمهم بسلوك وبخلق على غير ما تصوره التوراة، وذلك لأنه كنبيّ ورسول كان كل ما يشغل باله الإيمان بالله الواحد القهّار، وتقبل قضية العدل الاجتماعي التي هي من جوهر كل رسالة دينية.

ففي الإصحاح الثامن من سفر صموئيل الثاني: «أن داود ضرب الفلسطينيين جميعهم وأذلّهم، وأخذ زمام العاصمة من أيديهم، وضرب المؤابين وقاسمهم الجبل، ثم ذهب إلى نهر الفرات ودخل معركة مع قوة جبارة حول نهر الفرات، في الوقت الذي كانت فيه قوات داود تحارب الآراميين العرب في دمشق. وعلى هذا المنهج تمضي التوراة تصور التوسع الذي قام به داود إلى أن تقف فجأة عند حادثة أثناء عملية القتال. وهذه الحادثة في دلالتها لا تتصور من رجل يقود المعارك على امتداد أرض شاسعة على هدى من عمل النبوة والرسالة الدينية. هذه الحادثة التي روتها التوراة في توسع واستفاضة، ففي الإصحاح الحادي عشر من سفر صموئيل الثاني: «أنه في المساء وقبل الغروب قام داود الذي كان يقيم بالعاصمة «أورشليم» ولم يخرج للحرب حين وجه جيشاً لمحاصرة بني عمون والتي هي «عمان». غادر سريره وأخذ يتنزّه على سطح منزله، فرأى من على السطح امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة المنظر. فأرسل داود وسأل عن المرأة فقال واحد: أليست هذه «بتشبع» بنت أليعام امرأة «أوريا الحثي».

فأرسل داود رجلاً وأخذها فدخلت إليه، فاضطجع معها وهي مطهرة من طمثها. ثم رجعت إلى بيتها، وحبلت المرأة، فأرسلت وأخبرت داود وقالت: إني حبلى، فأرسل داود إلى يؤاب الذي كان يقود المعارك ضد بني عمون وقال له: أرسل إليه أوريا الحثي، فأرسل يوآب أوريا إلى داود، وقال داود لأوريا: انزل إلى بيتك واغسل رجليك. غير أن أوريا لم يذهب إلى بيته، فنام عند بيت داود، فقال داود لأوريا: أما جئت من السفر، فلماذا لم تنزل إلى بيتك؟ فقال أوريا لداود: إن التابوت وإسرائيل ويهوذا يسكنون في الخيام، وسيدي يوآب وعبيد سيدي ينامون على وجه الصحراء، وأنا آتي إلى بيتي لآكل وأشرب وأضاجع امرأتي، وحياتك وحياة نفسك لا أفعل هذا الأمر. وفي الصباح كتب داود مكتوباً إلى يوآب وأرسله بيد أوريا وكتب في المكتوب يقول: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة وارجعوا من ورائه فيُضرب ويموت. فوقع أوريا قتيلاً بهذه المؤامرات التي تقصها التوراة. ومن عجب أن مؤلفها لا يدري أنه بما قصّه وسجّله فإنه مسح الصورة الدينية للنبيّ داود، وحاشا لنبيّ الله أن يكون كذلك، وتنزّه أنبياء الله عما يلصقه بهم التاريخ الإسرائيلي الآثم. فنبيّ الله داود عليه السلام واحد من أنبياء الله ورسله الذين ارتبطت سيرتهم بقِيَم الخلق والعفة والضمير الحي ودعوة الحب والسلام، وإشاعة روح التعاون عن طريق الارتباط بالله والإيمان به(١).

وعن ما تمثله النبوة والرسالة من تطهر وعفة وحب ذهبت آيات العهد القديم تحدثنا عن نموذج من الحال الخلقي عند داود عليه السلام وآله، وخاصة حين كبر وولي ملكاً وديناً حسب دعوة التوراة. ومن العجب أنه لم يكن النموذج الذي تحدثت عنه التوراة سوى صور غير دينية وغير مقدسة بل هي نموذج للقبح الأخلاقي وانعدام القيَم الدينية. فمؤلف الكتاب المسمى بسفر صموئيل الثاني ومن الإصحاح الثالث عشر يقول: كان لأبشالوم بن داود أخت أسماها «ثامار» فأحبها «أمنون» بن داود، وكان له صاحب اسمه

(١) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ج١ ص٢١٣ ـ ٢٧٩.

«ياناداب بن شمعي» أخو داود، وكان رجلاً حكيماً. فقال له: يا ابن الملك لماذا أنت ضعيف هكذا أما تخبرني؟ فقال له أمنون: إني أحب ثامار أخت أبشالوم أخي. فقال يوناداب: اضطجع على سريرك وتمارض، وإذا جاءك أبوك ليراك فقل له: دع ثامار أختي فتأتي وتطعمني خبزاً، وتعمل أمامي الطعام لأرى فآكل من يدها. واضطجع أمنون فجاء الملك داود، فقال أمنون للملك: دع ثامار أختي فتأتي وتصنع أمامي كعكتين فآكل من يدها، فأرسل داود إلى ثامار قائلاً: اذهبي إلى بيت أمنون أخيك واعملي له طعاماً. فذهبت وعجنت وعملت كعكاً وخبزت الكعك، وأخذت المقلاة وسكبت أمامه فأبى أن يأكل، وقال: أخرجوا كل إنسان عني، فخرج كل إنسان عنه. ثم قال لثامار: إيتي بالطعام إلى المخدع فآكل من يدك، فقدمت له ليأكل فأمسكها وقال لها: تعالي أضطجع معك يا أختي، فقالت له: يا أخي، لا تُذلني. فلم يشأ أن يسمع لصوتها بل تمكن منها وقهرها واضطجع معها. وعلى ضوء ما تصوره التوراة فهذا هو الخلق الاجتماعي والديني في تاريخ بني إسرائيل وفي عصر من عصر مملكة النبيّ الرسول داود عليه السلام.

وفيما ترويه التوراة من سفر الملوك الأول، ومن الإصحاح الأول تقول: «وشاخ الملك داود، تقدم في الأيام، وكانوا يدثرونه بالثياب فلم يدفأ. فقال عبيده: ليفتشوا لسيدنا الملك عن فتاة عذراء، فلتقف أمام الملك ولتكن له حاضنة ولتضطجع في حضنه فيدفأ سيدنا الملك. ففتشوا على فتاة جميلة في جميع تخوم إسرائيل فوجدوا «بيشج الشونمية» فجاؤوا بها إلى الملك، وكانت تخدمه ولم يكن يعرفها[(١)]. فالتوراة على ديدنها تعيد الكرة حول صاحب الدعوة نفسه داود عليه السلام في إلباس ثوب الخطيئة حتى في سلوك الكبار العظماء والأنبياء والمرسلين عند بني إسرائيل. وفي تاريخهم ودينهم ومعتقداتهم نجد الخطيئة من الأنبياء هي المألوفة والمستحبّة في تاريخ القوم وعقيدتهم، تنزّهت رسالة الله تعالى وتنزّه رسله عن هذا الإثم.

وبتتبُّع ما في آيات التوراة عن معاني الخير والحب والسلام وعن

(١) سفر الملوك الأول، الإصحاح الأول: ١ ـ ٤.

صفات الإلٰه وعلاقته بعباده، وطريق عبادة الله، يقول المزمور الخامس عشر: يا رب مَن ينزل في سكنك، مَن يسكن في جبل قدسك والسالك بالكمال، العامل بالحق والمتكلم بالصدق في قلبه. والذي لا يشي بلسانه ولا يصنع شراً بصاحبه، ولا يحمل تعييراً على قريبه، والرذيل محتقر في عينيه، ويكرم خائفي الرب. يحلف للضرر، ولا يغير فضته لا يعطيها بالربا ولا يأخذ الرشوة على البريء، الذي يصنع هذا لا يتزعزع إلى الدهر. هذا المزمور منسوب صراحة إلى داود، وعباراته التي تفيض بالرجاء إلى الله والتوجه إليه.

ومثل المزمور الرابع والأربعين الذين يقول: اللّهمَّ بآذاننا قد سمعنا، آباؤنا أخبرونا بعمل عملته في أيامهم في أيام القدم. أنت بيدك استأصلت الأمم وغرستهم، وحطمت شعوباً ومددتهم، لأنه ليس بسيفهم امتلكوا الأرض، ولا ذراعهم خلصتهم، لكن يمينك وذراعك ونور وجهك، لأنك رضيت عنهم. أنت هو مليكي يا الله، فأمر بخلاص يعقوب، بك ننطح مضايقينا، باسمك ندوس القائمين علينا؛ لأني على قوسي لا أتكل، وسيفي لا يخلصني، لأنك أنت خلّصتنا من مضايقينا وأخزيت مبغضينا، بك نفتخر اليوم كله واسمه نحمد إلى الدهر، لكنك رفضتنا وأخجلتنا ولا تخرج مع جودنا، ترجعنا إلى الوراء عن العدو، ومبغضونا تهيؤوا لأنفسهم، جعلتنا كالضأن أكلاً، ذريتنا بين الأمم، بعت شعبك بغير مال وما ربحت بثمنهم، تجعلنا عاراً عند جيراننا، وهزأةً وسخرةً للذين حولنا، تجعلنا مثلاً بين الشعوب لانخفاض الرأس بين الأمم، اليوم كله خجلي أمامي وخزي وجهي قد غداني، من صوت المعير والشاتم ومن وجه عدو ومنتقم.

ومما سبق إذا أردنا الوقوف على ملامح الدعوة الدينية كعقيدة وسلوك يدعو إليها النبيّ الرسول، ويضرب المثل فيها، فإننا لن نجد شيئاً عن ذلك في التوراة. وكل ما ورد في المزامير التي نسبت آيات كثيرة منها إلى داود حين تراكمت عليه الخطايا حسبما تدّعي عليه التوراة ودخل مرحلة المناجاة والتطهر. فإن هذه المزامير لم تكن في الجزء المتعلق بداود، فالراجح أن الجزء الأكبر من هذه الترانيم قد بدأ يؤلفه الحاخامات والكهنة من رجال بني

إسرائيل في الفترة التي بدت عقب الأسر، وكان مقصدهم فيها أن تكون هذه الآيات عزاءً وصبراً وتسليةً وامتثالاً وشكراً وحمداً لله. فآياته تستدر رحمة وعطفاً وطلب عناية افتقدها القوم وبكوا من أجلها. والنص الوارد في المزامير الذي يقول: «آباؤنا أخبرونا بعمل عملته في أيامهم في أيام القدم» يدل على أن تدوين آيات المزامير كان بعد فترة طويلة من موت داود عليه السلام(١).

❋ ❋ ❋ ❋

سليمان بن داود عليهما السلام

هو سليمان بن داود بن إيشا بن عويد بن عابر بن سلمون بن فخشون بن عميناذب بن إرم بن حصرون بن فارض بن يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل(٢).

وقد نشأ سليمان عليه السلام في حجر داود، وترعرع في بيت النبوة والملك، وعندما بلغ الحلم ملأه الله حلماً، أي: أناةً وعقلاً وكان يحرص على مجالس حكم أبيه داود عليه السلام، ليشهد قضاءه بين الناس، وقد كان يشير أحياناً على أبيه بأنه لو كان هو القاضي في هذه القضية لحكم بغير ما حكم أبوه. وقد ذكر القرآن العظيم صورة من صور هذه القضايا، فذكر الله تبارك وتعالى قضية الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم، أي: انتشرت فيه ليلاً بلا راع فأفسدت الزرع. فيذكر أن داود قضى بالقيمة لصاحب الزرع، فقال سليمان عليه السلام: لو كنت أنا القاضي لقضيت بغير ذلك، فقال أبوه داود: بمَ كنت تقضي به يا بني؟ قال: أدفع الغنم إلى أصحاب الزرع فينتفعون بألبانها ومنافعها، ويقوم أصحاب الغنم بإصلاح

---

(١) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ج٢ ص٢١٤ ـ ٢١٩.
(٢) قصص الأنبياء، لابن كثير ج٢ ص٢٨٤.

الحرث حتى يعود كما كان فيرد إلى أصحابه، وترد الغنم إلى أصحابها. ففضّل الله تبارك وتعالى حكم سليمان، وذكر أنه فهّمه الحكم في القضية، ولا يحط ذلك من قدر داود عليه السلام، لأن فرحه بتوفيق ابنه للحكم في القضية لا يقل عن فرحه لو كان فهمها هو كذلك. ولذلك مدح الله تعالى داود وسليمان معاً، فقال: ﴿وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ وليس حكم داود هنا خاطئاً، ولكن حكم سليمان في هذه القضية أوْلى منه وفي ذلك يقول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ ۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]. قال ابن كثير في تفسيره: أما الأنبياء عليهم السلام فكلهم معصومون مؤيَّدون من الله عزَّ وجلَّ وهذا مما لا خلاف فيه بين العلماء المحققين من السلف والخلف[1].

ومما يدل على حكمة سليمان، وجودة رأيه في الحكم والقضاء، ما روي في الصحيحين عن أبا هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً فجعل الفراش وهذه الدواب تقع في النار**» وقال: «**كانت امرأتان معهما ابناهما فجاء الذئب فذهب بابن إحداهما فقالت صاحبتها: إنما ذهب بابنك، وقالت الأخرى: إنما ذهب بابنك. فتحاكمتا إلى داود فقضى به للكبرى، فخرجتا على سليمان بن داود فأخبرتاه فقال: ائتوني بالسكين أشقه بينهما، فقالت الصغرى: لا تفعل يرحمك الله هو ابنها، فقضى به للصغرى**» قال أبو هريرة: والله إن سمعت بالسكين إلا يومئذ وما كنا نقول إلا المدية[2].

وفي قيام سليمان عليه السلام بعد أبيه بالملك والنبوة يقول الله تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ

(١) قصص الأنبياء، عبدالقادر شيبة الحمد، ج١ ص٢٤٥ ـ ٢٤٦.
(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، ج٤ ص١٩٨.

﴿هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل: ١٦]، إذ المراد بالميراث هنا هو ميراث الملك والنبوة لا ميراث المال. وكما الحال دائماً فإن اليهود أكثروا من الكذب على سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، واختلقوا عليه أشياء كثيرة وزعموا أن سليمان كان يحكم بواسطة خاتمه السحري وأنه كان ساحراً، وأنه إذا دخل بيت الخلاء، دفع الخاتم لزوجته لما فيه من ذكر الله حتى يخرج من الخلاء وأن الشيطان جاء إلى امرأة سليمان في صورة سليمان فدفعت إليه الخاتم فذهب الشيطان وجلس على كرسي الملك يحكم في بني إسرائيل. فهام سليمان على وجهه حتى عمل عند صياد، وأنه استمر على ذلك أربعين يوماً. ثم إن بني إسرائيل قاموا على هذا الشيطان الجالس على كرسي سليمان فهرب منهم وألقى بالخاتم في البحر فابتلعته سمكة، ثم وقعت في شباك الصياد. فلما دفع لسليمان أجرته سمكتين باع واحدة وطبخ الأخرى وهي التي كان في جوفها الخاتم، فلما فتحها وجد خاتمه فلبسه ورجع إلى ملكه.

والعجيب أن هذا الإفك تسرّب إلى بعض أكابر أهل العلم فصدّقوه حتى تجد أكثر كتب التفسير في قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾ [ص: ٣٤]. يقولون: شيطان، وانتشر على ألسنة العامة والخاصة ذكر خاتم سليمان وخواصه، مع أن الله تبارك وتعالى نبّه إلى كذب اليهود على سليمان اتّباعاً للشياطين حيث يقول عزَّ وجلَّ: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ ...﴾ [البقرة: ١٠٢] الآية، مع أن رسول الله ﷺ فسّر فتنة سليمان وإلقاء الجسد على كرسيه، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «**قال سليمان بن داود: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة تحمل كل امرأة فارساً يجاهد في سبيل الله، فقال له صاحبه: إن شاء الله، فلم يقل ولم تحمل شيئاً إلا واحداً ساقطاً أحد شقَّيه**» فقال النبيّ ﷺ: «**لو قالها لجاهدوا في سبيل الله**»(١). والعجيب كيف ترك بعض

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، ج٤ ص١٩٧.

العلماء هذا التفسير الثابت عن رسول الله ﷺ لفتنة سليمان، وأتوا بأكاذيب اليهود والشياطين(١). يقول الحافظ ابن كثير عند كلامه على فتنة سليمان: وقد ذكر ابن جرير وابن حاتم وغيرهما من المفسرين هاهنا آثاراً كثيرة من جماعة السلف، وأكثرها أو كلها متلقاة من الإسرائيليات، وفي كثير منها نكارة شديدة(٢).

حدثنا أسباط، عن السدي في قوله: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾﴾، قال: الشيطان جلس على كرسيه أربعين صباحاً، قال: كان لسليمان مائة امرأة، وكانت امرأة منهن يقال لها: جرادة، وهي آثر نسائه عنده. وكان إذا جنب أو أتى حاجة نزع خاتمه، ولا يأتمن على أحدٍ من الناس غيرها. فجاءته يوماً من الأيام فقالت له: إن أخي بينه وبين فلان خصومة وأنا أحب أن تقضي له إذا جاءك، فقال: نعم، ولم يفعل. فابتلي فأعطاها خاتمه، ودخل المخرج ودخل الشيطان في صورته، فقال: هاتي الخاتم، فأعطته، فجاء حتى جلس على مجلس سليمان، وخرج سليمان بعد فسألها أن تعطيه خاتمه، فقالت: ألم تأخذه قبل؟ قال: لا. وخرج من مكانه تائهاً، قال: ومكث الشيطان يحكم بين الناس أربعين يوماً. قال: فأنكر الناس أحكامه، فاجتمع قراء بني إسرائيل وعلماؤهم، وجاؤوا حتى دخلوا على نسائه فقالوا: إنا قد أنكرنا هذا، فإن كان سليمان، فقد ذهب عقله، وأنكرنا أحكامه. قال: فبكى النساء عند ذلك، قال: فأقبلوا يمشون حتى أتوه، فأحدقوا به ثم نشروا فقرؤوا التوراة، قال: فطار من بين أيديهم حتى وقع على شرفة والخاتم معه، ثم طار حتى ذهب إلى البحر، فوقع الخاتم منه في البحر، فابتلعه حوت من حيتان البحر. قال: وأقبل سليمان في حاله التي كان فيها حتى انتهى إلى صياد من صيادي البحر وهو جائع، وقد اشتد جوعه فاستطعمه من صيدهم، وقال: أنا سليمان، فقام إليه بعضهم فضربه بعصاً فشجّه. قال: فجعل يغسل دمه وهو على شاطئ

(١) قصص الأنبياء، عبدالقادر شيبة الحمد ج١ ص٢٤٥ ـ ٢٤٩.
(٢) البداية والنهاية، لابن كثير، ج٢ ص٢٩..

البحر، فلام الصيادون صاحبهم الذي ضربه وقالوا: بئس ما صنعت حيث ضربته. قال: إنه زعم أنه سليمان، قال: فأعطوه سمكتين مما قد ضرب عندهم، فلم يشغله ما كان به من الضرب، حتى قام على شط البحر فشقّ بطونها، فوجد خاتمه في بطن إحداهما، فأخذه فلبسه فردّ الله عليه بهاءه وملكه، وجاءت الطير حتى حامت عليه، فعرف القوم أنه سليمان.

وقد قام سليمان بن داود بعمارة بيت المقدس، تنفيذاً لوصية أبيه داود عليه السلام بعد أربع سنين من تولية الملك. وأنفق في ذلك أموالاً كثيرة، وانتهى من بنائه بعد سبع سنين، وأقام السور حول مدينة «أورشليم»، أي: مدينة القدس. وقد روي أن سليمان لما بنى بيت المقدس، سأل ربه عزَّ وجلَّ خلالاً ثلاثة فأعطاه اثنتين: سأله حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه، وسأله ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه، وسأله أيما رجل خرج من بيته لا يريد إلا الصلاة في هذا المسجد خرج من خطيئته مثل يوم ولدته أمه. قال ابن كثير: بعد أن أورد تلك الرواية: فنحن نرجو أن تكون الثالثة لنا، وأن الله قد أعطانا إياها. ولما انتهى من بناء بيت المقدس بنى «الهيكل»، أي: القصر الملكي، وقد أتمّ بناءه في مدة ثلاث عشرة سنة، وأنشأ فذبح القربان، وكان له اهتمام بالإصلاح والعمران، وكانت له عناية فائقة بالخيل يروضها ويعدها للحرب، وكانت له مجموعة كبيرة من النساء الحرائر والسرائر، حيث لم يكن في شريعته تحديد لتعدد الزوجات.

قال الله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ وَٱلطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوْا۟ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٧ ـ ١٩]. يخبر الله تعالى عن عبده ونبيه سليمان بن داود عليهما السلام أنه ركب يوماً في جيشه جميعه من الجن والإنس والطير. فالجن والإنس يسيرون معه والطير سائرة معه تُظِله بأجنحتها من الحَر ومن غيره، وعلى كل من هذه الجيوش الثلاثة وزعة، أي: نقباء، يردون أوله على آخره، فلا يتقدم أحد عن موضعه الذي يسير

فيه ولا يتأخر. والمقصود أن سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ فهم ما خاطبت به تلك النملة أمتها من الرأي السديد والأمر الحميد، وتبسم من ذلك على وجه السرور بما أطلعه الله عليه دون غيره. وطلب من الله أن يقيضه للشكر على ما أنعم به عليه، وعلى ما خصّه به من المزية على غيره، وأن يُسَيِّره على العمل الصالح وأن يحشره إذا توفاه مع عباده الصالحين، وقد استجاب الله تعالى له. والمراد بوالديه داود عَلَيْهِ السَّلَامُ وأمه، وكانت من العابدات الصالحات. عن جابر عن النبيّ ﷺ قال: «**قالت أم سليمان بن داود: يا بني، لا تكثر النوم بالليل، فإن كثرة النوم تدع العبد فقيراً يوم القيامة**»، قال ابن عساكر عن أبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**خرج نبيّ من الأنبياء بالناس يستسقون الله، فإذا هم بنملة رافعة بعض قوائمها إلى السماء، فقال النبيّ: ارجعوا فقد استجيب لكم من أجل هذه النملة**»[1].

قال الله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ ٱلطَّيْرَ فَقَالَ مَالِىَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ۝٢٠ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٢١ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ۝٢٢ إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ۝٢٣ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ۝٢٤ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝٢٥ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۩ ۝٢٦ قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٢٧ ٱذْهَب بِّكِتَٰبِى هَٰذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَٱنظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾ [النمل: ٢٠ ـ ٢٨]. دلّت الآيات في القرآن الكريم على أن سليمان كان يفهم ما تريده الطير بأصواتها إذا صوّتت ويُفهمها ما في نفسه ويحاورها. وكانت مسخَّرة بأمره، يأمرها فتأتمر ويستعملها في بعض مهماته، فمن ذلك أنه تفقد الطير فلم يجد الهدهد، فعدّ ذلك جريمة اقترفها وهدّده بالذبح أو التعذيب إلا إذا أتاه بعذر بيِّن أوجب هذا التخلف. فلما جاء الهدهد سأله عن غيبته فأخبره أنه كان في

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج٢ ص٢٨٦ ـ ٢٨٨.

سبأ من بلاد اليمن، ويخبره بملك عظيم وملكة تملك على تلك الأمة، وأنهم صابئة وثنيون يعبدون الشمس من دون الله، وأن لملكتهم عرشاً عظيماً فيه أنواع الزينة والجوهر. أراد سليمان أن يختبر الهدهد هل هو صادق في خبره أم كاذب، فأعطاه كتاباً يوصله إلى الملكة، فذهب الهدهد بالكتاب وألقاه على سريرها فأخذته.

قال الله تعالى: ﴿قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَتْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَفْتُونِى فِىٓ أَمْرِى مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ ﴿٣٢﴾ قَالُوا۟ نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل: ٢٩، ٣٥]. لم ترد الملكة أن تستبد بإجابة فجمعت رجال دولتها وأهل مشورتها وأعلمتهم بالكتاب. فأخذتهم العزة وثارت فيهم الحماسة وقالوا لها: نحن أولوا قوة وبأس. كانت الملكة عاقلة فنظرت في الأمر بعين الفطنة، ولم تغتر بما أبداه رجالها من الحماسة وقالت لهم: إن دخول الملوك إلى المدن ليس من الحماسة، وقالت لهم: إن دخول الملوك إلى المدن ليس من الهنات الهينات وأثره على أهلها ليس بالهيِّن. وعرضت عليهم رأياً آخر وجدته أقرب إلى حل الأزمة التي أتتها. ذلك أن ترسل إلى سليمان بهدية تصانعه بها وتستنزل مودته بسببها، ثم تنظر ماذا يرجع به رسلها إلى سليمان. فلما جاءت رسلها إلى سليمان بالهدية لم يقبلها، وأظهر أنه ليس في حاجة إلى أموالهم. وتوعدهم وملكتهم بأن يرسل إلى بلادهم بجنود لا قِبَل لهم بها، وأن عاقبة ذلك إخراجهم من بلادهم أذلّة صاغرين.

قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ سُلَيْمَٰنَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم ۚ بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾ ٱرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَآ أَذِلَّةً وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٣٧﴾ قَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ

طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٣٦ ـ ٤٠]. جاء الخبر من الرسل إلى الملكة وعلمت عظمة سليمان وقوة ملكه وأشفقت على قومها. فأجمعت الذهاب إليه في رجال مملكة دولتها، وجاءت إلى أورشليم بهدية عظيمة. ولما علم سليمان باعتزام ملكة سبأ على زيارته شيّد لها صرحاً عظيماً، ومَرَّد أرضه بالزجاج، وهذا شيء لا عهد لأهل اليمن بمثله. ولما قربت من ديار سليمان أراد أن يُظهر لها من دلائل عظمته ونِعَم الله تعالى عليه ما يبهرها، وهو أن يأتيها بعرشها ليكون جلوسها عليه في ذلك الصرح. فسأل جنوده عن قوي يأتيه بذلك العرش، وكان الأمر كما قال الله تعالى. فجاء به ووضع في الصرح الذي هيئ لاستقبالها ونُكِّر لها.

قال الله تعالى: ﴿قَالَ نَكِّرُوا۟ لَهَا عَرْشَهَا نَنظُرْ أَتَهْتَدِىٓ أَمْ تَكُونُ مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ ۖ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا ۚ قَالَ إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ قَالَتْ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل: ٤١ ـ ٤٤]. فلما جاءت ورأت العرش قالت: كأنه هو، ولما أرادت دخول الصرح والوصول إلى العرش ظنّت الزجاج ماءً، فكشفت عن ساقَيْها لئلا تبتل ثيابها بالماء وأُخْبِرت بأن ما ظنته ماء إنما هو زجاج. أما الطريقة التي أتى بها العرش على يد الذي عنده علم من الكتاب، فشيء لم يكشف عنه العلم وهو نص صريح قاطع الثبوت والدلالة، والله تعالى يخلق ما يشاء ويختار. وأهل القصص يذكرون أن سليمان تزوج منها وأتى منها بولد. ويزعم بعض ملوك الحبشة أنهم أبناء سليمان من الولد الذي أتى به منها. وأن التوراة وأهلها لا يعرفون قصة ملكة سبأ بهذا الوصف، إنما يذكرون أنها سمعت بحكمة سليمان فأتت إليه، وشاهدت بنفسها تلك الحكمة العظيمة(١).

(١) قصص الأنبياء، عبدالوهاب النجار ص٣٧٥ ـ ٣٧٨.

وقد أكرم الله سبحانه وتعالى «سليمان بن داود» بنِعَم عظيمة، وخصّه بمزايا رائعة كانت عنوان للعظمة والمجد. ومظهراً من مظاهر الملك العظيم، والجاه الكبير الذي أعطاه الله لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ. فكان له سيادة الدنيا وعز الآخرة، وهذه بعض نِعَم الله تعالى عليه:

أولاً: ورّثه الله الملك عن أبيه كما أعطاه الله النبوة، فكان نبياً ملكاً جمع بين الشرفين.

ثانياً: علّمه الله منطق الطير، وسائر لغات الحيوانات، فكان يفهم عنها ما لا يفهمه سائر الناس، وربما تحدث معها كما كان الأمر مع الهدهد أو النمل أو غيرها.

ثالثاً: إن الله تعالى آتاه الحكمة على حداثة سنِّه، ويشهد لذلك بعض القصص التي حكم فيه بحكم أقره القرآن الكريم عليه، وبما حصل له في قصة الذئب الذي عدا على ولد إحدى المرأتين.

رابعاً: سخّر الله تعالى له «الريح» فكانت تنقله إلى أي طرف من أطراف الدنيا شاء، وتقطع به المسافات الشاسعة البعيدة في ساعات معدودات. كما قال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء: ٨١]. وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ...﴾ الآية [سبأ: ١٢]. وقال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾﴾ [ص: ٣٦]. والمعنى أنها تقطع به من الصباح إلى الظهر مسيرة شهر، ومن الظهر إلى المساء مسيرة شهر، فتقطع به في النهار الواحد مسيرة شهرين. فإنه لتمر بعسكره الريح الرخاء اللينة تهوي به إلى ما أراد، وإنها تمر بالمزرعة فما تحركها. وذكر ابن كثير أنه كان له بساط تحمله الريح فيه الدور المبينة والخيام والأمتعة والخيول والرجال وغير ذلك، فإذا أراد سفراً حملته الريح.

خامساً: سخّر الله تعالى له الجن ومردة الشياطين، يغوصون له في البحار لاستخراج الجواهر واللآلئ، ويعملون له الأعمال التي يعجز عنها البشر: كبناء الصروح الضخمة، والقصور العالية، والقدور الراسيات،

والجفان التي تشبه الأحواض، كما قال الله تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: ١٣]. كما جعل الله له سلطة على جميع الشياطين، يسخر من يشاء في الأعمال الشاقة ويقيد من يشاء في الأغلال، ليكف شرهم عن الناس. قال الله تعالى: ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ٣٧ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ٣٨﴾ [ص: ٣٧، ٣٨]، أي: الأغلال، ولم يكن هذا التسخير لأحد من الأنبياء غير سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلم ينل أحد من الملوك ما أناله الله لسليمان. عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ: «**إن عفريتاً من الجن تفلَّتَ عليّ البارحة ليقطع عليّ صلاتي فأمكنني الله منه، فأخذته فأردت أن أربطه على سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم، فذكرت دعوة أخي سليمان:** ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾، **فرددته خاسئاً**»[1].

سادساً: أسَالَ الله له عين القِطْر وهو النحاس المذاب، فكان النحاس يتدفق له مذاباً من عين خاصة كتدفق الماء، فيصنع منها ما يشاء. قال الله تعالى: ﴿وَأَسَلۡنَا لَهُۥ عَيۡنَ ٱلۡقِطۡرِۖ . . .﴾ الآية [سبأ: ١٢]. وقد قال ابن عباس في تفسير القطر بأنه النحاس، وكانت باليمن أنبعها الله له، فكان يأخذ منها ما يحتاج إليه للبنايات وغيرها.

عاش سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ اثنان وخمسون سنة، وقد لبث في الملك أربعين سنة على الرأي الراجح. وكان أمر وفاته حدثاً غريباً لم تعلم به الإنس ولا الجن حتى بعد مرور سنة على الوفاة، وذلك بعد أن أكلت الأرضَةُ عصاه فخرَّ على الأرض، وقد دخل معبده فمات وهو متوكئ على العصا. قال الله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَوۡتَ مَا دَلَّهُمۡ عَلَىٰ مَوۡتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلۡأَرۡضِ تَأۡكُلُ مِنسَأَتَهُۥۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلۡجِنُّ أَن لَّوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٱلۡغَيۡبَ مَا لَبِثُواْ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلۡمُهِينِ ١٤﴾ [سبأ: ١٤]. وهنا إشارة لطيفة وهي أن الجن كانت توهم الناس بمعرفة الغيب، فلما مات سليمان ولم يعلموا بموته اتضح الأمر

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، ج٤ ص١٩٧.

بكذب دعواهم. وقد دفن سليمان في بيت المقدس رحمه الله رحمة واسعة[١].

إن البداية السياسية التي تولى بها النبيّ سليمان عليه السلام أمر جماعات بني إسرائيل في أواخر أيام أبيه داود عليه السلام في الحكم كانت غير مستقرة بعد أن طمع في مناوأته والظهور بجانبه مجموعات من القوى المتصارعة داخل جماعات بني إسرائيل. ويؤكد هذا المعنى الذي لا يستفاد من غير التوراة. ونظراً لكثرة التناقض الذي ورد عن هذه الفترة، نستعر من ما روي في الإصحاح الأول من سفر الملوك الأول عن وجود قوى تتربص بحياة النبيّ داود، بعد أن تأكد أن الرجل لن يقوم من نومته. وابتدأت هذه القوى تنظم نفسها وتختار كهانها لتنصيب رجل يمثل مصلحتهم كان ذلك على حد ما تقوله التوراة: «أن بتشبع دخلت على الملك وسجدت له، فقالت له: أنت يا سيدي حلفت بالرب إلٰهك لأمتك قائلاً: إن سليمان ابنك يملك ويجلس على كرسي. والآن هو ذا «أدونيا» قد ملك وأنت يا سيدي الملك لا تعلم ذلك، وقد ذبح ثيراناً ومعلوفات وغنماً بكثرة ودعا جميع بني الملك، أبياثار الكاهن، ويوآب رئيس الجيش، ولم يدع سليمان عبدك. وأنت يا سيدي الملك أعين جميع إسرائيل نحوك لكي تخبرهم من يجلس على كرسي سيدي الملك بعده، فيكون إذا أضجع سيدي الملك مع آبائه. فأجاب الملك داود وقال: ادعُ لي «بتشبع» فدخلت أمام الملك، فخلف الملك وقال: حي هو الرب الذي فدى نفسي من كل ضيقة إنه كما حلفت لك بالرب إلٰه إسرائيل قائلاً: إن سليمان ابنك يملك بعدي وهو يجلس على كرسي عوضاً عني كذلك أفعل هذا اليوم، فخرت «بتشبع» على وجهها إلى الأرض وسجدت للملك. وقال الملك داود: ادعُ لي صادق الكاهن، وناثان النبيّ، وبناياهو بن، ويهودياع. فدخلوا أمام الملك، فقال الملك لهم: خذوا معكم عبيد سيدكم، وأركبوا سليمان ابني على البغلة التي لي وأنزلوا إليَّ «جيحون» ملكاً على إسرائيل واضربوا بالبوق وقولوا: ليحيا الملك

(١) النبوة والأنبياء، للصابوني ص٢٩٧ ـ ٣٠٨.

سليمان. وعلى حد رواية التوراة هذه فإنه هكذا كانت البداية السياسية التي دخل بها سليمان بن داود غمار مرحلة من تاريخ بني إسرائيل أدى فيها دوره الديني والسياسي. حين ابتدأت التوراة تتحدث عنه، وتقصه بمنهجها في صنع الزيف والهوى.

ورغم أن الآيات العديدة المتعلقة بسليمان لم تخلُ في حالات كثيرة من التعرض للتفاصيل الفارغة والتي تنفرد بها التوراة في ادعاء مثل الأخبار المتعلقة بقتل سليمان لأخيه «أدونيا» بحجة طلب الزواج من سرية أبيه، وأيضاً مثل عزله لبعض الكهان الذين نازعوه في بدء سلطانه وقتله للبعض الآخر. إلا أنه لم يستطع المؤلف التوراتي الذي دوّن لسليمان وعصره، أن يتغافل تياراً عاماً وميراثاً متداولاً هو أن كل ما قام به ودعا إليه يمثل دور الرسالة الدينية بكل أبعادها ومعجزاتها في التأثير والهداية. فنص التوراة للذين يؤمنون بها في دعواهم يمثل خطأً دينياً للذين يتعلقون بالعهد القديم، وينظرون من خلاله إلى رجل كسليمان.

فالإصحاح الثاني من سفر الملوك الأول يتحدث عن الأسس العامة والمبادئ التي تمت في أعماق سليمان ووجد أنه منذ غرسها في قلبه الأب النبيّ الرسول داود عليه السلام، والمسجل التوراتي لم يستطع إغفال هذه المعاني: «ولما قربت أيام داود أوصى ابنه قائلاً: «أنا ذاهب في طريق الأرض كلها. فتشدد وكن رجلاً. أحفظ شعائر الرب إلٰهك إذا تسير في طرقه، وتحفظ فرائضه ووصاياه وأحكامه كما هو مكتوب في شريعة موسى لكي تفلح في كل ما تفعل. وحيثما توجهت، لكي يقيم الرب كلامه الذي تكلم به عني قائلاً: إذا حفظ بنوك طريقهم وسلكوا أمامي بالأمانة من كل قلوبهم وكل أنفسهم، قال: لا يعدم لك رجل عن كرسي إسرائيل[1].

ما إن استقرت الأمور واطمأن سليمان إلى أنه يمكن أن يدخل مرحلة من العمل الديني والسياسي، حتى ابتدأ في السنة الرابعة من حكمه الطويل

(١) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ج١ ص٢٢٧ ـ ٢٢٩.

الذي قارب الأربعين عاماً. هو إقامة قصر كبير تحاط من حواليه مرافق عامة وبنايات كثيرة، وحين تمّ البناء أطلق على هذا القصر الكبير «بيت الرب». وتفيض التوراة بآيات الغلو والخيال حول بناء البيت مما لا يقبله عقل، والمعقول أن سليمان ابتنى بيتاً ومحراباً، وكانت فنون العمارة الشائعة تتضاءل بجانبه. هذا البيت في لغة التوراة ومعطياتها هو البداية العملية لظهور مرحلة العمل الديني والسياسي على يد سليمان. تقول التوراة في سفر الملوك الأول، الإصحاح السادس: «وكان كلام الرب إلى سليمان قائلاً: هذا البيت الذي أنت بانيه إن سلكت في فرائضي وعملت أحكامي، وحفظت كل وصاياي للسلوك بها. فإني أقيم معك كلامي الذي تكلمت به إلى داود أبيك وأسكن في وسط بني إسرائيل ولا أترك شعبي إسرائيل»(١). وبالفعل فإن التوراة لم يتيسر لمؤلفها أن يغفل أن سليمان قد التزم بأن يحاول هدم تناقضات المجتمع الإسرائيلي. وأن ينادي هذا المجتمع إلى الرب الإلٰه بمنهج غير مشوب بالسلوك الوثني الذي لم يسلم منه كل الذين تحدثت عنهم التوراة. من أن سليمان أوقف جماعة إسرائيل أمامه وبسط يديه إلى السماء وقال: «أيها الرب إلٰه إسرائيل، ليس إلٰه مثلك في السماء من فوق، ولا على الأرض من أسفل حافظ العهد والرحمة لعبيدك السائرين أمامك بكل قلوبهم»(٢)، هذه الإشاعات الخفيفة في تاريخ بني إسرائيل لم تظهر كثيراً في التوراة، غير أن سليمان عليه السلام كان قد أخذ على عاتقه محاولات التطهير الديني التي رفضت من بني إسرائيل منذ دعوة موسى عليه السلام لهم ليعبدوا الإلٰه الواحد ويقيموا قضية العدل الاجتماعي بينهم.

رغم الإيمان بأن جانب المعجزة الإلٰهية يقترن دائماً بالأدوار العظيمة التي تقوم بها الرسالات السماوية على يد أصحابها الداعين إليها. فإن رواية التوراة قد شوّهت الحقيقة، وتحدث القرآن الكريم عما كان يستطيع سليمان عليه السلام القيام فيما يتعلق بأخباره خاصة أنها لا تعطي طابعاً عنصرياً

(١) سفر الملوك الأول، الإصحاح السادس: ١١ ـ ١٣.
(٢) سفر الملوك الأول، الإصحاح الثامن: ٢٣ ـ ٢٤.

أو دعائياً. إلا أن التوراة دين الذين يتعلقون بدعوى أنهم أبناء سليمان وأحفاده، وأنهم وحدهم أهله وأصحاب ميراثه. وهي في جملتها لا تساعد على التصور التعصبي الذي يقيم العنصريون دعواهم على أساسه عن دعوى التوسع والسيطرة، ولا يساعد القوم على دعواهم بل العكس فإنه من بين التوراة ومجال تناقض الرواية فيها أنه لم تكن هناك مملكة بمعناها العنصري المتوارث، بل ولم يكن هناك ما يدّعي من حدود سياسية قديمة كانت ميراثاً للقوم.

تقول التوراة: «وسمعت ملكة سبأ بخبر سليمان لمجد الرب فأتت تمتحنه بمسائل، فأتت أورشليم بموكب عظيم جداً بجمال حاملة أطياباً وذهباً كثيراً جداً، وحجارة كريمة. وأتت إلى سليمان وكلمته بكل ما كان بقلبها فأخبرها سليمان بكل كلامها، ولم يكن أمراً مخفياً عن الملك لم يخبرها به. فلما رأت ملكة سبأ كل حكمة سليمان والبيت الذي بناه، ومائدته ومجلس عبيده وموقف خدّامه وملابسهم وسقاته ومحروقاته التي كان يصعدها في بيت الرب. ولم يبقَ فيها روح بعد، فقالت للملك: صحيحاً كان الخبر الذي سمعته في أرضي عن أمورك وعن حكمتك، ولم أصدق الأخبار حتى جئت وأبصرت عيناي. فهو ذا النصف الذي لم أخبر به زدت حكمة وصلاحاً على الخبر الذي سمعته طوبى لرجالك، وطوبى لعبيدك هؤلاء الواقفين أمامك دائماً السامعين حكمتك»[1]. ومثل هذا النص يوضح زيف الدعوى وروح العنصرية، وما يستفاد من التوراة في كشف زيف الإدعاءات الإسرائيلية اليهودية. إذا كانت التوراة لا تتحدث عن إباحة وتقرير التوسع السياسي والسيطرة المدعاة لبني إسرائيل على أرض شاسعة تمتد وتتسع حتى تصل إلى تلك المنطقة الممتدة على طول المحيط الهندي جنوباً، والبحر الأحمر من جهة الغرب. هذه الأرض التي كانت تتمتع في عصر سليمان بالسيادة، الوحدة بين كل أجزائها على يد الملكة العربية بلقيس. والتوراة التي تفضح الذي تمّ بين سليمان وبلقيس حين قدمت إليه

---

(١) سفر الملوك الأول من الإصحاح العاشر: ٢، ٧.

لا يساعد على تقبل السخرية التي يلوكها القصص الديني اليهودي عن السيطرة الإسرائيلية في عصر سليمان على الأرض العربية في اليمن، بل يدل على ما كانت عليه السيادة العربية ففي أرض اليمن، وعلى هذا فإنه لم تكن هناك بداية تحديد من جانب سليمان إلى الأرض المجاورة له. ولم يكن منهج سليمان ودينه أن يشن الحروب ويهدد بالغزو والتوسع. وفوق ذلك أنه كان بجانبه البلاد العربية ذات القوة والمنعة والسيادة، ودعوى التوسع وتأسيس المملكة القديمة بأساليب السياسة الملتوية وقوة السلطان على يد سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ المفتري عليه بأنه حقق للقوم مطامعهم في احتلال الأرض العربية من البرية في لبنان إلى النهر، نهر الفرات في أرض الجيشين إلى الغرب حيث مصر. كل هذا الغلط يجتره المتطرفون من دعاة العنصرية وأنصار التعصب ومجيء السيطرة على الشعوب ومقدراتها. ومن خلال منهج التوراة وما ترويه عن المسيرة التاريخية للدعاة لبني إسرائيل عن مجد الدنيا التي لم تكن، وزيف الدين المصنوع حسب المصلحة والهوى[(١)].

إن الآيات الكثيرة التي احتوتها التوراة وهي تقص بمنهاجها عن مملكة سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، وتعظيم الملوك والأمراء الذين كانوا بجانبه له، وخضوعهم لسيطرته، تظهر من بين هزال ما ألف المصنف التوراتي في منهج القوم أن هذه المملكة قد تقوضت وتمزق بناؤها حتى في حياة صاحبها. وكانت أحوال المملكة سياسياً ودينياً في اضطراب إلى أن أصبحت القلاقل بداية للضياع، وصاحب المجد سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يزل بين القوم يعيش حياته ويرى الضياع بعينه، وعلى حد ما تشير إليه رواية الأسفار التوراتية لا يتفق وزيف الدعوى التي تتحدث عن المجد والمملكة والسيطرة والتوسع إبَّان عصر سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ. تقول التوراة: «إن الرب تخلى عن سليمان وعن مملكته، وأقام سليمان خصماً «هدد» الأدومي، الذي استقطب قوى كثيرة ارتدت عن سليمان وأصبحت تشكل

---

(١) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ج١ ص٢٣٨ ـ ٢٤٣.

عليه خطراً وترفض وجوده عليهم وبينهم»[١] ومع أن التوراة لم تقدم تفصيلاً موسعاً للذي حلّ بجماعات إسرائيل أيام سليمان، حين تمرد عليهم الثائر «هدد». وحسب ما تقص التوراة أن «هدد» لم يكن أول ولا آخر القوى المضادة التي حملت على عاتقها أن تثير الفتن والقلاقل في مجتمع إسرائيل، متمردة على ما ألف القوم وما استمرأوا من أسلوب حياة.

فقد هبّ ثائر آخر في وجه سليمان، وأثار له الكثير من الفتن والقلاقل، وفي هذا تقول التوراة: «وأقام الله خصماً آخر رزون ابن اليداع» الذي هرب من عند سيده «هدد عزر» ملك صوبه، فجمع إليه رجالاً، فسار رئيس غزاة عند قتل داود إياهم، فانطلقوا إلى دمشق، وكان خصماً لإسرائيل كل أيام سليمان[٢]. وفوق المعطيات الصريحة لآيات التوراة التي تؤكد انشقاق قوى كثيرة إسرائيلية وغيرها من التي عاهدت سليمان عليه السلام وانفضاضها من حوله. يؤكد لنا أن «الآراميين» وهم من الطوائف العربية التي كانت بفلسطين أيام سليمان لم يكونوا قد اندمجوا في جماعات إسرائيل. كما أنه قد تعرض المجتمع الإسرائيلي لصدع قام به ثائر غير الخصمين اللذين تقول عنهما التوراة، وتقضي من أن الرب أقامهما وكان الثائر هذه المرة من كبار بني إسرائيل، ومن الذين يرتبطون في سلسلة عائلية تدّعيها التوراة بالآباء الأول، وهو الثائر «برعام» بن تباط من بني إفراييم بن يوسف عليه السلام. وكان قد نشأ في «صريدة» قرية في منطقة «نابلس»، ولما أدرك أنه لن يستطيع أن يحقق كل مآربه في الثورة على سليمان قرر أن ينظم صفوفه، ونحي ظهره بقوة تساعده على الانشقاق وتحقق مقصده، فلجأ إلى مصر، فوجد كل العون من الفرعون المصري «شيشنق» وزوّده بجيش قوي تمكن به يربعام من زعزعة وتمزيق الجماعات الإسرائيلية وبعثرة شملها، حيث تحدثت عنه التوراة عن عزمه القضاء نهائياً على جماعات إسرائيل.

---

(١) سفر الملوك الأول، الإصحاح الحادي عشر: ١٤.
(٢) سفر الملوك، الإصحاح الحادي عشر: ٢٣ ـ ٢٥.

حتى إذا ما أراد هذا الفرعون المصري أن يتخلص من هذه الجماعات العنصرية المتصارعة على الحدود بجواره تيسر له ذلك.

وما تقصه التوراة عن حياة النبيّ سليمان عليه السلام، وما تتحدث عنه من أن هذا المجتمع الإسرائيلي لم يسلم من القلاقل والاضطرابات وكل مظاهر الفوضى والتخريب. يكفي في عدم التأصيل تاريخياً لميراث هذه المملكة، فإن من بين حالات السخط والاهتزاز السياسي الحالات الثلاثة التي تحدثت عنها التوراة في استفاضة. كل منها يمثل ثورة كاملة تستقطب جمهوراً كبيراً وقوة من هذه المملكة المدعاة، الأمر الذي جعل المملكة تتصدع حتى في حياة صاحبها على حد رواية التوراة. فما أن يتوفى الله سليمان عليه السلام حتى يتولى بعده «رحبعام» بن سليمان الذي لم يستطع أن يقف على قدميه، ولم يتيسر له جمع شمل القوى الثائرة ضد سلطان بيت داود. وما إن عاد الثائر «يربعام» من مصر ليواجه «رحبعام» بن سليمان إلا وتشققت المملكة وتصدعت وانقسمت إلى قسمين كل منهما يعمل ضد الآخر. حتى أصبحتا لقمة سائغة في يد قوى أخرى لعبت دورها على مسرح التاريخ السياسي في هذه المنطقة التي زيّف التاريخ اليهودي كل المراحل التي مرت بها[(١)].

❋ ❋ ❋ ❋

أمر بني إسرائيل بعد سليمان بن داود عليهما السلام

ذكر القرآن جماعة من أنبياء بني إسرائيل عليهم السلام ممن لا يعلم وقت زمانهم على اليقين، إلا أنهم بعد سليمان وقيل منهم: زكريا ويحيى عليهما السلام، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلٗا قَدۡ قَصَصۡنَٰهُمۡ عَلَيۡكَ مِن قَبۡلُ وَرُسُلٗا لَّمۡ نَقۡصُصۡهُمۡ عَلَيۡكَۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا

(١) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ج١ ص٢٤٣ ـ ٢٤٨.

﴿١٦٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٣ ـ ١٦٥].

ثم ملك بعد سليمان بن داود على جميع بني إسرائيل ابنه «رحبعام» بن سليمان، وكان ملكه فيما قيل سبع عشرة سنة. ثم افترقت ممالك بني إسرائيل بعد رحبعام فكان «أبيا» بن رحبعام الذي ملك سبط يهوذا وبنيامين، دون سائر الأسباط. وذلك أن سائر الأسباط ملكوا عليهم يوربعام بن نابط عبد سليمان، بسبب القربان الذي كانت زوجة سليمان قد قربته في داره، وكانت قربت فيها جرادة لصنم، فتوعده الله بإزالة بعض الملك عن ولده(١).

تقول التوراة أن «رحبعام» ذهب إلى شكيم لأنه جاء شكيم جميع إسرائيل ليملكوه، ولما سمع «يربعام» بن نباط وهو بعد في مصر، لأنه هرب من وجه سليمان وأقام في مصر، وأرسلوا فدعوه، أتى يربعام كل جماعة إسرائيل وكلموا رحبعام قائلين: «إن أباك قسى علينا، وأما أنت فخفف الآن من عبودية أبيك القاسية ومن نيره الثقيل الذي جعله علينا فنخدمك. فقال لهم: اذهبوا إلى ثلاثة أيام أيضاً ثم ارجعوا إليّ، فذهب الشعب، فاستشار الملك رحبعام الشيوخ الذين كانوا يقفون أمام سليمان أبيه وهو حي قائلاً: كيف تشيرون أن أرد جواباً إلى هذا الشعب، فكلموه قائلين: إن صرت اليوم عبداً لهذا الشعب وخدمتهم وأجبتهم وكلمتهم كلاماً حسناً يكونون لك عبيداً كل الأيام. فترك مشورة الشيوخ التي أشاروا بها عليه، واستشار الأحداث الذين نشأوا معه ووقفوا أمامه وقال لهم: بماذا تشيرون أنتم فنرد جواباً على هذا الشعب الذي كلموني قائلين: خفف من النير الذي جعله علينا أبوك؟ فكلمه الأحداث الذين نشأوا معه قائلين: هكذا تقول لهم: إن خنصري أغلط من متن أبي، والآن أبي حملكم نيراً ثقيلاً، وأن أزيد على نيركم، أبي أدّبكم بالسياط وأنا أؤدبكم بالعقارب. فجاء يربعام وجميع الشعب إلى رحبعام في اليوم الثالث، فأجاب الملك الشعب بقساوة وترك مشورة الشيوخ التي أشاروا بها عليه، وكلمهم حسب مشورة

---

(١) تاريخ الطبري، ج١ ص٥١٧.

الأحداث قائلاً: أبي ثقل نيركم وأنا أزيد على نيركم، أبي أدّبكم بالسياط وأنا أؤدّبكم بالعقارب»[١].

ومن هذا النص الذي تصوره التوراة من أن القوى التي رفضها رحبعام بن سليمان قد تعونت واستغلت وجود الثائر يربعام وانضمت تحت لوائه ورضيته سيداً عليها. وأعلنوا خلع ولائهم وكل ارتباطهم ببيت داود وأبنائه من بعده. ليصبح يربعام معول الهدم الذي تحطمت به الدولة المدعاة توراتياً، ولتصبح جماعات إسرائيل بالانقسام فئتين متصارعتين تعمل كل منهما ضد الأخرى للتخلص منها. وهكذا فإن الجزء الذي ظلّ على ولائه أو غلب على أمره ومرتبط برحبعام بن سليمان كان منحصراً في سيطرة يهوذا وحده في منطقة أورشليم «القدس»، بينما كانت الجماعات التي تسمّت باسم إسرائيل قد تجمعت في منطقة «نابلس» وكانت تسميها «السامرة» وابتدأت حروباً بين يهوذا وإسرائيل، تقول التوراة: «وكانت الحرب بين رحبعام ويربعام كل الأيام، وفي السنة الخامسة من حكم رحبعام صعد «شيشنق» ملك مصر إلى أورشليم، وأخذ خزائن بيت الملك وأخذ كل شيء[٢]. وظلت أحوال إسرائيل ويهوذا ضائعة جيلاً بعد آخر حتى اندمجت إسرائيل في إمبراطورية «أشور» عام **٧٢١** قبل الميلاد[٣].

تمّ ملك «أسا» بن أبيا بن رحبعام بن سليمان أمر السبطين وهما: سبط يهوذا وسبط بنيامين إلى أن توفي بعد إحدى وأربعين سنة حدثنا ابن عسكر عن إسماعيل عن عبدالصمد، أنه سمع وهب بن منبه يقول: إن ملكاً من ملوك بني إسرائيل يقال له: أسا بن أبيا، كان رجلاً صالحاً وكان أعرج. وكان ملك من ملوك الهند يقال له: «زرح»، كان جباراً يدعو الناس إلى عبادته. وكان أبيا عابد أصنام يعبدها من دون الله، ويدعو الناس إلى عبادتها حتى أضلّ عامة بني إسرائيل. ثم ملك ابنه «أسا» فلما ملكهم من بعده بعث

---

(١) سفر الملوك الأول، الإصحاح الثاني عشر: **١٠ ـ ١١**.
(٢) سفر الملوك، الإصحاح الرابع عشر: **٢٥ ـ ٢٦**.
(٣) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ج١ ص٢٥٠ ـ ٢٥١.

فيهم منادياً ينادي: ألا إن الكفر قد مات وأهله، وعاش الإيمان وأهله، وانتكست الأصنام وعبادتها، وظهرت طاعة الله وأعمالها فليس كافر من بني إسرائيل يطلع رأسه بعد اليوم بكفر في ولايتي إلا أنا قاتله. فإن الطوفان لم يفرق الدنيا وأهلها، ولم يخسف بالقرى، ولم تمطر الحجارة والنار من السماء إلا بترك طاعة الله، وإظهار معصيته. فمن أجل ذلك ينبغي لنا ألاّ نقر لله معصية يعمل بها، ولا نترك طاعة لله إلا أظهرناها جهدنا، حتى تطهر الأرض من نجسها، وننقيها من دنسها، ونجاهد من خالفنا في ذلك بالحرب والنفي من بلادنا.

فلما سمع ذلك قومه ضجوا، فأتوا أم أسا الملك فشكوا إليها فعل ابنها بهم وبآلهتهم، ودعاءه إياهم إلى مفارقة دينهم، والدخول في عبادة ربهم. فبينما الملك قاعد وعنده أشراف قومه، إذ أقبلت أمه فقام لها من مجلسه وأمرها أن تجلس فيه، معرفة بحقها، فأبت عليه وقالت: لستَ ابني إن لم تجبني إلى ما أدعوك إليه، فإن أطعتني رشدت، وإن عصيتني فحظك بخست، ونفسك ظلمت. إنه بلغني أنك بؤت قومك بالعظيم ودعوتهم إلى مخالفة دينهم والكفر بآلهتهم، والتحول عما كان عليه آباؤهم، وأظهرت فيهم بدعة. أردت بذلك تعظيماً لوقارك، وتشديداً لسلطانك، وفي التقصير يا بني دخلت، ودعوت جميع الناس إلى حربك. أردت بذلك أن تعبد الأحرار لك عبيداً، والضعيف لك شديداً، سفهت بذلك رأي العلماء وخالفت الحكماء، واتبعت رأي السفهاء، ولعمري ما حملك على ذلك إلا كثرة طيشك، وحداثة سنك، وقلة علمك. فإن أنت رددت عليّ كلامي، ولم تعرف حقي، فلست من نسل والدك، ولا ينبغي الملك لمثلك. يا بني، بأي شيء تدل على قومك، لعلك أوتيت من الحروف مثل ما أوتي موسى إلى فرعون أن غرقه، وأنجي قومه من الظلمة. أو لعلك أتيت من القوة ما أوتي داود أن قتل الأسد لقومه، ولحق الذئب فشقّ شدقه، وقتل جالوت الجبار وحده. أو لعلك أوتيت من الملك والحكمة أفضل مما أوتي سليمان رأس الحكماء إذ صارت حكمته مثلاً للباقين بعده. فلما سمعها الملك اشتد غضبه، فقال لها: يا أمي لا ينبغي أن أعبد غير ربي. هلمّي إلى أمر إن

أطعْتِني فيه رشدت، وإن تركته غويتِ، أن تعبدي الله وتكفري بكل آلهة دونه. فقالت له: ما كنت لأفارق أصنامي، ولا أعبد الرب الذي تدعوني إليه. فقال لها الملك: يا أمي إن قولك هذا قد فرّق بيني وبينك رحمي. وأمر بها فأخرجوها وغربوها، أي: أبعدوها.

فلما سمع ذلك منه الأسباط الذين كانوا حوله وقعت في قلوبهم المهابة، فأذعنوا له بالطاعة، وانقطعت فيما بينهم وبينه كل حيلة، وقالوا: قد فعل هذا بأمه، فأين نقع نحن منه إذا خالفنا أمره، ولم نُجبه إلى دينه. فلما لم يكن لهم على ذلك صبر، ولا على فراق دين قومهم، ائتمروا بأن يهربوا من بلاده. فخرجوا متوجهين إلى «زرح» ملك الهند، يطلبون أن يستحملوه على الملك أسا ومَن اتبعه. فلما دخلوا عليه سجدوا له فقال لهم: مَن أنتم؟ قالوا: نحن عبيدك، نحن من أرضك أرض الشام حتى ظهر فينا ملك صبي حديث السن، فغيَّر ديننا وكفر آباءنا، فأتيناك لنعلمك ذلك، فتكون أنت أولى بملكنا، ونحن رؤوسهم، وهي أرض كثير مالها، طيبة معيشتها، كثيرة ثمارها. فنحن وأرضنا لك، وبلادنا بلادك، هم دافعون أيديهم إليك بغير قتال. قال لهم زرح: ما كنت لأجيبكم إلى ما دعوتموني إليه، حتى أبعث إليهم من قومي أمناء، فإن وقع الأمر على ما تكلمتم به جعلناكم عليها ملوكاً، وإن كان كلامكم كذباً فإني منزل بكم العقوبة التي تنبغي لمن كذبني. قال القوم: تكلمت بالعدل، وحكمت بالقسط، ونحن به راضون. فأختار من قومه أمناء ليبعثهم جواسيس، فأوصاهم بوصية، وحذرهم بطشه إن هم كذبوه، ووعدهم المعروف إن هم صدقوه. وقال زرح: إني مرسلكم لتطالعوا إليّ أرضاً من أرضي وتبحثوا لي عن شأنها، وتعلموني علم أهلها وملكها وجنودها وعددهم وعدد مياهها، وفجاجها وطرقها، ومداخلها ومخارجها، وسهولتها وصعوبتها، حتى كأني شاهد ذلك وعالمه. وخذوا معكم من الياقوت والمرجان والكسوة ما يفرغون إليه إذا رأوه، ويشترون منكم إذا نظروا إليه. ثم ركبوا حتى أرسوا على ساحل «إيلياء» ثم ساروا حتى دخلوها، وأظهروا أمتعتهم وبضاعتهم، وكسدت تجارتهم، فجعلوا يعطون بالشيء القليل الكثير، لكي لا يخرجونهم من

قريتهم. وكان «أسا» الملك قد تقدم إلى نساء بني إسرائيل ألاّ يقدر على امرأة لا زوج لها بهيئة امرأة لها زوج إلا قتلتها. فإن إبليس لم يدخل على أهل الدين في دينهم بمكيدة هي أشد من النساء. فكانت المرأة التي لا زوج لها لا تخرج إلا متنقبة لئلا تُعرف، فلما بذل هؤلاء الجواسيس بضاعتهم جعل نساء بني إسرائيل يشترين خفية بالليل سراً لا يعلم بهن أحد من أهل دينهن حتى أنفقوا بضاعتهم، واستوعبوا خبر مدينتهم وحصونهم. وجعل الجواسيس يسألون أهل القرية عن خبر الملك وشأنه إذ لم يشترِ منهم شيئاً. قال لهم مَن حضرهم من أهل القرية: إن له من الفناء والخزائن وفنون المتاع ما لم يقدر على مثله. قالوا: فما قتاله؟ فأجابهم القوم وقالوا: إن أسا الملك قليلة عدته، ضعيفة قوته، غير أن له صديقاً لو دعاه واستعان به على أن يزيل الجبال أزالها. قالوا: ومَن صديق أسا، وكم عدد جنوده، وكيف مواجهته وقتاله، وكم عدد عساكره ومراكبه، وأين قراره؟ فأجابهم القوم: أما مسكنه ففوق السماوات العلا، مستوٍ على عرشه، الذي لا يحصى. وكل شيء من الخلق له عبد، لو أمر البحر للطم على البر، ولو أمر الأنهار لغارت في عنصرها، وهو صديق أسا وناصره.

فجعل الجواسيس يكتبون كل شيء أخبروا به من أمر أسا، فدخلوا عليه، فقالوا: يا أيها الملك، إن معنا هدية نريد أن نهديها لك من طرائف بلادنا. قال لهم: ائتوني بذلك حتى أنظر إليه، فلما أتوه به قال لهم: هل يبقى هذا لأهله أو يبقون له؟ قالوا: بل يفنى هذا ويفنى أهله. قال لهم أسا: لا حاجة لي به، إنما طلبي ما تبقى بهجته لأهله، لا تزول ولا يزولون عنها. فخرجوا من عنده وردّ عليهم هديتهم، فساروا من بيت المقدس متوجهين إلى زرح الهندي ملكهم. فلما أتوه نشروا له كتاب خبرهم، وأخبروه بصديق أسا، فلما فرغوا قال لهم زرح: إن بني إسرائيل لما علموا أنكم جواسيس، وأنكم اطلعتم على عوراتهم ذكروا لكم صديق أسا وهم كاذبون، أرادوا بذلك ترهيبكم. فكتب إلى كل مَن في طاعته أن جهِّزوا من كل المخلاف جنداً بعدتهم من الأمم ممن جرت عليه لزرح طاعة، فبلغ عددهم ألف ألف ومائة ألف سوى أهل بلادهم. فلما سار فيهم

تعزز وتعظم ثم قال: أين صديق أسا؟ هل يستطيع أن يعصمه مني؟ وليدخلن أسا أرضي أسيراً.

فبلغ أسا صنيع زرح وجمعه عليه فدعا ربه فقال: اللَّهمَّ أنت الذي بقوتك جعلت السماوات والأرض ومَن فيهن، حتى صار جميع ذلك في قبضتك، أنت ذو الأناة الرفيعة والغضب الشديد، أسألك ألا تذكر خطايانا فيما بيننا وبينك، ولا تعمدنا ولا تجزينا على معصيتك. ولكن تذكرنا برحمتك التي جعلتها للخلائق، فانظر إلى ضعفنا وقوة عدوك، وانظر إلى قلّتنا وكثرة عدونا، وانظر إلى ما نحن فيه من الضيق والغم، وانظر إلى ما فيه عدونا من الفرح والراحة، فأغرق زرحاً وجنوده في اليم بالقدرة التي أغرقت بها فرعون وجنوده، وأسألك أن تحل على زرح وقومه عذابك بغتة. فأرى أسا في المنام ـ والله أعلم ـ أني قد سمعت كلامك ووصل إليّ جوارك، وأني على عرشي، وأني إن أغرقت زرحاً الهندي وقومه لم يعلم بنو إسرائيل كيف صنعت بهم، ولكن سأظهر في زرح وقومه لك ولمن اتبعك قدرة من قدرتي، حتى أكفيك مؤنتهم، وأهب لك غنيمتهم، حتى يعلم أعداؤك أن صديق أسا لا يطاق، ووليّه لا يهزم جنده، ولا يخيب مطيعه.

فسار زرح ومَن معه حتى حلُّوا على ساحل ترشيش، فلم يكن محلة يوم حتى دفنوا أنهارها، ومحوا مروجها. حتى كانوا على مرحلتين من إيلياء، ففرق زرح عساكره وامتلأت منهم تلك الأرض وامتلأت قلوب أهل الشام منهم رعباً.

فسمع بذلك أهل القرية، فشقوا ثيابهم، وذروا التراب على رؤوسهم ثم ساروا حتى أتوا الملك فقالوا: نحن خارجين بأجمعنا إلى هؤلاء القوم فدافعون إليهم بأيدينا، لعلهم يرحمونا فيقرونا في بلادنا. قال لهم أسا الملك: معاذ الله أن نلقي أيدينا في أيدي الكفرة، وأن نخلي بيت الله وكتابه للفجرة. قالوا: أطلب إلى صديقك وربك الذي كنت تعدنا بنصره، وتدعونا إلى الإيمان به، فإن هو كشف عنا هذا البلاء وإلا وضعنا أيدينا في أيدي عدونا. قال لهم أسا: إن ربي لا يطاق إلا بالتضرع والتبتل والاستكانة،

قالوا: فأبرز له لعله أن يجيبك فيريهم ضعفنا. فدخل أسا المصلى ثم مدّ يده يدعو ربه بقلب حزين، ودموع سجال وهو يقول: اللَّهمَّ رب السماوات السبع ورب العرش العظيم، إلٰه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط. أنت المستخفي من خلقك حيث شئت، لا يدرك قرارك، ولا يطاق كنه عظمتك، أنت اليقظان الذي لا تنام، والجديد الذي لا تبليك الليالي والأيام. أسألك بالمسألة التي سألك بها إبراهيم خليلك فأطفئت عنه النار، وبالدعاء الذي دعاك به نجيك موسى فأنجيت بني إسرائيل من الظلمة، وسيّرتهم في البحر إلى البر وأغرقت فرعون ومَن اتبعه، وبالتضرع الذي تضرع به إليك عبدك داود فرفعته، ووهبت له من بعد الضعف القوة، ونصرته على جالوت الجبار، وبالمسألة التي سألك بها سليمان فمنحته الحكمة، ووهبت له الرفعة، وملكته على كل دابة. أنت محيي الموتى، ومفني وتُفْني، وتبقى وحدك خالداً لا تفنى، وجديداً لا تبلى. أسألك يا إلٰهي أن ترحمني بإجابة دعوتي، فإني أعرج مسكين من أضعف عبادك، ودخل بنا كرب عظيم لا يطيق كشفه غيرك، ولا حول ولا قوة لنا إلا بك، فارحم ضعفنا بما شئت، فإنك ترحم مَن تشاء بما تشاء.

فألقى الله على أسا النوم وهو في مصلاه ساجداً، ثم أتاه من الله آت والله أعلم فقال: إن الله عزَّ وجلَّ يقول: إني قد ألقيت عليك محبتي، ووجب لك نصري، فأنا الذي أكفيك عدوك، فإنه لا يهون من توكل عليَّ ولا يضعف من تقوّى بي. كيف تذكرني في الرخاء وأسلمك عند الشدائد، وكيف تدعوني آمناً، وأنا أسلمك خائفاً، فإني معك، ولن يخلص إليك ولا إلى مَن معك أحد. فخرج أسا من مصلاه وهو يحمد الله، فأخبرهم بما قيل له، فأما المؤمنون فصدّقوه، وأما المنافقون فكذّبوه، وقال بعضهم لبعض: إن أسا دخل أعرج وخرج أعرج، ولو كان صادقاً أن الله قد أجابه إذاً أصلح رجله، ولكن يغرنا ويمنِّينا حتى تقع الحرب فينا فيُهلكنا.

فلما اصطفّ قوم زرح وأخذوا مراتبهم أمر زرح الرماة من قومه أن يرموا بنشابهم. فبعث الله ملائكته من كل سماء والله أعلم أعواناً لأسا وقومه، فوقفهم أسا في مواقفهم، فلما رموا نشابهم، حال المشركون بين ضوء

الشمس والأرض كأنها سحابة طلعت فنحتها الملائكة عن أسا وقومه. ثم رمت الملائكة قوم زرح، فأصابت كل رجل منهم نشابته التي رمى بها، فقتل رماتهم بها كلها وأسا وقومه في كل ذلك يحمدون الله كثيراً، وتراءت الملائكة لهم والله أعلم. فلما رآهم الشقي زرح وقع الرعب في قلبه وقال: إن أسا لعظيم كيده، ماضٍ سحره، وكذلك بنو إسرائيل حيث كانوا لا يغلب سحرهم، ولا يطيق مكرهم عالم. ثم نادى الهندي في قومه أن سُلُّوا سيوفكم ثم احملوا على الملائكة، فقتلتهم الملائكة. فأوحى الله إلى أسا والله أعلم أن اهبط أنت وقومك فخذوا ما غنمكم الله بقوة، وكونوا فيه من الشاكرين(١).

وعلى الطريق الطويل في تاريخ بني إسرائيل بعد عصر موسى عليه السلام وقبله، وما حدث من الانقسام السياسي والديني الذي تتحدث عنه التوراة. فإن القسم الأول من الجماعات الإسرائيلية التي تسمى «إسرائيل» في السامرة نابلس أصبحت على حال من السوء والتناقض الداخلي إلى درجة انعدم معها الاستقرار لجماعات منشقّة استجابت لثائر متمرد على بيت توارث السيادة وادعى المتسلقون لهذا البيت كل قيم الميراث العنصري. والقسم الثاني «اليهود» في «أورشليم القدس»، لم يطل به عمل التناقضات فانتهى حين امتد سلطان مصر القديمة عليه حتى تغيرت الأوضاع بعمليات الغزو الكبير والتمرد الرهيب الذي بدأته إمبراطورية «الآشوريين» لتقضي على زيف وأوهام بني إسرائيل ودعواها العنصرية.

إن الذين تناولوا أمر الجماعات الإسرائيلية اليهودية وأسمتهم التوراة «الملوك»، وأوردت ذكرهم بالتناوب «يربعام» بالمنطقة الشمالية نابلس. وبالمنطقة الجنوبية في أورشليم بسبطي «يهوذا وبنيامين» أي: جماعات يهوذا، «رحبعام» حكم حوالى **١٧** عاماً تولى بعده «أبعبام» بن رحبعام **٣** سنوات، ثم «أسا» بن رحبعام **٤١** سنة، ثم «يهوشاناط بن أسا» **٢٥** سنة، ثم «أخزيا بن يهورام بن يهوشافط» **٨** سنوات، ثم «يهوأخزيا بن يهورام» سنة واحدة، ثم «عتليا أم أخزيا» **٦** سنوات، ثم «يواش بن أخزيا» الذي مات

(١) تاريخ الطبري، ج١ ص٥١٧ ـ ٥٣٠.

قتيلاً بعد **٤٠** سنة، ثم «أمصيا بن يواش» الذي مات قتيلاً بعد **٢٩** سنة، ليأتي في السلسلة التي تتحدث عنها آيات العهد القديم. «عزبا» بن أمصيا الذي استمر حوالى **٥٢** عاماً. ففي السنة التاسعة والثلاثين لعزريا تقول التوراة: «ملك منحيم بن جاد على إسرائيل في السامرة عشر سنين، وعمل الشر في عين الرب لم يحد عن خطايا يربعام بن ثباط الذي جعل إسرائيل يخطئ كل أيامه، فجاء «فول» ملك آشور على الأرض فأعطى منحيم لفول ألف وزنة من الفضة لتكون يداه معه ليثبت المملكة في يده. ووضع منحيم الفضة على إسرائيل على جميع جبابرة البأس، ليدفع الملك آشور خمسين شاقل فضة على كل رجل»[١].

وكان هذا هو الحال الذي آلت إليه دولة الجنوب «المقدس»، وكذا آل حال دولة الشمال «السامرة» نابلس، التي تولى أمرها حسب رواية التوراة تسعة عشر ملكاً. وكان الجو العام المحيط بهم خليقاً بأن يساعد على الاقتتال والصراع الذي تقول فيه التوراة: إنه تقلد عرش هذه المملكة ثماني أسر متصارعة متناقضة. أفنيت منها ثلاث أسر فناءً تاماً، ولم يطل بها الوقت مثلما كانت يهوذا في أورشليم التي ظلّ بها بعض أفراد يتحركون في صورة للحكم هزيلة وضعيفة في ظل السيطرة الآشورية التي لم تشأ أن تقضي قضاءً تاماً وتمحو كل ما يتعلق بـ«اليهود». فإن «إسرائيل» «في السامرة» لم تفسح لها السيطرة الآشورية فرصة من الوقت للاندماج في ظل الدولة الجديدة المنتصرة. ولم يترك للقوم من جماعات إسرائيل بقية من ادعاء أو عقيدة يمكنهم الارتباط به. وأن ما سجلته التوراة من بين تناقضاتها لكل ذي بصيرة أن الدولة المدعاة، والتي أصبحت بالانقسام دولتين: الأولى إسرائيل في السامرة نابلس. وقضى على الثانية اليهود أورشليم حين سقطت على يد نبوخذ نصر الذي قتل (صديقا بن يواقيم) آخر ملوكهم»[٢].

❋ ❋ ❋ ❋

---

(١) سفر الملوك الثاني، الإصحاح الخامس عشر.

(٢) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ج١ ص٢٥٧ ـ ٢٥٨.

النبيّ شعيبا بن أمصيا عليه السلام

قال محمد بن إسحاق: وهو الذي بشّر بعيسى ومحمد عليهما السلام. وكان في زمانه ملك اسمه حزقيا على بني إسرائيل ببلاد المقدس، وكان سامعاً مطيعاً لشعيبا فيما يأمره به وينهاه عنه من المصالح. وكانت الأحداث قد عظمت في بني إسرائيل، فمرض الملك وخرجت في رجله قرحة. وقصد بيت المقدس ملك بابل في ذلك الزمان وهو «سنحاريب» في ستمائة ألف راية، وفزع الناس فزعاً شديداً. وقال الملك للنبيّ شعيبا: ماذا أوحى الله إليك في أمر «سنحاريب» وجنوده، فقال: لم يوحَ إليّ فيهم شيء بعد. ثم نزل عليه الوحي بالأمر للملك «حزقيا» بأن يوصي ويستخلف على ملكه مَن يشاء، فإنه قد اقترب أجله. فلما أخبره دعا وبكى فقال وهو يتضرع إلى الله عزَّ وجلَّ: اللَّهمَّ رب الأرباب يا رحمٰن يا رحيم، يا مَن لا تأخذه سنة ولا نوم، اذكرني بعلمي وفعلي، وحسن قضائي على بني إسرائيل، وذلك كله كان منك فأنت أعلم به من نفسي، سري وإعلاني لك. قال: فاستجاب الله له ورحمه، وأوحى الله إلى «شعيبا» أن يبشره بأنه قد رحم بكاءه وقد أخّر في أجله خمس عشرة سنة وأنجاه من عدوه «سنحاريب». وأوحى الله إلى «شعيبا» أن يأمره أن يأخذ ماء التين فيجعله على قرحته فيشفى ويصبح قد برئ، ففعل ذلك فشفي.

وأرسل الله على جيش «سنحاريب» الموت سوى «سنحاريب» وخمسة من أصحابه منهم «بختنصر». فجعل ملك بني إسرائيل في الأغلال، وطاف بهم في البلاد على وجه التنكيل بهم سبعين يوماً. ثم أودعهم السجن، وأوحى الله إلى شعيبا أن يأمر الملك بإرسالهم إلى بلادهم لينذروا قومهم ما قد حلّ بهم. ثم لما مات «حزقيا» ملك بني إسرائيل مرَجَ أمرُهُم واختلطت أحداثهم، وكثر شرهم، فأوحى الله تعالى إلى «شعيبا» فوعظهم وذكّرهم وأخبرهم عن الله بما هو أهله وأنذرهم بأسه وعقابه إن هم خالفوه وكذّبوه. فلما فرغ من مقالته عدوا عليه وطلبوه ليقتلوه، فهرب منهم فمرّ بشجرة فانفلقت له فدخل فيها وأدركه الشيطان فأخذ بهدبة ثوبه فأبرزها.

فلما رأوا ذلك جاؤوا بالمنشار فوضعوه على الشجرة فنشروها ونشروه معها(١).

❀ ❀ ❀ ❀

النبيّ أرميا بن حلقيا

وهو من سبط لاوي بن يعقوب، وعن وهب بن منبه: أوحى الله إلى نبيّ من إسرائيل يقال له: «أرميا» حين ظهرت فيهم المعاصي: أن قُمْ بين ظهراني قومك فأخبرهم أني تذكرت صلاح آبائهم فعطفني ذلك على أبنائهم. هؤلاء القوم تركوا الأمر الذي أكرمت عليه آباءهم والتمسوا الكرامة من غير وجهها. أما أحبارهم فأنكروا حقي، وأما قراؤهم فعبدوا غيري، وأما نسّاكهم فلم ينتفعوا بما علموا، وأما ولاتهم فكذبوا عليّ وعلى رسلي. خزنوا المكر في قلوبهم، وعوّدوا الكذب ألسنتهم، فإن دعوني لم أجبهم، وإن سألوا لم أعطهم، وإن بكوا لم أرحمهم. (رواه ابن عساكر بهذا اللفظ).

وقال ابن أبي الدنيا: قال أرميا: أي رب، أي عبادك أحب إليك؟ قال: أكثرهم لي ذِكراً، والذين يشتغلون بذكري عن ذكر الخلائق، الذين لا تعرض لهم وساوس الفناء ولا يحدثون أنفسهم بالبقاء، الذين إذا عرض لهم عيش الدنيا قَلُوه، وإذا زُوِيَ عنهم سُرُّوا بذلك، أولئك أَنْحَلُهُم محبتي، وأعطيهم فوق غاياتهم. وقال إسحاق بن بشر عن وهب بن منبه قال: إن الله تعالى لما بعث الله «أرميا» إلى بني إسرائيل، وذلك حين عظمت الأحداث فيهم فعملوا بالمعاصي وقتلوا الأنبياء. طمع (بختنصر) فيهم وقذف الله في قلبه، وحدّث نفسه بالمسير إليهم لما أراد الله أن ينتقم به منهم، فأوحى الله إلى «أرميا» أني مُهلِك بني إسرائيل ومنتقم منهم، فقم على صخرة بيت المقدس يأتيك أمري ووحيي. فأوحى الله إلى «أرميا»: قم فاقصص

---

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج٢ ص٣١٥ ـ ٣١٧.

عليهم ما آمرك به وذكرهم نعمتي عليهم. فقال «أرميا»: يا رب، إني ضعيف إنْ لم تقوني، عاجز إن لم تُبَلِّغني، مخطئ إن لم تسددني، مخذول إن لم تنصرني، ذليل إن لم تعزني. فقال الله تعالى: ألم تعلم أن الأمور كلها تصدر عن مشيئتي، وأن الخلق والأمر كله لي، وأن القلوب والألسن كلها بيدي فأقلّبها كيف شئت. فأنا الله الذي ليس شيء مثلي، قامت السماوات والأرض وما فيهن بكلمتي.

قال كعب: فقال أرميا: بوجهك أصبحت أتعلم بين يديك، ولكن برحمتك، فإن تعذبني فبذنبي وإن ترحمني فذلك ظني بك. ثم قال: يا رب، سبحانك وبحمدك، وتباركت ربنا وتعاليت، أتُهلك هذه القرية وما حولها وهي مساكن أنبيائك ومنزل وحيك؟ يا رب سبحانك وبحمدك، وتباركت ربنا وتعاليت لمخرب هذا المسجد وما حوله من المساجد ومن البيوت التي رفعت ذكرك. يا رب سبحانك لمقتل هذه الأمة وعذابك إياهم وهم من ولد إبراهيم خليلك، وأمة موسى نجيك، وقوم داود صفيك. يا رب، أي القرى تأمن عقوبتك بعد، وأي العباد يأمنون سطوتك تسلط عليهم عبدة النيران. قال الله تعالى: يا أرميا، مَن عصاني فلا يستنكر نقمتي، قال أرميا: يا رب، اتخذت إبراهيم خليلاً، وموسى قرّبته نجياً، فنسألك أن تحفظنا ولا تتخطفنا ولا تسلط علينا عدونا. فأوحى الله إليه: يا أرميا فلو أن قومك حفظوا اليتامى والأرامل والمساكين وابن السبيل لكنت الداعم لهم، إني كنت لهم بمنزلة الراعي الشفيق حتى صاروا كباشاً ينطح بعضها بعضاً، فيا ويلهم ثم يا ويلهم. إنما أُكرم مَن أكرمني وأُهين مَن هان عليه أمري، وفي كل ذلك لا ينتهون ولا ينتفعون بما علموا من الكتاب.

فلما بلغهم «أرميا» رسالة ربهم وسمعوا ما فيها من الوعيد والعذاب عصوه وكذبوه واتهموه وقالوا: كذبت وأعظمت على الله الفرية واعتراك الجنون. فأخذوه وقيّدوه وسجنوه، فعند ذلك بعث الله عليهم «بختنصر» فأقبل يسير بجنوده حتى نزل بساحتهم ثم حاصرهم، فكما كما قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثۡنَا عَلَيۡكُمۡ عِبَادٗا لَّنَآ أُوْلِي بَأۡسٖ شَدِيدٖ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِۚ وَكَانَ وَعۡدٗا مَّفۡعُولٗا ۝٥﴾ [الإسراء: ٥]. فلما طال بهم الحصر نزلوا

على حكمه ففتحوا الأبواب، وحكم فيهم حكم الجاهلية وبطش الجبارين، فقتل منهم الثلث وسبى الثلث وترك الشيوخ والعجائز، ثم وطئهم بالخيل وهدم بيت المقدس، وقتل المقاتلة وخرب الحصون وهدم المساجد وحرق التوراة، ودخل بختنصر بجنوده بيت المقدس ووطئ الشام كلها، وقتل بني إسرائيل حتى أفناهم. وساق السبايا، فبلغ معه عدة صبيانهم من أبناء الأحبار والملوك تسعين ألفاً، وكان الغلماء سبعة آلاف غلام من بيت داود، وأحد عشر ألفاً من سبط يوسف وأخيه بنيامين، وثمانية آلاف من سبط إيشا بن يعقوب، وأربعة عشر ألفاً من سبط زبالون ونفتالي ابنَيْ يعقوب، وأربعة عشر ألفاً من سبط دان بن يعقوب، وثمانية آلاف من سبط يستاخر بن يعقوب، وألفين من سبط زيكون بن يعقوب، وأربعة آلاف من سبط روبيل ولاوي، واثني عشر ألفاً من سائر بني إسرائيل. وانطلق حتى قدم أرض بابل.

قال إسحاق بن بشر، قال وهب بن منبه: فلما فعل ما فعل قيل له: كان لهم صاحب يحذرهم ما أصابهم ويصفك وخبرك لهم، ويخبرهم أنك تقتل مقاتلهم وتسبي ذراريهم وتهدم مساجدهم وتحرق كنائسهم، فكذبوه واتهموه وضربوه وقيّدوه وحبسوه. فأمر بختنصر فأخرج «أرميا» من السجن فقال له: أكنت تحذّر هؤلاء القوم ما أصابهم؟ قال: نعم أرسلني الله إليهم فكذبوني، قال: بئس القوم قوم كذبوا نبيهم وكذبوا رسالة ربهم، فهل لك أن تلحق بي فأكرمك وإن أحببت أن تقيم في بلادك فقد أمنتك؟ قال له أرميا: إني لم أزل في أمان الله منذ كنت، لم أخرج منه ساعة قط، ولو أن بني إسرائيل لم يخرجوا منه لم يخافوك ولم يكن لك عليهم سلطان. فلما سمع بختنصر منه تركه فأقام أرميا مكانه بأرض «إيلياء»(١).

عن هشام بن محمد قال: كان بختنصر قد شخص إلى دمشق فصالح أهلها، ووجه قائداً له، فأتى بيت المقدس فصالحه ملك بني إسرائيل، وهو رجل من ولد داود، وأخذ منه رهائن وانصرف. فلما بلغ طبرية وثب بنو

---

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج٢ ص٣١٨ ـ ٣٢٨.

إسرائيل على ملكهم فقتلوه، وقالوا: راهنت أهل بابل وخذلتنا. واستعدوا للقتال، فكتب قائد بختنصر إليه بما كان، فكتب إليه يأمره أن يقيم في موضعه حتى يوافيه، وأن يضرب أعناق الرهائن الذين معه. فسار بختنصر حتى أتى بيت المقدس، فأخذ المدينة عنوة، فقتل المقاتلة وسبى الذرية. وأنه وجد في سجن بني إسرائيل أرميا النبيّ، وكان الله تعالى بعثه نبياً إلى بني إسرائيل يحذرهم ما حلّ بهم من بختنصر إن لم يتوبوا وينزعوا عن سيئ أعمالهم. فقال له بختنصر: ما خطبك؟ فأخبره أن الله بعثه إلى قومه ليحذرهم الذي حلّ بهم، فكذبوه وحبسوه. فقال بختنصر: بئس القوم قوم عصوا رسول ربهم. وخَلَّى سبيله. فاجتمع إليه مَن بقي من ضعفاء بني إسرائيل فقالوا: نحن نتوب إلى الله مما صنعنا، فادعُ الله أن يقبل توبتنا. فدعا ربه فأوحى إليه أنهم غير فاعلين، فإن كانوا صادقين فليقيموا معك بهذه البلدة، فأخبرهم بما أمرهم الله به، فقالوا: كيف نقيم ببلدة قد خربت وغضب الله على أهلها؟ فأبوا أن يقيموا. وفي ذلك الزمان تفرقت بنو إسرائيل، ونزل بعضهم أرض الحجاز بيثرب ووادي القرى وغيرها.

قال: ثم أوحى الله إلى أرميا: إني عامر بيت المقدس فاخرج إليها، فانزلها. فخرج إليها حتى قدمها وهي خراب، فقال في نفسه: سبحان الله، أمرني الله أن أنزل هذه البلدة، وأخبرني أنه عامرها فمتى يعمر هذا، ومتى يحييها الله بعد موتها؟ ثم وضع رأسه ومعه حماره وسلّة فيها طعام، فمكث في نومه سبعين سنة، حتى هلك بختنصر والملك الذي فوقه وهو لهراسب، وملك بعده بشاسب ابنه. فبلغه أن السباع قد كثرت في أرض فلسطين، فلم يبقَ بها من الإنس أحد. فنادى في أرض بابل في بني إسرائيل: إن مَن شاء أن يرجع فليرجع، وملَّك عليهم رجلاً من آل داود، وأمره أن يعمر بيت المقدس ويبني مسجدها، فرجعوا فعمروها. وفتح الله لأرميا عينيه، فنظر إلى المدينة كيف تعمر وتبنى، ومكث في نومه ذلك حتى تمت له مائة سنة، ثم بعثه الله وهو لا يظن أنه نام أكثر من ساعة، وقد عهد المدينة خراباً، فلما نظر إليها قال: أعلم أن الله على كل شيء قدير. قال الله تعالى في كتابه المبين: ﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ

يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَاۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٖ ثُمَّ بَعَثَهُۥۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٖۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٖ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمٗاۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٖ قَدِيرٞ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩]. ثم عمر الله أرميا بعد ذلك، فهو الذي يرى بفلوات الأرض والبلدان(١). والمقصود من أن هذا المار على هذه القرية هو أرميا عليه السلام، قاله وهب بن منبه وعبدالله بن عبيد بن عمير وغيرهما، وهو قوي من حيث السياق المتقدم. وقد روي عن علي وعبدالله بن سلام وابن عباس والحسن وقتادة والسدي وسليمان بن بردة وغيرهم أنه «عزير»، وهذا أشهر عند كثير من السلف والخلف، والله أعلم(٢).

❊ ❊ ❊ ❊

دانيال عليه السلام

قال ابن أبي الدنيا: ضرّى بختنصر أسدين فأبقاهما في جب، وجاء بدانيال فألقاه عليهما فلم يهيجاه، فمكث ما شاء الله ثم اشتهى ما يشتهي الآدميون من طعام وشراب، فأوحى الله إلى أرميا وهو بالشام: أن أعدد طعاماً وشراباً لدانيال. فقال: رب أنا بالأرض المقدسة ودانيال بأرض بابل من أرض العراق. فأوحى الله إليه أن أعدد ما أمرناك به فإنا سنرسل مَن يحملك ويحمل ما أعددت. ففعل وأرسل إليه مَن حمله وحمل ما أعده حتى وقف على رأس الجُبّ، فقال دانيال: مَن هذا؟ قال: أنا أرميا. فقال: ما جاء بك؟ فقال: أرسلني إليك ربك. قال: أوَقد ذكرني ربي؟ قال: نعم. فقال دانيال: الحمد لله الذي لا ينسى مَن ذكره، والحمد لله الذي يجيب مَن رجاه، والحمد لله الذي مَن وثق به لم يكله إلى غيره، والحمد لله الذي هو

---

(١) تاريخ الطبري، ج١ ص٥٣٨ ـ ٥٥٤.
(٢) قصص الأنبياء، لابن كثير ج٢ ص٣٣٨.

يكشف ضرّنا بعد كربنا، والحمد لله الذي يقينا حين يسوء ظننا بأعمالنا، والحمد لله الذي هو رجاؤنا حين تنقطع الحِيَل عنا.

وقال يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق عن أبي خالد بن دينار، حدثنا أبو العالية قال: لما افتتحنا (تستر) وجدنا في مال بيت الهرمزان سريراً عليه رجل ميت عند رأسه مصحف. فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر بن الخطاب فدعا له كتاباً فنسخوه بالعربية. فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيركم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد. قلت: فما صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة، فلما كان بالليل دفنّاه وسوّينا القبور كلها لنعميه عن الناس فلا ينبشونه. قلت: فما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون، قلت: مَن كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يقال له: دانيال ما تغير منه شيء إلا شعيرات من قفاه، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض ولا تأكلها السباع(١).

❋ ❋ ❋ ❋

عزير بن جروة ويقال:
ابن سويرق عليه السلام

هو عزير بن سويرق بن عديا بن أيوب بن درزنا بن عري بن تقي بن أسيوع بن فنحاص بن ألعازر بن هارون بن عمران. وجاء في بعض الآثار أن قبره بدمشق، وعن ابن عباس مرفوعاً: لا أدري العزير بيع أم لا ولا أدري أعزير أكان نبياً أم لا. وعن ابن عباس أن عزيراً كان ممن سباه بختنصر وهو غلام حدث، فلما بلغ أربعين سنة أعطاه الله الحكمة. قال: ولم يكن أحد أحفظ ولا أعلم بالتوراة منه. قال: وكان يذكر مع الأنبياء حتى محى الله اسمه من ذلك حين سأل ربه عن القدر. ويقول ابن كثير: هذا ضعيف ومنقطع ومنكر، والله أعلم. وقد روى عبدالرزاق وقتيبة بن سعيد عن جعفر بن

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج٢ ص٣٣١ ـ ٣٣٢.

سليمان عن أبي عمران الجوني، عن نوف البكالي قال: قال عزير فيما يناجي ربه: يا رب تخلق خلقاً فتضل من تشاء وتهدي من تشاء. فقيل له: أعرض عن هذا، فعاد، فقيل له: لتعرضَنَّ عن هذا أو لأمحونَّ اسمك من الأنبياء، (إني لا أسأل عما أفعل وهم يسألون)، فهو منكر، وكأنه مأخوذ من الإسرائيليات. وقال إسحاق بن بشر عن قتادة عن الحسن، عن عبدالله بن سلام: إن عزيراً هو العبد الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه.

وقال إسحاق بن بشر عن قتادة عن الحسن ومقاتل عن الضحّاك عن مجاهد عن ابن عباس وإدريس عن جده وهب بن منبه قال إسحاق: كل هؤلاء حدّثوني عن حديث عزير وزاد بعضهم على بعض قالوا بإسنادهم: إن عزيراً كان عبداً صالحاً حكيماً خرج ذات يوم إلى ضيعة له يتعهدها، فلما انصرف أتى إلى خربة حين قامت الظهيرة وأصابه الحر. ودخل الخربة وهو على حماره ومعه سلة فيها تين وسلة فيها عنب، فنزل في ظل تلك الخربة واستلقى على قفاه، وأسند رجليه إلى الحائط. فنظر سقف تلك البيوت وهي خاوية على عروشها، وقد باد أهلها ورأى عظاماً بالية فقال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ الآية. فلم يشك أن الله يحييها ولكن قالها تعجباً، فبعث الله ملك الموت فقبض روحه، فأماته الله مائة عام. فلما أتت عليه مائة عام، وكانت فيما بين ذلك في بني إسرائيل أمور وأحداث. قال: فبعث الله إلى عزير ملكاً فاستوى جالساً، فقال له الملك: كم لبثت؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم. فقال له الملك: بل لبثت مائة عام ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ﴾ وكان الخبز اليابس ﴿وَشَرَابِكَ﴾ التين والعنب غض لم ﴿يَتَسَنَّهْ﴾ فكأنه أنكر في قلبه، فقال له الملك: أنكرت ما قلت لك، انظر إلى حمارك، فنظر إلى حماره قد بليت عظامه. فنادى الملك عظام الحمار فأجابت ثم ألبسها العروق والعصب ثم كساها اللحم ثم أنبت عليها الجلد والشعر. ثم نفخ فيه الملك، فقام الحمار رافعاً رأسه، فذلك قوله تعالى: ﴿وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾، يعني: وانظر إلى عظام حمارك كيف يركب بعضها بعضاً ثم انظر كيف نكسوها لحماً. فلما تبين له قال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ من إحياء الموتى وغيره.

قال: فركب حماره حتى أتى محلته، فأنكره الناس وأنكر الناس حتى أتى منزله، فإذا هو بعجوز قد أتى عليها مائة وعشرون سنة كانت أمة لهم. فقال لها عزير: يا هذه أهذا منزل عزير؟ قالت: نعم، فبكت وقالت: ما رأيت أحداً يذكر عزيراً وقد نسيه الناس. قال: فإني أنا عزيراً كان الله قد أماتني مائة سنة ثم بعثني، قالت: فإن عزير رجلاً مستجاب الدعوة يدعو للمريض ولصاحب البلاء بالعافية والشفاء، فادعُ الله أن يرد عليّ بصري حتى أراك. قال: فدعا ربه ومسح على عينيها فصَحَّتا، فنظرت فقالت: أشهد أنك عزير. وانطلقت إلى محلة بني إسرائيل وهم في أنديتهم، وابن العزير شيخ ابن مائة سنة وثماني عشرة سنة وبنو بنيه شيوخ في المجلس. فنادتهم: هذا عزير قد جاءكم، فكذبوها، قال: فنهض الناس فأقبلوا إليه فقال ابنه: كان لأبي شامة سوداء بين كتفيه، فكشف عن كتفيه فإذا هو عزير. فقالت بنو إسرائيل: فإنه لم يكن فينا أحد حفظ التوراة فيما حدثنا غير عزير. قال: وجلس في ظل شجرة وبنو إسرائيل حوله فجَدَّد لهم التوراة، ونزل من السماء شهابان حتى دخلا جوفه، فتذكر التوراة فجدّدها لبني إسرائيل. ثم قالت اليهود: ﴿عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ للذي كان من أمر الشهابين وتجديد التوراة وقيامه بأمر بني إسرائيل.

المشهور أن عزيراً نبيّ من أنبياء بني إسرائيل، وأنه كان فيما بين داود وسليمان وبين زكريا ويحيى، وأنه لم يبقَ في إسرائيل مَن يحفظ التوراة فألهمه الله حفظها فسردها على بني إسرائيل. روى ابن عساكر عن ابن عباس أنه سأل عبدالله بن سلام عن قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ لِمَ قالوا ذلك؟ فذكر ابن سلام ما كان من كتبه لبني إسرائيل التوراة من حفظه، وقول بني إسرائيل: لم يستطع موسى أن يأتينا بالتوراة إلا في كتاب، وإن عزيراً قد جاءنا بها من كتاب. فرماه طوائف منهم وقالوا: عزيراً ابن الله[(١)].

❊ ❊ ❊ ❊

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج٢ ص٣٣٩ ـ ٣٤٦.

زكريا عليه السلام

لم يذكر المؤرخون له نسباً متصلاً، بيد أن الحافظ ابن عساكر قد ذكر له نسباً مكوناً من أربعة عشر أباً حتى وصل إلى سليمان بن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، ونوجزه على الشكل الآتي: زكريا بن دان بن مسلم بن صدوق بن حبشان إلى أن يصل إلى رحبعام بن سليمان بن داود. وقد ذكر اسم زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ في القرآن الكريم ثماني مرات في كل من السوَر الآتية: (آل عمران، الأنعام، مريم، الأنبياء) وهو على وجه القطع من رسل بني إسرائيل، وهو أحد الرسل الذين يجب الإيمان بهم تفصيلاً.

كانت رسالته قبيل ميلاد المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد بعث الله «زكريا» عَلَيْهِ السَّلَامُ رسولاً إلى بني إسرائيل. فقام يدعوهم إلى الله ويخوفهم عذابه، في وقت اشتد فيه الفسق والفجور، وكثرت المعاصي، وطغت على الأمة الإسرائيلية موجة من التفسخ والتحلل حتى نسوا الله والدار الآخرة. وتسلط على الحكم ملوك ظلمة جبابرة يعيثون في الأرض فساداً، ويفعلون من الجرائم ما تقشعر له الأبدان، لا يراعون حرمة لنبيّ، ولا قدسية لدين، وقد تسلطوا على الصالحين والأتقياء والأنبياء حتى سفكوا دماءهم. وقد لقي «زكريا» عَلَيْهِ السَّلَامُ من الحكام الجبابرة وبني إسرائيل كل عنت ومشقة، وكل جهد وبلاء، وناله من أذاهم الشيء الكثير، وتوالت عليه الأهوال والشدائد، ووهن العظم منه واشتعل الرأس شيباً، ولم يعد به طاقة لتحمل الأذى والمخاطر. وخشي على بني إسرائيل أن يضلوا ويفتنوا، فطلب من ربه أن يعينه بولد يواسيه في شيخوخته، ويخلفه في تبليغ الرسالة، قال الله تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠].

وقد كان زكريا قبل أن يكرمه الله بالرسالة، ويختاره لإنقاذ بني إسرائيل من الشقاوة والضلال، من كبار «الربانيين» الذين لهم شركة في خدمة الهيكل، ثم نبّأه الله وأرسله رسولاً إلى بني إسرائيل. وكان «عمران» والد

مريم إمامهم وكبيرهم والكاهن الأكبر فيهم، فلما توفي عمران كان الكافل لابنته «مريم» هو زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ وهو زوج أختها. وقد كان يرى من عجائب قدرة الله تعالى في حفظ هذه السيدة البتول ما يبهر العقل، وقد قصَّ علينا القرآن الكريم طرفاً من هذا في قوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٧]. كان زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ إذا دخل على مريم في معبدها يجد عندها الرزق ما لا يوجد مثله في البلد، أو عند سائر الناس. فيسألها زكريا في استغراب: أنى لك هذا؟ فتجيبه: هو من عند الله.

وكان زكريا عَلَيْهِ السَّلَامُ قد تقدمت به السن، وخطه الشيب، وبلغ من الكبر عتياً، وكانت امرأته عاقراً لا تلد. فلما رأى من كرامات الله تعالى لمريم طمع في فضل الله ورحمته، فطلب من ربه أن يرزقه غلاماً تقياً، يرثه في النبوة والهداية لبني إسرائيل. قال الله تعالى: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥ ۖ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً ۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: ٣٨]، وقد كان عمره حين طلب الولد تسعاً وتسعين سنة، وعمر زوجته ثمان وتسعون سنة، ولم يكن طلب زكريا الولد لمجرد حبه للبنين، ولكنه رجا ربه أن يرزقه الولد ليخلفه في بني إسرائيل وليقوم بأعباء الدعوة التي حملها أبوه، وقد كان يخشى من بعد وفاته على بني إسرائيل أن يتولى أمرهم في شؤون الدين الموالي من الجهلة والفساق، فيعملوا بما لا يوافق شرع الله وطاعته. ولذلك سأل ربه الولد فاستجاب الله دعاءه، ورزقه على الكبر غلاماً زكياً هو «يحيى» عَلَيْهِ السَّلَامُ. ولد لزكريا ذلك الولد البار الذي رزقه على الهرم والشيخوخة من زوجته «أشباع بنت عمران» أخت مريم بنت عمران، وعاش في كنف والده عيشة البر والتقى. ثم كانت الفتنة حين ذبح «يحيى» قرباناً لأهواء أهل الضلال في حياة أبيه الرسول النبيّ الصالح الذي لقي بعد ذلك حتفه على أيدي الظلمة، فقتل زكريا على ما يذكر نشراً بالمنشار[(١)].

(١) قصص الأنبياء، محمد الصابوني ص٣١٨ ـ ٣٢١.

يحيى بن زكريا عليهما السلام

هو يحيى بن زكريا بن دان بن مسلم بن صدوق بن خشبان إلى أن يصل نسبه إلى نبيّ الله سليمان بن داود وهو من سبط يهوذا بن يعقوب. ذكر اسم يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ في أربع آيات في كل من السوَر الآتية (آل عمران، الأنعام، مريم، الأنبياء). قال الله تعالى: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم: ١٢ ـ ١٤]. أعطاه الله النبوة وهو ابن ثلاثين سنة، وأثنى الله تبارك وتعالى عليه بالثناء العطر، ووصفه بالبر والتقوى والصلاح والاستقامة.

ولد يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ قبل مولد المسيح عيسى ابن مريم بثلاثة شهور، وعاصره وعاش معه ورافق أطوار دعوته عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقد نشأ يحيى نشأة صلاح وتقى وطهر ونقاء، بعيداً عن مظاهر الترف، فكان في شبابه يأوي القفار، ويكتفي بما يسهله الله له من الرزق. لقد عاش على الزهد وكان كثير العزلة عن الناس، يأنس إلى البراري، ويأكل من ورق الأشجار، ويرد ماء الأنهار، وكان يخاطب نفسه، فيقول: «مَن أنعم منك يا يحيى». وكان عَلَيْهِ السَّلَامُ كثير العبادة والتضرع والبكاء من خشية الله تعالى. وروى ابن عساكر أن أبويه خرجا يوماً في طلبه فوجداه عند «بحيرة الأردن» فلما اجتمعا به أبكاهما بكاءً شديداً، لما هو فيه من العبادة والخوف من الله عزَّ وجلَّ. وقد آتاه الله الحكم صبياً، وأقبل على معرفة الشريعة وأصولها وأحكامها حتى صار عالماً بارعاً متبحراً، ومرجعاً يرجع إليه في الفتاوى الدينية[١]. روي عن خيثمة أنه قال: كان عيسى ابن مريم، ويحيى بن زكريا ابنَي خالة، وكان عيسى يلبس الصوف «ما يخرج من شعر الغنم»، وكان يحيى يلبس الوبر «ما يخرج من شعر الجمل». ولم يكن لواحد منهما ديناراً ولا درهماً، ولا أمة ولا عبداً، ولا مأوى يأويان إليه، أينما جنّهما الليل أويا. فلما أرادا

(١) النبوة والأنبياء، للصابوني ص٣٢٣ ـ ٣٢٤.

أن يتفرقا قال له يحيى: أوصني، قال: لا تغضب، قال: لا أستطيع إلا أن أغضب، قال: لا تقتنِ مالاً، قال: أما هذه فعسى[١].

قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾ [مريم: ٣٣]. هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان، فإنه ينتقل في كل منها من عالم إلى عالم آخر، فيفقد الأول بعدما كان ألفه وعرفه ويصير إلى الآخر ولا يدري ما بين يديه. ولهذا يستهل صارخاً إذا خرج من بين الأحشاء وفارق لبنها وضمها وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمها. وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار، وصار بعد الدور والقصور إلى عرصة الأموات وسكان القبور. وانتظر هناك النفخة في الصور ليوم البعث والنشور، فمن مسرور ومحبور ومن محزون ومثبور، وما بين جبير وكسير وفريق في الجنة وفريق في السعير. ولما كانت هذه المواطن الثلاثة أشق ما تكون عن ابن آدم سلّم الله على يحيى في كل موطن منها. وقال سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة أن الحسن قال: إن يحيى وعيسى التقيا فقال له عيسى: استغفر لي أنت خير مني. فقال الآخر: استغفر لي أنت خير مني. فقال له عيسى: أنت خير مني سلمت على نفسي وسلم الله عليك، فعرف والله فضلهما. وأما قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدٗا وَحَصُورٗا وَنَبِيّٗا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]، فقيل: المراد بالحصور الذي لا يأتي النساء، وقيل غير ذلك.

وقال الإمام أحمد عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «**ما من أحد من ولد آدم إلا وقد أخطأ أو هَمَّ بخطيئة ليس إلاّ يحيى بن زكريا، وما ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس بن متى**». وقال ابن وهب: حدثني ابن لهيعة عن عقيل عن ابن شهاب قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه يوماً وهم يتذاكرون فضل الأنبياء، فقال قائل: موسى كليم الله، وقال قائل: عيسى روح الله وكلمته، وقال قائل: إبراهيم خليل الله، وهم يذكرون ذلك. فقال: أين الشهيد ابن الشهيد،

(١) البداية والنهاية، لابن كثير، ج٢ ص٥٢.

يلبس الوبر ويأكل الشجر مخافة الذئب. قال ابن وهب: يريد يحيى بن زكريا.

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، أنبأنا أبو خلف موسى بن خلف، حدثنا يحيى بن أبي كثير، عن زيد بن سلام، عن جده ممطور، عن الحارث الأشعري أن النبيّ ﷺ قال: «**إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن.** وكاد أن يبطئ فقال له عيسى عليه السلام: **إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن، فإما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن. فقال: يا أخي إني أخشى إن سبقتني أن أعذَّب أو يُخسف بي**» قال: «**فجمع يحيى بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشرف، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: إن الله عزَّ وجلَّ أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن:**

أولاً: أن تعبدوا الله لا تشركوا به شيئاً، فإن مثل ذلك مثل مَن اشترى عبداً من خالص ماله بورق أو ذهب، فجعل يعمل ويؤدي غلّته إلى غير سيده. فأيكم يَسُرُّه أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

ثانياً: آمركم بالصلاة، فإن الله ينصب وجهه قِبَل عبده ما لم يلتفت، فإذا صلَّيتم فلا تلتفتوا.

ثالثاً: آمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك. وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

رابعاً: آمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يده إلى عنقه، وقدّموه ليضربوا عنقه فقال: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم؟ فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فكّ نفسه.

خامساً: آمركم بذكر الله عزَّ وجلَّ كثيراً، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سِراعاً في إثره، فأتى حصناً فتحصن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عزَّ وجلَّ».

قال: وقال رسول الله ﷺ: «**وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن: بالجماعة، والسمع والطاعة، والهجرة والجهاد في سبيل الله، فإن مَن خرج عن الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومَن دعا بدعوى الجاهلية فهو من حثاء جهنم**»، قال: يا رسول الله، وإن صام وصلّى؟ قال: «**وإن صام وصلّى وزعم أنه مسلم، ادعوا المسلمين بأسمائهم بما سمّاهم الله عزَّ وجلَّ المسلمين المؤمنين عباد الله عزَّ وجلَّ**»(١).

وقال محمد بن يحيى الذهلي: حدثنا الليث، حدثني عقيل، عن ابن شهاب، قال: جلست يوماً إلى أبي إدريس الخولاني، وهو يقص فقال: ألا أخبركم بمن كان أطيب الناس طعاماً؟ فلما رأى الناس قد نظروا إليه قال: إن يحيى بن زكريا كان أطيب الناس طعاماً، إنما كان يأكل مع الوحش كراهة أن يخالط الناس في معايشهم(١).

قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبري: الذي روى عمن ذكرت في هذه الأخبار وعمن لم يذكر في هذا الكتاب، من أن بختنصر هو الذي غزا بني إسرائيل عند قتلهم يحيى بن زكريا عند أهل السِّيَر والأخبار والعلم بأمور الماضين في الجاهلية، وعند غيرهم من أهل الملل غلط. وذلك أنهم بأجمعهم مجمعون على أن بختنصر إنما غزا بني إسرائيل عند قتلهم نبيهم شعيباً في عهد إربيا بن حلقيا. وبين عهد إرميا وتخريب بيت المقدس إلى مولد يحيى بن زكريا أربعمائة سنة وإحدى وستون سنة في قول اليهود والنصارى. ويذكرون أن ذلك عندهم في كتبهم وأسفارهم مبيّن، وذلك أنهم يعدون من لدن تخريب بختنصر بيت المقدس إلى حين عمرانها في عهد كريش بن أخشو يرش سبعين سنة. ثم من بعد عمرانها إلى ظهور الإسكندر عليها وحيازة مملكتها إلى مملكته ثمان وثمانين سنة، ثم من بعد مملكة الإسكندر لها إلى مولد يحيى بن زكريا ثلاثمائة سنة وثلاث سنين. فذلك على قولهم أربعمائة سنة وإحدى وستون سنة. والنصارى تزعم أن يحيى ولد قبل عيسى بستة أشهر، وأن الذي قتله ملك لبني إسرائيل يقال له:

---

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج٢ ص٣٥٣ ـ ٣٦١.

«هيرودوس» بسبب امرأة يقال لها: «هيروذيا». وكانت امرأة أخ له يقال له: «فيفلوس» عشقها فرافقته على الفجور، وكان لها ابنة يقال لها: «رمتى» فأراد هيرودوس أن يطأ امرأة أخيه المسماة «هيروذيا» فنهاه يحيى وأعلمه أنها لا تحل له. فكان هيرودوس معجباً بالابنة، فألهته يوماً، ثم سألته حاجة فأجابها إليها. وأمر صاحباً له بالنفوذ لما تأمره به، فأمرته أن يأتيها برأس يحيى، ففعل، فلما عرف هيرودوس الخبر أسقط في يده وجزع جزعاً شديداً.

وأما ما قال ابن إسحاق: عمرت بنو إسرائيل بعد ذلك، يعني بعد مرجعهم من أرض بابل إلى بيت المقدس، يحدثون الأحداث، ويعود الله عليهم ويبعث فيهم الرسل، ففريقاً يكذبون وفريقاً يقتلون. حتى كان آخر مَن بعث فيهم من أنبيائهم زكريا ويحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم، وكانت من بيت آل داود عليه السلام. وهو يحيى بن زكريا بن أرى بن مسلم بن صدوق بن نحشان بن داود بن سليمان بن مسلم بن صديقة بن برخية بن شفاطية بن فاحور بن شلوم بن بهفاشاط بن أسا بن أبيا بن رحبعام بن سليمان بن داود. قال: فلما رفع الله عيسى عليه السلام من بين أظهرهم، وقتلوا يحيى بن زكريا عليه السلام، وبعض الناس يقول: وقتلوا زكريا، ابتعث الله عليهم ملكاً من ملوك بابل يقال له: «خردوس»، فسار إليهم بأهل بابل حتى دخل عليهم الشام. فلما ظهر عليهم أمر رأساً من رؤوس جنوده يدعى «نبوزرا أذان» صاحب القتل، فقال له: إني كنت حلفت بإلٰهي: لئن أنا ظهرت على أهل بيت المقدس لأقتلنهم حتى تسيل دماؤهم في وسط عسكري، فأمره أن يقتلهم حتى يبلغ ذلك منهم.

وإن «نبوزرا أذان» دخل بيت المقدس، فقام في البقعة التي كانوا يقرّبون فيها قربانهم، فوجد فيها دماً يغلي، وسألهم: يا بني إسرائيل، ما شأن هذا الدم يغلي؟ فقالوا: هذا دم قربان كان لنا كنا قرّبناه فلم يُقبل منا، فلذلك هو يغلي كما تراه. قال: ما صدقتموني الخبر، قالوا له: لو كان أول زماننا لقُبِل منا، ولكنه قد انقطع منا الملك والنبوة والوحي. فذبح منهم على ذلك الدم سبعمائة وسبعين روحاً من رؤوسهم فلم يهدأ، فأمر فأتى

بسبعمائة غلام من غلمانهم فذبحوا على الدم فلم يهدأ، فأمر بسبعة آلاف من بنيهم وأزواجهم فذبحهم على الدم فلم يبرد. فلما رأى «نبوزرا أذان» الدم لا يهدأ قال لهم: يا بني إسرائيل، ويلكم أصدقوني واصبروا على حكم ربكم، فقد طالما ملكتم في الأرض تفعلون فيها ما شئتم. فلما رأوا الجهد وشدة القتل صدقوه الخبر فقالوا: إن هذا دم نبيّ منا كان ينهانا عن أمور كثيرة من سخط الله، فلو أطعناه فيها لكان أرشد لنا، وكان يخبرنا بأمركم فلم نصدقه فقتلناه، فهذا دمه. فقال لهم: ما كان اسمه؟ قالوا: يحيى بن زكريا، قال: الآن صدقتموني، لمثل هذا ينتقم ربكم منكم. ثم خرّ ساجداً، وخلا في بني إسرائيل ثم قال: يا يحيى بن زكريا، قد علم ربي وربك ما قد أصاب قومك من أجلك، وما قتل منهم من أجلك. فاهدأ بإذن الله قبل ألا أبقي من قومك أحداً، فهدأ دم يحيى بإذن الله، ورفع «نبوزرا أذان» عنهم القتل، وقال: آمنت بما آمنت به بنو إسرائيل.

فلما بلغ الدم معسكر «خردوس» أرسل إلى «نبوزرا أذان»: ارفع عنهم، فقد بلغني دماؤهم، وقد انتقمت منهم بما فعلوا. ثم انصرف عنهم إلى أرض بابل، وقد أفنى بني إسرائيل أو كاد، وهي الوقعة الثانية التي أنزل الله ببني إسرائيل. يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ أُولَىٰهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ أُو۟لِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا۟ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ لِيَسُـۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ ۚ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا ۘ وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإسراء: ٤ ـ ٨]، أي: لتصلون إلى مجد عظيم تستعملونه للإفساد فإذا جاء يوم تحقيق الوعد الأول وبلغتم المجد العظيم ثم فسدتم، فسوف يدمركم الله بعباد له أقوياء أشداء يأتون دياركم ويملكونها ويذهبون ويأتون فيها دون خوف منكم. ورددنا لكم الكَرَّةَ عليهم: عدتم وتغلبتم على أعدائكم بعد أن استقمتم على دينكم. نفيراً: جنوداً وأتباعاً. وإذا جاء يوم تحقيق الوعد

الأخير أو الثاني فليأتيكم أعداء يَسْبُونكم ويقتلونكم ويكللون وجوهكم بالعار وليدخلن القدس ثم ليدمروا كل قرية فتحوها، ﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ إلى بغيكم أعاد الله عليكم الوبال والهزائم واستباحة الديار. وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً، أي: مكاناً محصوراً حبساً(١). فكانت الوقعة الأولى بختنصر وجنوده، ثم ردّ الله لهم الكرة عليهم، ثم كانت الوقعة الثانية خردوس وجنوده، وهي كانت أعظم الوقعتين فيها كان خراب بلادهم وقتل رجالهم وسبي ذراريهم ونسائهم(٢).

وذكروا في قتل يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ أسباباً من أشهرها أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج بعض محارمه أو مَن لا يحل له تزوجها، فنهاه يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ عن ذلك، فبقي في نفسها منه. فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها استوهبت منه دم يحيى فوهبه لها فبعث إليه من قتله. وجاء برأسه ودمه في طست إلى عندها، فقال: إنها هلكت من فورها وساعتها. وقيل: بل أحبته امرأة ذلك الملك فأبى عليها، فلما يئست منه تحيلت في أن استوهبته من الملك، فتمنّع عليها الملك. ثم أجابها إلى ذلك فبعث مَن قتله وأحضر إليها رأسه ودمه في طست.

وفي حديث رواه إسحاق بن بشر في كتابه المبتدأ حيث قال: أنبأنا يعقوب الكوفي عن عمر بن ميمون عن أبيه، عن ابن عباس، أن رسول الله ﷺ ليلة أُسري به رأى زكريا في السماء فسلّم عليه وقال له: يا أبا يحيى خبِّرني عن قتلك كيف كان ولِمَ قتلك بنو إسرائيل؟ قال: يا محمد، أخبرك أن يحيى كان خير أهل زمانه، وكان أجملهم، وأصبحهم وجهاً، وكان كما قال الله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٣٩]، وكان لا يحتاج إلى النساء فهوته امرأة ملك بني إسرائيل، وكانت بغيَّة، فأرسلت إليه وعصمه الله. وامتنع يحيى وأبى عليها فأجمعت على قتل يحيى، ولهم عيد يجتمعون في كل عام، وكانت سُنّة الملك أن يعد ولا

---

(١) تفسير المؤمنين، عبدالودود يوسف ص٢٢٥.

(٢) تاريخ الطبري، ج١ ص٥٨٩ ـ ٥٩٣.

يخلف ولا يكذب. قال: فخرج الملك إلى العيد فقامت امرأته فشيّعته، وكان بها معجباً ولم تكن تفعله فيما مضى، فلما أن شيّعته قال الملك: سليني شيئاً إلا أعطيتك. قالت: أريد دم يحيى بن زكريا، قال لها: سليني غيره، قالت: هو ذاك. قال: هو لك. قال: فبعث الجلاوزة إلى يحيى وهو في محرابه يصلي وأنا إلى جانبه أصلي، قال: فذبح في طست وحمل رأسه ودمه إليها. قال: فقال رسول الله ﷺ: «**فما بلغ من صبرك؟**»، قال: ما انفعلت من صلاتي.

قال: فلما حمل رأسه إليها فوضع بين يديها، فلما أمسوا خسف الله بالملك وأهل بيته وحشمه. فلما أصبحوا قالت بنو إسرائيل: غضب إلٰه زكريا لزكريا فتعالوا حتى نغضب لملكنا فنقتل زكريا. قال: فخرجوا في طلبي ليقتلوني وجاء النذير، فهربت منهم وإبليس أمامهم يدلهم عليّ. فلما تخوّفت أن لا أعجزهم عرضت لي شجرة فنادتني وقالت: إليّ، وانصدعت لي ودخلت فيها. قال: وجاء إبليس حتى أخذ بطرف ردائي، والتأمت الشجرة وبقي طرف ردائي خارجاً من الشجرة. وجاءت بنو إسرائيل فقال إبليس: أما رأيتموه دخل هذه الشجرة؟ هذا طرف ردائه دخلها بسحره. فقالوا: نحرق هذه الشجرة، فقال إبليس: شقُّوه بالمنشار شقاً. قال: فشققت مع الشجرة بالمنشار. قال له النبيّ ﷺ: «**هل وجدت له مسًّا أو وجعاً؟**»، قال: لا، إنما وجدت تلك الشجرة التي جعل الله روحي فيها.

يقول ابن كثير: هذا إسناد غريب وفيه ما ينكر، ولم يرد في شيء من أحاديث الإسراء ذكر زكريا عليه السلام إلا في هذا الحديث. وإنما المحفوظ في بعض ألفاظ الصحيح في حديث الإسراء: «**فمررت بابنَي الخالة يحيى وعيسى**»، وهما ابنا الخالة على قول الجمهور كما هو ظاهر الحديث. ثم اختُلف في مقتل يحيى بن زكريا هل كان في المسجد الأقصى أو بغيره؟ على قولين: فقال الثوري عن الأعمش عن شحر بن عطية قال: قتل على الصخرة التي ببيت المقدس سبعون نبياً، منهم يحيى بن زكريا. وقال أبو عبيد القاسم بن سلام عن سعيد بن المسيب قال: قدم بختنصر دمشق فإذا هو بدم يحيى بن زكريا يغلي، فسأل عنه فأخبروه، فقتل على دمه سبعين ألفاً

فسكن. وهذا إسناد صحيح إلى سعيد بن المسيب. وروى الحافظ ابن عساكر من طريق الوليد بن مسلم، عن زيد بن واقد، قال: رأيت رأس يحيى بن زكريا حين أرادوا بناء مسجد دمشق أُخْرِج من تحت ركن من أركان القبلة الذي يلي المحراب مما يلي الشرق، فكانت البشرة والشعر على حاله لم يتغير. وفي ذكر بناء مسجد دمشق أنه جعل تحت العمود المعروف بعامود السكاسكة، والله أعلم(١).

❋ ❋ ❋ ❋

التفتت السياسي بعد نبيّ الله سليمان عليه السلام

لقد سجّلت التوراة من بين آيات أسفار الملوك وأخبار الأيام أن جماعات إسرائيل واليهود قد استطاع ملوكهم وأنبياؤهم أن يقيموا لهم دولة في فلسطين. كما تؤكد التوراة من بين تناقضاتها أن الدولة المدعاة والتي أصبحت بالانقسام دولتين حتى قبل أن تتكون قد انتهت تماماً. الأولى «إسرائيل» في السامرة (نابلس)، وقضي على الثانية «اليهود» أورشليم، حين سقطت على يد «بختنصر» عام **٥٨٦** قبل الميلاد. ومن هذا التاريخ ودعوى العلاقة التاريخية المرتبطة بالمجتمع الإسرائيلي في شكل الدولة قد فقدت منذ الفترة التي كانت فيها البقية الباقية من عناصر الجماعات الإسرائيلية اليهودية التي كانت قد تحررت بالاحتلال البالي من عقيدة العنصرية المدعاة. لا تعرف عن الأرض إلا كل معاني الرفض في مواجهة من يذكرها بدعواها التي بليت، وأصبحت تمثل بالنسبة لهم مذلّة الضياع والتشرد. ولم يصبح في ضمير الجماعات اليهودية التي تتوالى جيلاً بعد جيل في أرض السبي أدنى إحساس بالولاء والارتباط بشيء كان يدّعيه الأول من الآباء ويتعصبون له. ولم تعد تربطهم به أدنى علاقة من دين أو تاريخ حين كانت تأتي أجيال

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج**٢** ص**٣٦٢ ـ ٣٦٥**.

السبي في شكل خليط متناقض يرفض أن يحمل آلام الأجيال. بل كانت تأتي أجيال السبي ثائرة على كل ما يربطها بالأجيال السابقة، رافضة ما يمكن أن يشدها إلى مواقع السخط من الغير، أو يتطلب منهم معاني البذل والتضحية، وحين ظهر على نفس المسرح الذي تسيطر عليه السيادة البابلية دولة الفرس بقيادة «قورش»، فإن الحال الإسرائيلي اليهودي ظلّ محاطاً بالظروف التي فرضت عليه بأن يستكين ويتخلص من دعوى الزيف والعنصرية التي كان يجترها القوم عن الأرض والدين. ورغم اختلاف القوى المسيطرة فإن مرحلة الضياع التي بدأت بالأسر البابلي ظلت كما هي تختلف من ضغط ومطاردة إلى أنواع من التشريد والمضايقة. وملك الفرس «قورش» عندما سمح للجماعات المنفية والمشردة بأن يمارسوا بعض تعلقاتهم، أدرك خطر ذلك فحرّم عليهم جميعاً العودة إلى فلسطين. والجزء الذي كان قد استغل العفو الذي منحه إياهم ذهب لكي يعيش أوهام الماضي، وابتدأ في إعادة بناء هيكل سليمان الذي كان قد تهدّم. وكانت قلة قليلة منهم عملت في البناء الذي تصوروا أمجاده وماضيه في ذلة ويأس دون تحمُّس، ولقد فضّل بعضهم أن يعود ثانية ليعيش حياة السبي المضروبة على القوم في بابل بعيداً عن أرض فلسطين.

ومهما يكن من ضجيج اللفظ اليهودي وصخبه في محاولة خلق دعوى للجماعات اليهودية يزيفون بها الحق والتاريخ حول علاقتهم ديناً وتاريخاً بالأرض العربية في فلسطين، فإن الذي لا جدال فيه أنه منذ ضربة البابليين بقيادة «بختنصر» لليهود ولمن تبقى من جماعات إسرائيل واليهود عام ٥٨٦ق.م، وكل مراحل التاريخ التي مرت بالقوم، أنهم جماعات محدودة تذوب شخصياتهم الدينية جيلاً بعد جيل، وكانوا حريصين على أن لا يعملوا للاندماج بالقوة التي تسيطر عليهم. فلما زحف الفرس وقضوا على الإمبراطورية البابلية وحكموا منطقة فلسطين، لم يكن حال اليهود غير الحال التقليدي البسيط الذي سمح لهم به في الأسر البابلي. وظلت جماعات يهود في ظل السيطرة الفارسية أقرب ما تكون إلى انعدام الوجود السياسي والاجتماعي وظلوا إلى ما يقرب من قرنين من الزمن وهم على حال من

الذل حتى تمكن الإسكندر المقدوني من احتلال بلاد فارس وعلى مناطق شاسعة استولى خلالها على فلسطين عام ٣٣٠ق.م، ولم يكن لليهود أدنى وجود سياسي أو اجتماعي. وفي المسار التاريخي كانت البداية للمرحلة الجديدة حين استولى القائد الروماني «بومبي» على فلسطين عام ٦٣ق.م. بداية الاكتساح الروماني. وكانت قد ظهرت خلال انشغال الرومان بعملية الصراع والمطاردة صور انحلال فيهم، خاصة بين القادة والساسة. وكان من آثار الانحلال الأخلاقي رغم سيطرة الرومان على شعوب المناطق المحتلة بعض فراغ نفسي وعاطفي عند جماعات اليهود الذي يتعلقون بتصور ارتباطهم ببني إسرائيل، فإن الدولة الرومانية لم تضن عليها بأن تتيح لهم فرصة حياة جديدة قبيل عصر المسيح، واستغلت الجماعات الإسرائيلية واليهودية ذلك، وابتدأوا ينسجون حول أوهام الدعوى التقليدية. وبذا أمكنهم أن يعيشوا في ظل السيادة الرومانية ويمكثوا في فلسطين دون أن يتمكنوا من تكوين شخصية اجتماعية أو سياسية(١).

❊ ❊ ❊ ❊

الأفكار والمعتقدات اليهودية في عصر الميلاد

إن الجديد الذي طرأ على جماعات اليهود، هو ظهور بعض مذاهب دينية وسياسية لم تكن تنتظم في نفسها فكراً أو عقيدة. وكل ما فيها أنها كانت سلوكاً جديداً عملت فيه النبوءة والكهانة التي ابتدأت تظهر من جديد لدعوى العنصرية والامتياز التي كان يلوكها اليهود والجماعات الإسرائيلية في العصر الذي ولد فيه المسيح عليه السلام. فقد كانت هناك طوائف دينية وسياسية مختلفة، ولكل منها في أمور الدين كهانة وأسلوب حياة، يعيش به على أوهام التاريخ المدعى، ويُكوَّن به مذهباً. وهذه الطوائف التي كانت تسيطر على الجماعات اليهودية قسراً وقهراً في ظل سيادة الرومان كانت

(١) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ص٢٥٦ ـ ٢٦٣.

عبارة عن فئات من انعدام التجانس الاجتماعي والثقافي، أشهرها خمس طوائف كانت مكان الصدارة في توجيه أسلوب العمل اليهودي، وهذه الطوائف هي عبارة عن:

١ ـ جماعات «الصدوقيين» وهم أتباع «صدوق» وأسرته الذين ادَّعى تاريخهم أنهم كانوا منذ عصر داود وسليمان يتولون أمر الكهانة الدينية. وأن الانتماء إلى هذه الجماعة يعني أنهم يحافظون على دينهم، وأنهم متشددون في مقاومة السلوك غير اليهودي، ومتشبثون بالقديم، ويؤيدون سلطان الهيكل والكهانة الدينية على يد الكهّان. ومع هذا الذي يؤثر عنهم فإن خلاصة آدابهم أنهم حرفيون في مسائل الدين متوسعون في أساليب المتعة والمعيشة، ولا يرفضون التوسع في الحياة بمشاركة الأجانب والاندماج فيهم. وبالرغم من شهرة هذه الفرقة إلا أنها لم تساير تطور الفكر الديني اليهودي، فانطفأت مع الزمن. كما أن هذه الفرقة لا يخلو أمرها من غموض في أصل اسمها، قال بعضهم: الصدوقيين الذين يسمون بالعبرية صدوقيم ربما كانوا يسمون في الأصل صديقيم، أي: الصديقيون بمعنى العاليين الأبرار، ثم غيّروها تواضعاً بحيث يصبح معناها أهل العدل. وهم لعداوتهم المرة مع المسيحيين، قد نعتوا بأوصاف كثيرة لدرجة أن التلمُود أضرب عن تسميتهم بالصدوقيين وسماهم الأبيقوريين، لأن مفهوم هذه الصفة عند اليهود والتلموديين ينطبق على من يصاب بالشك في الحقائق، مع الانفكاك من قيود الدين والأخلاق. ومهما يكن من شيء فهذه الجماعة تعتقد بما يلي:

أ ـ أنها لا تؤمن بقيامة الأموات من القبور.

ب ـ لا تؤمن بالحياة الأبدية للبشر بأفرادهم وأشخاصهم كما كانوا في الدنيا.

جـ ـ ترفض الثواب والعقاب في الآخرة.

د ـ تنكر وجود الملائكة والشياطين.

هـ ـ تنكر القضاء والقدر وما كتب للإنسان أو عليه في اللوح المحفوظ.

و ـ تقول بأن الإنسان خالق أفعال نفسه، حر التصرف وبذلك فهو مسؤول.

ز ـ تؤمن بقدسية العهد القديم ولا تؤمن بالتلمود.

٢ ـ جماعات «الفريسيين»، أي: المتميزون، وباللغة العبرية «فريسي» تعني المتميز. وهم أقوى من الصدوقيين بكثرة العدد وشيوع المبادئ والآراء وحسن السمعة بني جميع الجماعات اليهودية. وبالرغم من كل ذلك لم يكن بينهم مَن وصل إلى مرتبة الرؤساء أو مَن كان كثير الاحتكاك بذوي السلطة. وكانوا في سخط على السلوك القديم، سواء كان فكراً دينياً كان في الكتب أو هيكلاً وشعائر وعبادة، وكانوا ينكرون على الصدوقيين استبدادهم بالشعائر والمراسم، والتعلق بأسرار الكهنة والإيمان بها. إن هذه الجماعة كانت تمثل أوضاع التناقض في المجتمع اليهودي في عصر الميلاد، ووصل تأثيرها إلى الفرَق اليهودية إلى العصر الحديث. والفريسيون هم طائفة علماء الشريعة من الربانيين، وكانت لهم الكلمة العليا في توجيه المجتمع اليهودي في عهد المسيح. كما كانوا من أشد خصوم المسيح لتبحُّرهم في العلم، وزعامتهم بين الناس، ومنزلتهم عند الولاة الرومان. وكانوا يلقبون أنفسهم فيما بينهم بلقب «حسيديم» أي: الأنقياء، وكذلك «حبيريم» أي: الرفاق والزملاء، واسم هذه الجماعة بالعبرية «مزوشيم» يعني المفروزين.

والفريسيون أو الفريزيون بمسلكهم هذا يعتبرون الشريعة اليهودية منبع السعادة في الدنيا والآخرة، ويقولون: إن التوراة هي التعبير الكامل عما كان يمكن للإنسان أن يختاره لنفسه لو أنه أوتي علماً كاملاً. أما نظرتهم إلى ما يكمل في رأيهم التوراة من شرائع وحكايات في المشنا والتلمود والمدارس بكل ما تحتوي من «هلاخا» أي: تشريع، و«هجادا»، أي: قصص فإنهم يعتبرون كل ذلك مندمجاً في التوراة. بحيث لا يمكن الإيمان بهذه التوراة مع الشك في مكملاتها. لقد وصفوا بأنهم متزمتون عن جهل وتنطُّع في الدين، وبأنهم حرفيون شكليون، وبأنهم جدليون منافقون، وبأنهم يمثلون انحطاطاً بالنسبة لأسلافهم ومسخاً وتشويهاً لما كان لهؤلاء الأسلاف من فضائل.

وبحكم القيادة الدينية التي حرص الفريزيون على أن تبقى في أيديهم، فإنهم تعرضوا لكثير من المواقف التي اختلفت فيها تصرفاتهم بحسب الظروف، فهم كانوا دائماً حريصين على غرس بذور الصهيونية في نفوس عوام الأرض، وتوجيههم إلى احتقار الأمم والأجناس والأديان الأخرى، وحضهم جهاراً أحياناً وسراً أحياناً على رفض أية حكومة أجنبية غير يهودية تهيمن عليهم. ومن هنا كانوا دائماً وراء القلاقل والاضطرابات وأعمال التخريب والمؤامرات التي ظلّ اليهود يقومون بها في منطقة الشرق الأوسط. وكانوا إذ ذاك قلة قليلة وسط ملايين كثيرة من السكان الآخرين في كل هذه المنطقة بما فيها فلسطين طوال العهدين اليوناني والروماني، حتى انتهت بتشريدهم نهائياً، فبتعصبهم وتشددهم كانوا مسؤولين عن «الدياسبورا» وهي التشريد الروماني لليهود، وهم أيضاً مسؤولون أمام الرأي العام العالمي عن كل التفاسير التي وجهوا بها النصوص المقدسة جهة الصهيونية السياسية في العصر الحديث.

٣ ـ جماعات «الأساة» وتعتبر نفسها أنها وحدها الجزء المتبقي من الضياع من صميم الأمة الإسرائيلية. ومع أن هذه الجماعات قد استقلت بشعائرها وعباداتها وآرائها، وكل أسرار الدين والكهانة التي خلعوها على أنفسهم، إلا أنهم داخل الارتباط بالجماعات اليهودية كانوا يشكلون تناقضاً حاداً فيما بينهم. والأساة تشكل واحدة من المجموعات الشهيرة في عصر ميلاد المسيح عليه السلام، وقد ظلت منطوية على نفسها في سلوكها وعبادتها. وفي منشأ تسمية «الأساة» اختلف الكثير من الباحثين حول دلالة الاسم، ويحتمل أن يكون مأخوذاً من كلمة «أس» بمعنى الطبيب أو النطاسي في اللغة الأرامية. وأن الأساة كانوا يقومون بإبراء المرضى بالصلوات والأوراد بنفس الدرجة التي كانوا يدَّعون العلم بخصائص المواد والعقاقير.

٤ ـ جماعات «الغُلاَة» وهم متطرفون ومبالغون في السلوك المتقشف أكثر من جماعات «الأساة» وهم يسمون من واقع سلوكهم ونظرتهم إلى أمور العبادة والحياة «الغُلاَة» أو الجليليون أتباع يهوذا الجليلي. ورغم عدم تفاقم

شأنهم فإنهم قد نظموا حركة تمرد كرد رافض لأمر الإحصاء الذي أصدره «كرينياس» حاكم سورية كي يصبح اليهود بموجبه عبيداً للقيصر الروماني.

إلا أن هذه الثورة التي قادها «الغلاة» انتهت بقتل يهوذا الجليلي قائد المجموعة المتمردة ومعه أبناؤه والقوة المحيطة به. ولم يكن لهذه الطائفة أدنى أثر من توجيه ديني أو تأثير أخلاقي رغم المبالغة والتطرف(١).

وقد يطلق عليهم جماعات القنائيين، وهم ليسوا فرقة في تاريخ الأديان، وإنما هم شعبة يمتازون بالتطرف الشديد، والعنف، بحيث يمكن وصفهم بأنهم سياسياً ودينياً «غلاة» اليهود. وكلمة «قناء» التي يتسمى بها كل فرد من هذه الجماعة الدينية معناه في استعمال العبريين «الغيور» أو «صاحب الحمية». ويقول المفسرون اليهود: إن من أشهر القنائيين الذين أخذتهم الغيرة لله، من عهد موسى «فنحاص بن العازر بن هارون» الذي أُثر عنه في سفر العدد هذا الخبر، وهو أن فرقة القنائيين التي تكونت في الفترة المحيطة بمولد المسيح، كانت تستوحي من أمثال هذه الحكايات دستوراً للعنف والتطرف والمغالاة، وكانت بوادر هذا الاتجاه قد ظهرت في عهد أحبار المشنا، فقد جاء في باب القضاء أن مَن يسرق أدوات الخدمة الدينية، ومَن يعمل عملاً سحرياً للإضرار، ومَن يتزوج بامرأة أرامية، فإن القنائيين كانوا يقتلونه. وقد أصبح «قضاء القنائيين» مضرب الأمثال في القوة، وجعل ذلك الفريزيين الذين لا يختلفون عنهم من الناحية الاعتقادية أو التشريعية يعادونهم بسبب هذا الغلو والإرهاب الذين يشتهرون به لدرجة أنهم كانوا يسمون «سيقاريقيين» وهي كلمة يهودية من ألفاظ التلمود ومعناها «الإرهابيون» كما أنهم سموا في بعض الوثائق «بريوناي» أي: الخارجون عن القانون(٢).

---

(١) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ج١ ص٢٥٨ ـ ٢٦٧.

(٢) الفكر الديني الإسرائيلي، د. حسن ظاظا ص٢٦٠، دائرة المعارف العبرية في مادة «صدوقيم» ج٩.

٥ ـ جماعات السامرية: وتمثل تناقضات المجتمع اليهودي قبل ميلاد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهي في مكوناتها البشرية تمثل خليطاً من اليهود والآشوريين الذين كانوا يقيمون بالاختلاط والمعاشرة بين جماعات إسرائيل القدامى. لقد تأثر جزء من الآشوريين باليهود، ولم يعد من المتيسر التمييز بين اليهودي القديم المدعي لعنصرية الدين وعصبية الجنس، وبين الآشوري حين مارس شعائر اليهودي وسلوكه. وكانت طائفة «السامرية» تمثل أنموذجاً من انفتاح الجماعات اليهودية بتقاليدها وعاداتها على غيرها من الجماعات البشرية المخالفة لها، إلى الحد الذي ذهب معه بعض من غلاة اليهود إلى الثورة على طائفة السامرية حين أصبحت خليطاً من اليهود وغيرهم من سلوك واحد وعقيدة واحدة مظاهرها التحلل من كل ارتباط بالدين اليهودي. وكان من أثر ذلك أن أنكرت الطوائف اليهودية من السامريين هذا الانخراط في الجنسيات المخالفة لهم إلا أنها لم تبالِ برأي الغلاة المتعصبين. لقد بنوا لهم هيكلاً خاصاً بهم ومارسوا فيه شعائر هيكل بيت المقدس، وظلّ هذا الهيكل في «جرزيم» مكان نابلس، وكانت عاصمة مملكة سليمان المنشقة على ما ترك سليمان بعد وفاته.

وهكذا يزعم السامريون أنهم البقية الباقية على الدين الصحيح. وأن موسى كان يجعل قبلته نحو «بيت إيل»، وأن يعقوب ـ الجد الأعلى للعبرانيين ـ قد بنى معبده في هذا المكان في «جرزيم» نابلس. أما داود وسليمان فقد غيَّرا من شكل المجتمع الديني، وأنهما غيَّرا القبلة القديمة. كما غيَّر الأنبياء الذين ظهروا بعد موسى شكل الدين وحرّفوه، ولذلك فإن عقيدة السامريين تتلخص في الآتي:

أ ـ الإيمان بإله واحد، وبأن هذا الإله روحاني بحت.

ب ـ الإيمان بأن موسى رسول الله، وأنه خاتم رسله. يؤمنون بيوم القيامة ويُسمُّونه يوم البعث أو يوم الموقف العظيم.

جـ ـ الإيمان بتوراة موسى وتقديسها وبأنها كلام الله.

د ـ الإيمان بجبل جرزيم المجاور لنابلس وبأنه المكان المقدّس الحقيقي، وهو القبلة الحقيقية الوحيدة لبني إسرائيل.

وقد ترتب على هذا أنهم لا يؤمنون بنبوة الأنبياء الذين جاءت أسفارهم بعد توراة موسى. ويعتبرون كل هذه النصوص من صنع البشر، وأنها من عمل قوم ضالِّين مضللين، ولا يستثنون من ذلك إلا يوشع بن نون الذي يأتي سفره بعد توراة موسى مباشرة. وهم ينتسبون إلى هارون أخي موسى، ويقول المعتدلون من اليهود الربانيين: إن أصل هؤلاء السامريين لا يمت إلى العبريين بصلة، فهم جماعة من أخلاط الناس، ومن «الجوييم» المتعاونين مع أعداء اليهود، إذ أحضرهم الآشوريون إلى هذا المكان وأحلُّوهم محل بني إسرائيل تنفيذاً للعنة إلٰهية حلّت على بني إسرائيل لإجرامهم وإغضابهم الرب. والذين يقولون بذلك لا يسمون السامريين بهذا الاسم بل يسمونهم «الكوتيين» أي: الذين جاؤوا مع الآشوريين من كوت. كما أن كثيراً من اليهود ينفون عن السامريين الانتساب إلى إسرائيل أو الإيمان بإلٰه إسرائيل، وأن أحبار اليهود يسمونهم جيران السباع(١).

أما ما جاء في الموسوعة الدينية عن الأفكار والمعتقدات للفرق اليهودية فكان كما يلي:

١ ـ الفريسيون: أي: المتشددون، ويسمون بالأحبار أو الربانيين، وهم متصوفة رهبانيون لا يتزوجون، لكنهم يحافظون على مذهبهم عن طريق التبني، يعتقدون بالبعث وبالملائكة وبالعالم الآخر.

٢ ـ الصديقيون: وهي تسمية من الأضداد لأنهم مشهورون بالإنكار. فهم ينكرون البعث والحساب والجنة والنار، وينكرون التلمود، كما ينكرون الملائكة والمسيح المنتظر.

٣ ـ المتعصبون: وفكرهم قريب من فكر الفريسيين لكنهم اتصفوا بعدم التسامح وبالعدوانية. قاموا في مطلع القرن الميلادي الأول بثورة قتلوا

---

(١) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ج١ ص٢٦٧ ـ ٢٨٠.

فيها الرومان، وكذلك كل من يتعاون من اليهود مع هؤلاء الرومان، فأطلق عليهم اسم «السفاكين».

٤ ـ الكتبة أو النسّاخ: عرفوا الشريعة من خلال عملهم بالنسخ والكتابة، فاتخذوا الوعظ وظيفة لهم. يسمون بالحكماء، وبالسادة، وواحدهم لقبه أب، وقد أثروا ثراءً فاحشاً على حساب مدارسهم ومريديهم.

٥ ـ القرَّاؤون: هم قلة من اليهود ظهروا عقب تدهور الفريسيين وورثوا أتباعهم. لا يعترفون إلا بالعهد القديم، ولا يخضعون للتلمود ولا يعترفون به بدعوى حريتهم في شرح التوراة.

٦ ـ السامريون: طائفة من المتهودين الذين دخلوا اليهودية من غير بني إسرائيل، كانوا يسكنون جبال بيت المقدس، أثبتوا نبوة موسى وهارون ويوشع بن نون، دون نبوة مَن بعدهم. ظهر فيهم رجل يقال له: (الألفان) ادعى النبوة، وذلك قبل المسيح بمائة سنة، وقد تفرقوا إلى دوستانية وهم الألفانية، وإلى كوستانية ـ أي: الجماعة المتصوفة ـ. وقبلة السامريين إلى جبل يقال له: «غرزيم» بين بيت المقدس ونابلس، ولغتهم غير لغة اليهود العبرانية[١].

إن الموقف الديني والاجتماعي لهذه الأفكار والمعتقدات للفرق اليهودية، والتفاوت الطبقي الذي كان عليه المجتمع الإسرائيلي في عصر الميلاد في ظل رضوخه لقوى القهر الاجتماعي والسياسي التي كانت تحكمه، وأن التركيبة العقائدية مذهبياً وسلوكياً في فرق الدين ومذاهب السياسة، وبما تمثله في جوهرها رفضاً متوارثاً لكل قضايا الإصلاح. ولقد كان للمزيج الوثني في تكوين أسس المعتقد الديني للفرق والطوائف اليهودية في عصر الميلاد أثره على اتجاهات الفرق والمذاهب الكثيرة التي انبعثت بعد ذلك من التطور الذي طرأ على الفكر الديني عند جماعات إسرائيل.

❊ ❊ ❊ ❊

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض ص٥٦٨.

العهد القديم يضم «التوراة»

إن حوادث التاريخ المسجلة في العهد القديم لا يستقيم سياقها ولا تقدم وحدة موضوعية لمجريات الحوادث. ومع ذلك فإن هناك من بين جوانب التناقض التي قصّ أخبارها العهد القديم، وتمثل بعض الشواهد التي تقوم دليلاً في بعض الأحيان. ومن بعض الشواهد في غير ما قصد من السجل التوراتي عن التحرير العربي القديم للغزو الإسرائيلي القديم لفلسطين. وكان ذلك في الفترة ما بين عصرَيْ القضاة والملوك، والتي حاول فيها الإسرائيليون أن يشددوا قبضتهم على العرب مكان الأرض. فلم تتمكن الجماعات الإسرائيلية من محو الشخصية العربية، فالتقاليد والأزياء والمعمار وكل مظاهر الحياة العامة لم تتأثر، على الرغم من مواصلة المضايقة الإسرائيلية والمطاردة والغزو، بل قاوموا ذلك، وطالت المعارك بينهم حتى أمكن للعرب أن يحولوا القوة الإسرائيلية إلى أفراد وجماعات تعيش على هامش المجتمع العربي.

ففي التوراة عندما يبدأ المؤلف التوراتي يقص لمرحلة أو يحكي عن مجموعة حوادث، نجد من بين ما يصنع هزالاً أو عدم استيعاب لما سجله الغير يجعل من المتيسر للباحثين في موضوعية ضبط حالات كثيرة من التناقضات الصارخة والكذب المفضوح والزيف المدّعى، ويمكن بها وعلى ضوئها تصوير الملامح العامة لكثير من التفاصيل المرتبطة بتاريخ الوجود الإسرائيلي الغريب. فمثلاً حين تجيء التوراة وتؤرخ في سفر القضاة قبل عصر الملوك أنها لا تستطيع أن تكشف عن أبطال الحوادث في مرحلة الضياع التي تعرضوا لها والتي اضطروا فيها إلى إخلاء معظم الأرض التي استولوا عليها وإلى التخلي عن دينهم ترجعها التوراة إلى المعصية. وأي غفلة دينية في كل تاريخ القوم، وهم في حالة ادعاء بتنزيه أنفسهم عنها حتى يكرروها في كل مناسبة. يقول سفر القضاة من الإصحاح الثاني: «وفعل بنو إسرائيل الشر في عين الرب وعبدوا البعلم وتركوا الرب إلٰه آبائهم الذي أخرجهم من أرض مصر. وساروا وراء آلهة أخرى من آلهة الشعوب الذين

حولهم، وسجدوا لها وأغاظوا الرب، وتركوا الرب وعبدوا البعلم وعشتاروت، فحمي غضب الرب على إسرائيل، فدفعهم بأيدي ناهبين فنهبوهم، وباعهم بأيدي أعدائهم، حينما خرجوا كانت الحرب عليها للشر، كما تكلم الرب، وكما أقسم لهم، فضاق بهم الأمر جداً». وهكذا تقول التوراة فإن مرحلة طويلة قد حلّت بالقوم بعد ضربات ضاعوا فيها على يد سكان الأرض وأهلها جعلتهم يتخلون عن معتقداتهم، والإلٰه الذي ادعوا وجود علاقة خاصة بينهم وبينه. ويستمر حال القوم هكذا بين ضياع وتشرد في هذه المرحلة من عمر زيف الدعوى التي ضللوا بها التاريخ وما يتشدقون به من مبررات دوَّنها القوم فيما بينهم حسب المصلحة والهوى بأنهم شعب الله المختار الذين لهم كل شيء وليس عليهم من شيء.

يقول الإصحاح الرابع من سفر القضاة: «وعاد بنو إسرائيل يعملون من الشر في عين الرب بعد موت «أهود» فباعهم الرب بيد «يابين» ملك كنعان. وهكذا نرى أنه بعد الفترة الطويلة التي بدأت بالغزو في عهد «يشوع بن نون» ثم ظهور سفر القضاة، فإن الفلسطينيين كما تعبّر التوراة كانوا يستطيعون أن يقيموا على أرضهم سلطاناً. فسفر القضاة هو الذي يذكر بين إصحاحاته، أن ملك «آرام» غزا بني إسرائيل فاستعبدهم ثماني سنين. ثم خلصوا منه بعد أن ضعف عنهم العرب واستراحوا أربعين سنة، ثم استعبدهم ملك عجلون ثماني عشرة سنة. ثم لما خلصوا منه استعبدهم أيضاً ملك حاصور ثماني عشرة سنة، ثم أهل مدين والشرق سبع سنين. ولقد طال عليهم حكم «جدعون» الذي خلصهم من المدينيين أربعين سنة، وابنه «إبيمالك» ثلاث سنوات. ثم قضي لهم توقع الثاني ثلاثاً وعشرين سنة، و«بائين» القاضي اثنين وعشرين سنة بعد جدعون وابنه، واستعبدهم بعدهما العمونيون ثماني عشرة سنة. وقضى لهم «يفتاح» الذي خلصهم ست سنوات، ثم قضي لهم بعده سبع سنوات، و«إيلون» عشر سنوات. و«جدون» ثماني سنوات، ثم استعبدهم الفلسطينيون أربعين سنة.

وكل هذه الأخبار التي ترد بين إصحاحات سفر القضاة تؤكد لنا أن الجماعات الإسرائيلية لم تستطع عبر كل مراحل تاريخها أن تحظى باستيطان

تاريخي مستقر في الأرض التي توجهت إليها بالغزو، بل إن الفلسطينيين كما تعبّر التوراة كانوا يستطيعون أن يقيموا لهم على أرضهم سلطاناً مثل «يابين» الذي ملك في كنعان، كما ذكر سفر صموئيل الأول (الإصحاح الرابع). و«كنعان» هي الأرض العربية منذ سماها العرب الذين استوطنوها واستقروا فيها وسموها بهذا الاسم. والكنعانيون هم من العرب، والفلسطينيون هم من العرب أي: سكان الأرض العربية التي تسمت بهذا الاسم «فلسطين». وهم الذين أقاموا لهم ممالك، وكان الإسرائيليون مغلوبين على أمرهم قبل قيام الفترة التي كان فيها الملوك والأنبياء في بني إسرائيل، ومع كل ذلك الميراث المدّعى، وما أوضحته مصادر القوم لم يستطع الإسرائيليون الذين أعملوا السيف وزيّفوا المقصد أن يميعوا شخصية الشعب العربي في فلسطين، أو أن يفرضوا عليه واقع الأطماع وزيف العنصرية البغيضة. ولم يقبلهم الشعب العربي في جواره وعلى أرضه إلا في الفترة التي انتقلت بهم الرسالة الدينية في محاولة من الدعاة المرسلين مرحلة الملوك من الأنبياء المرسلين. هذه المرحلة القائمة على معجزة الوحي الإلٰهي، والتي هي في طبيعتها مفتوحة سمحة تسع الأجناس جميعهم، وتشبع في القوم جميعاً احتياجات الأمن بغض النظر عن أجناسهم وألوانهم. ولما كانت هذه المرحلة في تاريخ القوم هي المرحلة التي لم يعمل فيها العرب على مقاومتهم، ولم يشهروا سلاحهم نظراً لاحترامهم قداسة الدين الإلٰهي وتقبلهم بعض تعاليمه[١].

فمنهاجية التوراة ككتاب في التاريخ يفتقر إلى فكرة التكامل الموضوعي أو العقائدي في العهد القديم، وأن معظم القصص الديني أو التاريخي لا يستقيم، فضلاً عن قداسة الوحي الإلٰهي حين يقص أو يسجل أو يوجه. وأن عصمة الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد قد لا يصدق بعضه أو لا يتوافق مع روح العدوان والشر والخطيئة المسجلة في معظم آيات العهد القديم وما لحق بأسفاره. فالتوراة كتاريخ لا تكاد تزيد عن كونها مجموعة

(١) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ج١ ص١٦١ ـ ١٦٦.

من القصص التي صيغت في جو مجاف للعقل والمنطق غاص بالمتناقضات مشبع بالسخف مفعم بمشاعر العدوان والتعطش إلى الدماء في إطار سمات نفسية تغذيها نزعات الجشع والغرور والاستعلاء، وتحركها دوافع الجنس والعدوان الذي لا يهدأ حتى مع الدم المراق. ولم تفتأ اليهودية تفاخر العالم متباهية بأنها هي التي هدته إلى ديانة التوحيد. إلا أن الرؤية الحقيقية لمفهوم التوحيد اليهودي كما هو مستقى من التوراة بعد أن قاموا بتحريفها وتبديلها.

فالمعنى المستخلص مما ورد بالتوراة بعد تبديلها وتحريفها عن الله ـ جلّ وعلا عما يقولون ـ يتلخص في أن «إلٰه» إسرائيل لم يكن الله سبحانه وتعالى كما تفهمه البشرية في ديانات التوحيد اليوم. ولكنه كان مجرد إلٰه قبلي خاص ببني إسرائيل، على غرار الآلهة التي كانت للحضارات الأخرى المعاصرة. ومن هنا كان من السهل أن ينتقل بنو إسرائيل من عبادة «يهوه» إلٰههم إلى عبادة غيره من الأرباب المتاخمين والمعاصرين لهم. وهذا يتفق فيه الكثيرون من علماء الدين المقارن وبعض من علماء اليهود، فالقصص الوارد بسفري التكوين والخروج لا تؤخذ كتاريخ حرفي. إنها أساطير كتبت بعد عدة قرون، ونقلاً عن ذاكرة أفراد من العبرانيين تناقلوها جيلاً بعد جيل: أن الله جلّ شأنه كان لدى العبرانيين في أول الأمر إلٰهاً قبلياً يحميهم بوصفهم من نسل إبراهيم عليه السلام. وكان معروفاً أن إبراهيم قد عبده، ومن بعده ابنه إسحاق ثم يعقوب الذي سمي إسرائيل. وتدريجياً أخذ الاعتقاد ينتشر بين العبرانيين اليهود بأن هذا الإلٰه القبلي هو الإلٰه الواحد لكل الخليقة. وقد استغرق هذا الاعتقاد لكي يتكون قروناً طويلة، ومرّ بمراحل متعددة من خلال أنبيائهم، بالإضافة إلى ما يفهم من التوراة التي دوّنها اليهود، أنه لم يكن سوى رب قبلي لا يطابق مفهوم التوحيد بمعانيه الروحية السامية. فبينما يذكر «الرب» جلّ جلاله في إطار من المهابة والجلال إذا به يوضع في مواضع لا تليق بالعزة الإلٰهية، فقد صوّرته التوراة ـ تعالى عما يقولون ـ في صورة المساوم من أحد عباده، كما جاء في التوراة المحرفة في سفر التكوين الإصحاح «٢٨: ٢٠، ٢١» من أن نبيّ الله يعقوب عليه السلام قال: «إن كان الله معي وحفظني في هذا الطريق الذي أنا سائر فيه وأعطاني

خبزاً لآكل وثياباً لألبس، ورجعت بسلام إلى بيت أبي يكون الرب لي إلٰهاً» وهذا القول المبدل والمحرّف يعني أن «الرب» إن لم يقبل الصفقة فإن يعقوب لن يقبله إلٰهاً، تعالى الله عن ذلك.

ونسبت التوراة إلى الله عزَّ وجلَّ من الصفات ما هو من صفات العامة من البشر، فعزت إليه جلّ شأنه في سفر التثنية الإصحاح «٢٤» أنه أقسم حين قال لموسى: «هذه هي الأرض التي أقسمت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب، قائلاً لنسلك: أعطيها» كما عزت إليه أيضاً في سفر العدد الإصحاح «١٢، ١٤» أنه انطلق في سلوك اندفاعي غاضب على هارون ومريم لأنهما تكلما مع موسى بسبب المرأة الكوشية التي اتخذها، وإذا بهذا الغضب يبطش بمريم فتبدو كالبرصاء، وحين يشفع موسى للرب بشأنها يجيبه الرب قائلاً: «ولو بصق أبوها في وجهها أما كانت تخجل سبعة أيام»، ولم يفت التوراة أن تنسب لرب إسرائيل النسيان والتذكرة، فقالت في سفر الخروج الإصحاح «٢: ٢٣، ٢٤»: «وتنهّد بنو إسرائيل من العبودية وصرخوا، فصعد صراخهم إلى الله من أجل العبودية، فسمع الله أنينهم، فتذكر الله ميثاقه مع إبراهيم وإسحاق ويعقوب».

كما لم يفت لتوراتهم المحرّفة أن تنسب للرب ـ تعالى عما يصفون ـ الندم حسبما جاء بسفر الخروج الإصحاح «٣٢، ١٠» أن الله حين غضب على بني إسرائيل لرجوعهم عن عبادته وعودتهم إلى عبادة العجل الذي صنعوه بعد أن طال غياب موسى عليهم دخل الله مع موسى في جدل ونقاش وخاطبه قائلاً: «اتركني ليحمي غضبي عليهم وأفنيهم». وفي سفر الخروج الإصحاح «٣٢، ١٢» وحاول موسى استغفار ربه فلم يجد سبيلاً لذلك إلا هذه العبارة يوجهها إليه: «ارجع عن حمو غضبك واندم على الشر بشعبك». وفي سفر الخروج الإصحاح «٣٢، ١٢»، ثم تابع خطابه للرب فيما يشبه التأنيب تقدست أسماؤه وصفاته «اذكر إبراهيم وإسحاق وإسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك، وقلت لهم: أكثر من نسلكم كنجوم السماء، وأعطي نسلكم كل هذه الأرض التي تكلمت فيملكونها إلى الأبد». وفي سفر الخروج الإصحاح «٣٢، ١٤» وقد كان لكلام موسى هذا أثره

المرجو: «فندم الرب على الشر الذي قال إنه يفعله بشعبه» بيد أن هذه لم تكن هي المناسبة الوحيدة التي ندم «الرب» فيها على ما كان يوشك أن يُنزله دافع الغضب ببني إسرائيل، فما أكثر المناسبات التي تروي توراتهم المحرّفة: انطلق فيها رب إسرائيل مندفعاً في غضبه ثم تراجع منحصراً في ندمه. ولم يكن هذا هو الموقف الوحيد الذي دخل فيه «إلٰه» إسرائيل في نقاش مع عباده، فإن التوراة غاصّة بمناقشات لا حصر لها بين الله تعالى وبني إسرائيل. وليت الذي ألف هذه المناقشات فطن إلى الاحتفاظ لها بما ينبغي أن تكون عليه من سمو ووقار. وقد وصل الإسفاف في هذه المناقشات أحياناً إلى الحد الذي جعل «إلٰه» إسرائيل يسأل موسى ذات يوم قائلاً: «حتى متى يهينني هذا الشعب»، ثم إلى حد التهديد بألا يرى جميع الذين أهانوه في الأرض التي حلف بها لآبائهم» سفر العدد الإصحاح «١١، ١٤، ٢٣»[1].

واليهود كتابيون موحّدون وذلك هو الأصل. ولكنهم كانوا يتجهون إلى التعدد والتجسيم والنفعية مما أدى إلى كثرة الأنبياء فيهم لردهم إلى جادة التوحيد كلما أصابهم انحراف في مفهوم الألوهية. فقد اتخذوا العجل معبوداً لهم بعد خروجهم من مصر، ويروي العهد القديم بأن موسى قد عمل لهم حية من نحاس وأن بني إسرائيل قد عبدوها بعد ذلك، كما أن الأفعى مقدّسة لديهم لأنها تمثل الحكمة والدهاء.

فالإلٰه لديهم اسمه «يهوه» وهو ليس إلٰهاً معصوماً بل يخطئ ويثور ويقع في الندم وهو يأمر بالسرقة، وهو قاس متعصب، مدمر لشعبه. إنه إلٰه بني إسرائيل فقط، وهو بهذا عدو للآخرين، إنه يسير أمام جماعة من بني إسرائيل في عمود من السحاب.

وعزرا هو الذي أوجد توراة موسى بعد أن ضاعت، فبسبب ذلك وبسبب إعادته بناء الهيكل سمّي عزرا ابن الله، «وهو الذي يسميه القرآن

(١) المرجع السابق ج١ ص١٧٦ ـ ١٨٢.

العزير». وفي بعض مراحلهم عبدوا آلهة البلعيم والعشتارت، وآلهة آرام، وآلهة صيدوم، وآلهة مؤاب، وآلهة عمون، وآلهة الفلسطينيين. ويعتقدون بأنهم شعب الله المختار، وأن أرواح اليهود جزء من الله. وأن الثواب والعقاب إنما يتم في الدنيا، والثواب هو النصر والتأييد، والعقاب هو الخسران والذل والاستعباد. والقرابين تشمل الضحايا البشرية إلى جانب الحيوان والثمار، ثم اكتفى الإلٰه بعد ذلك بجزء من الإنسان وهو ما يقتطع منه في عملية الختان التي يتمسك بها اليهود إلى يومنا هذا، فضلاً عن الثمار والحيوان إلى جانب ذلك.

فقد فقدت توراة موسى بعد تخريب الهيكل أيام بختنصر، فلما كتبت مرة ثانية أيام أرتحشتا ملك فارس جاءت محرّفة عن أصلها. قال الله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [المائدة: ١٣]. إن ديانتهم خاصة بهم، مغلقة على الشعب اليهودي. قال الله تعالى: ﴿وَضُرِبَتْ﴾ [البقرة: ٦١]. لم يرد في دينهم شيء ذو بال عن البعث والخلود والثواب والعقاب إلا إشارات بسيطة، ذلك أن هذه الأمور بعيدة عن تركيبة الفكر اليهودي المادي(١).

إن هذه الأمثلة القليلة لعشرات مثلها ككتاب تاريخ تكشف من قيمة التوراة فإذا كانت صورة (إلٰه إسرائيل) ذاتها لم تعصَم من هذا التناقض والابتذال، فهي في الوسع مراجعة تقبل محتويات الكتاب الذي يأتلفها على أنها حقائق التاريخ؟ أو أنه حسبنا النظر إليها كمجموعة من الأباطيل التي صنعها الخيال ليصل من صنعها إلى تحقيق غرض معين؟ إن هناك تناقض في سفر التثنية، السفر الأخير في المجموعة المعروفة باسم «أسفار موسى الخمسة» الذي تزعم فيه التوراة أن موسى هو كاتب هذه الأسفار. فإذا كان

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض ص٥٧٠ ـ ٥٧٣.

موسى هو كاتبها فكيف تسنّى له أن يذكر قصة موته بتفصيلاتها. وإن إجماع الرأي هو أن هذه الأسفار كتبت بعد عهد موسى بزمن طويل وأنها مركبة النشأة، وأنها أدمجت بواسطة الأحبار وصيغت في صورتها الحالية في القرن الرابع قبل الميلاد. وأن كتابتها بدأت أثناء فترة السبي البابلي، ومن ثم تكون التوراة كتاباً مقدّساً وتاريخياً يحاول فرض مضمونه على الحاضر والمستقبل كما حاول فرضه على الماضي. فالتوراة كلما تدعمت قيمتها ككتاب مقدس تضاءلت الريبة وصدق ما تضمنته من وقائع على أنها من حقائق التاريخ التي لا ينبغي الشك فيها. ولقد أدركت اليهودية الصهيونية هذه الحقيقة فأحسنت استغلالها إعلامياً لدعم ما زعمت أنه حقها في إنشاء دولة إسرائيل.

ومَن يطالع التوراة المحرّفة مطالعة إمعان وتمحيص يتبين له أنها تنطوي حتى أسفارها الأخيرة على فكرة محورية لا تفتأ تدور حولها في تكرار. هذه الفكرة ذكرت أن الله تعالى قد منحها إبراهيم بإعطائه هذه الأرض من نهر مصر إلى النهر الكبير نهر الفرات. وأعاد الرب وعده لإسحاق فيما جاء في سفر التكوين الإصحاح «٢٦: ٢ ـ ٤»: «اسكن في الأرض التي أقول لك تغرب في هذه الأرض فأكون معك وأباركك. لأني لك ولنسلك أعطي جميع هذه البلاد وأفي بالقسم الذي أقسمت لإبراهيم أبيك وأكثر نسلك وأعطي نسلك جميع هذه البلاد ويتبارك في نسلك جميع أمم الأرض». ثم استأنفت التوراة تكرارها لذلك العهد في سفر التكوين الإصحاح «٢٨: ٢٣ ـ ١٥» في قول الرب مخاطباً يعقوب: «والأرض التي أنت مضجع عليها أعطيها لك ولنسلك ويكون نسلك كتراب الأرض وتمتد غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً ويتبارك فيك وفي نسلك جميع قبائل الأرض». وجاء موسى وكان لا بد للتوراة أن تعيد هذا المعنى معه، فقالت في سفر الخروج الإصحاح «٦، ٤»: إن الله خاطب موسى قائلاً: «وأيضاً أقمت معهم عهدي أن أعطيهم أرض كنعان أرض غربتهم التي تغربوا فيها». ثم قوله أيضاً في سفر الخروج الإصحاح «٦:٧»: «وأتخذكم لي شعباً وأكون لكم إلٰهاً». وتمضي فتقول أيضاً على لسان الرب مخاطباً موسى في سفر الخروج الإصحاح «٢٣:١»: «اذهب اصعد من هنا أنت والشعب الذي

أصعدته من أرض مصر إلى الأرض التي حلفت لإبراهيم وإسحاق ويعقوب قائلاً لنسلك: أعطيها». وفي آخر حياة موسى تقول التوراة في وصف بني إسرائيل في سفر التثنية الإصحاح «١٢: ١ ـ ٢»: «وأنتم أولاد الرب إلٰهكم لأنك شعب مقدس للرب إلٰهك وقد اختارك الرب لتكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض».

وهكذا وصل الأمر بالله تعالى، فيما شاءت التوراة أن تزعم إلى أنه بالرغم من كل المعاصي والآثام التي حفل بها تاريخ بني إسرائيل، وبرغم ما كان يغضبه منهم بين الحين والحين، فإنه كان غضباً أقرب إلى التدليل، وكان ما يثور غضبه حتى يعقبه العفو والغفران لأنهم أبناؤه المقربون. وبعد أن تولى يشوع بن نون قيادة إسرائيل بعد موسى ودخل بهم أرض كنعان كانت المهمة قد تمت إذ «أعطى الرب إسرائيل جميع الأرض التي أقسم أن يعطيها لآبائهم فامتلكوها وسكنوا بها» سفر يشوع الإصحاح «٢١ ـ ٤٣». وبنهاية سفر يشوع يكون الوعد قد أعطي والعهد قد وفي واستقر الأمر ببني إسرائيل «شعب الله المختار» في «الأرض الموعودة» أي: تكون هذه الأسفار قد حققت الغاية منها وأتمّت المهمة التي كتبت من أجلها. وهكذا صنع أحبار بني إسرائيل تاريخهم للماضي وللمستقبل معاً. وهكذا عملوا على أن يضمنوا الحياة والبقاء مصوناً ككتاب تاريخهم بما أحاطوه من هالة وقداسة. فخالوا أنهم يحفظونه بذلك منزَّهاً بعيداً عن بواعث الشك وهواتف الريبة والنقد[1].

والتوراة اسم عبري ومعناه: «القانون»، وهي الأسفار التي تنسب إلى موسى عليه السلام، وتتكون من خمسة أسفار: «التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية». وهذه الأسفار الخمسة هي قسم من مجموع أسفار بني إسرائيل. والسفر يطلق على الكتاب الكبير، وهو جزء من التوراة، وجمعه أسفار. وكل سفر من التوراة ينقسم إلى عدة فراسات، و«الفراسة» معناها «السورة»، وتنقسم كل فراسة إلى عدة أبسوقات، و«الأبسوقة» معناها «الآية».

---

(١) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ج١ ص١٨٤ ـ ١٨٧.

وأسفار بني إسرائيل قسمها الباحثون إلى قسمين: العهد القديم، وهو أسفار ما قبل عيسى عليه السلام، والعهد الجديد وهو أسفار ما بعد عيسى عليه السلام، والعهدان القديم والحديث يسميان «بيل» وهو اصطلاح يوناني.

والأسفار من الموضوعات الشائكة التي يستلزم البحث فيها دراسة دقيقة متأنية نزيهة. فالبحث في التوراة ما زال موضوع نقاش شائك، ما فتئ يختلف موضوعه، ويختلف نهجه ولهجته تبعاً لعقيدة الباحث وعقليته، والمصادر التي يعتمد عليها. فمن الباحثين من ينظر إلى موسى وأنبياء بني إسرائيل من بعده نظرة احترام وإجلال، فيقف موقف الحذر المتروي مما ينسب إلى الأنبياء والمرسلين، ومن هؤلاء علماء المسلمين الذين يؤمنون بما أُنزل عليهم، ومنهم مَن تجاوز شكه بهذه الكتب كالمستشرقين الذين أطلقوا للشك عقاله وألقوا حبل التهم على غاربها.

فالرواد القدامى من المسلمين تقيدت أكثريتهم برأي «ابن عباس» في التوراة، وما يقال عن التبديل والتفسير فيها. فمن رأي ابن عباس: أن تبديل الكلم عن مواضعه تحريفه بالتفسير والتأويل اللذين اختلطا بنص التوراة بصورة جعلت من العسير تمييز ما هو من توراة موسى مما هو من تفسير أحبار اليهود. ويستشهد لرأيه بقوله تعالى: ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [المائدة: ٤٣]، أي: عندهم التوراة وفيها حدود الله. وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: ٩١]، أي: أن الأحبار من اليهود احتفظوا بكتاب موسى في قراطيس فأبدوا بعضها وأخفوا كثيراً منها. فما جاء في هذه الآيات الكريمة يدل: على أن اليهود دوَّنوا الكتاب الذي جاء به موسى عليه السلام، وأنهم كانوا في عصر نزول القرآن يبدون بعضه ويخفون بعضه. ومن الطبيعي أنهم يبدون ما يرونه في مصلحة موقفهم من الإسلام والعرب، وما يرونه يُسوِّغ أخطاءهم التاريخية فهم يكتمونه.

وإذا ما رجعنا إلى معلومات الباحثين في الأسفار نجد اختلاف اللغات التي دونت بها الأسفار، وكذلك في تفسير المفسرين وتأويل المؤولين اللذين اختلطا بنصوص الأسفار التي تُسند إلى موسى عليه السلام، ومَن جاء بعده من أنبياء بني إسرائيل اختلاطاً يجعل تميز الأصل من المؤول والتفسير من المتن من أصعب الصعاب(١). يقول ابن النديم: سألت رجلاً من أفاضلهم عن التوراة التي في يد اليهود، وعن أسماء كتبهم، فقال: أنزل الله جلّ اسمه على موسى عليه السلام التوراة وهي: خمس أخماس، وقال: لموسى كتاب يقال له: «المشنا» ومنه يستخرج اليهود: علم الفقه والشرائع والأحكام، وهو كتاب كبير ولغته. ومن كتب الأنبياء بعد ذلك كتب «يهوسع» و«سفطي» و«شمويل» و«سفر أشعيا» و«سفر إرميا» و«سفر حزقيل» و«ملخى» وهو سفر داود وأصحابه ويعرف بتفسير ملخى الملوك و«الأنبياء» وهو اثنا عشر سفراً صغاراً، ولهم كتب يقال لها: «بطارات» مستخرجة من كتب الأنبياء الثمينة. ومن كتبهم «عزور» و«دانيال» و«أيوب» و«سيرسيرين» و«أخا» و«روث» و«قوهلت» و«زبور داود» و«أمثال سليمان» و«ديوان الأيام» فيه سيرة الملوك وأخبارهم و«حشوارش» ويسمى «المجلة»(٢).

ويؤكد دروزة كغيره: أن في أسفار موسى عليه السلام عبارات كثيرة تدل على أن هذه الأسفار لم تكتب من قبل موسى ولا في أيامه ولا بإملائه. وإنما كتبت بعدة أقلام كتاب عديدين، وفي أزمنة مختلفة، وقد تكون كتبت بعده بمدة طويلة، بل قد كتبت أو أعيدت كتابتها بعد سبي بني إسرائيل من أورشليم القدس، وعودتهم من السبي في القرن السادس. ويفرض على بقية الأسفار مثل هذا الفرض(٣). والتوراة: مجموعة أسفار كتبها جماعة من الأنبياء في أوقات مختلفة، كتبوا أكثرها في فلسطين، وأما ما تبقى منها مثل: سفر «حزقيال» و«المزامير» فقد كتبت في وادي الفرات أيام السبي. وأقدم الأسفار هو سفر «عاموس» ويظن أنه كتب حوالى سنة **٧٥٠**ق.م، أما

(١) العرب في أحقاب التاريخ، أمين مدني ج**٢** ص٨٥ ـ ٩١.
(٢) الفهرست: لابن النديم ص**٣٢** ـ **٣٣**.
(٣) تاريخ بني إسرائيل من أسفارهم: محمد دروزة ص٦ ـ ٩.

آخر ما كتب منها فهو سفر «دانيال»، والإصحاحان: الرابع والخامس من سفر «المزامير» وقد كتبت هذه في القرن الثاني قبل المسيح. وهناك نوعان من التلمود: «التلمود الفلسطيني» الأورشليمي، وقد تعاونت على تجبير هذه الشروح والتفاسير المدارس اليهودية في «الكنيس»، وأقدم صورة من صوره في أواسط القرن الثالث الميلادي، وقد أضيفت إليه بعد ذلك شروح وتفاسير عدة إلى أن اتخذ هيئته النهائية في القرن الرابع الميلادي. والنوع الثاني: «التلمود البابلي» فقد بدأ في كتابته الحبر «آشى»، وأكمله الأحبار من بعده إلى أن اتخذ صيغته النهائية في أوائل القرن السادس للميلاد. ولكل من التلمودين طابع خاص به، هو طابع البلد الذي وضع فيه(١).

والتوراة لم تدوَّن حرفياً، ولم يدوِّنها الذين عاصروا موسى ولا الأجيال القريبة من عصر موسى. والتوراة دوِّنت بعدة لغات، وفي كل مرة دوِّنت فيها الأسفار اختلط بأصلها ما يؤوله المؤولون ويفسره المفسرون. وقلَّ أن تطابق كلمة بكل معانيها كلمة أخرى إذا ما نقلت من لغة إلى لغة، وقلَّ أن تجد نسخة خطية من الأسفار مطابقة للنسخة الأخرى التي دوِّنت بعدها أو قبلها. والأسفار: قديم العهد منها وجديده، لم تخلُ في اعتقاد المسلمين مما نزل على الأنبياء، ولا تخلو كذلك من المحرّف والمؤول. ولذلك وقف المسلمون منها موقف الحذر، فهم لا يشكون إلا فيما يثبت التحقيق الريبة فيه، وهم لا يُصَدِّقون إلا ما يؤكد التحقيق والثقة فيه. وموقف الرواد المسلمين من التوراة في مظهريه: التصديق والشك، لم يكن باعثه التعصب ضد اليهود، لأنهم أعداء الإسلام، أو التعصب لمصلحتهم لأنهم كتابيون يؤمن المسلمون بما نزل على أنبيائهم. وإنما الإيمان بما نزل على الأنبياء هو الذي بعث الحذر مما انتحله المؤولون والمفسرون وزجوه في صلب الأسفار(٢).

إن التوراة وكتب الأنبياء بعد موسى عليه السلام، وقد دوِّنت بعد وفاة

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام، جواد علي ج١ ص٢٢ ـ ٢٤.
(٢) نظرات في القرآن، محمد الغزالي ص٥٣ ـ ٥٥.

الذين نسبت إليهم الأسفار. فقد دوِّنت التوراة بعد قرون كثيرة من وفاة موسى، فمن المحال أن تحتفظ بضعة أجيال في ذاكرتها بحرفية التوراة ونص ألفاظها. وإن توراة موسى وأسفار الأنبياء من بعده نقلت من لغة إلى لغة ودونت عصراً بعد عصر. وأن الذين نقلوها من لغة إلى لغة ودوّنوها جيلاً بعد جيل تركوا لأنفسهم الحرية في التأويل بدافع ما يفرضه نقل كتاب من لغة إلى لغة. وجرياً مع ما يلائم بيئة اللغة ومنطق أصحابها، وما يمليه تطور الزمن وتجدد الحياة، ويساير ما ارتأته المدارس اليهودية وقرره أحبارها. نتج عنها الفهم اليهودي عن اعتبار بعض الأسفار على أساس ديني إلى فهمها على أساس أدبي وتاريخي. ونتج عنها جمع النصوص القانونية في كتاب التعاليم «المشنا» في عام **٥٠٠** ميلادية، ونسبت هذه المجموعة إلى موسى[(١)].

ورأي المؤرخين المسلمين المتأخرين في التوراة واضح في تحقيقاتهم، وتحقيقاتهم تعترف بأن هناك كتباً أُنزلت على أنبياء بني إسرائيل. بيد أنها تشك في الأصول التي تداولها الإسرائيليون وأسباب الشك عند المتأخرين هي الأسباب عينها التي جعلت القدامى يشكون في أصول الأسفار. ولقد جاءت تحقيقات أكثر المستشرقين تؤكد أسباب الشك، فتحقيقات هؤلاء تؤكد أن أصول الأسفار التي دوِّنت في بداية تدوين اليهود وأسفارهم قد فقدت. وأن المدارس اليهودية زادت عليها فيما تجدد تدوينه بتفاسير اجتهد المفسرون فيها بتأويل ما التبس عليهم وما رأوه في مصلحة العقيدة اليهودية ومبادئها وأهدافها. ولقد عدت تفاسير المفسرين وتأولاتهم جزءاً من الأسفار التي ذكر البحث أسماءها، وهي قليل من كثير تكملة لبحث الأسفار وتشمل الآتي:

أ ـ القسم الأول من العهد العتيق: «سفر التكوين ويسمى سفر الخليقة، سفر الخروج، سفر الأخبار، سفر العدد، سفر التثنية» هذه الأسفار الخمسة منسوبة إلى موسى عليه السلام. «سفر يوشع بن نون، سفر القضاة،

---

(١) موسوعة تاريخ العالم ج١ ص٦٦ ـ ٦٧.

سفر داعوث، سفر صموئيل الأول، سفر صموئيل الثاني، سفر صموئيل الملوك الأول، سفر صموئيل الملوك الثاني، سفر أخبار الأيام الأول، سفر أخبار الأيام الثاني، سفر عزرا، سفر عزرا الثاني ويسمى نحميا، سفر أيوب، سفر زبور، سفر أمثال سليمان، سفر الجامعة، سفر نشيد الإنشاد، سفر أشعيا، سفر أرميا، سفر مرائي أرميا، سفر حزقيال، سفر دانيال، سفر هوشع، سفر يوئيل، سفر عاموس، سفر عوبديا، سفر يونان، سفر ميخا، سفر ناحوم، سفر حبقوق، سفر صفونيا، سفر حجى، سفر زكريا، سفر ملخيا».

ب ـ القسم الثاني من العهد العتيق: «سفر أستير، سفر باروخ، جزء من سفر دانيا، سفر طوبيا، سفر يهوديت، سفر وزدم، سفر إيكليزيا ستيكس، سفر المكابيين الأول، سفر المكابيين الثاني».

ففي كتاب إظهار الحق لرحمة الله الهندي الذي نقل عنه القسم الأول والقسم الثاني من العهد القديم، يبين عدم وجود سند متصل لها. وما في هذه الأسفار من اختلاف وأغلاط، ما فيها من تحريف لفظي وتحريف بالزيادة والنقص، وبيَّن الرسائل المنسوبة إلى غير واضعيها، والكتب المفقودة. وإن قيمة الخبر الموجود في الأسفار في نظر المؤرخ تقدَّر على أساس تاريخ الخبر، وأن على كل مؤرخ ألا يأخذ خبراً ما لم تثبت صحته سوء كان الخبر من الأسفار أو من غيرها(١).

العهد القديم: هو كتاب مقدس لدى اليهود، إذ أنه سجل فيه شعر ونثر وحكم وأمثال وقصص وأساطير وتشريع وينقسم إلى:

أ ـ التوراة: وفيه خمسة أسفار: التكوين أو الخلق، الخروج، اللاويين أو الأخيار أو العدد، التثنية، ويطلق عليها أسفار موسى.

ب ـ أسفار الأنبياء المتقدمين: يشوع «يوشع بن نون» قضاة، صموئيل الأول، صموئيل الثاني، الملوك الأول، الملوك الثاني.

---

(١) التاريخ العربي ومصادره، أمين مدني ج**٢** ص**٨٥ ـ ١٠٩**.

جـ ـ أسفار الأنبياء المتأخرين: أشعيا، أرميا، حزقيال، هيوشع، يوئيل، عاموس، عوبديا، يونان «يونس»، ميخا، ناحوم، حبقوق، صفنيا، حجي، زكريا، ملاخي.

د ـ الكتابات: الكتابات العظيمة: المزامير «الزبور»، الأمثال «أمثال سليمان» أيوب.

هـ ـ المجلات الخمس: نشيد الإنشاد، راعوثْ، المرائي «مرائي أرميا»، الجامعة، أستير.

و ـ الكتب: دانيال، عزرا، نحميا، أخبار الأيام الأول والثاني. وهذه الأسفار السابقة الذكر معترف بها لدى اليهود، وكذلك لدى البروستانت، أما الكنيسة الكاثوليكية: فتضيف سبعة أخرى هي: «طوبيا، يهوديت، الحكمة، يسوع بن سيراخ، باروخ، المكابين الأول والثاني».

ز ـ أستير ويهوديت: كل منهما أسطورة تحكي قصة امرأة تحت حاكم من غير بني إسرائيل حيث تستخدم جمالها وفتنتها في سبيل رفع الظلم عن اليهود، فضلاً عن تقديم خدمات لهم.

حـ ـ التلمود: هو روايات شفوية تناقلها الحاخامات حتى جمعها الحاخام «يوضاس» سنة **١٥٠** ميلادية في كتاب أسماء «المشنا» أي: الشريعة. وقد أتمّ الربي يهوذا سنة **٢١٦** ميلادية تدوين زيادات وروايات شفوية. وقد تمّ شرح هذه المشنا في كتاب سمي «جمارا» ومن المشنا والجمارا يتكون «التلمود»، ويحتل التلمود عند اليهود منزلة مهمة جداً تزيد على منزلة التوراة[1].

كتاب التلمود يحتوي على صفحات بقيت محرمة على غير اليهود، وبإزاحة ستائر كثيفة عن الأسرار التي تحمل رائحتها عفونة آلاف السنين. إن كتاب التلمود كتاب رهيب يأتمن على أسراره الرهيبة بني إسرائيل الذين

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي، الرياض ص**٥٦٩**.

يطمعون في ضمان حكم العالم على حسب توقعاته وإنه يورثها لهم منذ العصور القديمة إلى عهد الذرة بالأمانة جيلاً بعد جيل. وليس التلمود بكتاب قوانين أو عادات أو تقاليد أو إيمان فحسب، بل إنه كتاب حرب وإستراتيجية في الوقت نفسه بما يحتويه من مناورات منظمة تخدم اليهود في جو كل دولة وفي كل عهد. إنه كتاب يشرح الأفكار الطيبة والوصايا الحسنة الواردة في كتاب التوراة، يشرحها ويفسرها تفسيراً سلبياً ضاراً يوحي باتباع سياسة الخفاء والرياء والنفاق تجاه مَن ليسوا منهم. والتلمود إثر جهود لمئات من علماء اليهود تمّ تأليفه قبل **٥٧١٨** سنة بفضل الأعمال الأكاديمية التي أوجدها سنة **٤٤٤** قبل الميلاد، «أزرا، ونهيمان» المرشدان العبريان بإلهام استمداه من معبدهما. كان هؤلاء واثقين من أنفسهم بأن أحفادهم يكونون أسياد العالم إن عاجلاً أو آجلاً، ويتقدمون نحو هذه المزاعم الباطلة بخطى ثابتة لوصول بني إسرائيل يوماً ما إلى حكم العالم مهما كان الثمن.

يطلق في التلمود على «هلل، وشرماي» من فلاسفة اليهود «ربي» وإنه بمعنى «سيدي» أو يطلق عليهم اسم «تنايم»، أي: المدرس صاحب السلطة والنفوذ. وكان القسم الشفوي من التلمود الذي يكلف حفظه شفوياً قد صيغ من «تنايم» في شكل يساير كل زمان ومكان. و«المشنا» قسم من الأقسام الأساسية للتلمود، وهو مقسم إلى ست «سدوريم» أي: ست وصايا وهي:

أولاً: «**زرايم**» وتعني البذور: وتنظم قوانين المراسيم الخاصة بالزروع والمحاصيل والحصاد، وتهتم بلجان الاحتفال وبالأدعية وبالقداس.

ثانياً: «**مود**» تعني الموسم: وتتعلق بالطقوس الخاصة بأيام السبت وبأيام قدسية أخرى.

ثالثاً: «**نوشيم**» تعني النساء: وتتعلق بقوانين الطلاق والزواج.

رابعاً: «**نزيكين**» أي: تعويض: وتتعلق بقوانين مدنية وجنائية.

خامساً: «**كود وشيم**» تعني المقدسات: وتتعلق بالأضاحي التي تجعل قرباناً للآلهة وبطقوس تقام من أجلهم.

سادساً: «**طهورس**» أي: الطهارة: وتتعلق بمثل طهارة الوضوء والاغتسال قبل البدء في القيام بالطقوس المختلفة.

هذه الأقسام الستة التي قسم إليها «المشنا» تحتوي على ثلاثة وستين فصلاً، وكل فصل من هذه الفصول يسمى «ماسشتاس» أي: الرسالة، وتلقن بالإيحاء في كل فصل من هذه الفصول وهي مثل: «اليهود عنصر متفوق، واليهود وحدة وحيدة، يا أيها اليهود لا تضلُّوا عن اليهود، اليهود أصحاب كل شيء، اليهود فوق الكائنات كلها، اليهود ثم اليهود ولا قوم إلا اليهود». كل رسالة من هذه الرسائل تقسم بدورها إلى «براكم» أي: قسم، كل قسم يقسم إلى فقرات. ومع أن «المشنا» بسيطة في النظرة الأولى إلا أنه يؤثر على حياة اليهود اليومية تأثيراً بالغاً يكفي لإخراجهم عن جادة الصواب[١].

كانت المعاهد العبرية في فلسطين تدرّس التلمود دراسة شاملة، وكانت تلك المجامع العبرية بجوار بابل يتصل بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً. ولما كانت فلسطين تجابه الحروب بكثرة وأخطار الاستيلاء عليها مضافاً إليها تلك الأخطار التي نشبت بسبب تغلب القوة المعنوية المسيحية على القوة الروحية اليهودية فيها. نشطت معاهد فلسطين بشكل سريع فجمعت المعلومات في مجموعة، وبذلك أخرج «التلمود الفلسطيني إلى حيز الظهور مع أنه لا ينافس في حجمه تلمود بابل الضخم. ويطلق على تلمود فلسطين أنه خلاصة للقسم الأول من تلمود بابل الذي بدأت البحوث فيه قبل تلمود فلسطين بمدة. ولعب العالم «أببا» الدور الرئيسي في تحقيق «تلمود بابل» جاعلاً المعاني الأصلية المقصودة تحتوي على أخطاء تتمثل في التنقيط. والذين عكفوا على دراسة التلمود من غير اليهود أثبتوا تعمد اليهود هذه الأخطاء الشائعة حتى تفيد الجمل معاني كثيرة. ويثبت التاريخ أن اليهود لا يرتاحون إلى إجراء البحوث عن التلمود، إذ من البحوث التي أجراها غير اليهود عنه سببت ثورات دامية. ومن وصايا الربي «جوهانان» من كتاب

(١) الإسلام وبنو إسرائيل، الجنرال جواد آتلخان ص٨١ ـ ٨٤.

«سانهيدرين» عقاب بالقتل لغير اليهود الذين يبحثون في تلمود التوراة ويصححونه ويحققون فيه، لأنه وضع لليهود دون غيرهم، وهو ميراث لليهود فقط[١].

وعلى الرغم من حيطة اليهود فإن بعض أسرار التلمود تسربت ولفتت أنظار الناس، فكانت سبباً في دفع الكثيرين من بختنصر إلى هتلر لإعلان الحرب على التلمود، ومن هؤلاء بالترتيب ما يأتي: «في سنة **١٢٤٤**م أمر ملك فرنسا لويس الرابع عشر بإحراق نسخ التلمود، وكذا أمر البابا إنّنوسنت الرابع بإحراق نسخ التلمود في روما، وفي سنة **١٣٠٩**م أمر فيليب ملك فرنسا بطرد اليهود منها بعد أن أحرق نسخ التلمود تحت إشرافه حين ظهر له تشيع يهود فرنسا للتلمود الذين لا يتزحزحون عنه وانتظر اليهود مدة طويلة الفرصة حتى ينتقموا لأنفسهم فلما سنحت لهم الفرصة بإقامة الثورة الفرنسية عام **١٧٨٩**م أغرقوا بها فرنسا في بحر من الدماء رغم ضآلة عددهم، وفي سنة **١٣١٩**م أمر الملك لويس بإحراق نسخ التلمود، وفي سنة **١٣٢٢**م أحرقت نسخ التلمود في روما بأمر من الباب جون الثاني، وفي سنة **١٣٥٥**م أمر البابا يوليوس الثالث بإحراق نسخ التلمود، وفي سنة **١٥٥٤**م أعيد حرق التلمود في إيطاليا، وفي سنة **١٥٥٧**م جمع شعب بولندا الذي أدرك خطورة هذا الكتاب جميع نسخ التلمود فأحرقها».

إن الأسباب التي أدّت إلى نفر الناس من كتاب التلمود الذي أثار كراهيتهم لما يحمله من أسرار دفعت الناس إلى إحراقه عبر التاريخ، ولو لم يحرق أصحاب العقول السليمة نسخ التلمود لأحرقهم. وإن الأحكام التي يحتويها التلمود تقدم لنا أمثلة صغيرة لا أهمية لها في مظهرها، ولكنها عميقة الدلالة في مغزاها لأن آثارها خطيرة لفداحة المقصود من موضوعاتها، والأمثلة على ذلك كثيرة منها: «إن بني إسرائيل وحدهم بنو آدم وليس غيرهم، وإن غير اليهودي لا يمكن أن يكون لليهودي أخاً، والثيران يناطح بعضها بعضاً، أي: أنه يقصد به عدم معاقبة الإسرائيلي إذ

---

(١) المرجع السابق ص٨٥ ـ ٨٧.

جرح شخصاً غير يهودي، وكذلك إذا جرح ثور كنعاني ثور يهودي فعلى الكنعاني العقاب. أما إذا جرح ثور يهودي ثور يهودي آخر فيجب عقاب المعتدي قانونياً. بينما يناقش موضوع عقوبة الجرح الذي يحدثه ثور يهودي في ثور كنعاني. وإن الله لا يغفر قط لمن يعيد إلى غير اليهودي ماله. وإذا سرق غير اليهودي مال يهودي أو هرب بامرأة يهودية حسناء فعليه أن يعيد إلى اليهودي فوراً كل ما أخذه، وعند عكس الآية فلليهودي أن يحتفظ بالأموال المسروقة أو المرأة التي هرب بها، وإن على غير اليهودي أن يسدد دينه ولكن إذا كان المدين يهودياً فلا إجبار عليه».

ومن أحقر فصل من فصول التلمود هو «كثوبوت» الذي يتناول الاتصال الجنسي الذي أجرى بحوثه الحاخام الدكتور «صموئيل دايتش» بالتعاون مع الدكتور «إسرائيل وسلوتكي» جاءت في كثوبوت ١١/ب بقسم أحوال الكبار الذين يتصلون اتصالاً جنسياً بالصغار والعكس، ونقتبس منه الفقرات المستهجنة التالية: «إذا اتصل رجل كبير بصغيرة اتصالاً جنسياً فيجب أن يعتبر اتصاله هذه كإصبع غرست في العين. وكذلك إذا اتصل غلام بامرأة يعتبر اتصاله هذا كغصن أدخل في فرجها. وتعود بكارة بنت اغتصبت عودة دموع الإنسان إلى عينه. والعروس التي اتصلت بالرجال وهي صغيرة عليها أن تبلغ عريسها الأمر عند الزواج إذ لا يسيل دم البكارة فلا يستلطفها الزوج. ويقدم النصح بالامتناع عن تكرار الفعل إلى شخص لاط في غلام أو صغيرة أو زوجته، وذلك إذا صرخ أحد هؤلاء في أثناء اللواط وسمع الجيران الصراخ وإن كانت زوجته فيطلب منه ألا يعود لمثل ما فعله مدة من الزمن. وإذا أجرت امرأة بمالها بعد استئذان زوجها شخصاً ليتصل بها اتصالاً جنسياً فليس في عملها هذا ما يشينها. وأما إن كان الشخص المأجور غير يهودي فعملها مشين لأن المستفيد في هذه الحالة هو غير يهودي. والذي ينام مع أخته ثم يتفرقان في لذات جنسية دون أن تشكوه أخته فلا قبح في فعلهما هذا. والذي توفي أبوه عن أمه الشابة التي ترغب في الارتماء في أحضان رجال غرباء وتمّ الاتصال الجنسي برغبة متبادلة بينها

وبين ابنها دون استعمال القوة فالأمر لا يخصنا. وإذا أراد الابن أن يتزوج واعترضته أمه فعليه أن يقوم بإشباع شهوة كل من زوجته وأمه»[١].

إن لمصادر العقيدة الدينية الإسرائيلية اليهودية عبر مراحل التاريخ يلخص بوضوح فكراً أخلاقياً ومعتقداً دينياً وسلوكاً تطبيقياً في الحياة العامة يرتبط بمصدر ديني مكتوب يضاف إلى قداسة المصدر الديني المعتقد المسمى بالعهد القديم. وهذا المصدر هو «التلمود» الذي اكتسب في نفوس الجماعات الإسرائيلية على المدى الطويل قداسة واهمة تفوقان كل مقدس. والتلمود قد أصبح التوراة الحقيقية في عواطف القوم ومعتقداتهم. وهو جملة من القواعد والتفاسير والروايات المتعلقة بدين وتاريخ وجنس بني إسرائيل على مدى التاريخ. والقداسة الدينية للتلمود يكاد يكون بدعاً بين الأمم والشعوب بل إنها ظاهرة شاذة في تاريخ العقيدة الدينية. أن تتحول الاجتهادات والتفاسير والتعاليم المنبثقة من مصدر مقدّس إلى أهمية سياسية وقداسة دينية في وقت واحد وتفوق في أهميتها وقداستها المصدر الديني الأم والتي هي أصلاً من أجله، وذلك هو أمر التلمود بالنسبة للتوراة. فبينما هو في الأصل تفاسير الحاخامات ورجال الكهانة الدينية اليهودية لآيات التوراة، وهي التي تملأ عقيدة القوم ووجدانهم بأنها أفكار وحي وتعاليم من السماء. ومع كل هذا الجدب العقائدي والتخلف التعبدي فإن الذين قاموا على أمر العقيدة الإسرائيلية عبر مراحل التاريخ قد قدموا للتاريخ الإنساني عامة والتاريخ العقائدي خاصة أبشع وأحط ما تفصح عنه عقيدة وما يعبر عنه أصحابها من سلوك[٢].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

---

(١) المرجع السابق ص٨٧ ـ ٩٧.

(٢) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ج٢ ص١٠٧ ـ ١١١.

الفصل السادس
المسيح عيسى ابن مريم
عليه السلام

الصديقة مريم ابنة عمران العذراء البتول
أم عيسى عليهما السلام

قال الله عزّ من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾ [آل عمران: ٣٣]. يذكر الله تعالى أنه اصطفى آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ والخُلَّص من ذريته المتبعين شرعه الملازمين طاعته. ثم خصص فقال: ﴿وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ﴾ فدخل فيهم بنو إسماعيل، ثم ذكر فضل هذا البيت الطاهر الطيب وهم: (آل عمران)، والمراد بعمران وهذا والد مريم عَلَيْهَا السَّلَامُ، وكان رجلاً عظيماً بين العلماء في بني إسرائيل.

وقال ابن إسحاق: هو عمران بن باشم بن أمون بن ميشا بن حزقيا بن أحريق بن موثم بن عزازيا بن أمصيا بن ياوش بن أحريهو بن يازم بن يهفاشاط بن إيشا بن إيان بن رحبعام بن سليمان بن داود. وقال ابن عساكر: مريم بنت عمران بن ماثان بن العازر بن اليود بن أخنز بن صادوق بن عيازوز بن الياقيم بن أيبود بن زريابيل بن شالتال بن يوحنا بن برشا بن أمون بن ميشا بن حزقا بن أحاز بن موثام بن عزريا بن يوارم بن يوشافاط بن إشا بن إيبا بن رحبعام بن سليمان بن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ. وفيه

مخالفة لما ذكره بن إسحاق، ولا خلاف أنها من سلالة داود عليه السلام. وكان أبوها عمران صاحب صلاة بني إسرائيل في زمانه، وكانت أمها وهي حنة بنت فاقوذ بن قبيل من العابدات. وكان زكريا نبيّ ذلك الزمان زوج إيشاع أخت مريم قول الجمهور، وقيل: زوج خالتها أيشاع، فالله أعلم.

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: ٣٥، ٣٦].

وقد ذكر محمد بن إسحاق وغيره أن أم مريم كانت لا تحبل فرأت يوماً طائراً يَزقُّ فرخاً له، فاشتهت، الولد فنذرت لله لئن ولدت لتجعلن ولدها محرراً، أي: حبيساً في بيت المقدس. قالوا: فحاضت من فورها فلما طهرت واقعها بعلها فحملت بمريم عليها السلام ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾، أي: في خدمة بيت المقدس، وكانوا في ذلك الزمان ينذرون لبيت المقدس خُدَّاماً من أولادهم. وقولها: ﴿وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ استُدل به على تسمية المولود يوم يولد، عن سعيد أنبأنا قتادة عن الحسن عن سمرة بن جندب عن رسول الله ﷺ قال: «**كل غلام رهين بعقيقته تذبح عنه يوم سابعه ويحلق رأسه ويسمى**»[(١)]. وقولها: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبيّ ﷺ قال: «**ما من مولود يولد إلا ينخسُهُ الشيطان فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان، إلا ابن مريم وأمَّهُ**». قال أبو هريرة: اقرأوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾، فكل مولود ينزل من بطن أمه ينخسه الشيطان، أي: يطعنه في خاصرته فيصرخ إلا عيسى وأمه عليهما السلام، فذهب يطعن فمنعه الحجاب إجابة لدعوة أم مريم رضي الله عنهما[(٢)].

---

(١) سنن النسائي ج٧ ص١٦٦ العقيقة حديث رقم ٤٢١٧.

(٢) التاج الجامع للأصول، منصور علي ناصف، كتاب النبوة والرسالة ج٣ ص٢٩٩.

قال الله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّاۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ قَالَ يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧﴾ [آل عمران: ٣٧]. ذكر كثير من المفسرين أن أمها حين وضعتها لفّتها في خروقها ثم خرجت بها إلى المسجد فسلّمتها إلى العباد الذين هم مقيمون به، وكانت ابنة إمامهم وصاحب صلاتهم فتنازعوا فيها، والظاهر أنها سلّمتها إليهم بعد رضاعها وكفالة مثلها في صغرها. ثم لما دفعتها إليهم تنازعوا في أيهم يكفلها، وكان زكريا نبيهم في ذلك الزمان، وقد أراد أن يستبد بها دونهم من أجل زوجته أختها أو خالتها على القولين. فشاحّوه في ذلك وطلبوا أن يقترع معهم، فساعدته المقادير فخرجت قرعته غالبة لهم، وذلك أن الخالة بمنزلة الأم. كما قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ٤٤﴾ [آل عمران: ٤٤]، قالوا: وذلك أن كلاً منهم ألقى قلمه معروفاً به، ثم حملوها ووضعوها في موضع وأمروا غلاماً لم يبلغ الحنث فأخرج واحداً منها وظهر قلم زكريا عليه السلام. فطلبوا أن يقترعوا مرة ثانية وأن يكون ذلك بأن يلقوا أقلامهم في النهر فأيهم جرى قلمه مع الماء فهو الغالب ففعلوا، فكان قلم زكريا هو الذي جرى على خلاف جرية الماء، وسارت أقلامهم مع الماء. ثم طلبوا منه أن يقترعوا ثالثة فأيهم جرى قلمه مع الماء ويكون بقية الأقلام قد انعكس سيرها صعداً فهو الغالب ففعلوا، فكان زكريا هو الغالب لهم فكفلها إذ كان أحق بها شرعاً وقدراً لوجوه عديدة.

قال المفسرون: اتخذ لها زكريا مكاناً شريفاً من المسجد لا يدخله سواها، فكانت تعبد الله فيه وتقوم بما يجب عليها من سدانة البيت وتقوم بالعبادة ليلها ونهارها، حتى سار يضرب بها المثل بعبادتها في بني إسرائيل. واشتهرت بما ظهر عليها من الأحوال الكريمة والصفات الشريفة، حتى كان نبيّ الله زكريا كلما دخل عليها موضع عبادتها يجد عندها رزقاً غريباً في غير أوانه. فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف فيسألها ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾؟ فتقول: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾، أي: رزق رزقنيه الله،

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾، فعند ذلك طمع زكريا في وجود ولد من صلبه، وإن كان قد أسن وكبر، ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: ٣٨]. قال بعضهم: قال: يا مَن يرزق مريم الثمر في غير أيامه هَبْ لي ولداً وإن كان في غير أوانه. فكان من خبره وقضيته ما قدّمنا ذكره في الفصل الخامس(١). قال الله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: ٤٢]. فقول الملائكة: أي: اختارك واجتباك ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من الأخلاق الرذيلة وأعطاك الصفات الجميلة ﴿وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾. يحتمل أن يكون المراد عالمي زمانها، ويحتمل أن يكون قوله على محمل العموم فتكون أفضل نساء الدنيا ممن كان قبلها أو جاء بعدها لأنها كانت نبية (على من يقول بنبوتها) محتجاً بكلام الملائكة. وأما قول الجمهور كما قد حكاه أبو الحسن الأشعري وغيره عن أهل السنّة والجماعة من أن النبوة مختصة بالرجال، وليس في النساء نبية. فيكون أعلى مقامات مريم كما قال الله تعالى: ﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ﴾ [المائدة: ٧٥]. فعلى هذا لا يمتنع أن تكون أفضل الصديقات المشهورات ممن كان قبلها وممن يكون بعدها. والله أعلم. وقد جاء ذكرها مقروناً مع آسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ رضي الله عنهن وأرضاهن. حدثنا عبدالرزاق، أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس رضي الله عنه أن النبيّ ﷺ قال: «**حَسْبُكَ من نساء العالمين: مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة ابنة محمد، وآسية امرأة فرعون**»(٢). والمقصود هاهنا ذكر ما يتعلق بمريم ابنة عمران، فإن الله طهرها واصطفاها على نساء عالمي زمانها، ويجوز أن يكون تفضيلها على النساء مطلقاً. وقد ورد في حديث أنها تكون من أزواج النبيّ ﷺ في الجنة هي وآسية بنت مزاحم. وأخرج الطبراني وابن مردويه عن بريدة في

---

(١) قصص الأنبياء لابن كثير ج٢ ص٣٦٦ ـ ٣٧٣.

(٢) سنن الترمذي، فضل خديجة رضي الله عنها ج٥ ص٧٠٣ رقم ٣٨٧٨ حديث صحيح.

قوله: ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبۡكَارًا﴾ [التحريم: ٥]. قال: وعد الله نبيه ﷺ في هذا أن يزوجه بالثيب آسية امرأة فرعون، وبالبكر مريم بنت عمران[١].

قال الله تعالى: ﴿إِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٖ مِّنۡهُ ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ وَجِيهٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتۡ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران: ٤٥ ـ ٤٨]. إن هذه الآيات البينات هي لتبشير مريم بعيسى عليه السلام. نشأت مريم نشأة طهر وعفاف وبُعْد عن الإسفاف والرذيلة، مكلوءة بعناية الله، محروسة بحراسته. فلما بلغت مبلغ النساء وجدت وقتاً في خلوة وحدها، فلم ترع إلا بالملك جبريل الذي أرسله الله إليها، جاءها على صورة فتى، فأخذها الرعب وظنته يريد بها سوءاً فاستعاذت منه ووصفته بعدم التقوى قائلة: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا﴾ فأعلمها أنه مرسل من الله تعالى ليهب لها غلاماً زكياً، فأخذها العجب من ذلك، إذ كيف يكون لها ولد وهي لم يمسها أحد من الناس؟ فهوَّن عليها الأمر وأحال على قدرة الله تعالى، وهو الإله الذي لا يعجزه شيء، ونفخ في جيب درعها فإذا هي حامل.

وكان فيما أخبرها به: أن ابنها المسيح عيسى ابن مريم، وأنه يكون وجيهاً في الدنيا والآخرة وأنه يكون من المقرّبين، وأنه يكلم الناس في المهد وكهلاً، للإشارة إلى أنه يكلمهم في المهد بكلام إنما يصدر مثله ممن كان كهلاً. وأن الله تعالى سيعلمه الكتاب والحكمة والتوراة، ويعطيه الإنجيل، أي: البشارة، وأنه سيكون آية للناس على قدرة الله تعالى ورحمة منه لعباده، إذ نصب لهم سبيل الخلاص مما هم فيه من أحوال يتركون فيها. إذ كان اليهود قد صاروا إلى المادية وتجاوزوا حدود الله ولم يُراعوا كتابه، فأحلُّوا حرامه وحرَّموا حلاله، فجاء لهدايتهم وردهم عن ضلالهم. والمسيح في العبرية يطلق بالاشتراك على النبيّ والملك. وليس المراد أنه

(١) فتح القدير، للشوكاني.

سيصير ملكاً على بني إسرائيل بل هو اسم كما تسمي ولدك: سلطاناً أو أميراً. وقد يكون المراد أنه يأتيهم بمملكة الأخلاق والفضائل والرحمة، وأنه يكون في هذه الفضائل رأساً. وقد يكون المراد بكونه مسيحاً أنه يكون نبياً(١).

قال أبو جعفر: حدثني محمد بن سهل بن عسكر البخاري، قال: حدثنا إسماعيل بن عبدالكريم، قال: حدثني عبدالصمد بن معقل، ابن أخي وهب، قال: سمعت وهباً قال: لما أرسل الله عزَّ وجلَّ جبرائيل إلى مريم ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾، ثم نفخ في جيب درعها حتى وصلت النفخة إلى الرحم، واشتملت على عيسى. قال: وكان معها ذو قرابة لها يقال له: يوسف النجَّار، وكانا منطلقين إلى المسجد الذي عند جبل صهيون، وكان ذلك المسجد من أعظم مساجدهم. وكانت مريم ويوسف يخدمان في ذلك المسجد في ذلك الزمان، وكان لخدمته فضل عظيم، فكانا يليان معالجته بأنفسهما وتجميره وكناسته وطهوره، وكل عمل يعمل فيه، فكان لا يعلم من أهل زمانهما أحد أشد اجتهاداً وعبادة منهما. وكان أول مَن أنكر حمل مريم صاحبها يوسف، فلما رأى الذي بها استعظمه، وعظم عليه، ولم يدرِ على ماذا يصير أمرها. فإذا أراد يوسف أن يتهمها ذكر صلاحها وبراءتها، وأنها لم تغب عنه ساعة قط، وإذا أراد أن يبرئها رأى الذي ظهر بها. فلما اشتد عليه ذلك كلمها، فكان أول كلامه إياها أن قال لها: إنه قد وقع في نفسي من أمرك أمر قد حرصت على أن أميته، وأكتمه في نفسي، فرأيت أن الكلام فيه أشفى إلى صدري، فحدثيني: هل ينبت زرع من غير بذر؟ وهل تنبت شجرة من غير غيث يصيبها؟ وهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت: نعم، ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر، والبذر إنما كان من الزرع الذي أنبته الله من غير بذر. أوَلم تعلم أن الله أنبت الشجر من غير غيث، وأنه جعل بتلك القدرة الغيث حياة للشجر بعدما خلق كل واحد منهما وحده. أوَلم تعلم أن الله عزَّ وجلَّ خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا

---

(١) قصص الأنبياء، عبدالوهاب النجار ص٤٢٦ ـ ٤٢٧.

أنثى. فلما قالت له ذلك وقع في نفسه أن الذي بها شيء من الله عزَّ وجلَّ، وأنه لا يسعه أن يسألها عنه، وذلك لما رأى من كتمانها لذلك. ثم تولى يوسف خدمة المسجد، وكفاها كل عمل كانت تعمل فيه.

فلما دنا نفاسها أوحى الله إليها أن اخرجي من أرض قومك، فإنهم إن ظفروا بك عَيَّروك وقتلوك وولدك. فأفضت عند ذلك إلى أختها وأختها حينئذ حامل، وقد بشرت بيحيى، فلما التقتا وجدت أم يحيى ما في بطنها خرّ لوجهه ساجداً معترفاً بعيسى. فاحتملها يوسف إلى أرض مصر على حمار له، ليس بينها حين ركبت الحمار وبين الإكاف «برذعة الحمار» شيء. فانطلق يوسف بها، حتى إذا كان متاخماً لأرض مصر في منقطع بلاد قومها أدرك مريم النفاس، وألجأها إلى مزود الحمار في أصل نخلة، وذلك في زمان الشتاء. فاشتد على مريم المخاض، فلما وجدت منه شدة التجأت إلى النخلة فاحتضنتها واحتوشتها الملائكة، قاموا صفوفاً محدقين بها. فلما وضعت وهي محزونة، قيل لها: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤].

فأصبحت الأصنام التي كانت تعبد من دون الله حين ولدت بكل أرض مقلوبة منكوسة على رؤوسها، ففزعت الشياطين وراءها، فلم يدروا ما سبب ذلك. فساروا حتى جاؤوا إبليس فأخبروه أنه قد حدث في الأرض حدث أصبحت الأصنام منكوسة على رؤوسها، فلما أصابها هذا الحدث صغرها في أعين بني آدم، وقد خشينا ألا يعبدوها بعد هذا أبداً. قال لهم إبليس: إن هذا الأمر عظيم، ولقد كتمت شأنه، وما اشتملت قبله رحم أنثى على ولد إلا بعلمي، ولا وضعته قط إلا وأنا حاضر، وإني لأرجو أن أضل به أكثر مما يهتدي به، وما كان نبيّ قبله أشد عليّ وعليكم منه.

وخرج في تلك الليلة قوم يؤمنون من أجل نجم طلع فأنكروه، وكانوا من قبل ذلك يتحدثون أن مطلع ذلك النجم من علامات مولود في كتاب دانيال. فخرجوا يريدونه، ومعهم الذهب والمر واللبان، فمروا بملك من ملوك الشام، فسألهم: أين يريدون؟ فأخبروه بذلك، قال: فما بال الذهب والمر واللبان أهديتموه له من بين الأشياء كلها؟ قالوا: تلك أمثاله، لأن

الذهب هو سيد المتاع كله، وكذلك هذا النبيّ هو سيد أهل زمانه، ولأن المرّ يجبر به الجرح والكسر، وكذلك هذا النبيّ يشفي به الله كل سقيم ومريض، ولأن اللبان ينال دخانه السماء ولا ينالها دخان غيره، وكذلك هذا النبيّ يرفعه الله إلى السماء لا يرفع في زمانه أحد غيره.

فلما قالوا ذلك لذلك الملك حدّث نفسه بقتله، فقال: اذهبوا، فإذا علمتم مكانه فأعلموني بذلك، فإني أرغب في مثل ما رغبتم من أمره. فانطلقوا حتى دفعوا ما كان معهم من تلك الهدية إلى مريم. وأرادوا أن يرجعوا إلى هذا الملك ليعلمهم مكان عيسى، فلقيهم ملك فقال لهم: لا ترجعوا إليه، ولا تعلموه بمكانه، فإنه إنما أراد بذل ليقتله، فانصرفوا في طريق آخر. واحتملته مريم على ذلك الحمار ومعها يوسف، حتى ورد أرض مصر(١). فهي الربوة التي قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون: ٥٠]. أشار الله تبارك وتعالى إلى أن لعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وأمه ربوة ذات قرارٍ، أي: مستوية يستقر عليها ساكنوها، والمعين الماء الجاري الظاهر الذي تراه العيون، ولم يرد في خبر صحيح تحديد مكان هذه الربوة، وبعض الناس يقولون: إنها بيت المقدس، وبعضهم يقولون: إنها غوطة دمشق وما حولها، وبعضهم يقول: إنها فلسطين، وبعضهم يقول: إنها أرض الفيوم من مصر، والله أعلم. والمقصود أن الله تبارك وتعالى يسَّر لهما الإقامة الآمنة والمنزل الصالح(٢).

حدثنا موسى بن هارون، قال: حدثنا عمرو بن حماد، قال: حدثنا أسباط، عن السدي في خبر ذكره، عن ابن مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مُرَّة الهمداني عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبيّ ﷺ قال: خرجت مريم إلى جانب المحراب لحيض أصابها فاتخذت من دونهم حجاباً من الجدران، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا

---

(١) تاريخ الطبري، ج١ ص٥٩٣ ـ ٥٩٧.

(٢) قصص الأنبياء، عبدالقادر شيبة الحمد ص٢٧٦.

رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ [مريم: ١٦، ١٧]، أي: في شرق المحراب، فلما طهرت إذا هي برجل معها، فهو جبرائيل. فلما رأته فزعت منه، ﴿قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [آل عمران: ١٨ ـ ٢١]، فخرجت عليها جلبابها، فأخذ بكمَّيها، فنفخ في جيب درعها، وكان مشقوقاً من قدّامها فدخلت النفخة في صدرها فحملت. فأتتها أختها امرأة زكريا ليلة تزورها، فلما فتحت لها الباب التزمتها، فقالت امرأة زكريا: يا مريم أشعرت أني حبلى. قالت مريم: أشعرت أني أيضاً حبلى. قالت امرأة زكريا: فإني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك. فذلك قوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: ٣٩] فولدت امرأة زكريا يحيى، ولما بلغ أن تضع مريم، خرجت إلى جانب المحراب الشرقي منه، فأتت أقصاه: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ يقول: ألجأها المخاض إلى جذع النخلة، ﴿قَالَتْ﴾ وهي تطلق من الحبل استحياءً من الناس: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ تقول: نسياً نُسيَ ذكري، ومنسياً نُسيَ أثري، فلا يرى لي أثر ولا عين. ﴿فَنَادَىٰهَا﴾ جبريل ﴿مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤]، والسَّري هو النهر. ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم: ٢٥]، وكان جذعاً منها مقطوعاً فهزّته، فإذا هو نخلة، وأجرى لها في المحراب نهراً فتساقطت النخلة رطباً جنياً، فقال لها: ﴿فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم: ٢٦]. فكان مَن صام ذلك الزمان لم يتكلم حتى يمسي، فقيل لها: لا تزيدي على هذا، فلما ولدته ذهب الشيطان فأخبر بني إسرائيل أن مريم قد ولدت، فأقبلوا يشتدون، فدعوها ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾﴾ يقول: عظيماً، ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾﴾ [مريم: ٢٧، ٢٨] فما بالك يا أخت

هارون؟ وكانت من بني هارون أخي موسى، وهو كما تقول: يا أخا بني فلان، إنما تعني قرابته. فقالت لهم ما أمرها الله، فلما أرادوها بعد ذلك على الكلام، أشارت إلى عيسى فغضبوا وقالوا: لسخريتها بنا حين تأمرنا أن نكلم هذا الصبي أشد علينا من زناها، ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾﴾ [مريم: ٢٩]، فتكلم عيسى فقال: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾﴾ [مريم: ٣٠، ٣١].

فقالت بنو إسرائيل: ما أحبلها أحد غير زكريا، هو كان يدخل إليها، فطلبوه ففرّ منهم فتشبّه له الشيطان في صورة راع، فقال: يا زكريا، قد أدركوك، فادعُ الله حتى تنفتح لك هذه الشجرة فتدخل فيها، فدعا الله فانفتحت له الشجرة، فدخل فيها وبقي من ردائه هُدب. فمرت بنو إسرائيل بالشيطان، فقالوا: يا راعي، هل رأيت رجلاً مرَّ من هاهنا قال: نعم، سحر هذه الشجرة، فانفتحت له، فدخل فيها، وهذا هُدب ردائه، فعمدوا فقطعوا الشجرة، وهو فيها بالمناشير، وليس تجد يهودياً إلا تلك الهدبة في ردائه[1].

ولم يتكلم من أصحاب الأناجيل عن حمل مريم بنت عمران بالمسيح عيسى عليه السلام سوى إنجيل «متى، ولوقا» فقد جاء في إنجيل متى «في الآية ١٨ ص١ وما بعدها»: أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا: «لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمع بها وُجِدَت حبلى من الروح القدس. فيوسف رجلها إذا كان بارًا ولم يشأ أن يشهرها، أراد تخليتها سراً. ولكن فيما هو متفكر في هذه الأمور إذا ملاك الرب قد ظهر له في حلم قائلاً: يا يوسف بن داود، لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك لأن الذي حبل به فيها هو من روح القدس فستلد ابناً وتدعو اسمه يسوع لأنه يخلص شعبه من خطاياهم». كما جاء في إنجيل لوقا «الآيات من ٢٦ ـ ٣٨» ما نصه:

(١) تاريخ الطبري، ج١ ص٥٩٧ ـ ٦٠١.

آية «**٢٦**»: وفي الشهر السادس، أي: من حمل «إليصابات» زوج زكريا أرسل جبريل الملك من الله إلى مدينة من الجليل اسمها ناصرة.

آية «**٢٧**»: إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف واسم العذراء مريم.

آية «**٢٨**»: فدخل الملك وقال: سلام أيتها المنعم عليها الرب معك مباركة أنت في النساء.

آية «**٢٩**»: فلما رأته اضطربت من كلامه وفكّرت ما عسى أن تكون هذه التحية.

آية «**٣٠**»: فقال لها الملك: لا تخافي يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله.

آية «**٣١**»: وها أنت ستحبلين وتولدين ابناً وتسميه يسوع.

آية «**٣٢**»: هذا يكون عظيماً وابن العلي يدعى ويعطيه الرب الإلٰه كرسي داود أبيه.

آية «**٣٣**»: ويملك على بيت يعقوب ولا يكون لملكه نهاية.

آية «**٣٤**»: فقالت مريم للملك: كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلاً.

آية «**٣٥**»: فأجاب الملك وقال لها: الروح القدس يحل عليك وقوة العلي تظلك فلذلك أيضاً القدوس المولود منك يدعى ابن الله.

آية «**٣٦**»: وهو ذا «إليصابات» نسيبتك هي أيضاً حبلى بابن في شيخوختها وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقر.

آية «**٣٧**»: لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله.

آية «**٣٨**»: فقالت مريم: هو ذا أنا أمة الرب ليكن لي كقولك فمضى من عندها الملك.

وفي إنجيل برنابا في الفصل الأول ما نصه:

آية «١»: لقد بعث الله في هذه الأيام الأخيرة بالملك جبريل إلى عذراء تدعى مريم من نسل داود من سبط يهوذا.

آية «٢»: بينما كانت هذه العذراء العائشة بكل طهر بدون أدنى ذنب المنزهة عن اللوم، المثابرة على الصلاة مع الصوم يوماً ما وحدها، وإذا بالملك جبريل قد دخل مخدعها وسلم عليها قائلاً: «ليكن الله معك يا مريم».

آية «٣»: فارتاعت العذراء من ظهور الملك.

آية «٤»: ولكن الملك سَكَّن روعها قائلاً: لا تخافي يا مريم لأنك قد نلت نعمة من لدن الله الذي اختارك لتكوني أم نبيّ يبعثه إلى شعب إسرائيل ليسلكوا في شرائعه بإخلاص.

آية «٥»: فأجابت العذراء: وكيف ألد بنين وأنا لا أعرف رجلاً.

آية «٦»: فأجاب الملك: يا مريم إن الله الذي صنع الإنسان من غير إنسان لقادر أن يخلق فيك إنساناً من غير إنسان، لأنه لا محال عنده.

آية «٧»: فأجابت مريم: إني لعالمة أن الله قدير فلتكن مشيئته.

آية «٨»: فقال الملك: كوني حاملاً بالنبيّ الذي ستدعينه يسوع.

آية «٩»: فامنعيه الخمر والمسكر وكل لحم نجس، لأن الطفل قدوس الله.

آية «١٠»: فانحنت مريم بضعة قائلة: ها أنا ذا أمة الله فليكن بحسب كلمتك.

أما ما جاء في قول لوقا: «وابن العلي يدعى» وكذا قوله: «المولود منك يدعى ابن الله»، فإن هذه العبارات تفرد بها لوقا، ولم يذكرها من كتاب الأناجيل سواه، وفيهم أصحاب المسيح المشاهدون لأحواله العالمون بشأنه. أما لوقا الذي ليس تلميذاً ولا من الاثني عشر، بل هو رجل دخل في الدين متأخراً وصار تلميذاً لبولس الذي لم يرَ المسيح ولم يعاشره. فهذه

العبارة مما جاء به ليزين أمر المسيح ويدخل على الناس تعظيمه، والمسيح ليس في حاجة إلى ذلك. هذا ما جاء في الأناجيل وهو لا يخالف ما في القرآن الكريم. غاية ما في الأمر أنها تزيد حكاية «يوسف النجار» الذي كانت تعرفه العذراء واتخذته عشيراً، وكاشفته بالإلهام الإلٰهي. ولما كان يوسف بارًّا متقياً الله يتقرب إليه بالصيام والصلاة ويرتزق بعمل يديه نجاراً، عزم إذ رأى مريم حبلى على إبعادها لأنه كان يتقي الله. وبينما هو نائم إذا بملك الله يوبخه قائلاً: «إن ما كان فيها إنما كان بمشيئة الله فستلد العذراء ابناً وستدعونه «يسوع»، لأنه قدوس الله من رحم أمه. فإنه نبيّ من الله أرسل إلى شعب بني إسرائيل، وسيجيء بقوة عظيمة يمنحها له الله. فلما استيقظ يوسف من النوم شكر الله وأقام مع مريم كل حياته خادماً لله بكل إخلاص.

هذا ما جاء في الأناجيل وهو لا يخالف ما في القرآن. غاية ما في الأمر أنها تزيد حكاية «يوسف النجار» وهي أمر مسكوت عنه، فلا نصدقها ولا نكذبها[١].

❋ ❋ ❋ ❋

المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام

هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. وهو آخر أنبياء الله ورسله من بني إسرائيل. كما أن آخر الأنبياء والرسل من بني الإنسان جميعاً محمد رسول الله خاتم الأنبياء والمرسلين عليهم أفضل الصلاة والتسليم. ذكر اسمه في القرآن الكريم بلفظ «المسيح» في السور والآيات التالية:

قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [آل عمران: ٤٥].

(١) قصص الأنبياء: عبدالوهاب النجار ص٤٢٧ ـ ٤٣٤.

وفي سورة النساء قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾﴾ [النساء: ١٥٧]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾﴾ [النساء: ١٧١، ١٧٢]. وفي سورة المائدة قال الله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة: ١٧]. قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢]. وقال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة: ٧٥]. وفي سورة التوبة قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣٠، ٣١]، وقد ذُكر اسمه عَلَيْهِ السَّلَامُ بلفظ «المسيح» إحدى عشرة مرةً في خمس سور من القرآن الكريم[١].

(١) للمؤلف.

المسيح الصديق وبه سمي عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال ابن سِيْدَه: والمسيح عيسى ابن مريم، قيل: سمي بذلك لصدقه، وقيل: سمي به لأنه كان سائحاً في الأرض، وقيل: سمي بذلك لأنه كان يمسح بيده على العليل والأكمه والأبرص فيبرئه بإذن الله. قال الأزهري: أعرب اسم المسيح في القرآن على مسح، وهو في التوراة «مشيحا»، فعرب وغير كما قيل بموسى وأصله «مُوشَى»، وأنشد: «إذا المسيحُ يَقْتُل المَسِيحا»، يعني: عيسى ابن مريم يقتل الدجال بنيزكه. وقال شمر: سمي عيسى المسيح لأنه مُسِحَ بالبركة. وقال أبو العباس: سمي مسيحاً لأنه كان يمسَحُ الأرض، أي: يقطعها. وروي عن ابن عباس: أنه كان لا يمسح بيده ذا عاهة إلا برأ، وقيل: سمي مسيحاً لأنه كان أمسَحَ الرِّجْل ليس لرجله أَخْمُصْ. وقيل: سمي مسيحاً لأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن. وقول الله تعالى: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ﴾، قال أبو منصور: سمّى الله ابتداء أمره كلمة لأنه ألقى إليها الولد، والمعنى: يبشرك بولد اسمه المسيح. والمسيح: الكذاب الدجال، وسمي الدجال مسيحاً لأن عينه ممسوحة عن أن يبصر بها، وسمي عيسى مسيحاً لأنه اسم خصّه الله به، ولمسيح زكريا إياه.

وروي عن أبي الهيثم أنه قال: المسيح ابن مريم الصديق، وضد الصديق المسيحُ الدجال، أي: الضليلُ الكذاب. خلق الله المسيحَين: أحدهما ضد الآخر، فكان المسيح ابن مريم يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، وكذلك الدجال يُحيي الميتَ ويميت الحيّ ويُنْشئ السحابَ ويُنبت النباتَ بإذن الله، فهما مسيحان: مسيح الهُدَى ومسيح الضلالة. وفي الحديث: أما مسيح الضلالة فكذا، فدلّ هذا الحديث على أن عيسى مسيحُ الهدى، وأن الدجال مسيح الضلالة[(١)]. عن نافع قال عبدالله: ذكر النبيّ ﷺ يوماً بين ظهراني الناس المسيح الدجال، فقال: «**إن الله ليس بأعور، إلا أن المسيح الدجال أعورُ العين اليمنى كأن عينهُ عنبة طافية، وأراني الليلة عند الكعبة في المنام، فإذا رجل آدَمُ، كأحسن ما يرى من أدم الرجال تضرب**

(١) لسان العرب، ابن منظور ج٣ ص٤٨٠.

لِمَّتُه بين منكبيه رجل الشعر يقطر رأسه ماءً واضعاً يديه على منكبي رجلين وهو يطوف بالبيت، فقلت: مَن هذا؟ فقالوا: هذا المسيح ابن مريم، ثم رأيتُ رجلاً وراءه جعداً قِططاً أعور العين اليمنى كأشبه من رأيت بابن قَطَن واضعاً يديه على منكبي رجل يطوف بالبيت، فقلت: مَن هذا؟ فقالوا: المسيح الدجال»(١).

يقول ابن كثير: إنه لما ضاق الحال وانحصر المجال وامتنع المقال، عظم التوكل على ذي الجلال ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾، أي: خاطبوه وكلّموه فإن جوابكم عليه وما تبغون من الكلام لديه. فعندها قالوا: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩]، أي: كيف تحيلنا في الجواب على صبي صغير لا يعقل الخطاب، وهو مع ذلك رضيع في مهده، وما هذا منك إلا على سبيل التهكم بنا، إذ لا تردين علينا قولاً نطقياً، بل تحيلين في الجواب على مَن كان في المهد صبياً. فعندها ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾ [مريم: ٣٠ ـ ٣٣]، هذا أول كلام تفوّه به عيسى ابن مريم، فكان أول ما تكلم به أن ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ اعترف لربه تعالى بالعبودية، وأن الله ربه، مُنَزِّهاً جناب الله عن قول الظالمين في زعمهم أنه ابن الله، بل هو عبده ورسوله وابن أمته. ثم برّأ أمه مما نسبها إليه الجاهلون وقذفوها به ورموها بسببه بقوله: ﴿آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، فإن الله لا يعطي النبوة مَن هو كما زعموا لعنهم الله، كما قال تعالى: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: ١٥٦]، وذلك أن طائفة من اليهود في ذلك الزمان قالوا: إنها حملت به من زنا في زمن الحيض ﴿لَّعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ فبرأها الله من ذلك وأخبر عنها أنها صديقة، واتخذ ولدها نبياً مرسلاً أحد أولي العزم الخمسة الكبار من الرسل، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾، وذلك أنه حين كان دعا إلى عبادة الله وحده لا

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، ج٤ ص٢٠٢ ـ ٢٠٣.

شريك له ونزّه جنابه عن النقص والعيب من اتخاذ الولد والصاحبة تعالى وتقدس. ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ وهذه وظيفة العبيد بحق العزيز الحميد بالصلاة، والإحسان إلى الخليقة بالزكاة، وهي تشتمل على طهارة النفوس من الأخلاق الرذيلة وتطهير الأموال، والنفقات على سائر وجوه الطاعات وأنواع القرابات.

ثم قال: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾﴾، أي: وجعلني بَرًّا بوالدتي وذلك أنه تأكد حقها عليه لتمحص جهتها إذ لا والد سواها، فسبحان مَن خلق الخليقة وبرأها وأعطى كل نفس هُداها. ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا﴾، أي: لست بفظ ولا غليظ، ولا يصدر مني قول ولا فعل ينافي أمر الله وطاعته ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾، هذه الأوقات الثلاثة أشد ما تكون على الإنسان، فإنه ينتقل في كل منها من عالم إلى عالم آخر. فيفقد الأول بعدما كان ألفه إلى الآخر ولهذا يستهل صارخاً إذا خرج من بين الأحشاء، وينتقل إلى هذه الدار ليكابد همومها وغمومها. وكذلك إذا فارق هذه الدار وانتقل إلى عالم البرزخ بينها وبين دار القرار[1]. ولقد أحسن بعض الشعراء حيث يقول:

ولدتك أمك باكياً مستصرخاً ... والناس حولك يضحكون سرورا
فاحرص لنفسك أن تكون إذا بكوا ... في يوم موتك ضاحكاً مسرورا

عن أبي هريرة عن النبيّ ﷺ قال: «**لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى، وكان في بني إسرائيل رجل يقال له: جريج كان يصلي فجاءته أمه فدعته، فقال: أجيبها أو أصلي، فقالت: اللَّهمَّ لا تُمته حتى تريه وجوه المومسات. وكان جُريج في صومعته فتعرضت له امرأة وكلّمته فأبى، فأتت راعياً فأمكنته من نفسها فولدت غلاماً فقالت: من جريج. فأتوه وكسروا صومعته وأنزلوه وسبوه وتوضأ وصلّى ثم أتى الغلام فقال: مَن أبوك يا غلام؟ فقال: الراعي، قالوا: نبني صومعتك من ذهب؟ قال: لا، إلا من طين.**

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج٢ ص٣٩٠ ـ ٣٩٧.

وكانت امرأة ترضع ابناً لها من بني إسرائيل، فمرّ بها رجل راكب ذو شارة، فقالت: اللَّهمَّ اجعل ابني مثله، فترك ثديها فأقبل على الراكب، فقال: اللَّهمَّ لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديها يمصه»، قال أبو هريرة: كأني أنظر إلى النبيّ ﷺ يمص إصبعه. **«ثم مرّ بأمةٍ، فقالت: اللَّهمَّ لا تجعل ابني مثل هذه، فترك ثديها، وقال: اللَّهمَّ اجعلني مثلها، فقالت له ذلك، فقال: الراكب جبار من الجبابرة، وهذه الأمة يقولون: سرقت زنت ولم تفعل»**[(١)].

ثم لما ذكر الله تعالى قصته على الجليّة وبيّن أمره ووضحه قال: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [مريم: ٣٤]. والمقصود أن الله تعالى بيَّن أمر المسيح فقال لرسوله: إنه عبد مخلوق من امرأة من عباد الله، ولهذا قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾﴾ [مريم: ٣٥] أي: لا يعجزه شيء ولا يكرثه ولا يؤوده بل هو القدير الفعال لما يشاء. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾﴾ [مريم: ٣٦]، هو من تمام كلام عيسى لهم في المهد، أخبرهم أن الله ربه وربهم وإلٰهه وإلٰههم، وأن هذا هو الصراط المستقيم. قال الله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾﴾ [مريم: ٣٧] أي: فاختلف أهل ذلك الزمان ومن بعدهم فيه، فمن قائل من اليهود: إنه ولد زِنْية، واستمروا على كفرهم وعنادهم. وقابلهم آخرون في الكفر فقالوا: هو الله. وقال آخرون: هو ابن الله. وقال المؤمنون: هو عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وهؤلاء هم الناجون المثابون والمؤيدون المنصورون، ومَن خالفهم في شيء من هذه القيود فهم الكافرون الضالُّون، وقد توعدهم العلي العظيم من مشهد يوم عظيم[(٢)].

حدثنا صدقة بن الفضل، أخبرنا الوليد عن الأوزاعي قال: حدثني عمير بن هانئ قال: حدثني جنادة بن أبي أمية عن عبادة رضي الله عنه عن

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، ج٤ ص٣٩٠ - ٣٩٧.
(٢) قصص الأنبياء، لابن كثير ج٢ ص٣٩٩.

النبيّ ﷺ: «**مَن شهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**»(١).

❏ نسب عيسى عليه السلام:

اسمه «عيسى» ولقبه «المسيح» ويكنى «ابن مريم» نسبة إلى أمه مريم بنت عمران، لأنه ولد من غير أب. وهو بالعبرية «يشوع» ومعناه المخلص، وفي الإنجيل يدعى «يسوع». وهو عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم البتول العذراء، الطاهرة العفيفة التي أحصنت فرجها. وهو آخر أنبياء بني إسرائيل. أما نسبه في الإنجيل، فعند ذكر نسبه فإن النصارى يذكرون نسب «يوسف النجار» بناءً على أنه كان عندهم يدعى «يسوع بن يوسف النجار»، وذلك لأنها كانت مخطوبة ليوسف قبل أن تحمل بالمسيح، ولما حملت أمر في منامه أن يمسكها ولا يشهر بها لأنها بريئة من الدنس كما ينص على ذلك إنجيل «متى» صفحة (١ ـ ٢٠). وقد كان يوسف النجار من شباب اليهود الصالحين، عاش عيش الطهر والعفة ثم خطب مريم ولم يتم بينهما التقاء أو زواج. وقد كانت العادة الجارية عند اليهود أن يطلب الشاب الفتاة من أهلها، ثم يتعاشران بدون اتصال زوجي، ويقيمان على ذلك مدة من الزمن من أجل أن تعرف أخلاقه ويعرف أخلاقها، حتى إذا رضي كل منهما أخلاق صاحبه تزوجها وعاشرها معاشرة الأزواج، وإذا لم يرضَ أحدهما أخلاق الآخر فسخت الخطبة دون أن يكون قد وقع اتصال بين الزوجين.

وينص إنجيل «برنابا» على أن مريم قد اتخذت يوسف النجار عشيراً لها، من حين أحست بالحمل على الطريقة التي ذكرناها، أي: بدون اتصال زوجي. ولم يذكر نسب المسيح إلا في الإنجيلين، إنجيل «متى» وإنجيل «لوقا»، فقد انفردا بذكر النسب من بين سائر الأناجيل. ومن الغريب أن نجد اختلافاً كبيراً في نسب المسيح بين هذين الإنجيلين، وتناقضاً لا يمكن

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، ج٤ ص٢٠١.

معه التوفيق، مما يجعلنا نجزم بأن أهل الكتاب، يكتبون بلا تحقق، ويؤمنون بلا تثبت، ويصدقون بكل ما يلقى عليهم من رؤساء الدين. وأن ما في التوراة والإنجيل قد دخل إليه قطعاً التحريف والتبديل كما نصّ على ذلك القرآن الكريم، وبذلك يظهر التناقض والتعارض بين أعظم الأناجيل وأكثرها شهرة وانتشاراً عند النصارى ألا وهو إنجيل «متى» وإنجيل «لوقا».

نسبه عَلَيْهِ السَّلَامُ في إنجيل «لوقا»: هو يسوع بن يوسف النجار، بن هالي، بن لاوي، بن ملكي إلى أن ينتهي النسب إلى يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ. أما نسبه في إنجيل «متى» فهو: يسوع بن يوسف النجار بن يعقوب متان، بن العازر إلى أن ينتهي إلى يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ. وإذا تابعنا النسب من أوله إلى آخره فإننا نجد اختلافاً كبيراً بين الإنجيلين: فإنجيل لوقا يقول: إن يوسف بن «هالي» وإنجيل متى يقول: إن يوسف بن «يعقوب». وإنجيل لوقا يقول: إن آباء المسيح غير سلاطين وغير مشهورين. وإنجيل متى يقول: إن آباء المسيح سلاطين مشهورون، وبينما إنجيل لوقا يذهب إلى أن بين «داود» والمسيح واحداً وأربعين جيلاً، نجد إنجيل متى يقول: إن بين «داود» والمسيح ستة عشر جيلاً. فكيف يمكن الجمع أو التوفيق بين هذه المتناقضات في كتاب مقدّس، يؤمن به مئات الملايين من النصارى، اللَّهمَّ إلا أن يكون ذلك من تحريف رؤساء الدين الذين أكد القرآن تحريفهم للكتب المقدسة(١).

أما ما جاء في كتب العهد الجديد متعلقاً بولادته، فلم يذكر إنجيل «متى» شيئاً عن ولادته سوى أنه ولد في «بيت لحم» في أيام «هيرودوس» الملك. وأما إنجيل «لوقا» فذكر مولده باستفاضة: وفي تلك الأيام صدر أمر من «أغسطس قيصر» بأن يكتب كل المسكونة. فذهب الجميع ليكتبوا كل واحد إلى مدينته، فصعد يوسف أيضاً من الجليل من مدينة الناصرة إلى مدينة داود التي تدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته، ليكتب مع

---

(١) النبوة والأنبياء، للصابوني ص١٩٦ ـ ١٩٨.

مريم المخطوبة وهي حبلى. وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد، فولدت ابنها البكر وقمطته وأضجعته في المزود إذ لم يكن لها موضع في المنزل.

وقال إنجيل «برنابا» في الفصل الثالث: كان «هيرودوس» في ذلك الوقت ملكاً على اليهودية بأمر «قيصر أو أغسطس»، وكان «بيلاطس» حاكماً في زمن الرياسة الكهنوتية لحنان وقيافاً. فعملاً بأمر قيصر اكتتب جميع العالم، فذهب إذ ذاك كل إلى وطنه وقدموا أنفسهم بحسب أسباطهم ليكتتبوا، فسافر يوسف من الناصرة إلى إحدى مدن الجليل مع امرأته وهي حبلى ذاهباً إلى بيت لحم. لأنها كانت مدينته وهو من عشيرة داود ليكتتب عملاً بأمر قيصر، ولما بلغ بيت لحم لم يجد فيها مأوى، إذ كانت المدينة صغيرة، وحشد جماهير الغرباء كثير، فنزل خارج المدينة في نزل جعل مأوى للرعاة. وبينما كان يوسف هناك تمت أيام مريم لتلد، فأحاط بالعذراء نور شديد التألق، وولدت ابنها بدون ألم، وأخذته على ذراعيها، وبعد أن ربطته بأقمطة ووضعته في المزود، إذ لم يوجد موضع في المنزل. فجاء جمع غفير من الملائكة إلى النزل بطرب يسبحون الله ويذيعون بشرى السلام لخائفي الله، فحمدت مريم ويوسف الله على ولادة يسوع وقاما على تربيته على أعظم سرور.

إن كتب العهد الجديد لم تذكر أمر «النخلة» ولا «السري» بمعنى النهر ولا نذرها الصوم ولا تأنيب قومها لها ولا كلامه في المهد. وإنما ذكر كل ذلك القرآن الكريم المهيمن على كتب أهل الكتاب. ولا غرابة في سكوت كتب أهل الكتاب عن ذلك وإثبات القرآن له. وأن حادث مريم يمر بين اليهود دون أخذ ورد، وأنهم صدقوها في دعواها أن ذلك حصل بفعل الله دون أن يكون للإنسان دخل فيه بمجرد قولها، وقد سكتت الأناجيل عن ذلك، وإنما ذكره القرآن فقط.

في شريعة اليهود أن الطفل يختن بعد ثمانية أيام من ولادته كما أمر الله إبراهيم بذلك. وقد ختن المسيح لما تمّ له ثمانية أيام. وختانه لم يذكر في القرآن الكريم، وإنما ذكر في إنجيل لوقا في آية **٢١** من الإصحاح الثاني

ونصها: «ولما تمت ثمانية أيام ليختنوا الصبي سمي «يسوع» كما تسمى من الملك قبل أن حبل في البطن». وفي إنجيل برنابا في الفصل الخامس: «فلما تمت الأيام الثمانية حسب شريعة الرب كما هو مكتوب في كتاب موسى أخذا الطفل واحتملاه إلى الهيكل ليختناه، فختنا الطفل وسمياه «يسوع» كما تسمى من الملاك قبل أن حبل به في الرحم»(١).

لقد احتملت مريم عيسى ومعها يوسف النجار حتى وردا أرض مصر، فمكثت مريم اثنتي عشرة سنة تكتمه من الناس، ولا يطلع عليه أحد. وكانت مريم لا تأمن عليه ولا على معيشته أحداً، كانت تلتقط السنبل حيث ما سمعت بالحصاد، والمهد في منكبها الآخر، حتى تمّ لعيسى عليه السلام اثنتا عشرة سنة. فكان أول آية رآها الناس منه أن أمّه كانت نازلة في دار دهقان من أهل مصر، فكان ذلك الدهقان قد سرقت له خزانة، وكان لا يسكن في داره إلا المساكين، فلم يتهمهم. فحزنت مريم لمصيبة ذلك الدهقان، فلما أن رأى عيسى حزن أمه بمصيبة صاحب ضيافتها، قال لها: يا أمه، أتحبين أن أدله على ماله؟ قالت: نعم يا بني، قال: قولي له يجمع لي مساكين داره، فقالت مريم للدهقان ذلك، فجمع له مساكين داره، فلما اجتمعوا عمد إلى رجلين منهم؛ أحدهما: أعمى، والآخر: مقعد على عاتق الأعمى، ثم قال له: قم به، قال الأعمى: أنا أضعف من ذلك، قال عيسى عليه السلام: فكيف قويت على ذلك البارحة؟ فلما سمعوه يقول ذلك بعثوا الأعمى، حتى قام به، فلما استقل قائماً حاملاً هوى المقعد إلى كوة الخزانة. قال عيسى: هكذا احتالا لمالك البارحة، لأنه استعان الأعمى بقوته، والمقعد بعينه، فقال المقعد والأعمى: صدق، فردّ على الدهقان ماله ذلك، فوضعه الدهقان في خزانته وقال: يا مريم، خذي نصفه، قالت: إني لم أخلق لذلك، قال الدهقان: فأعطيه ابنك، قالت: هو أعظم مني شأناً.

ثم لم يلبث الدهقان أن أعرس ابناً له فصنع له عيداً فجمع أهل مصر كلهم، فلما انقضى ذلك زاره قوم من أهل الشام لم يحذرهم الدهقان، حتى

(١) قصص الأنبياء، عبدالوهاب النجار ص٤٣٦ ـ ٤٣٧.

نزلوا به، وليس عنده يومئذ شراب، فلما رأى عيسى اهتمامه بذلك دخل بيتاً من بيوت الدهقان، فيه صفان من الجرار، فمرّ عيسى بيده على أفواهها، وهو يمشي، فكلما أمرَّ يده على جرة امتلأت شرباً، حتى أتى عيسى على آخرها، وهو يومئذ ابن اثنتي عشرة سنة، فلما فعل ذلك عيسى فزع الناس لشأنه وما أعطاه الله من ذلك. فأوحى الله عزَّ وجلَّ إلى أمه مريم، أن اطلعي به إلى الشام، ففعلت الذي أمرت به، فلم تزل بالشام حتى كان ابن ثلاثين سنة، فجاء الوحي على ثلاثين سنة، وكانت نبوته ثلاث سنين، ثم رفعه الله إليه[(١)].

قال إسحاق بن بشر: أنبأنا عثمان بن ساج وغيره، عن موسى بن وردان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد، وعن مكحول عن أبي هريرة قال: إن عيسى ابن مريم أول ما أطلق الله لسانه بعد الكلام الذي تكلم به وهو طفل، فحمد الله تمجيداً لم تسمع الآذان بمثله لم يدع شمساً ولا قمراً ولا جبلاً ولا نهراً ولا عيناً إلا ذكره في تمجيده فقال: اللَّهمَّ أنت القريب في علوِّك، والمتعال في دنوِّك، والرفيع على كل شيء من خلقك، أنت الذي خلقت سبعاً في الهواء بكلماتك مستويات طباقاً، أَجَبْنَ وهنَّ دخان من مزقك فأتين طائعات لأمرك، فيهن ملائكتك يسبّحون قدسك لتقديسك وجعلت فيهن نوراً على سواء الظلام وضياء من ضوء الشمس بالنهار، وجعلت فيهن الرعد المسبح بالحمد، فبعزتك يجلو ضوء ظلمتك وجعلت فيهن مصابيح يهتدي بهن في ظلمات الحيران، فتباركت اللَّهمَّ في مفطور سماواتك، وفيما دحوت من أرضك، دحوتها على الماء فسمكتها على تيار الموج الغامر، فأذللتها إذلال التظاهر، فذل لطاعتك صعبها واستحيا لأمرك أمرها وخضعت لعزتك أمواجها، ففجرت فيها بعد البحور الأنهار والجداول الصغار، ومن بعد الجداول ينابيع العيون الغزار، ثم أخرجت منها الأزهار والأشجار والثمار، ثم جعلت على ظهرها الجبال فوتّدتها أوتاداً على ظهر الماء، فأطاعت أطوادها وجلمودها.

---

(١) تاريخ الطبري، ج١ ص٥٩٤ ـ ٥٩٨.

فتباركت اللَّهمَّ فمَن يبلغ بنعته نعتك أم مَن يبلغ بصفته صفتك؟ تنشر الحساب وتفك الرقاب وتقضي الحق وأنت خير الفاصلين، لا إلٰه إلا أنت سبحانك سترت السماوات عن الناس، لا إلٰه إلا أنت سبحانك أمرت أن نستغفرك من كل ذنب، لا إلٰه إلا أنت سبحانك إنما يخشاك من عبادك الأكياس، نشهد أنك لست بإلٰه استحدثناك، ولا رب يبيد ذكره، ولا كان معك شركاء فندعوهم ونذَرَك، ولا أعاننا على خلقنا أحد فنشُكَّ فيك، نشهد أنك أحد صمد لم تلد ولم تولد ولم يكن لك كفواً أحد.

وقال إسحاق بن بشر: عن جبير ومقاتل، عن الضاحك، عن ابن عباس، أن عيسى ابن مريم أمسك عن الكلام بعد أن كلمهم طفلاً حتى بلغ ما يبلغ الغلمان، ثم أنطقه الله بعد ذلك الحكمة والبيان فأكثر اليهود فيه وفي أمه من القول، وكانوا يسمونه ابن البغية. قال: فلما بلغ سبع سنين أسلمته أمه في الكُتّاب، فجعل لا يعلمه المعلم شيئاً إلا بدره إليه، فعلمه «أبا جاد» فقال عيسى: ما أبو جاد؟ فقال المعلم: لا أدري. فقال عيسى: كيف تعلمني ما لا تدري؟ فقال المعلم: إذاً فعلمني. فقال له عيسى: فقم من مجلسك. فقام فجلس عيسى مجلسه. فقال: سلني. فقال المعلم: فما أبو جاد؟ فقال عيسى: الألف آلاء الله، والباء بهاء الله، والجيم بهجة الله وجماله. فعجب المعلم من ذلك فكان أول مَن فسّر أبو جاد[1].

وروى ابن لهَيعة عن عبدالله بن هبيرة قال: كان عبدالله بن عمر يقول: كان عيسى ابن مريم وهو غلام يلعب مع الصبيان فكان يقول لأحدهم: تريد أن أخبرك ما خبأت لك أمك؟ فيقول: نعم، فيقول: خبأت لك كذا وكذا. فيذهب الغلام منهم إلى أمه فيقول لها: أطعميني ما خبأت لي. فتقول: وأي شيء خبأت لك؟ فيقول: كذا وكذا. فتقول له: مَن أخبرك؟ فيقول عيسى ابن مريم: فقالوا: والله لئن تركتم هؤلاء الصبيان مع ابن مريم ليفسدنهم. فجمعوهم في بيت وأغلقوا عليهم، فخرج عيسى يلتمسهم فلم يجدهم فسمع ضوضاءهم في بيت فسأل عنهم فقالوا: إنما

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج٢ ص٤١٢ ـ ٤١٤.

هؤلاء قردة وخنازير. فقال: اللَّهمَّ كذلك. فكانوا كذلك. رواه ابن عساكر. وقال إسحاق بن بشر: قال لنا إدريس عن جده وهب بن منبه، قال: إن عيسى لما بلغ ثلاث عشرة سنة أمره الله أن يرجع من بلاد مصر إلى بيت إيلياء. قال: فقدم عليه يوسف ابن خال أمه فحملها على حمار حتى جاء بهما إلى إيلياء، وأقام بها حتى أحدث الله له الإنجيل وعلّمه التوراة وأعطاه إحياء الموتى وإبراء الأسقام والعلم بالغيوب مما يدخرون في بيوتهم، وتحدث الناس بقدومه وفزعوا لما كان يأتي به من العجائب، فجعلوا يعجبون منه فدعاهم إلى الله ففشا فيهم أمره[1].

وذهاب يوسف ومريم بالمسيح انفرد بها إنجيل «متى» وذكرها إنجيل «برنابا» ويتلخص في أنه بعد رجوع يسوع إلى اليهودية وبلوغه اثني عشر عاماً من العمر، وبعد أن مات «هيرودوس» ظهر ملك الرب في حلم ليوسف قائلاً: عد إلى اليهودية لأنه قد مات الذين كانوا يريدون موت الصبي. فأخذ يوسف الطفل ومريم، وكان الطفل بالغاً سبع سنين من العمر، وجاء إلى اليهودية حيث سمع أن أرخيلاوس بن هيرودوس كان حاكماً في اليهودية. فذهب إلى الجليل لأنه خاف أن يبقى في اليهودية، فذهبوا ليسكنوا في الناصرة. فنما الصبي في النعمة والحكمة أمام الله والناس. ولما بلغ يسوع اثنتي عشرة سنة من العمر صعد مع مريم ويوسف إلى أورشليم ليسجد هناك حسب شريعة الرب المكتوبة في كتاب موسى ولما تمت صلواته انصرفوا بعد أن فقدوا يسوع، لأنهم ظنوا أنه عاد إلى الوطن مع أقربائهم. ولذلك عادت مريم مع يوسف ينشدان يسوع بين الأقرباء والجيران. وفي اليوم الثالث وجدوا الصبي في الهيكل وسط العلماء يحاجهم في أمر الناموس، وأعجب كل أحد بأسئلته وأجوبته قائلاً: كيف أوتي مثل هذا العلم وهو حَدَثُ لم يتعلم القراءة. فعنّفته مريم قائلة: يا بني، ماذا فعلت بنا فقد نشدتك وأبوك ثلاثة أيام ونحن حزينان. فأجاب يسوع: ألا تعلمين أن خدمة الله يجب أن تقدَّم على الأب والأم؟ ثم نزل

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج٢ ص٤١٤ ـ ٤١٥.

يسوع مع أمه ويوسف إلى الناصرة. وكان مطيعاً لهما بتواضع واحترام.

ومن مجموع ذلك نفهم أن المسيح عليه السلام نشأ نشأة محمودة لا غبار عليها، وأنه كان غيوراً على الدين منذ صغره، حريصاً على تفهُّم حكمه وأسراره. وأنه كان يختلس من وقته ما يقوي به معارفه ويثبت به علمه ويجالس العلماء ويناقشهم ويسائلهم ويجيبهم، فالبيئة التي عاش فيها صباه وشبابه كانت بيئة علم وحكمة ودين(١).

وقد بدأت مجادلة عيسى عليه السلام للعلماء عندما بلغ من العمر سبع سنين، فرجع من مصر ووصل إلى الجليل، وأقام في الناصرة، وإلى الناصرة ينسب «النصارى»، ويسكت التاريخ عما وراء هذه الفترة من حياة السيد المسيح عيسى ابن مريم حتى بداية نبوته ورسالته، فأين كان يسوع في هذه المدة وهي سبع عشرة سنة(٢).

لم يذكر القرآن الكريم متى كان ابتداء نبوة المسيح ولا كيف كان ذلك، أنه ربما اجتمع على عيسى من المرضى في الجماعة الواحدة خمسون ألفاً، فمَن أطاق منهم أن يبلغ بلغه، ومَن لم يطق ذلك منهم أتاه عيسى عليه السلام يمشي إليه. وإنما كان يداويهم بالدعاء إلى الله عزَّ وجلَّ، فجاءه إبليس في هيئة يبهر الناس حسنها وجمالها، فلما رآه الناس فرغوا له، ومالوا نحوه، فجعل يخبرهم بالأعاجيب، فكان في قوله: إن شأن هذا الرجل لعجيب. تكلم في المهد، أحيا الموتى، وأنبأ عن الغيب، وشفى المرضى. فهذا هو الله، قال أحد صاحبيه: جهلت أيها الشيخ، وبئس ما قلت، لا ينبغي لله أن يتجلى للعباد، ولا يسكن الأرحام، ولا تسعه أجواف النساء، ولكنه ابن الله. وقال الثالث: بئس ما قلتما، كلاكما قد أخطأ وجهل. ليس لله أن يتخذ ولداً، ولكنه إلٰه معه. ثم غابوا حين فزعوا من قولهم، فكان ذلك آخر العهد منهم(٣).

---

(١) قصص الأنبياء، عبدالوهاب النجار ص٤٣٨ ـ ٤٣٩.
(٢) النبوة والأنبياء، للصابوني ص٢٠٦ ـ ٢٠٧.
(٣) تاريخ الطبري، ج١ ص٥٩٨ ـ ٥٩٩.

الأناجيل الأربعة قد ذكرت في ذلك أن «يوحنا المعمدان» وهو «يحيى بن زكريا» وجد في البرية زمناً، وكان يقتات من الجراد والعسل البري، وثيابه من أوبار الإبل وعلى حقْويه منطقة جلد. ثم ظهر في ناحية «الأردن» ينذر الناس بالتوبة، فخرج إليه أهل أورشليم والقرى القريبة من الأردن، فكان يعمدهم في النهر وينذرهم باقتراب ملكوت السماوات. وقد أرسل إليه الكهنة يسألون: هل هو إيلياء؟ فأجاب: لا، هل هو المسيح؟ فأجاب: لا. هل هو النبيّ؟ فأجاب: لا، فقالوا له: فلمَ تعمد إذا لم تكن إيلياء ولا المسيح ولا النبيّ؟ طلبوا أن يقول لهم مَن هو. قال: أنا صوت صارخ في البرية، أعدُّوا طريق الرب واصنعوا سبله مستقيمة، لأنه قد اقترب ملكوت السماوات[1].

وأن المسيح قد جاء إلى يوحنا واعتمد منه في الأردن. وأن الروح القدس نزل عليه مثل حمامة. ثم إن المسيح بعد ذلك صام في البرية أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب. ثم جرّب من الشيطان على أثر صومه إذ أحسّ بالجوع، فأتاه الشيطان وقال له: إن كنت ابن الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزاً؟ فقال له: مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان، بل بكل كلمة تخرج من فم الله. فأوقفه على جناح الهيكل وقال له: إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلى أسفل لأنه مكتوب أنه يوصي ملائكته بك فعلى أيديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك. فقال له: مكتوب أيضاً لا تجرب الرب إلٰهك، فأخذ إبليس على جبل عال وأراه ممالك الأرض ومجدها. وقال له: أعطيك هذه جميعها إن خررت وسجدت لي. فقال له المسيح: اذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلٰهك تسجد وإياه وحده تعبد. فذهب عنه الشيطان وجاءته الملائكة. وعلم المسيح عقب ذلك أن يوحنا أسلم، أي: هلك، فجاء إلى «الجليل» وترك «الناصرة» وسكن «كفر فاحوم» وكان يكرر ببشارة ملكوت الله. وكانت سن المسيح ثلاثون سنة[2].

---

(١) هذه الجملة مقتبسة من الآية ص٣، ٤٠ ـ أشعيا.

(٢) إنجيل متى ص٣ ـ ٤. إنجيل مرقس ص١. إنجيل لوقا ص٣ ـ ٤. إنجيل يوحنا ص١.

ولما بلغ يسوع ثلاثين سنة من العمر، كما أخبرني بذلك نفسه، صعد إلى جبل الزيتون مع أمه ليجني زيتوناً. وبينما كان يصلي في الظهيرة وبلغ هذه الكلمات «يا رب، برحمة. . .»، وإذا بنور باهر قد أحاط به، وجمع لا يحصى من الملائكة كانوا يقولون: «ليتمجد الله». فقدم له الملك جبريل كتاباً كأنه مرآة برّاقة. فنزل إلى قلب يسوع الذي عرف به ما فعل الله وما قال الله وما يريد الله حتى إن كل شيء كان عرياناً ومكشوفاً له. ولقد قال لي: صدق يا برنابا أني أعرف كل نبيّ ونبوة. وكل ما أقوله إنما قد جاء في ذلك الكتاب. ولما تجلت هذه الرؤيا ليسوع وعلم أنه نبيّ مرسل إلى بيت إسرائيل كاشف مريم أمه بكل ذلك قائلاً لها: إنه يترتب عليه احتمال اضطهاد عظيم لمجد الله، وأنه لا يقدر فيما بعد أن يقيم معها ويخدمها. فلما سمعت مريم هذا أجابت: يا بني، إني نبئت بكل ذلك قبل أن تولد فليتمجد اسم الله القدوس. ومن ذلك اليوم انصرف يسوع عن أمه ليمارس وظيفته النبوية[(١)].

يقول الشيخ النجار: إن العلم الذي قذف الله به في روع المسيح عيسى ابن مريم أول ما بدأه الوحي على يد جبريل، مثل له كتاباً ومثل له أن يأكله، فاستضاءت به بصيرته. كما مثل لرسول الله ﷺ أن جبريل جاء بنمط من ديباج فيه كتاب فقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: ١]، فعبارات بعض الأناجيل دلت على أن المسيح نبئ على رأس ثلاثين سنة من عمره. وجرى على ذلك المؤرخون ومفسرو القرآن الكريم. فكيف هذا مع أن علماء التوحيد يقولون أن النبوة إنما تكون بعد الأربعين؟ والجواب أن كون النبوة بعد الأربعين أمر غالبي فقط. فقد ينبأ الشخص قبل هذه السن. وهذا يحيى بن زكريا عليهما السلام يقول الله تعالى فيه: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ۝١٢﴾ [مريم: ١٢]، وبيان ذلك: أن بعض الناس قد يبكر فيهم النمو فتنمى أجسادهم وعقولهم بسرعة يفوقون بها أمثالهم. فلا مانع من تبكير الرجولة على شخص فيتم

---

(١) إنجيل برنابا، الفصل العاشر، بنصها دون تلخيص.

نضجه بدناً وعقلاً فيؤتيه الله النبوة قبل أن يبلغ زمن الشيخوخة كما حصل للمسيح ويحيى عليهما السلام[(١)].

كان بدء نبوة المسيح عيسى عليه السلام عندما بلغ من العمر ثلاثين عاماً، جاء إلى يحيى بن زكريا عليهما السلام المسمى عند النصارى «يوحنا المعمدان» فعَمَّده أي: غسله غسل التبوة، وهذا ما يسمى عند النصارى «التعميد». ثم نزل عليه روح القدس جبريل عليه السلام، ثم إنه خرج بعد ذلك إلى البرية، وصام فيها أربعين يوماً لا يأكل ولا يشرب، ونزل عليه الوحي بكتاب الله المقدّس المسمى «الإنجيل» ومنذ ذلك الحين بدأت رسالة عيسى ابن مريم عليهما السلام. ويقول علماء التوحيد إن النبوة تكون على رأس الأربعين من العمر وهذا هو الغالب. أما عيسى عليه السلام فقد نبئ على رأس الثلاثين، وهذه خصوصية له عليه السلام لأنه قد رفع إلى السماء قبل أن يبلغ سن الأربعين، والدليل على نبوة المسيح عليه السلام[(٢)] قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦]. وقد وصف الله تبارك وتعالى مقاماً من مقامات عيسى عليه السلام بما يفيد أنه قام خطيباً في بني إسرائيل يخبرهم أنه رسول الله ويبشرهم بمحمد رسول الله ﷺ الذي يأتي بعده. ورسول الله ﷺ له أسماء منها محمد وأحمد، وفي لفظ لمسلم من طريق محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه أن النبيّ ﷺ قال: «**أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحى بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على عقبي، وأنا العاقب والعاقب الذي ليس بعده أحد**»، وقد سمّاه الله رؤوفاً رحيماً[(٣)]. ولفظ محمد أو أحمد هو معنى «المنحمنا أو الفارقليط» الوارد في الكتب التي بيد النصارى في بشارة عيسى عليه السلام التي يخبر فيها بأنه سيقيم حتى يأتي «المنحمنا»، وفي بعض

---

(١) قصص الأنبياء، عبدالوهاب النجار ص٤٣٨ ـ ٤٤١.
(٢) النبوة والأنبياء، للصابوني ص٢٠٧ ـ ٢٠٨.
(٣) مختصر صحيح مسلم، للألباني ص٤٢١ حديث رقم ١٥٩٠.

التراجم: حتى يأتي «الفارقليط» هو المحمود الحمد الكثير، وهو معنى أحمد أو محمد، وهو إشارة إلى أن شريعة عيسى عليه السلام تستمر حتى تنسخها شريعة محمد ﷺ(١).

جاء المسيح عليه السلام ليبشر بهذا النبيّ الكريم محمد ﷺ. ولا غرو فإن المسيح آخر الأنبياء في بني إسرائيل، ولا أدل على ذلك من أنه قد مضى على القوم **١٩٣٣** سنة، لم يقم فيهم نبيّ سواه ويحيى بن زكريا. كان المسيح عليه السلام يعبر عن المبشرية بلفظ «النبيّ» وبلفظ «مسيا» وبلفظ «فارقليط» وهو تعريف لفظ «بيريكلتوس» اليونانية ومعناها «الذي له حمد كثير». كما عبّر عنه بعض الكتب بلفظ «إيلياء» واليهود يظنون أن إيلياء يأتي إليهم ولكن إذا عرفوا أن «إيلياء» جملها كجمل لفظ «أحمد». ومن الأغراض السامية التي جاء بها المسيح البشارة باقتراب ملكوت السماوات، والمراد بذلك الشريعة الإلٰهية التي يرسل الله تعالى بها النبيّ الأمي. والمسيحيون يحملون البشارة على الدين المسيحي الذي جاء به المسيح عليه السلام . وإذا نظرنا إلى ما جاء به المسيح لم نجد سوى عظات ونصائح وحِكَم وأمثال، ويريد بذلك توجيه نظر اليهود إلى إخلاص العبادة لله تعالى والتخفيف من مادياتهم التي غرقوا فيها إلى آذانهم وترك الرياء والنفاق، وأن يلتبسوا بروح الدين الذي ورثوه عن موسى كما جاءهم، وأن يطلقهم من إسار الكهنة الذين يعوجون الشريعة ويتخذونها مستغلاً لإشباع جشعهم، ويحرفونها عن مواضعها إرضاءً لشهواتهم. ويبشرهم باقتراب «ملكوت السماوات» أي: الشريعة الإلٰهية الدائمة وبمجيء محمد ﷺ(٢).

وقال إسحاق بن بشر: وأنبأنا سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، عن زكريا بن آدم، عن أبي هريرة قال: أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى عيسى ابن مريم: يا عيسى، جد في أمري ولا تَهِن، واسمع وأطع يا ابن الطاهرة

(١) قصص الأنبياء، عبدالقادر شيبة الحمد ص٢٨٤.
(٢) قصص الأنبياء، عبدالوهاب النجار ص٤٤٩ ـ ٤٥١.

البكر البتول، إنك من غير فحل، وأنا خلقتك آية للعالمين، إياي فاعبد وعليّ فتوكل، خذ الكتاب بقوة، فسر لأهل السريانية، بلغ من بين يديك أني أنا الحق الحيّ القائم الذي لا أزول، صدقوا النبيّ الأمي العربي صاحب الجمل والتاج «العمامة» والمدرعة والنعلين والهراوة «القضيب»، والأنْجَل العينين الصّلْت الجبين الواضح الخدَّين، الجعد الرأس، الكث اللحية، المقرون الحاجبين، الأقنى الأنف، المفلّج الثنايا، البادي العَنْفَقة، الذي كأن عنقه إبريق فضة وكأن الذهب يجري في تراقيه، فله شعرات من لَبَّته إلى سُرَّته تجري كالقضيب، ليس على بطنه ولا على صدره شعر غيره، شثن الكف والقدم، إذا التفت التفت جميعاً، إذا مشى كأنما يتقلّع من صخر وينحدر من صبب، عرقه في وجهه كاللؤلؤ، وريح المسك ينفح منه، ولم يرَ قبله ولا بعده مثله، الحسَن القامة الطيب الريح، نكّاح النساء، ذا النسل القليل، إنما نَسْله من مباركة، لها بيت ـ يعني: في الجنة ـ من قصب لا نصب فيه ولا صخب، تكفله يا عيسى في آخر الزمان كما كفل زكريا أمك، له منها فرخان مستشهدان وله عندي منزلة ليست لأحد من البشر، كلامه القرآن ودينه الإسلام وأنا السلام، طوبى لمن أدرك زمانه وشهد أيامه وسمع كلامه.

قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: يا رب، وما طوبى؟ قال: غرس شجرة أنا غرستها بيديّ، فهي للجنان كلها أصلها من رضوان، وماؤها من تسنيم، وبردها برد الكافور وطعمها الزنجبيل وريحها المسك من شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً. قال عيسى: يا رب، اسقني منها. قال: حرام على النبيين أن يشربوا منها حتى يشرب ذلك النبيّ، وحرام على الأمم أن يشربوا منها حتى تشرب منها أمة ذلك النبيّ. قال: يا عيسى، أرفعك إليّ. قال: ولِمَ ترفعني؟ قال: أرفعك ثم أُهبطك في آخر الزمان لترى من أمة ذلك النبيّ العجائب ولتعينهم على قتل اللعين الدجال، أُهبطك في وقت صلاة ثم لا تصلي بهم لأنها مرحومة ولا نبيّ بعد نبيهم.

وقال هشام بن عمار عن الوليد بن مسلم، عن عبدالرحمٰن بن زيد، عن أبيه، أن عيسى قال: يا رب، أنبئني عن هذه الأمة المرحومة. قال: أمة

أحمد، علماء حلماء كأنهم أنبياء يرضون مني بالقليل من العطاء وأرضى منهم باليسير من العمل، وأُدخلهم الجنة بلا إله إلا الله كما ذلّت ألسنتهم، ولم تذل رقاب قوم قط بالسجود كما ذلّت رقابهم(١).

وفي نزول الكتب الأربعة السماوية ومواقيتها، قال أبو زرعة الدمشقي: حدثنا عبدالله بن صالح، حدثني معاوية بن صالح، عمن حدثه قال: «أُنزلت التوراة على موسى في ست ليال خلون من شهر رمضان، ونزل الزبور على داود في اثنتي عشرة ليلة خلت من شهر رمضان، وذلك بعد التوراة بأربعمائة سنة، وأُنزل الإنجيل على عيسى ابن مريم في ثماني عشرة ليلة خلت من شهر رمضان بعد الزبور بألف عام وخمسين عاماً، وأُنزل الفرقان على محمد ﷺ في أربع وعشرين من شهر رمضان(٢).

معنى كلمة الإنجيل (البشارة) والشواهد متضافرة على أن الله تعالى أعطى المسيح الإنجيل، وإنه كتاب تضمّن الهدى والنور، وقد أهاب ببني إسرائيل أن يرجعوا إلى الله ويعبدوه، وأنبأهم بأحداث مستقبلة، وبشّرهم باقتراب زمن النبيّ الذي وعد بنو إسرائيل بأن يبعثه الله، وعلى يديه يكون بعث شريعة جديدة، وأنه يكون لموسى صاحب شريعة مستقلة وفيه وصفه ووصف أتباعه. قال الله تعالى: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ٣، ٤]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ وَمَنْ﴾ [التوبة: ١١١]. فأين يوجد اليوم إنجيل المسيح الذي ذكره القرآن الكريم؟ إن الإنجيل الذي أتى به المسيح وسلّمه إلى تلاميذه وأمرهم أن يبشروا به لا يوجد الآن، وإنما توجد قصص ألّفها التلاميذ وغير التلاميذ، لم تسلم من المسح

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج١ ص٤١٦ ـ ٤١٩.
(٢) قصص الأنبياء، لابن كثير ج٢ ص٤١٦.

والتحريف والزيادة والحذف. وقد كثرت الإنجيل حتى أربت على المائة. ودليل على أن المسيح عليه السلام أتاهم بإنجيل ما ذكر «بولس» من رسائل الكتب القانونية التي تسلم بها الكنيسة: «فإن الله الذي أعبده بروحي في إنجيل ابنه شاهد لي كيف بلا انقطاع أذكركم»(١) المراد بقوله: «ابنه يسوع»، فهذه الجملة تدل على أن المسيح له إنجيل. وفيما ذكره «بولس» نجد بأن المغيرين أخذوا يحولون الإنجيل عن مجراه. ومعلوم أن الكنيسة رفضت ما يخالف رغبتها وأقرّت الأناجيل الأربعة المعروفة اليوم على ما هي عليه من انقطاع السند وعدم العلم التام بالمؤلف الحقيقي ومبلغ أمانته على الدين وحرصه على الصدق(٢).

وروى ابن عساكر من طريق عبدالله بن بديل العقيلي، عن عبدالله بن عوسجة قال: أوحى الله إلى عيسى ابن مريم: أنزلني من نفسك كهمك، واجعلني ذخراً لك في معادك، وتقرّب إليّ بالنوافل أحبك، ولا تَولَّ غيري فأخذلك، اصبر على البلاء وارضَ بالقضاء، وكن لمسرتي فيك، فإن مسرتي أن أُطاع فلا أُعصى، وكن مني قريباً وأحيي ذكري بلسانك، ولتكن مودتي في صدرك، تيقَّظ من ساعات الغفلة واحلم لي في لطيف الفطنة، وكن لي راغباً راهباً وأمِتْ قلبك في الخشية لي وراعِ الليل لحقّ مسرتي، نافس الخيرات جهدك، واعترف بالخير حيث تَوجّهت، وقم في الخلائق بنصيحتي، واحكم في عبادي بعدلي، فقد نزّلت عليه شفاء وساوس الصدور من مرض النسيان، وجلاء الأبصار من غشاء الكَلال. يا عيسى ما آمنت بي خليقة إلا خشعت، ولا خشعت لي إلا رجعت ثوابي فأُشهدك أنها آمنة من عقابي ما لم تغير أو تبدل سنّتي.

يا عيسى ابن مريم البكر البتول، ابكِ على نفسك أيام الحياة بكاء مَن ودّع الأهل وقلا الدنيا وترك اللذات وارتفعت رغبته فيما عند إلٰهه، وكن في ذلك تلين الكلام وتفشي السلام، وكن يقظان إذا نامت عيون الأبرار، حذار

---

(١) بولس ص٩٠١.
(٢) قصص الأنبياء، عبدالوهاب النجار ص٤٤١ ـ ٤٤٤.

ما هو آت من أمر المعاد وزلازل شدائد الأهوال، قبل أن لا ينفع أهل ولا مال، واكحل عينك بملول ـ أي: الرماد الحار ـ: الحزن إذا ضحك البطَّالون، وكن في ذلك صابراً محتسباً، وطوبى لك إن نالك ما وعدت الصابرين، ارجُ من الدنيا بالله يوم يبعثون، فَرُحْ من الدنيا بالبُلْغة، وليكفيك منها الخشن الجئيب «الغليظ»، قد رأيت إلى ما يصير، اعمل على حساب فإنك مسؤول، لو رأت عينك ما أعددت لأوليائي الصالحين ذاب قلبك وزهقت نفسك[1].

جاء عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ لمهمة سامية: ذلك أن بني إسرائيل قد طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وحرّفوا شريعة الله التي جاءهم بها داود عَلَيْهِ السَّلَامُ وانحرفوا عن الطريق الواضح وما أقامهم عليه الأنبياء من السبيل السوي، وخرجوا إلى الإفراط والتفريط. فمن إفراطهم في مراعاة التوراة وإخراجها عن روحها المراد لله تعالى أنهم كانوا يتحرجون من عمل الخير في السبت باعتباره يوم عطلة لا يجوز العمل فيه، ففوتوا طاعات كثيرة توجب الزلفى إلى الله بتلك الحجة. والله إنما يريد الكفَّ عن الأعمال الدنيوية، وأما فعل الخير فإنه لا حرج فيه وليس من الأفعال المنهي عنها. لذلك جاء المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ ليرد اليهود عن ذلك التنطع المفضي إلى تعطيل الخير في ذلك اليوم. ففي الإصحاح الثاني عشر من إنجيل «متى» جاء فيه: في ذلك اليوم ذهب يسوع في السبت بين الزرع فجاء تلاميذه وابتدؤوا يقطفون سنابل ويأكلون. فالفريسيون لما نظروا قالوا: هو ذا تلاميذك يفعلون ما لا يحل فعله في السبت. فقال لهم: أما قرأتم ما فعله داود حين جاع هو والذين معه كيف دخل بيت الله وأكل خبز التقدمة الذي لم يحل أكله له ولا للذين معه، بل للكهنة فقط. ثم انصرف من هناك وجاء إلى مجمعهم وإذا إنسان يده يابسة. فسألوه قائلين: هل يحل الإبراء في السبوت لكي يشتكوا عليه؟ فقال لهم: أي إنسان منكم يكون له خروف واحد، فإن سقط هذا في السبت في حفرة أما يمسكه ويقيمه؟ فالإنسان كم هو أفضل من

---

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج٢ ص٤١٩ ـ ٤٢٠.

الخروف، إذن يحل فعل الخير في السبوت. ثم قال للإنسان: مد يدك، فمدّها فعادت صحيحة كالأخرى.

ومن تفريطهم تهالكهم على المادة، واستغرق حب المال تفكيرهم فكانوا يحرضون الفقراء على النذر للهيكل ليحتووا على ذلك المال. والناذرون في أشد الحاجة إلى بعض ما يبذلونه. فأراد المسيح أن يخفف من هذه الأنانية في الكهنة ورجال الدين. فمن ذلك ما قاله «برنابا» في الفصل الثاني والثلاثين: «دعا أحد المتضلعين من الشريعة يسوع للعشاء ليجربه، فجاء يسوع إلى هناك مع تلاميذه. وكثيرون من الكتبة انتظروه في البيت ليجربوه. فجلس التلاميذ إلى المائدة دون أن يغسلوا أيديهم. فدعا الكتبة يسوع قائلين: لماذا لا يحفظ تلاميذك تقاليد شيوخنا بعدم غسل أيديهم قبل أن يأكلوا خبزاً؟ أجاب يسوع: وأنا أسألكم لأي سبب أبطلتم شريعة الله لتحفظوا تقاليدكم؟ تقولون لأولاد الآباء الفقراء: قدِّموا وانذروا نذوراً للهيكل، وهم إنما يجعلون نذوراً من النذر الذي يجب أن يعولوا به آباءهم. وإذا أحبّ آباؤهم أن يأخذوا نقوداً يصرخ الأبناء إن هذه النقود نذر لله، فيصيب الآباء ضيق. أيها الكتبة الكذّابون المراؤون، أيستعمل الله هذه النقود؟ كلا ثم كلا. أيها المراؤون، إنكم إنما تفعلون ذلك لتملأوا كيسكم. ما أشقاكم لأنكم تُظهرون للآخرين أشهر الطرق وضوحاً ولا تسيرون فيها. أيها الكتبة والفقهاء، إنكم تضعون على عواتق الآخرين أحمالاً لا يطاق حملها، ولكنكم أنفسكم لا تحركونها بإحدى أصابعكم.

كان في اليهود فريق «الصدوقيين» الذين يقولون: لا توجد قيامة ولا نشر ولا حساب ولا عقاب. وإن جزاء الأعمال الصالحة أن يبارك الله لصاحبها في الدنيا وجزاء الأعمال الرديئة أن يعاقبه الله في الدنيا. فكان من مهمة المسيح أن يرد هؤلاء إلى عقيدة اليوم الآخر وهو يوم الجزاء. وأن يثبت الإيمان بها في قلوبهم ويحذّر الناس من اتباعهم والزيغ عن سبيل الله إلى سبيلهم. وكان بين اليهود أيضاً قوم يقال لهم: «الفريسيون» بمعنى مستقيمي الرأي، وحقيقة هذا الاسم أنهم قوم تجرّدوا لطاعة الله تعالى فتفرّدوا للعبادة وانقطعوا عن العباد. ولكنهم من قبل زمن المسيح عليه السلام

قد انحرفوا عن سنن سلفهم وألهتهم الحياة الدنيا بزبرجدها وزخرفها. وأقبلوا على الشهوات يستسرون بها وهم في عملهم يراؤون الناس ليوقعوهم في مخالبهم ويبتزوا أموالهم، فكان ظهورهم بمظهر الزهد فخاً نصبوه لصيد الدرهم والدينار. وكان هناك «الكتبة» من وظائفهم الوعظ وكتابة الشريعة لمن يطلبها، وكان في شؤونهم يشبهون الفريسيين في تصيد أموال الناس. وأيضاً كانوا هناك «الكهنة وخدمة الهيكل» وكانوا قد صاروا إلى حال رديئة ويحرّفون كلام الله ويتهالكون على حطام الدنيا. كل هؤلاء كانت أحوالهم تستدعي إصلاحاً قويماً ومصلحاً، فجاء المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لتخليصهم جميعاً من الأحوال التي ارتطموا في حمأتها.

لقد جاء في إنجيل «متى» ص**٢٢** في هذا الشأن: حينئذ ذهب الفريسيون وتشاوروا لكي يصطادوه بكلمة. فأرسلوا إليه تلاميذهم قائلين: يا معلم، نعلم أنك صادق وتعلم طريق الله بالحق، فقل لنا: ماذا تظن، أيجوز أن تعطي جزية لقيصر أم لا؟ فعلم يسوع خبثهم وقال: لماذا تجربوني يا مراؤون؟ أروني معاملة الجزية. فقدّموا له ديناراً، فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة؟ قالوا: لقيصر، فقال لهم: أعطوا إذن ما لقيصر لقيصر وما لله لله، فلما سمعوا تعجبوا وتركوه ومضوا. وفيما كان الفريسيون مجتمعين سألهم يسوع قائلاً: ماذا تظنون في المسيح ابن مَن هو؟ قالوا له: ابن داود. قال لهم: فكيف يدعوه داود بالروح رباً قائلاً؟! قال الرب لربي اجلس عن يميني حتى أضع أعداءك موطئاً لقدميك. فإن كان داود يدعوه رباً فكيف أكون ابنه؟ فلم يستطع أحد أن يجيبه بكلمة. ومن ذلك اليوم لم يستطع أحد أن يسأله.

ومن الأغراض السامية التي جاء المسيح لتقريرها وإذاعتها بين اليهود وغيرهم البشارة باقتراب ملكوت السماوات، والمراد بذلك الشرعية الإلٰهية التي يرسل الله تعالى بها النبيّ الأمي المذكور في الآية «**١٥**» من الإصحاح «**١٨**» في سفر التثنية الذي وعد الله بني إسرائيل على لسان موسى أن يرسله من بين إخوتهم ويجعل كلامه في فمه ويخبرهم بكل الذي يوصيه الله به. وقد بشّر اليهود أيضاً أنبياء كثيرون. منهم داود في المزمور الخامس

والأربعين والتاسع والأربعين بعد المائة، والعاشر بعد المائة، وأشعيا في بعض الإصحاحات من ٨ ـ ٦٥، ودانيال في ص**٢** و**٧**، وحبقوق في ص**٣** وحجي في ص**٢**، وزكريا في ص**٣**، وملاخي في ص**٣**. وهذا قليل من كثير مما في تلك الكتب مع ما اعتراها من التحريف القصدي وغير القصدي[١].

قام المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ يدعو الناس إلى دين الحق الذي أوحاه الله إليه، في مجتمع يهودي دخلت فيه الخرافات الكثيرة، وخرافات وأباطيل، بسبب تمردهم وطغيانهم على الشريعة الربانية التي أنزلها الله على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وكان بنو إسرائيل قد طال عليهم الأمد فقست قلوبهم، وحرّفوا شريعة الله، وتلاعبوا بنصوص التوراة، وانحرفوا عن الطريق الواضح الذي أقامهم عليه نبيهم. فبعث الله إليهم عيسى ابن مريم ليردهم إلى الجادة، ويصحح ما دخل شريعتهم من تحريف وتبديل. فقام عَلَيْهِ السَّلَامُ يبلغهم أوامر الله، ويعلمهم ما أنزل عليه من أحكام شريعة جديدة، منها تحليل بعض ما كان قد حرّم عليهم في شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ بسبب بغيهم وعدوانهم، والتي كانت عقوبة لليهود في ذلك الحين. وقد حكى الله جلّ ثناؤه على لسان المسيح المهمة التي بعث من أجلها: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾ [آل عمران: ٥٠]. وقد أجرى الله على يد عيسى ابن مريم المعجزات الباهرات تصديقاً لنبوته وتأييداً لرسالته. وقد لقي المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ من اليهود تعنتاً واستكباراً، ولاقى أثناء عودته أهوالاً وشدائد من الكهنة ورؤساء الدين، فاصطدم معهم بجدال عنيف حول مفاهيم الدين، وأصول الشريعة الربانية التي جاء بها من قبله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، والتي حرَّفها أولئك الظالمون. فكان يحاج «الفريسيين» الزهاد والمنقطعين للعبادة، و«الكتبة» وهم كتاب الشريعة الوعاظ، و«الكهنة» هم خدمة الهيكل والمعبد، فيدحضهم بالحجج الدامغة، والبراهين القاطعة. ولبث عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يجاهر بدعوته، ويجادل المنحرفين،

(١) قصص الأنبياء، عبدالوهاب النجار ص٤٤٤ ـ ٤٥٠.

من كهنة وكتبة وفريسيين، ويدلهم على الله، ويأمرهم بالاستقامة ويبين فساد طريقتهم، ويفضح رياءهم وخبثهم، حتى ضاقوا به ذرعاً، فقرروا التخلص منه[١].

الجليل أو جليل الأمم على حد تعبير الإسرائيليين كانت دائماً أرضاً مفتوحة غير مقفلة على فئة معينة أو جماعة بذاتها أو شعب دون الآخر من الجماعات المتزاحمة على أرض فلسطين، ولم تخلص الجليل من بين أرض فلسطين قاطبة للإسرائيليين ولا لغيرهم في زمن من الأزمان. غير أن الجليل الذي كانت بمثابة عاصمة مفتوحة تستقبل الأفراد والجماعات والثقافات وتصدر لكل ما حولها خلاصة تجارب أهلها. ووسط هذا الجو العام كان هناك الطوائف اليهودية الخمسة: «الصدوقيون، والفريسيون، الأساة، الغلاة، السامرية» التي كانت تشكل عمل القوى المتصارعة في مجتمع إسرائيل منذ مراحل كثيرة، وأصبحت تمثل حد التناقض في عصر المسيح عليه السلام، وإن كانت هناك طائفة أخرى هي جماعة «النذريين» أو «المنذورين» الذين وهبهم أهلوهم لحياة القداسة والتبشير، وكانوا قلة تعيش حالة عزلة وانطواء. ولم يكن هؤلاء النذريون تجمعهم الوحدة، ولكنهم كانوا آحاداً متفرقين ينذر كل منهم نفسه أو أهله على حده ولا ينتسبون إلى جماعة واحدة غير الأمة بأسرها التي كانت ضائعة بين فئات تنعدم بينهم معاني التعاطف والولاء. وكان على «النذري» أن يهجر العالم ويعتزل الناس في الصوامع ويراض على حياة التنطس. ومن المنذورين ممن كانوا يواصلون ما أخذوه على أنفسهم من القيام به. وقد بلغ عددهم قبيل ميلاد المسيح عليه السلام كثرة كثيرة يؤلفون نحلة لا تلتقي في أدب أو عقيدة أو تتفق على شيء قدر دعواهم أنهم رواد العدوة إلى انتظار المسيح، يترقبون ظهوره للإيمان به. إلا أن المواقف التي تعرض لها المسيح من جميع الطوائف اليهودية باستثناء الفردية التي تعلق أصحابها بالمسيح وآمنوا به كانت كفراً وجحوداً ومطاردة من جميع القوى اليهودية حتى هيئ إليهم أنهم قد مضوا على الدعوة وعلى صاحبها.

---

(١) النبوة والأنبياء، للصابوني ص٢٠٨ ـ ٢٠٩.

وعندما كانت طوائف الجماعات اليهودية في عصر الميلاد تحت ضغوط الرومان، وعندما كان الشعب اليهودي المغلوب على أمره يعاني آلاماً جديدة في ظل المسيح عليه السلام، كانت فئات من الذين يلوكون دعوى المذهبية ومن الذين يمثلون التناقض الاجتماعي القائم على علاقات الاستغلال والامتياز مثل تلك الطوائف الدينية والاجتماعية، وغيرهم من الذين كان ينظر إليهم العامة من الشعب اليهودي على أنهم يمثلون سيادة الدين والدنيا، تتعامل مع الرومان أداة لهم، خدماً ووشاة ضد جماعتهم وما تبقى من زيف دعوى دينية. وكان من نتيجة انصراف أصحاب السيادة الدينية وأهل الدنيا من القوى المسيطرة من أهل اليهود أن تعرضت الطوائف اليهودية لمرحلة من الجدب والقحط النفسي حتى ساءت أحوال الفرد اليهودي وانعدم فيه إحساسه بأدنى ولاء لعقيدة أو لجماعة أو لسلوك ديني وأصبح حالهم الاجتماعي والنفسي كما عبّر المسيح عليه السلام عن ذلك عندما وجه إليهم أقوى نقده وكشف عن حالهم بأنه كالقبور المبيضة خارجها طلاء جميل وداخلها نخرة. ويغتاظ علماء الرومان الذين هم من الجماعات اليهودية من خطر الدعوة مثلما أدرك الرومان أنفسهم ما يمكن أن تفضحهم به الدعوة الجديدة.

ثم مع نمو تعاليم الدعوة التي يدعو لها المسيح عليه السلام تفاقم الخطر على الجماعات اليهودية، فنظر عملاء الرومان من اليهود إلى الدين الجديد بحذر وقلق، فقاموا يعمقون نفس الشعور في نفوس بني إسرائيل جميعاً إلى أن أصبح الحال تذمرهم من الدين الجديد ومن صاحب الدعوة إلى هذا الدين.

وأوشك الحال الاجتماعي والسياسي أن يكون في ثورة رفض لكل ما يبشر به المسيح عليه السلام من عقيدة، وما يدعو إليه من دين يحمل بين تعاليمه قضية العدل الاجتماعي والنظر في أمور الحياة والدين ومظاهر السلوك. ومع أن الكهانة الدينية كانت تتوارث فكرة مسيح مخلّص على يد مَن يقيم لهم مطالب المصلحة والهوى ثم ضاقت بهذه الأفكار فتخلت عنها ووقفت موقف حرب وعداء تعاونت فيه كل قوى التناقض الاجتماعي

اليهودي، ثم استعانت بالسيادة الرومانية بدعوى أن خطر الدعوة الجديدة لن يدع الشعب اليهودي الخاضع لمشيئة الدولة مرتبطاً بولائه لهم. فأصبحت السلطة الرومانية بالوشاية اليهودية في معركة مع الدعوة، ولم تشهر فيها السلاح علانية وإنما بالمؤامرة والخداع وتكتيل جهود القوى الثائرة ضد الدعوة من أبناء بني إسرائيل الذين قد بلغ بهم الضلالة والعمى المستوى الذي وصف المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ حالهم حين أراد إصلاحهم بأنهم «الخراف الضالة»، بعد أن كشف طويتهم وفضح قلوبهم بأنهم «الحيّات أولاد الأفاعي». وبالفعل فإن الحيّات من بني إسرائيل قد نفثت سمومها في طريق الدعوة الجديدة حتى ضلّلت الشعب اليهودي وأدخلته الحرب ضد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ في حالة رفض له ولتعاليمه[١].

قال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا شريح بن يونس، حدثنا علي بن ثابت، عن الخطاب بن قاسم، عن أبي عثمان: كان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ يصلي على رأس جبل فأتاه إبليس فقال: أنت الذي تزعم أن كل شيء بقضاء وقدر؟ قال: نعم. قال: ألقِ نفسك من هذا الجبل وقل قُدِّر عليّ. فقال: يا لعين الله، يختبر العباد وليس العباد يختبرون الله عزَّ وجلَّ. وقال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثنا الفضل بن موسى البصري، حدثنا ابن يسار سمعت سفيان بن عيينة يقول: لقي عيسى ابن مريم إبليس فقال له إبليس: يا عيسى ابن مريم، الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تكلمت في المهد صبياً، ولم يتكلم فيه أحد قبلك. قال: بل الربوبية للإله الذي أنطقني ثم يميتني ثم يحييني. قال: فأنت الذي بلغ من عظم ربوبيتك أنك تحيي الموتى. قال: بل الربوبية لله الذي يحيي ويميت مَن أحييت ثم يحييه. قال: والله إنك لإله في السماء وإله في الأرض. قال: فصكه جبريل صكة بجناحيه فما نباها دون قرون الشمس. قال: وحدثنا إسماعيل العطار، حدثنا أبو حذيفة قال: واجتمع إليه شياطينه فقالوا: لقد لقيت تعباً، قال: إن هذا عبد معصوم ليس لي عليه من سبيل، وسأُضل به بشراً كثيراً وأبث فيهم

(١) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ج١ ص٣٢٢ ـ ٣٢٩.

أهواء مختلفة وأجعلهم شِيَعاً ويجعلونه وأمه إلٰهين من دون الله. قال: وأنزل الله فيما أيّد به عيسى وعصمه من إبليس قرآناً ناطقاً.

بذكر نعمته على عيسى قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ﴾ [المائدة: ١١٠]، يعني: إذ قوّيتك بروح القدس ـ يعني: جبريل ـ وتدعو الناس إلى الله في حال صغرك في مهدك وفي كهولتك ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾، أي: الحفظ والفهم كما نصّ عليه بعض السلف و«التوراة والإنجيل» وقوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾، أي: تصوره وتشكله من الطين على هيئة الطير عن أمر الله له بذلك ﴿فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ﴾، أي: بأمري، ويؤكد تعالى بذكر الإذن في ذلك لرفع التوهُّم. وقوله: ﴿وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ﴾، قال بعض السلف: وهو الذي يولد أعمى ولا سبيل لأحد من الحكماء إلى مداواته، ﴿وَٱلْأَبْرَصَ﴾ هو الذي لا طبَّ فيه وصار داؤه عضالاً ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾، أي: من قبورهم أحياء بإذني، وإذ جعلت المساكين لك بطانة وصحابة وأعواناً ترضى بهم ويرضون بك هارباً وقائداً إلى الجنة. وهذه من جملة نِعَم الله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم أن جعل له أنصاراً وأعواناً ينصرونه ويدعون معه إلى عبادة الله وحده لا شريك له.

وسيقول لك بنو إسرائيل: صُمنا فلم يتقبَّل صيامنا، وصلَّينا فلم تُقبل صلاتنا، وتصدّقنا فلم تُقبل صدقاتنا، وبكينا بمثل حنين الجمال فلم يُرحم بكاؤنا. فقل لهم: ولِمَ ذاك أوَليس خزائن السماوات والأرض بيدي أنفق منها كيف أشاء؟ أوَلست أجود من سأل وأوسع من أعطى أو أن رحمتي ضاقت؟ وإنما يتراحم المتراحمون بفضل رحمتي، لولا أن هؤلاء القوم يا عيسى ابن مريم عَدُّوا أنفسهم بالحكمة التي تورث في قلوبهم فاستأثروا به الدنيا أثرةً على الآخرة لعرفوا من أين أوتوا، وإذاً لأيقنوا أن أنفسهم هي أعدى الأعداء لهم، وكيف أقبل صيامهم وهم يتقوّون عليه بالأطعمة الحرام،

وكيف أقبل صلاتهم وقلوبهم تركن إلى الذين يحاربوني ويستحِلُّون محارمي، وكيف أقبل صدقاتهم وهم يغصبون الناس عليها فيأخذونها من غير حلها، وكيف أرحم بكاءهم وأيديهم تقطر من دماء الأنبياء. يا عيسى، وقضيت يوم خلقت السماوات والأرض أنه مَن عبدني وقال فيكما بقولي أن أجعلهم جيرانك في الدار ورفقاءك في المنازل وشركاءك في الكرامة. وقضيت يوم خلقت السماوات والأرض أنه مَن اتخذك وأمك إلٰهين من دون الله أن أجعلهم في الدرك الأسفل من النار.

وقضيت يوم خَلقت السماوات والأرض أني مثبت هذا الأمر على يدي عبدي محمد وأختم به الأنبياء والرسل، ومولده بمكة ومُهاجَره بطيبة وملكه بالشام، ليس بفظّ ولا غليظ ولا صخّاب في الأسواق ولا برّاز بالفحش ولا قوّال بالخَنا. أسدده لكل أمر جميل وأهل له كل خُلق كريم، وأجعل التقوى ضميره والحكم معقوله والوفاء طبيعته والعدل سيرته والحق شريعته والإسلام ملّته. اسمه «أحمد» أهدي به بعد الضلالة وأعلّم به بعد الجهالة وأغني به بعد العائلة، وأرفع به بعد الضّعة. أهدي به وأفتح به بين آذان صم وقلوب غُلف وأهواء مختلفة متفرقة، وأجعل أمته خيرَ أمة أُخرجت للناس، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر إخلاصاً لاسمي وتصديقاً لما جاءت به الرسل. ألهمهم التسبيح والتقديس والتعليل في مساجدهم ومجالسهم وبيوتهم ومنقلبهم ومثواهم، يصلُّون لي قياماً وقعوداً وركّعاً وسجوداً، ويقاتلون في سبيلي صفوفاً وزحوفاً، قربانهم دمائهم وأناجيلهم في صدورهم وقربانهم في بطونهم، رهبان بالليل ليوثٌ في النهار، ذلك فضلي أوتيه مَن أشاء وأنا ذو الفضل العظيم(١).

في ذكر خبر المائدة التي أُنزلت على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، قال الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ

(١) قصص الأنبياء، لابن كثير ج٢ ص٤٢١ ـ ٤٢٥.

ﱡٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلۡ عَلَيۡنَا مَآئِدَةٗ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدٗا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةٗ مِّنكَۖ وَٱرۡزُقۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ١١٤ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيۡكُمۡۖ فَمَن يَكۡفُرۡ بَعۡدُ مِنكُمۡ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١١٥ﱠ [المائدة: ١١٢ ـ ١١٥]، عن ابن عباس وسلمان الفارسي وعمار بن ياسر وغيرهم من السلف، ومضمون ذلك أن عيسى عليه السلام أمر الحواريين بصيام ثلاثين يوماً، فلما أتمّوها سألوا عيسى إنزال مائدة من السماء عليهم ليأكلوا منها وتطمئن بذلك قلوبهم أن الله قد تقبّل صيامهم وأجابهم إلى طلبتهم وتكون لهم عيداً يفطرون عليها يوم فطرهم وتكون كافية لأولهم وآخرهم لغنيهم وفقيرهم. فوعظهم عيسى في ذلك وخاف عليهم ألاّ يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حق شروطها فأبوا عليه إلا أن يسأل لهم ذلك من ربه عزَّ وجلَّ. فلما لم يقلعوا عن ذلك قام إلى مصلاه وأطرق رأسه وأسبل عينيه بالبكاء وتضرّع إلى الله في الدعاء أن يُجابوا إلى ما طلبوا. فأنزل الله تعالى المائدة من السماء والناس ينظرون إليها تنحدر بين غمامتين وجعلت تدنو قليلاً قليلاً، وكلما دنت سأل عيسى ربه عزَّ وجلَّ أن يجعلها رحمة لا نقمة. فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدَي عيسى عليه السلام وهي مغطاة بمنديل، فقام عيسى يكشف عنها وهو يقول: «بسم الله خير الرازقين» فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة وخل ورمان وثمار ولها رائحة عظيمة قال الله لها: كوني، فكانت، ثم أمرهم بالأكل منها فقالوا: لا نأكل حتى تأكل، فقال: إنكم الذين ابتدأتم السؤال لها، فأبوا أن يأكلوا منها. فأمر الفقراء والمرضى وكانوا قريباً من ألف وثلاثمائة فأكلوا منها فبرأ كل مَن به عاهة أو مرض مزمن، فندم الناس على ترك الأكل منها لما رأوا من إصلاح حال أولئك. ثم قيل: إنها تنزل كل يوم مرة فيأكل الناس منها يأكل آخرهم كما يأكل أولهم حتى قيل: إنه كان يأكل منها نحو سبعة آلاف. ثم كانت تنزل يوماً بعد يوم كما كانت ناقة صالح يشربون لبنها يوماً بعد يوم. ثم أمر الله عيسى أن يقصرها على الفقراء دون الأغنياء فشقّ ذلك على كثير من الناس، وتكلموا فنافقوهم في ذلك فرُفعت بالكلية ومُسخ الذين تكلموا في ذلك خنازير. وقد روى ابن أبي حاتم وابن جرير جميعاً، حدثنا الحسن بن قزعة الباهلي، حدثنا سفيان بن حبيب،

حدثنا سعيد بن أبي عروة عن قتادة عن خلاس عن عمار بن ياسر عن النبيّ ﷺ قال: «**نزلت المائدة من السماء، خبز ولحم، وأُمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا ولا يرفعوا لغد، فخانوا وادّخروا ورفعوا فمُسخوا قردة وخنازير**»[(١)].

كان عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ جادًّا في رسالته ينكر على اليهود ما درجوا عليه من النظم التي درّت عليهم الأموال الطائلة، وينعي عليهم أن يطمسوا معالم الدين، ويبين لهم أن ما هم عليه لا يوافق ما يدعو إليه ربهم. ولم يثنه شيء عن مناوأتهم حتى إذا قهرت البينات ألبابهم، وبهرت الآيات بصائرهم، وخصم نور الحق حجتهم، لم تجد عقولهم طريقاً إلى مغالبته وصده. ولكنهم مع ذلك كذبوه بأفواههم بغياً وحسداً ولجاجة، يخافون أن تبيد دولتهم، وتنطوي صحيفة سلطانهم. وكثر مع ذلك أتباعه وأنصاره، وإن كانوا من طبقات دُنْيا. حاول اليهود أن يخففوا من أثر دعوته، أو يموّهوا على الناس أمره فلم يستطيعوا. فقد كان كالفلك الدائر، والنجم السائر، يُدوِّي صوته بالدعوة إلى الله، وينقم على اليهود حيثما حلَّ. بل كان يجهل أحلامهم، ويفنّد مذاهبهم حتى غضبوا عليه، وضاقوا ذرعاً به فصوّروه لرجال السياسة مؤلّباً للجموع، مثيراً للفتن، متطلعاً للمُلك، لينضم هؤلاء تحت لوائهم في معاداته، وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ليست له عصبية تحميه، ولا قبيلة تؤازره، ولكنه لا يحفل بغض هؤلاء، فقد تكفل الله بحفظه، وعصمه من الجاحدين برسالته، ووعده أن يحبط مكرهم ويرد كيدهم في نحرهم.

وقد هال اليهود ما رأوا من تألب الناس عليهم وانصرافهم عنهم، وخيلت لهم نفوسهم أن عيسى قد تستطير بسببه الفتنة، مع أنه قد جاء مصدقاً لما بين يديه من التوراة. ولما يئسوا من مقاومته، وعجزوا عن صد تيار دعوته، بدأوا يحيكون له خيوط العداء، ويذيعون أنه ساحر، وأن ما يظهر من معجزات إنما يمليه عليه الشيطان. وأنه لا ينحو نحوهم، فلا يكف عن أعمال الدنيا في يوم السبت، وهو يوم عيدهم. ثم رموه بالبُعد

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير ج٢ ص٧٩ ـ ٨٠.

عن دينهم، والمروق من عقائدهم. ولكن ذلك لم يخفف من صوته بل دأب في دعوته، وابتدأت الجماعات تنفض من حولهم. ثم أجمعوا أمرهم، ودبّروا له القتل، حتى لا يتألب الناس عليهم، وينقضوا على سلطانهم. وما كان أجهلهم بدين الله حين همُّوا بقتل نبيّ يؤمن بكتابهم، ولم يقترف إثماً إلا أنه رغب في أن يردهم إلى حقيقة الدين، وحثّهم على الإخلاص له. عقدوا العزم على قتله، ولكن أنّى لهم ذلك، وهم لا يعرفون مكانه. إذن فليبحثوا إلى الوعود الكاذبة، يبذلونها لمن يأتيهم به، وإلى الأموال يغدقونها على مَن يدلهم عليه، وأخيراً إلى الوالي يثيرون غضبه، ويوهمونه أن في دعوة عيسى زوالاً لملك قيصر.

واجتمع رجال الدين في بيت المقدس يجيلون الرأي في أمر عيسى، لعلهم يهتدون إلى مكانه. وبينما هم في اجتماعهم وقد ضاقت بهم السبل دخل عليهم رجل من أتباعه وأبدى رغبته في أن يدلهم عليه، وما كاد يُتم كلامه حتى تنفسوا الصعداء. ذهبوا به إلى الوالي، وخبّروه بمكنون أمر عيسى، فابتعث جنداً يأتون بعيسى ليقضوا فيه أمرهم. وكان عيسى حينذاك قد علم ما يخفي القوم، وما يبيتون له من شر، وانتهى إليه ما أجمعوا أمرهم عليه. فأخذ يتنقل من مكان إلى مكان، يختفي حيناً ويظهر آناً، وهو لا يني عن بث دعوته، ولا يفتأ يحض على التمسك بحبل الله ويدعو إلى البُعد عن المنكرات والآثام، وتلاميذه لا يفارقون ظله. وآوى معهم يوماً إلى بستان يسكنون إليه ليلتهم، إذ لم يكد يجنهم الليل حتى تهدّ الباحثون إلى مكمنه وعثروا عليه في مخبئه، فأصبح عيسى وتلاميذه بين أيديهم. ولما رأى التلاميذ ما كاد يحيق بهم وبصاحبهم تركوا نصرته، وانفضوا من حوله. أما عيسى فما كان الله ليسلمه إلى أعدائه، وهو يجاهد في سبيل إعلاء دينه، وقد أيّده بالمعجزات، وآزره بالبينات، ووعده بنصره على أعدائه. في هذه الساعة الرهيبة، تجلّت قدرة الله، وامتدت إليه يد العناية، فأخفاه الله عن أعين الناظرين، ووقع تحت بصرهم رجل شديد الشبه به. وما لبثوا أن حسِبوه هو فانقضُّوا عليه. فتملكته الدهشة، وعقد لسانه الخوف، فلم يستطع الإعلان عن حقيقة أمره بل استسلم خائفاً مذعوراً. ذلكم الرجل هو «يهوذا»

الذي دلهم عليه، فردّ الله كيده في نحره، وجازاه على خيانته ومكره. فاستاقوه إلى ساحة صلب فيها بين الصخب والضجيج، والفرح والتهليل، وهم يزعمون أنهم قتلوا عيسى(١). قال الله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨].

لقد كان المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بالمرصاد لكل مضايقات جماعات الكهانة الدينية وقوى الطبقات الاجتماعية. ومن وسط السياق العام لآيات الأناجيل يتضح أن المسيح قد قرر أن يهاجم في وضوح طبيعة التركيبة الاجتماعية والنفسية لجماعات اليهود من الكتبة والفريسيين وشيوخ الشعب المرائين وأن لا يتركهم على ما هم عليه من محاولة استمرار عمل الكهانة: «لأنكم تغلقون ملكوت السماوات قدّام الناس فلا تدخلون أنتم، ولا تدعون الصالحين يدخلون»، وعن دعوى الدين من هيكل وأسلوب عبادة يكشف المسيح النفاق الديني: «أيها القادة العميان القائلون مَن حلف بالهيكل فليس بشيء، ولكن مَن حلف بذهب الهيكل يلتزم». ثم رفض أن يستمر القوم المراؤون فيما هم عليه من استغلال: «ويل لكم لأنكم تأكلون بيوت الأرامل ولعلة تطيلون صلواتكم».

بعد أن تأكد للمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه رغم نجاحه في استقطاب جموع المحرومين والمرضى إلا أن قوى التناقض اليهودي ممثلة في الطبقات المستقلة والمستعلية تضلل الشعب اليهودي، وذلك أنها زيّفت عليه الحقيقة. فإنه قبل النهاية للدور الرهيب أفصح عَلَيْهِ السَّلَامُ عن الحقيقة التي قد جاء من أجلها إلا أنهم رفضوه وقاوموه، فما كان منه عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا أن أعلن عن حقيقة نهاية النبوة والرسالة لبني إسرائيل حين قال المثل: «كأن إنسان رب بيت غرس كَرْماً، وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة، وبنى برجاً، وسلَّمه إلى كرَّامين وسافر ولما قرب وقت الإثمار أرسل عبيده إلى الكرَّامين ليأخذوا

---

(١) قصص القرآن، جاد المولى، أبو الفضل، البجاوي، السيد شحاتة ص٢٢٦ ـ ٢٣١.

أثماره فأخذ الكرَّامون عبيده، وجلدوا بعضاً، وقتلوا بعضاً، ورجموا بعضاً، ثم أرسل أيضاً عبيداً آخرين، أكثر من الأولين، ففعلوا بهم كذلك، فأخيراً أرسل إليهم ابنه قائلاً يهابون ابني. وأما الكرّامون، فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم: هذا هو الوارث، هلموا نقتله ونأخذ ميراثه، فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه، فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرّامين؟ قالوا له: أولئك أردياء يهلكهم هلاكاً ردياً، ويسلم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها، قال لهم يسوع: أما قرأتم قط في الكتب، الحجر الذي رفضه البنّاؤون هو قد سار رأس الزاوية من قِبَل الرب كان هذا هو عجيب في أعيننا لذلك أقول لكم: إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل إثماره. ومَن سقط على هذا الحجر يترضض ومَن سقط هو عليه يسحقه»[(١)]. وبهذا وضع به الختام والنهاية لأسطورة الدعوى للشعب الإسرائيلي المدّعي الأبوة لسلالة الأنبياء والقداسة الدينية، والتشدق بالأفضلية، والامتياز والاختيار والاصطفاء. إن المرحلة التي حاول فيها المسيح عليه السلام أن يؤصل معاني الخير في قلوب الذين سرقوا الحق وقتلوا أصحابه. بدأت المطاردات اليهودية ضد المسيح عيسى عليه السلام بعد أن أدركت قوى الاستغلال اليهودي أن دعوته تشكل خطراً عليهم. وقاموا بعنف وقوة ضد صاحب الدعوة على حدِّ الرواية التي تسوقها الأناجيل: «أنه عقب عجزهم عن أن يقاوموا دعوة المسيح ونقاءها قرروا أن يضعوا حداً للتخلص منه. حينئذ اجتمع رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب لكي يمسكوا يسوع بمكر ويقتلوه، ولكنهم قالوا: ليس في العيد لئلا يكون شغب في الشعب»[(٢)]. ويستفاد من عبارات الإنجيل على حد ما ترويه أنهم كانوا يسيطرون على الشعب اليهودي إلا أنهم كانوا في معزل عنه. وأن هذا الشعب بالمقدار الذي سمع المسيح قد أصبح مرتبطاً به إلى الحد الذي أدرك رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب حين بدأوا ينسجون خيوط مؤامراتهم أنهم لكي ينجحوا في

---

(١) إنجيل متى: الإصحاح الحادي والعشرون: **٣٣ ـ ٤٤**.

(٢) إنجيل متى: الإصحاح السادس والعشرون: آيات **٣٠ ـ ٣٥**.

أن يؤلبوا الشعب عليه لا بد وأن يمسكوه بمكر ويقتلوه. وكان ذلك حين استطاعوا أن ينفذوا إلى صفوف أتباع المسيح عليه السلام بواحد من الأتباع الذين أتيح لهم أن يلازموه على حد تعبير «مَتَّى» ذهب واحد من الاثني عشر الذي يدعى «يهوذا الأسخريوطي» إلى رؤساء الكهنة، وقال: ماذا تريدون أن تعطوني وأنا أسلمه إليكم؟ فجعلوا له ثلاثين من الفضة. وهكذا من قديم الزمان فإن أسلوب التعامل اليهودي يستغل في الفرد جوانب من شخصيته ويضغط عليها بما يشتهي حتى لو كان صاحب مبادئ. كما أمكن لهم صنع واحد من التلاميذ الاثني عشر الذين كانوا حول المسيح عليه السلام.

وعلى ضوء آيات الأناجيل أدرك المسيح عليه السلام أن قوى الخطيئة ابتدأت تطارده في عنف وقسوة، وأن خطر المطاردة لم يجعل من المتيسر أن يفكر التلاميذ في مقاومة قوى التآمر. فيقول إنجيل «متى»: لما كان المساء اتكأ مع الاثني عشر، وفيما يأكلون قال: الحق أقول لكم: إن واحد منكم يسلمني، فحزنوا جداً، وابتدأ كل واحد منهم يقول له: هل أنا هو؟ فأجاب وقال: الذي يغمس يده معي في الصفحة، هو يسلمني، إن ابن الإنسان ماض كما هو مكتوب عنه، ولكن ويل لذلك الرجل الذي به يسلم ابن الإنسان، كان خيراً لذلك الرجل لو لم يولد. فأجاب يهوذا وقال: هل أنا هو يا سيدي؟ قال له: أنت قلت»[1].

وتوضيح الأناجيل أن مجموعات الوشاة الذين يعملون في خدمة سلطات الوالي الروماني أصحاب السيادة والسيطرة والامتياز على الشعب اليهودي. ومن أجل التخلص من خطر الدعوة الجديدة كانت العلاقة قبيل القبض على المسيح عليه السلام قد بلغت ذروة التلاقي والتعاون إلى الحال الذي أصبح أنه لم يكن يرفض من طلب أو جاء للجماعات اليهودية التي تعمل في خدمة الوجود الروماني. ويعبر عن نوع هذه العلاقة مثلاً الحوار الذي تمّ بين الوالي «بيلاطس» وبين القوة المؤثرة حين كانت العادة أن يطلق لهم الوالي بمناسبة عيدهم كل عام مذنباً أو مخطئاً. ولما كان

(١) إنجيل متى: الإصحاح السادس والعشرون: آيات ٣ ـ ٥.

المسيح عليه السلام قد قبض عليه استجابة لإلحاح القوة الممثلة للسيطرة اليهودية. ولما كان هذا القبض قد تمّ بمساعدة جند الرومان وسيادة الدولة، فقد كان الوالي يعلم تماماً أن عملية القبض كانت لغير ما اتهام أو جريمة. ولكنه أمام المطلب اليهودي في أن لا يطلق سراح المسيح لم يكن عليه إلا أن يستجيب، إلا أنهم لم يكن مطلبهم إطلاق سراحه بل المطالبة بإعدامه. وعلى حد الرواية الإنجيلية يتعرض المسيح عليه السلام لموقف في غاية الخطورة، وذلك أن الذين أمسكوه قد مضوا به إلى بيت رئيس الكهنة المدعو «قيافا» حيث أمكن الحصول بتقديم شهادة زور للمحاكمة الغاشمة التي عقدت للمسيح عليه السلام في حوار عنيد قائم على التحدي والسخرية. ولقد جاء على حد رواية الأناجيل شاهد زور، وقال: هذا قال: «إني أقدر أنقض هيكل الله وفي ثلاثة أيام أبنيه. وأمام هذا السخف كان رئيس الكهنة يقول للمسيح عليه السلام في سخرية شامت: «هل أنت المسيح ابن الله» ولا يجيبه المسيح بغير قوله: «أنت قلت». وعند هذه الإجابة تعرّضوا له بالأذى الذي يصفه إنجيل «متى»: «فمزق رئيس الكهنة ثيابه قائلاً: قد جدف، ما حاجتنا بعد إلى شهودها قد سمعتم تجديفه، ماذا ترون؟ فأجابوا وقالوا: مستوجب الموت حينئذ، بصقوا في وجهه، ولكموه وآخرون لطموه»[(١)].

وبالخبر الإنجيلي فإن المسيح عليه السلام قد سُلِّم إلى مجموعة من الجند كي تنفذ فيه عملية الإعدام، والتي كانت تقليدياً تتم بطريقة الصلب. وفيما تقصه الأناجيل أن الجماهير اليهودية في موقف رفض وثورة وتمرد على المسيح عليه السلام، وهو يساق إلى النهاية الأثيمة التي تصورها الأناجيل للمؤمنين بها: «أخذ عسكر الوالي، يسوع إلى دار الولاية وجمعوا عليه كل الكتبة فعروه وألبسوه رداءً قرمزياً وضفروا إكليلاً من شوك ووضعوه على رأسه، وقصبة في يمينه وكانوا يجيئون قدّامه ويستهزئوا به، نزعوا عنه الرداء إذ كان المجتازون يجدفون عليه وهم يهزون رؤوسهم قائلين: يا ناقض

---

(١) إنجيل متى: الإصحاح السادس والعشرون: ٦٦ ـ ٦٨.

الهيكل وبانيه في ثلاثة أيام، خلص نفسك إن كنت ابن الله فانزل من على الصليب»(١).

وهكذا يعمل الكفر عمله ببني إسرائيل في علاقاتهم وتاريخهم من المسيح عليه السلام، فحتى أثناء المواقف الرهيبة التي طاردوه فيها، وما جاء بها وصورها إنجيل «متى» فإنهم كانوا على حد روايته أثناء تعليقهم للمسيح عليه السلام قد وقفوا منه في شماتة وسخرية ينادون بعبارة الجحود والنكران مؤملين في اندفاعهم وحقدهم أن يقتلوا في قلب مَن لا يزال متعلقاً أو مرتبطاً بما دعا إليه المسيح عليه السلام كل أثر لهذا الارتباط. وأن عملية الصلب في العقيدة المسيحية التي تستقي مقوماتها من مصدر كالعهد الجديد قضية صلب المسيح عليه السلام معلقاً على الصليب، وقضية الخطيئة في أجيال ولد آدم تاب الله عليهم بدم السيد المسيح بالأمس واليوم وغداً(٢).

رفع الله جلّ جلاله عيسى عليه السلام، وفي حفظ الرب وبيان كذب اليهود والنصارى في دعوى الصلب. قال الله تعالى: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [آل عمران: ٥٤، ٥٥]. وقال الله تعالى: ﴿وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨]. فأخبر تعالى أنه رفعه إلى السماء بعدما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به وخلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود والذين وشوا به إلى بعض الملوك الكفرة في ذلك الزمان.

قال الحسن البصري ومحمد بن إسحاق كان اسمه «داود بن نورا» فأمر بقتله وصلبه فأحصروه في دارٍ ببيت المقدس، وذلك عشية الجمعة ليلة

---

(١) إنجيل متى: الإصحاح السابع والعشرون: ٢٧ ـ ٣٠ ـ ٤١ ـ ٤٣.
(٢) تاريخ اليهود العام، صابر طعيمة ج١ ص٣٣٤ ـ ٣٥٨.

السبت. فلما حان وقت دخولهم ألقي شبهه على بعض أصحابه الحاضرين عنده ورفع عيسى من «روزنة» أي: كوة أو فتحة ذلك البيت إلى السماء وأهل البيت ينظرون. ودخل الشرطة فوجدوا ذلك الشاب الذي ألقي عليه شبهه فأخذوه ظانين أنه عيسى، فصلبوه ووضعوا الشوك على رأسه إهانة له. وسلّم لليهود عامة النصارى الذين لم يشاهدوا ما كان من أمر عيسى أنه صلب وضَلُّوا بسبب ذلك ضلالاً مُبيناً وأخبر الله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩]، أي: بعد نزوله إلى الأرض في آخر الزمان قبل قيام الساعة فإنه ينزل ويقتل الخنزير ويكسر الصليب ويضع الجزية ولا يقبل إلا الإسلام. عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ إلى السماء خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً منهم الحواريين، يعني: فخرج عليهم من عين في البيت ورأسه يقطر ماءً. فقال: إن منكم مَن يكفر بي اثني عشرة مرة بعد أن آمن بي، ثم قال: أيكم يلقى عليه شبهي فيقتل مكاني فيكون معي في درجتي؟ فقام شاب من أحدثهم سناً فقال له: اجلس، ثم عاد عليهم فقام الشاب فقال: اجلس، ثم عاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا. فقال: أنت هو ذاك، فألقي عليه شبه عيسى من روزنة في البيت إلى السماء. قال: وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبه فقتلوه ثم صلبوه فكفر به بعضهم اثني عشر مرةً بعد أن آمن به وافترقوا ثلاث فرق: فقالت طائفة: كان الله فينا ما شاء ثم صعد إلى السماء وهؤلاء اليعقوبية، وقالت فرقة: كان ابن الله ما شاء ثم رفعه الله إليه وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبد الله ورسوله ما شاء ثم رفعه الله إليه وهؤلاء مسلمون. فتظاهرت الكافرتان على المسلمة فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ(١).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده؛ ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل**

---

(١) البداية والنهاية، لابن كثير ج٢ ص٨٤ ـ ٨٥.

الخنزير، ويضع الحرب، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها» قوله: «**والذي نفسي بيده**» فيه الحلف بالخبر مبالغة في تأكيده. قوله: «**ليوشكن**»، أي: ليقربن، أي: لا بد من ذلك سريعاً. قوله: «**أن ينزل فيكم**»، أي: في هذه الأمة. قوله: «**حكما**»، أي: حاكماً، والمعنى: أنه ينزل حاكماً بهذه الشريعة باقية لا تنسخ، بل يكون عيسى حاكماً من حكام هذه الأمة. وفي رواية الليث: «**حكماً مقسطاً**»، وله عن طريق ابن عيينة: «**إماماً مقسطاً**»، والمقسط العادل. بخلاف القاسط فهو الجائر. ولأحمد من وجه آخر عن أبي هريرة: «**أقرؤوه من رسول الله السلام**»، وعند أحمد من حديث عائشة: «**ويمكث عيسى في الأرض أربعين سنة**»، قوله: «**فيكسر الصليب ويقتل الخنزير**»، أي: يبطل دين النصرانية بأن يكسر الصليب ويبطل ما تزعمه النصارى من تعظيمه، وتحريم اقتناء الخنزير وتحريم أكله وأنه نجس، لأن الشيء المنتفع به لا يشرع إتلافه. قوله: «**يضع الحرب**» في رواية الكشمهيني: «**الجزية**»، والمعنى: أن الدين يصير واحداً فلا يبقى أحد من أهل الذمة يؤدي الجزية، وقيل: معناه: أن المال يكثر حتى لا يبقى من يمكن صرف مال الجزية له فتترك الجزية استغناء عنها. قوله: «**ويفيض المال**»، أي: يكثر، وفي رواية عطاء بن ميناء: «**وليدعون إلى المال فلا يقبله أحد**»، وسبب كثرته نزول البركات وتوالي الخيرات بسبب العدل وعدم الظلم، وحينئذ تخرج الأرض كنوزها، وتقل الرغبات في اقتناء المال لعلمهم بقرب الساعة. قوله: «**حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها**»، أي: أنهم حينئذ لا يتقربون إلى الله إلا بالعبادة، لا بالتصدق بالمال.

ثم يقول أبو هريرة: واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩]. **قال ابن الجوزي: إنما تلا أبو هريرة هذه الآية للإشارة إلى مناسبتها لقوله: «حتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها»**، فإنه يشير بذلك إلى صلاح الناس وشدة إيمانهم وإقبالهم على الخير، فهم لذلك يؤثرون الركعة الواحدة على جميع الدنيا. قال القرطبي: معنى الحديث أن الصلاة حينئذ تكون

أفضل من الصدقة لكثرة المال إذ ذاك وعدم الانتفاع به حتى لا يقبله أحد. وقوله في الآية: ﴿وَإِن﴾ بمعنى: ما، أي: لا يبقى أحد من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى إذا نزل عيسى إلا آمن به. قال العلماء: الحكمة في نزول عيسى دون غيره من الأنبياء الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه، فبيّن الله تعالى كذبهم وأنه الذي يقتلهم، أو نزوله لدنو أجله ليدفن في الأرض، إذ ليس المخلوق من التراب أن يموت في غيرها. وقيل: إنه دعا الله لما رأى صفة محمد وأمته أن يجعله منهم فاستجاب الله دعاءه وأبقاه حتى ينزل في آخر الزمان مجدداً لأمر الإسلام، فيوافق خروج الدجال، فيقتله[١].

عن أبي أمامة الباهلي قال: خطبنا رسول الله ﷺ فكان أكثر خطبته حديثاً حدّثناه عن الدجال وحذّرنا منه. فكان من قوله أن قال: «**إنه لم تكن فتنة في الأرض، منذ ذرأ الله ذرية آدم، أعظم من فتنة الدجال. وإن الله لم يبعث نبياً إلا حذّر أمته الدجال. وأنا آخر الأنبياء وأنتم آخر الأمم. وهو خارج فيكم لا محالة. وإن يخرج وأنا بين ظهرانيكم، فأنا حجيج لكل مسلم. وإن يخرج من بعدي، فكل امرئ حجيج نفسه. والله خليفتي على كل مسلم. وإنه يخرج من خلة بين الشام والعراق. فيعيث يميناً ويعيث شمالاً. يا عباد الله، فاثبتوا فإني سأصفه لكم صفة لم يصفها إياه نبيّ قبلي. إنه يبدأ فيقول: أنا نبيّ ولا نبيّ بعدي. ثم يثني فيقول: أنا ربكم. ولا ترون ربكم حتى تموتوا. وإنه أعور. وإن ربكم ليس بأعور. وإنه مكتوب بين عينيه: كافر. يقرؤه كل مؤمن، كاتب أو غير كاتب. وإن من فتنته أن معه جنة وناراً. فناره جنة وجنته نار. فمَن ابتلى بناره، فليستغث بالله وليقرأ فواتح الكهف. فتكون عليه برداً وسلاماً. كما كانت النار على إبراهيم. وإن من فتنته أن يقول لأعرابي: أرأيت إن بعثت لك أباك وأمك، أتشهد أني ربك؟ فيقول: نعم. فيتمثل له شيطانان في صورة أبيه وأمه. فيقولان: يا بني، اتبعه. فإنه ربك. وإن من فتنته أن يسلط على نفس واحدة،**

---

(١) فتح الباري، لابن حجر العسقلاني، كتاب أحاديث الأنبياء ج٦ ص٥٦٦ ـ ٥٦٨.

فيقتلها، وينشرها بالمنشار، حتى يلقى شقتين. ثم يقول: انظروا إلى عبدي هذا فإني أبعثه الآن، ثم يزعم أن له رباً غيري. فيبعثه الله. ويقول له الخبيث: مَن ربك؟ فيقول: ربي الله، وأنت عدو الله. أنت الدجال. والله ما كنت بعد أشد بصيرة بك مني اليوم». عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ: «**ذلك الرجل أرفع أمتي درجة في الجنة**» قال: قال أبو سعيد: والله ما كنا نرى ذلك الرجل إلا عمر بن الخطاب. حتى مضى لسبيله.

قال المحاربي ثم رجعنا إلى حديث أبي رافع قال: وإن من فتنته أن يأمر السماء أن تمطر فتمطر. ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت. وإن من فتنته أن يمر بالحي فيكذبونه فلا تبقى لهم سائمة إلا هلكت. وإن من فتنته أن يمر بالحي فيصدقونه. فيأمر السماء أن تمطر فتمطر. ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت. حتى تروح مواشيهم، من يومهم ذلك، أسمن ما كانت وأعظمه، وأمده خواصر، وأدره ضروعاً. وإنه لا يبقى شيء من الأرض إلا وطئه وظهر عليه إلا مكة والمدينة، لا يأتيهما من نقب من نقابهما إلا لقيته الملائكة وبالسيوف صلته، حتى ينزل عند الظريب الأحمر، عند منقطع السبخة، فترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات. فلا يبقى منافق ولا منافقة إلا خرج إليه. فتنفي الخبث منها كما ينفي الكير خبث الحديد. ويدعى ذلك اليوم يوم الخلاص.

فقالت أم شريك: يا رسول الله، فأين العرب يومئذ؟ قال: هم يومئذ قليل. وجلهم ببيت المقدس. وإمامهم رجل صالح. فبينما إمامهم قد تقدم يصلي بهم الصبح، إذ نزل عليهم عيسى ابن مريم الصبح. فرجع ذلك الإمام ينكص، يمشي القهقرى، ليتقدم عيسى يصلي بالناس. فيضع عيسى يده بين كتفيه ثم يقول له: تقدم فصلِّ. فإنها لك أقيمت. فيصلي بهم إمامهم. فإذا انصرف، قال عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: افتحوا الباب. فيفتح الباب ووراءه الدجال. معه سبعون ألف يهودي كلهم ذو سيف محلّى وساج. فإذا نظر إليه الدجال ذاب كما يذوب الملح في الماء، وينطلق هارباً. ويقول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إن لي فيك ضربة لن تسبقني بها، فيدركه عند باب اللِد

الشرقي فيقتله. فيهزم الله اليهود. فلا يبقى شيء مما خلق الله يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء، لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة إلا «الغرقدة» فإنها من شجرهم لا تنطق إلا قال: يا عبد الله المسلم هذا يهودي. فتعال اقتله.

قال رسول الله ﷺ: «**وإن أيامه أربعون سنة. السنة كنصف السنة. والسنة كالشهر. والشهر كالجمعة. وآخر أيامه كالشررة. يصبح أحدكم على باب المدينة. فلا يبلغ بابها الآخر حتى يمسي**» فقيل له: يا رسول الله، كيف نصلي في تلك الأيام القصار؟ قال: «**تقدرونها في هذه الأيام الطوال، ثم صلُّوا**» قال رسول الله ﷺ: «**فيكون عيسى ابن مريم** عليه السلام **في أمتي حكماً عدلاً، وإماماً مقسطاً، يدق الصليب، ويذبح الخنزير، ويضع الجزية، ويترك الصدقة، فلا يسعى على شاة ولا بعير، وترفع الشحناء والتباغض، وتنزع حمة كل ذات حمة، حتى يدخل الوليد يده في الحية، فلا تضره وتفر الوليدة الأسد فلا يضرها. ويكون الذئب في الغنم كأنه كلبها وتملأ الأرض من السلم كما يملأ الإناء من الماء. وتكون الكلمة واحدة فلا يعبد إلا الله وتضع الحرب أوزارها...**» الحديث[(١)].

وعن النواس بن سمعان، قال: ذكر رسول الله ﷺ الدجال ذات غداوة، فخفض فيه ورفع، حتى ظنناه في طائفة النخل. فلما رحنا إليه عرف ذلك فينا. فقال: «**ما شأنكم؟**» قلنا: يا رسول الله ذكرت الدجال غداة. فخفضت فيه ورفعت. حتى ظنناه في طائفة النخل. فقال: «**غير الدجال أخوفني عليكم. إن يخرج، وأنا فيكم، فأنا حجيجه دونكم. وإن يخرج، ولست فيكم، فامرؤ حجيج نفسه. والله خليفتي على كل مسلم. إنه شاب قطط** - شديد جعود الشعر - **عينه طافئة. كأني أشبهه بعبد العزى بن قطن. فمَن أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف. إنه خارج خلة بين الشام والعراق. فعاث يميناً وعاث شمالاً. يا عباد الله، فاثبتوا**»، قلنا: يا رسول الله، وما لبثه في الأرض؟ قال: «**أربعون يوماً. يوم كسنة. ويوم**

---

(١) سنن ابن ماجه، لابن يزيد، كتاب الفتن ج٢ ص١٣٦٣ حديث رقم ٤٠٧٧.

كشهر. ويوم كجمعة. وسائر أيامه كأيامكم». قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: «**لا. أقدِروا له قدره، إنه إذا مضى بعد طلوع الفجر قدر ما يكون بينه وبين الظهر كل يوم، فصلُّوا الظهر**»، يا رسول الله، وما إسراعه في الأرض؟ قال: «**كالغيث استدبرته الريح. فيأتي على القوم فيدعوهم، فيؤمنون به ويستجيبون له، فيأمر السماء فتمطر. والأرض فتنبت. فتروح عليهم سارحتهم، أطول ما كانت ذرًا، وأسبغه ضروعاً، وأمده خواصر. ثم يأتي القوم. فيدعوهم فيردون عليه قوله فينصرف عنهم. فيصبحون ممحلين** ـ أي: جدب وقحط ـ **ليس بأيديهم شيء من أموالهم. ويمر بالخربة فيقول لها: أخرجي كنوزك. فتتبعه كنوزها كيعاسيب النخل. ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً. فيضربه بالسيف فيقطعه جزلتين. ثم يدعوه فيقبل ويتهلل وجهه. يضحك. فبينما هو كذلك إذ بعث الله المسيح ابن مريم فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق بين مهرودتين** ـ أي: ثوبين مصبوغين ـ **واضعاً كفَّيه على أجنحة ملكين. إذا طأطأ رأسه قطر. وإذا رفعه تحدّر منه جمان كاللؤلؤ. فلا يحل لكافر يجد ريح نفسه إلا مات. ونفسه ينتهي حيث ينتهي طرفه. فيطلبه حتى يدركه بباب لد، فيقتله. ثم يأتي عيسى ابن مريم قوم قد عصمهم الله منه. فيمسح عن وجوههم ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة. فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم. فحرز عبادي إلى الطور. ويبعث الله يأجوج ومأجوج. وهم من كل حدب ينسلون. فيمر أوائلهم على بحيرة طبرية. فيشربون ما فيها. ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء. ويحصر نبيّ الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم. فيرغب نبيّ الله عيسى وأصحابه فيرسل الله عليهم النغف** ـ وهو دود يكون في أنوف الإبل والغنم ـ **في رقابهم فيصبحون فرسى «قتلى» كموت نفس واحدة.**

ثم يهبط نبيّ الله عيسى وأصحابه إلى الأرض. فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زهمهم ونتنهم. فيرغب نبيّ الله عيسى وأصحابه إلى الله. فيرسل الله طيراً كأعناق البُخْت ـ جمال طوال الأعناق ـ **فتحملهم فتطرحهم**

حيث شاء الله. ثم يرسل مطراً لا يكن منه بيت مدر ولا وبر. فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلفة. ثم يقال للأرض: أنبتي ثمرتك، وردي برتك. فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها، حتى إن اللقحة من الإبل لتكفي الفئام من الناس. فبينما هم كذلك إذ بعث الله ريحاً طيبة. فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم. ويبقى شرار الناس يتهارجون فيها تهارج الحمر - أي: يجامع الرجال النساء علانية - **فعليهم تقوم الساعة**»(١).

كان لعيسى ابن مريم أصحاب وتلامذة سُمُّوا بـ«الحواريين» لصفاء قلوبهم ونقاء سرائرهم، وهؤلاء من أنصار المسيح عليه السلام، وقد ذكرهم القرآن الكريم وأثنى عليهم في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٢، ٥٣]. قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّۦنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١]. كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّۦنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾﴾ [الصف: ١٤]، وكل نبيّ جعل الله تعالى له حواريين كما قال عليه الصلاة والسلام: عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: إن رسول الله ﷺ قال: «**ما من نبيّ بعثه الله في أمَّةٍ قبلي، إلا كان له من أمته حواريُّون وأصحاب، يأخذون بسننه ويقتدون بأمره...**» الحديث(٢). وفي مناقب الزبير بن العوام قال ابن عباس: هو حواريُّ النبيّ ﷺ، وسمي الحواريُّون لبياض ثيابهم(٣). والحواريُّون: القصّارون لتبييضهم وكل ناصر وكل حميم حوارياً. وقال بعضهم: الحواريُّون صفوة الأنبياء الذين قد خلصوا لهم.

---

(١) صحيح مسلم، لمسلم بن الحجاج، كتاب الفتن ج١ ص٢٢٥٥ حديث رقم ٢١٣٧.

(٢) مختصر صحيح مسلم، للألباني، كتاب الإيمان ص١١ حديث رقم ٣٤.

(٣) صحيح البخاري، باب المناقب ج٤ ص٢٦.

والدليل على ذلك قول النبيّ ﷺ: «**الزبير ابن عمتي وحواريي من أمتي**»، أي: خاصتي من أصحابي وناصري.

وأصحاب النبيّ ﷺ حواريون، وتأويل الحواريين في اللغة الذين أخلصوا ونُقُّوا من كل عيب، وكذلك الحواري من الدقيق سمي به لأنه يُنَقَّى من لُبَاب البُرِّ. وقيل لأصحاب عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: الحواريُّون للبياض، لأنهم كانوا يغسلون الثياب، أي: يُحوِّرُونَها وهو التبييض. فلما كان عيسى ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ نصره هؤلاء الحواريُّون وكانوا أنصاره دون الناس قيل لناصر نبيه: حواري إذا بالغ في نصرته تشبيهاً بأولئك(١).

وعدد الحواريين اثنا عشر رجلاً هم: «سمعان الذي يقال له: بطرس، أندراوس أخو سمعان البطرس، يعقوب بن زبدي، يوحنا بن زبدي أخو يعقوب، برثولماوس، فيلبس، متّى العشار، توما، يعقوب بن حلفي، لباوس الملقّى تداوس، سمعان القانوني، يهوذا الأسخريوطي». وهذه الأسماء للحواريين كما ذكرت في «إنجيل متّى» وهناك من تلامذته «برنابا» و«تداوس» وقد حذفتهما الكنيسة من الحواريين الاثنا عشر، وذلك لأنهما لا يقولان بألوهية المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ. وبرنابا له إنجيل يسمى «إنجيل برنابا» ولا تعترف به الكنيسة اليوم لأن فيه ما يخالف عقيدتها، وفيه أوصاف النبيّ الأمي الذي بشر به المسيح عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والإنجيل هو أحد الكتب السماوية الأربعة، التي أنزلها الله على رسله الكرام، التي يجب الإيمان بها وتصديق ما جاء فيها، وهذه الكتب هي: «التوراة» فقد نزلت على موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، و«الزبور» نزل على داود عَلَيْهِ السَّلَامُ، و«الإنجيل» نزل على عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، و«القرآن» نزل على خاتم الرسل محمد ﷺ(٢).

ويطلق اسم «إنجيل» عرفاً على تلك القصص التي وجدت بعد زمان المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ تقص أحواله وأقواله التي وعظ بها ومعجزاته وخوارق العادات التي أجراها الله على يده. والكنيسة تعترف بأربعة منها هي: «إنجيل

(١) لسان العرب، لابن منظور ج١ ص٧٥٠.
(٢) النبوة والأنبياء، للصابوني ص٢١٤ ـ ٢١٥.

متى»، و«إنجيل مرقس»، و«إنجيل لوقا»، و«إنجيل يوحنا». والقدر الذي وصل إلى العالم في تلك الأناجيل من الجمل والأمثال والنصائح المقتطفة مما نطق به المسيح عليه السلام من العظات والحِكَمْ، يتضمن حث الناس على توحيد الله تعالى واختصاصه بالعبادة والإخلاص في طاعته والعمل بأوامره واجتناب نواهيه وحسن المعاملة بين الإنسان وأخيه، والتواضع والبُعد عن الكبرياء والصلف والظلم والتعدي، وتأمر بالبذل في سبيل الخير، وأن الواجب ألاّ يتهالك الناس على الدنيا وزخارفها، ويمثل الناس كل واحد بالمسافر، والمسافر لا يتخذ القصور. وأن الواجب على المرء الذي وقف نفسه على طاعة الله أن يتوكل على الله حق التوكل فلا يكون أمر طعامه وكسوته أكبر همه، لأن الرزاق هو الله، وهو كفيل بكل ذلك للمتوكلين عليه. وهذا من الأخلاق الفاضلة والسجايا الكريمة.

ولم يكتب شيء من هذه الأناجيل في زمانه، ولكن بعد انتهاء أمر المسيح عليه السلام بالخاتمة التي انتهى بها. قام بعض التلاميذ وتلاميذ تلاميذهم وكتبوا قصصاً كثيرة، وكل واحد يسمي ما كتبه «إنجيلاً»، حتى قيل: إن الأناجيل بلغت نيفاً ومائة إنجيل. والمسيحيون نظروا في تلك القصص، واختارت الكنيسة من بينها القصص التي لا تتعارض مع نزعتها وسلمت بها وجعلتها قانونية. ولم تكترث لما بين مضامينها من التخالف والتناقض ما دام ذلك لا يخالف المنزع العام الذي قصدته الكنيسة. والأناجيل جميعها منقطعة السند[١].

من المقطوع به أن الإنجيل الرباني الذي أنزله الله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم غير هذه الأناجيل الموجودة لدى النصارى اليوم، فهذه أناجيل دخل إليها التحريف والتبديل كما نصّ القرآن الكريم. وبين هذه الأناجيل اختلاف واضح، ثم إن الله عزَّ وجلَّ أنزل إنجيلاً واحداً فكيف أصبحت أربعة أناجيل. أما الأناجيل الحالية فهي عبارة عن مصنفات تاريخية حول قصة حياة مريم وابنها المسيح عيسى، وما جرى له منذ ولادته حتى

(١) قصص الأنبياء، عبدالوهاب النجار ص٤٥١ ـ ٤٥٢.

نهاية حياته في الأرض حسب معتقداتهم، ولم يكتب شيء من هذه الأناجيل في حياة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنما كتبت بعد رفعه إلى السماء.

١ ـ إنجيل «متّى» وهو أقدم الأناجيل عندهم وأولها، كتب بعد نهاية المسيح بأربع سنوات، وقد كتب باللغة العبرية، والموجود الآن ترجمته، ولكن مَن هو المترجم؟ وأي قيمة علمية لوثيقة لا يعرف أصلها ولا مترجمها وليس لها سند متصل بالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ أو تلامذته[(١)]؟ إن إنجيل «متّى» هو أول الأناجيل وأقدمها عندهم ليس من تصنيفه يقيناً، بل ضيّعوه بعدما حرّفوه، لأن قدماء المسيحية كافة وغير المحصورين من المتأخرين على أن إنجيل متّى كان باللسان العبراني. وهو ضاع وفقد بسبب تحريف بعض الفرق المسيحية. والإنجيل الموجود الآن ترجمته، ولا يوجد عندهم إسناد هذه الترجمة[(٢)].

٢ ـ إنجيل «مرقس» كتب باللغة اليونانية بعد رفع المسيح بثلاث وعشرين سنة، وقد اختلف النصارى في تاريخ تأليف هذا الإنجيل. فقال فريق: إن الذي كتبه هو «بطرس» رئيس الحواريين، وقال آخرون: إن «مرقس» كتب إنجيله بعد موت «بطرس» وبعد موت «بولس» أيضاً. وذكر أن إنجيل «مرقس» كتب بتدبير «بطرس» سنة ٦١م لنفع الأمم الذين كان تنصرهم بخدمته، وهذا الإنجيل ينكر ألوهية المسيح. فأنت ترى أن الشك قد وقع عند مؤرخي النصرانية في تعيين كاتب هذا المصنف بشكل جازم، كما ثبت أن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكتب هذا المصنف ولم يحله، فكيف تطمئن النفس إليه[(٣)]؟ قال بطرس قرماح في كتابه «مروج الأخبار في تراجم الأبرار»: «إن «مرقس» هذا كان يهودياً لاوياً. وهو تلميذ لـ«بطرس» ولد بإقليم «الخمس المدن» وصنف إنجيله بطلب أهل رومية. وكان ينكر إلٰهية المسيح، ولم يذكر في إنجيله مدح المسيح لبطرس، ومات مقتولاً في سجن الإسكندرية سنة ٦٨ ميلادية، قتله الوثنيون[(٤)].

---

(١) النبوة والأنبياء، للصابوني ص٢١٦.
(٢) إظهار الحق، رحمة الله الهندي ج١ ص١٦١.
(٣) النبوة والأنبياء، مرجع سابق ص٢١٦ ـ ٢١٧.
(٤) قصص الأنبياء، عبدالوهاب النجار ص٤٥٣.

٣ ـ إنجيل «لوقا» كتب باتفاق مؤرخي النصارى بعد عشرين سنة من رفع عيسى عليه السلام. وهو ليس من تلاميذ المسيح اتفاقاً ولا من تلاميذ تلاميذه، وإنما هو تلميذ «بولس»، وبولس هذا كان يهودياً متعصباً على المسيحية ولم يرَ المسيح في حياته. وكان يسيء إلى النصارى إساءات بالغة، ولما رأى أن اضطهاده للنصرانية لا يجدي عمد من طريق الحيلة إلى الدخول فيها، وأظهر الاعتقاد بالمسيح، وادّعى أنه صرع وفي حالة صرعه لمسه المسيح، وزجره عن الإساءة لأتباعه، ومن ذلك الوقت آمن وأرسله المسيح ليبشر بإنجيله، وانطلت حيلته على الكنيسة، وأباح لهم أكل الميتة وشرب الخمر. وقد أتى «لوقا» في إنجيله بزيادات كثيرة عما ذكره «متى» و«مرقس» بشكل واضح يرتاب له القارئ[1].

٤ ـ إنجيل «يوحنا» يذهب كثير من المسيحيين إلى أن يوحنا الإنجيلي هو يوحنا أحد تلاميذ المسيح الاثني عشر، وأبوه «زبدي» الصياد. ولد في بيت صيدا من الجليل، وأنه هو الذي كان يحبه عيسى جداً. قال جرجس الفتوحي: إن «شير ينطوس» و«أبيسون» وجماعتهما لما كانوا يعلمون المسيحية بأن المسيح ليس إلا إنساناً، وأنه لم يكن قبل أمه مريم. فلذلك في سنة **٩٦** بعد الميلاد اجتمع عموم أساقفة آسيا وغيرهم عند «يوحنا» والتمسوا منه أن يكتب عن المسيح فلم يسعه أن ينكر إجابة طلبهم. وقد اضطربت كلمة المسيحيين في السنة التي أُلِّف فيها إنجيل يوحنا، فمن قائل سنة **٦٥**، ومن قائل سنة **٩٦**، وكثير من علماء النصرانية أنكروا أن يكون هذا الإنجيل من تأليف يوحنا التلميذ. وقال «برطشنيدر» إن هذا الإنجيل كله، وكذا رسائل «يوحنا»، ليست من تصنيفه، بل صنفها أحد تلاميذه في بداية القرن الثاني ونسبه إلى يوحنا ليغتر به الناس. ومن ذلك نعلم أن الكتاب المذكور كتب لغرض خاص هو إثبات إلٰهية المسيح والقضاء على التعاليم التي كانت تؤكد أنه إنسان[2].

---

(١) النبوة والأنبياء، مرجع سابق ص٢١٧.

(٢) قصص الأنبياء، عبدالوهاب النجار ص٤٥٤ ـ ٤٥٥.

وعن الإنجيل وأسماء كتب علماء النصارى ومصنفهم ـ سأل ابن مريم اليذمم «يونس القس» عن الكتب التي يفسرونها ويعلمون بها، فقال له يونس: من ذلك كتاب الصورة وينقسم إلى قسمين: الصورة العتيقة، والصورة الحديثة. وزعم: أن العتيقة هي السند القديم على مذهب اليهود، والحديثة على مذهب النصارى. قال: والعتيقة تستند إلى عدد من الكتب أولها: التوراة، وكتاب الصورة الحديثة ويحتوي على الأناجيل الأربعة: «إنجيل متى» و«إنجيل مرقس» و«إنجيل لوقا» و«إنجيل يوحنا»، وكتاب «الحواريين» ويعرف باسم «فراكسيس»، وكتاب «بولس السليح» أربعون وعشرون رسالة، إلى غير ذلك من كتب الفقه والأحكام(١). وعن الإنجيل يستدل عن أقوال بعض الآباء: أن «متى» تولى تبشير اليهود فكتب إنجيله لهم باللغة «الآرامية» بينما كان «بطرس» و«بولس» يعملان في روما عام **٥٥** بعد الميلاد. وفي تضاعيف هذا الإنجيل ما يدل على أنه كتب لليهود، فهنالك سند طويل ينسب المسيح بداود الملك، وثمة تفاصيل تجعل من سيرة المسيح تكملة لنبوءات التوراة. وأن بطرس الذي كان يبشر في روما كان يجهل اللغة «اليونانية» ولا يعرف سوى «الآرامية» لذلك استدعى «يوحنا» ليترجم له بين الرومانيين. وأن «بولس» الذي التحق به «مرقس» من يهود قبرص كان يتكلم اليونانية ويقرأ ويكتب بها. فدوّن سيرة «المسيح» بعد وفاة «بولس» بدون الترتيب الذي اتبعه المسيح في أعماله وأقواله. وحسب رواية «بطرس» الذي تكلم بحسب ما دعت إليه الحاجة ودونما تقيد بتسلسل الأحداث، أما سفر «متى» فقد ضاع الأصل الآرامي له وبقيت ترجمته إلى اليونانية(٢).

والأسفار (يهودية ومسيحية) هي في مقدمة نصوص التاريخ القديم، ولها قيمتها في تاريخ البلاد العربية الجاهلي بالنسبة لانتشار الجاليات اليهودية والمسيحية في أرجاء البلاد العربية، والتي لم يغفلها التاريخ العربي ولم

(١) فهرست ابن النديم ص**٣٤**، **٣٥**.

(٢) الروم وصلاتهم بالعرب، أسد رستم ج**١** ص٤٠.

تهمل ذكرها مصادره. والأسفار ككل مصدر من مصادر التاريخ عرضة للشك، ما خلا تلك النصوص التي تثبت عصمتها. وكل نفي أو إثبات لا بد أن يسبقه تحقيق يستند إلى أدلة تؤكد النتائج التي يصل إليها، وكل تحقيق لا يقوم على أدلة واضحة منصفة هو في نظر الباحث هراء. والأسفار للقسم الأول من العهد الجديد تشتمل على: «سفر إنجيل متى، سفر إنجيل مرقس، سفر إنجيل لوقا، سفر إنجيل يوحنا»، وهذه الأسفار الأربعة هي التي أطلق عليها اسم إنجيل وأطلق على الباقي مجازاً. وهناك رسائل إلى بعض المدن تشتمل على «سفر أعمال الحواريين، سفر رسالة بولس الأولى، إلى سفر بولس العاشرة». وكذلك هناك رسائل إلى بعض الأشخاص تشتمل على: «سفر رسالة بولس الحادية عشرة، إلى سفر رسالة بولس الخامسة عشرة».

أما القسم الثاني من العهد الجديد وهو كناية عن رسائل وبعض الفقرات من الرسالة الأولى ليوحنا وتشمل: «سفر رسالة كلوسي، سفر رسالة بطرس، سفر رسالة يوحنا الثانية، سفر رسالة يوحنا الثالثة، سفر رسالة يعقوب، سفر رسالة يهوذا، سفر رسالة مشاهدات يوحنا». ومن كتب العهد الجديد ـ غير الكتب التي ذكرت ـ كتب جاوز عددها السبعين منسوبة إلى عيسى ومريم والحواريين وتابعيهم. وقد أوضح رحمة الله الهندي في كتابه (إظهار الحق) عدم وجود سند متصل لهذه الأسفار، وما فيها من اختلاف وأغلاط، وما فيها من تحريف لفظي وتحريف بالزيادة والنقص، وبين الرسائل المنسوبة إلى غير واضعيها والكتب المفقودة. وأخيراً: فإن قيمة الخبر الموجود في الأسفار تقدَّر على أساس تاريخ الخبر، وألاّ يؤخذ خبر ما لم تثبت صحته[1].

لقد أجمع مؤرخو النصرانية على أنه كانت في العصور الغابرة أناجيل شتى قد أخذت بها فرق مسيحية قديمة، وأن كل فرقة من هذه الفرق لم تكن تتمسك إلا بإنجيلها. وأن الكنيسة قامت في أوائل القرن الثالث

---

(١) التاريخ العربي ومصادره، أمين مدني ج٢ ص٩١ ـ ١٠٩.

الميلادي بالإبقاء على أربعة أناجيل فقط وهي: «إنجيل متى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا»، وحرّمت الكنيسة ما عداها من الأناجيل، وأن هذه الأناجيل الأربعة لا ذكر لها قبل آخر القرن الثاني الميلادي. ولم يدع أحد من النصارى أنها تشتمل على الإنجيل المنزل على عيسى عليه السلام، وإن كانت تسوق أحياناً بعض فقرات لا شك أنها توافق ما عرف عن المسيح عليه السلام من توحيد الله تعالى. وأن عيسى رسول الله ونبيّ من الأنبياء. ففي إنجيل «متى» في الإصحاح العاشر في خطاب عيسى مع الحواريين يقول: «من يقبلكم يقبلني ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني». وفي الإصحاح التاسع عشر: «لا تقتل، لا تزنِ، لا تسرق، لا تشهد الزور، أكرِم أباك وأمك، وأحِب قريبك كنفسك» وفي الإصحاح الثاني والعشرين: أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل: «أنا إلٰه إبراهيم وإلٰه إسحاق وإلٰه يعقوب». وفي إنجيل «مرقس» في الإصحاح العاشر: أنت تعرف الوصايا: «لا تزنِ، لا تقتل، لا تسرق، لا تشهد بالزور، لا تسلب، أكرم أباك وأمك». وفي الإصحاح السادس والعشرين: فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون فلما رأى أنه أجابهم حسناً سأله: أية وصية هي أول الكل؟ فأجابه يسوع: «إن أول كل الوصايا هي: اسمع يا إسرائيل: الرب إلٰهنا رب واحد، وتحب الرب إلٰهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك، هذه هي الوصية الأولى، وثانية مثلها هي تحب قريبك كنفسك، ليس وصية أخرى أعظم من هاتين، فقال له الكاتب: جيد يا معلم، بالحق قلت لأنه الله واحد وليس آخر سواه». وفي إنجيل «يوحنا» التقرير بأن الله واحد وأن عيسى رسول الله حيث جاء في الإصحاح السابع عشر: وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإلٰه الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته». ولا شك أن هذه هي وصايا الأنبياء لم يتمكن «شاؤول» ولا المحرفون من اليهود والنصارى من طمسها.

إن من بدع بولس من رسالته إلى العبرانيين: «لأن ملكي صادق هذا ملك ساليم كاهن الله العلي... بلا أب... بلا أم... بلا نسب... لا بداية أيام له ولا نهاية حياة»، فهذا مرشح للألوهية نفسها... ذلك أن الله

جلّ شأنه هو الذي له هذه الصفات. ومَن هم هؤلاء العبرانيون؟ إنه اسم أحد أناجيل الكتاب المقدس، ومن تأليف «بولس» الذي جعل من نفسه الحواري الثالث عشر للمسيح. فقد كان للمسيح اثنا عشر حوارياً لكن أحدهم وهو «يهوذا» تقمّصه الشيطان. لذلك كان لا بد من شغل مكانه الشاغر لأنه كان لا بد من شغل الكراسي الاثني عشر في ملكوت الله التي يحكم منها الحواريُّون بني إسرائيل. يقول إنجيل «لوقا» الإصحاح «**٢٢**»: لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي وتجلسوا على كراسي تدينوا أسباط إسرائيل الاثني عشر «وكان «شاؤول» أو «شاول» يهودياً مرتدًّا، وغيَّر المسيحيون اسمه إلى «بولس» ربما لأن اسمه يهودي. هذا «بولس» أدخل على تعاليم المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ خلطاً عجيباً حتى إنه استحق المركز الثاني بين ذوي النفوذ والأثر من الشخصيات التاريخية. لقد وضعه «ميشل هارت» في مؤلفه «أعظم مائة في التاريخ» فهو المؤسس الحقيقي لمسيحية عصرنا الحالي، فشرف نشر المسيحية كان يجب أن يقسم بين «بولس» و«المسيح». وفاز بولس بهذا المركز لأنه كتب من رسائل الكتاب المقدس أكثر مما كتب أي مؤلف آخر. بينما المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يكتب كلمة واحدة. ولم يكن «بولس» في حاجة إلى وحي ليكتب ما كتبه مفرقاً في غلوائه هنا وفي باقي رسائله، لكن المثير للدهشة في هذه المغالاة أنه لا يبدو أن مسيحياً واحداً قد قرأها، إنهم يبدون مشدوهين ينطبق عليهم وصف المسيح: «لأنهم مبصرين لا يبصرون وسامعين لا يسمعون، ولا يفهمون» ذكر في إنجيل «متى» الإصحاح «**١٣**»[(١)]. وهناك أيضاً في القرآن الكريم آية تصف بدقة هذا المرض المتأصل ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: ١٨].

لقد كان اليهود أشد الناس عداوة لدين المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وبذلوا كل سبيل للقضاء عليه وعلى أتباعه. وقد رأوا بتفكيرهم الشيطاني أن يتظاهر بعضهم بالدخول في هذا الدين ليحرِّفه ويبعدوا الناس عن دين المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ. وقد قام بهذه الحيلة «شاؤول» اليهودي، وقد كان من

(١) المسيح في الإسلام، أحمد ديدات، ص**٥٢ ـ ٥٣**.

المغرمين المولعين بتعذيب النصارى وفتنتهم عن دينهم. وقد وصف في رسالة «أعمال الرسل» بأنه الممتلئ كل غش وكل خبث وأنه ابن إبليس، وأنه يفسد سبل الله المستقيمة. ويقول «شاؤول» عن نفسه: أني كنت أضطهد كنيسة الله، وكنت أتقدم في الديانة اليهودية على كثير من أترابي. ثم يزعم أنه وهو في طريقه إلى دمشق رأى يسوع، وأنه آمن به وأنه تسمّى «بولس». ويذكر أنه اقترب إلى دمشق فبغتة أبرق حوله نور من السماء فسقط على الأرض وسمع صوتاً قائلاً له: شاؤول لماذا تضطهدني؟ فقال: مَن أنت؟ فقال الرب: يسوع. ثم يقول: وللوقت جعل يكرر في المجامع بالمسيح أن هذا هو ابن الله، ولم تكن فكرة ألوهية عيسى أو بنوته لله معروفة من قبل المسيحيين فهم لا يعلمون أنه عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه. ولما جاء شاؤول الذي تسمى «بولس» بهذه الدعوى أنكرها الحواريُّون وتشككوا في هذه القصة التي اخترعها شاؤول ولم ينسوا أنه أكبر أعدائهم من اليهود. وصار بولس يبشر بمسيحية لم يعرفها الحواريُّون إذ لم يتلق أي نوع من التعليم من عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أو من الحواريين. ثم صار يزعم أن يسوع يعلمه من السماء مباشرة وبلا واسطة، ويقول: لا يجوز لأحد أن يقبل تعليمات أخرى من غيره. وهكذا بدأ شاؤول اليهودي الذي زعم أنه تنصّر وتسمى «بولس»، بدأ يجهل كل الحواريين ويدّعي أنه معلم المسيحية وصار ينشر تعاليم يستمدها من مذاهب الهندوس والبوذيين. فقد جاء بفكرة التثليث وبفكرة أن المسيح ابن الله وأنه نزل ليضحي بنفسه تكفيراً عن خطيئة البشر، وأنه صعد ليجلس عن يمين أبيه ليحكم ويدين البشر. تعالى الله عما يقول علواً كبيراً[١].

النصارى أمة المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته عَلَيْهِ السَّلَامُ. وهو المبعوث حقاً بعد موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ المبشر به في التوراة. وقد ورد في التوراة أن الله جاء من طور سيناء، وظهر بساعير، وعلن بفاران، وساعير: جبال بيت المقدس التي كانت مظهر عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وفاران: جبال مكة التي

(١) قصص الأنبياء، عبدالقادر شيبة الحمد ج١ ص٣٠٥ ـ ٣٠٧.

كانت مظهر المصطفى ﷺ، ولما كانت الأسرار الإلٰهية، والأنوار الربانية في الوحي والتنزيل والمناجاة، والتأويل على مراتب ثلاث: مبدأ، ووسط، وكمال، والمجيء أشبه بالمبدأ، والظهور أشبه بالوسط، والإعلان أشبه بالكمال. عبّرت التوراة عن طلوع صبح الشريعة والتنزيل: بالمجيء من «طور سيناء»، وعن طلوع الشمس بالظهور على «ساعير»، وعن البلوغ إلى درجة الكمال بالاستواء والإعلان على «فاران»، وفي هذه الكلمات: إثبات نبوة المسيح عليه السلام، والمصطفى محمد ﷺ.

المسيح عليه السلام له آيات ظاهرة، وبينات زاهرة، مثل: إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، ونفس وجوده آية كاملة على صدقه. وذلك حصوله من غير نطفة سابقة، ونطقه البين من غير تعليم سالف. وجميع الأنبياء بلاغ وحيهم أربعون سنة، وقد أوحى الله تعالى إليه إنطاقاً في المهد، وأوحى إليه إبلاغاً عند الثلاثين، فلما رفع إلى السماء اختلف الحواريُّون وغيرهم فيه، وإنما اختلافاتهم تعود إلى أمرين:

أحدهما: كيفية نزوله واتصاله بالملائكة، وتوحيد الكلمة فإنهم قضوا بتجسيد الكلمة، ولهم في كيفية الاتحاد والتجسد كلام: فمنهم مَن قال: أشرق على الجسد إشراق النور على الجسم المشف. ومنهم مَن قال: انطبع فيه انطباع النقش في الشمع. ومنهم مَن قال: ظهر به ظهور الروحاني بالجسماني. ومنهم مَن قال: مازجت الكلمة جسد المسيح ممازجة اللبن بالماء. وأثبتوا لله تعالى «أقانيم» الأقنوم: الأصل والشخص «ثلاثة» قالوا: الباري تعالى جوهر واحد، فهو واحد بالجوهرية، ثلاثة بالأقنومية، وسموها: «الأب، والابن، وروح القدس».

والثاني: كيفية صعوده، واتصاله بالملائكة، وتجسد الكلمة. وقالوا في الصعود: إنه قتل وصلب، قتله اليهود حسداً وبغياً، وإنكاراً لنبوته ودرجته. قالوا: وكمال الشخص الإنساني في ثلاثة أشياء: نبوة، وإمامة، وملكة، وغيره من الأنبياء موصوفين بهذه الصفات الثلاث أو بعضها. والمسيح عليه السلام درجته فوق ذلك لأنه الابن الوحيد فلا نظير له. ولهم في

النزول اختلاف. فمنهم مَن يقول: ينزل قبل يوم القيامة كما قال أهل الإسلام. ومنهم مَن يقول: لا نزول له إلا يوم الحساب.

ومن العجب أنه نقل في الأناجيل أن الرب تعالى قال: «إنك أنت الابن الوحيد، ومَن كان وحيداً كيف يمثل بواحد من البشر» والأناجيل أربعة: «متى، ولوقا، ومرقس، ويوحنا». وخاتمة إنجيل «متى» أنه قال: إني أرسلكم إلى الأمم كما أرسلني أبي إليكم، فاذهبوا وادعوا الأمم باسم الأب، والابن، وروح القدس، وفاتحة إنجيل «يوحنا»: على القديم الأزلي قد كانت الكلمة، وهو ذا الكلمة كانت عند الله، والله هو كان الكلمة، وكلٌّ كان بيده. ثم افترقت النصارى اثنتين وسبعين فرقة، وكبار فرقهم ثلاث هي كالتالي:

١ ـ **الملكانية**: أصحاب (ملكا) الذي ظهر بأرض الروم واستولى عليها. قالوا: إن الكلمة اتحدت بجسد المسيح، ويعنون بالكلمة: أقنوم العلم، ويعنون بروح القدس: أقنوم الحياة. فقال بعضهم: إن الكلمة مازجت جسد المسيح كما يمازج الماء اللبن، وصرحت «الملكانية» بأن الجوهر غير الأقانيم، وعن هذا صرحوا بإثبات التثليث، وأخبر عنهم القرآن: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾ [المائدة: ٧٣]. لقد أطلقوا لفظ الأبوة والنبوة على الله عزَّ وجلَّ وعلى المسيح لما وجدوا في الإنجيل حيث قال: «إنك أنت الابن الوحيد». ولما قال أريوس: «القديم هو الله ، والمسيح هو مخلوق». اجتمعت البطارقة والمطارنة والأساقفة في بلد «قسطنطينية» بمحضر من ملكهم، وكانوا ثلاثمائة وثمانية عشر رجلاً، واتفقوا على هذه الكلمة اعتقاداً ودعوة، وذلك قولهم: «نؤمن بالله الواحد الأب مالك كل شيء، وصانع ما يرى وما لا يرى، وبالابن الواحد يسوع المسيح، ابن الله الواحد، بكر الخلائق كلها، الذي ولد من أبيه قبل العوالم كلها، وليس بمصنوع، إلٰه حق من إلٰه حق، من جوهر أبيه الذي بيده اتفقت العوالم، وخلق كل شيء من أجلنا، ومن أجل معشر الناس، ومن أجل خلاصنا،

نزل من السماء وتجسد من روح القدس وصار إنساناً، وحبل به، وولد من مريم البتول، وقتل وصلب أيام «فيلاطوس» ودفن، ثم قام في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه. وهو مستعد للمجيء تارة أخرى للقضاء بين الأموات والأحياء، ونؤمن بروح القدس الواحد، روح الحق الذي يخرج من أبيه.

٢ ـ **النسطورية**: أصحاب (نسطور) الحكيم الذي ظهر في زمن «المأمون» وتصرف في الأناجيل بحكم رأيه. قال: إن الله تعالى واحد، ذو أقانيم ثلاثة: «الوجود، والعلم، والحياة». وهذه الأقانيم ليست زائدة على الذات، ولا هي هو. واتحدت الكلمة بجسد عيسى عليه السلام، لا على طريق الامتزاج كما قالت «الملكانية»، ولكن كإشراق الشمس في كوة على بلورة، وكظهور النقش في الشمع إذا طبع في الخاتم. وبعضهم يثبت لله تعالى صفات أُخر بمنزلة القدرة والإرادة ونحوها، ولم يجعلوها أقانيم. ومنهم مَن أطلق القول بأن كل واحد من الأقانيم الثلاثة هي: ناطق، إلٰه. وزعموا أن الابن لم يزل متولداً من الأب، وإنما تجسد واتحد بجسد المسيح حين ولد. وأما قولهم في القتل والصلب، قالوا: إن القتل وقع على المسيح من جهة «ناسوته» بمعنى طبيعة الإنسان، لا من جهة «لاهوته» بمعنى الألوهية، لأن الإلٰه لا تحله الآلام. وبوطينوس، وبولس الشمشاطي يقولان: «إن الإلٰه واحد، وإن المسيح ابتدأ من مريم عليها السلام، وإنه عبد صالح مخلوق. إلا أن الله تعالى شرّفه وكرّمه لطاعته وسمّاه ابناً على التبني، لا على الولادة والاتحاد. وقوم يقال لهم: المصلِّين، قالوا: إذا اجتهد الرجل في العبادة، وترك التغذي باللحم والدسم، ورفض الشهوات الحيوانية، والنفسانية، تصفي جوهره حتى يبلغ ملكوت السماوات ويرى الله تعالى جهرة، وينكشف له ما في الغيب.

٣ ـ **اليعقوبية**: أصحاب (يعقوب) قالوا: انقلبت الكلمة لحماً ودماً، فصار الإلٰه هو المسيح، وهو الظاهر بجسده. وعنهم أخبرنا القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ

﴿وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٧٢﴾ [المائدة: ٧٢]. وزعم أكثر اليعقوبية أن المسيح جوهر واحد، إلا أنه من جوهرين، فجوهر الإلٰه القديم، وجوهر الإنسان المحدث تركباً تركيباً كما تركبت النفس والبدن فصارا جوهراً واحداً، وهو إنسان كله وإلٰه كله. وزعموا أن الكلمة اتحدت بالإنسان الجزئي لا الكلي، والحلول كحلول صورة الإنسان في المرآة المجلوّة. وزعم قوم من اليعقوبية أن الكلمة لم تأخذ من مريم شيئاً، لكنها مرت بها كالماء بالميزاب، وما ظهر بها شخص المسيح في الأعين فهو كالخيال والصورة في المرآة. وكذلك القتل والصلب إنما وقع على الخيال والحسبان، وهؤلاء يقال لهم: «الإليانية» وهم قوم بالشام واليمن وأرمينية، قالوا: وإنما صلب الإلٰه من أجلنا حتى يخلصنا، وزعم بعضهم أن الكلمة كانت داخل جسم المسيح عليه السلام أحياناً، فتصدر عنه الآيات، من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وتفارقه في بعض الأوقات فترد عليه الآلام والأوجاع(١).

اختلف أصحاب المسيح عليه السلام بعد رفعه إلى السماء فيه على أقوال كما قال ابن عباس وغيره من أئمة السلف. قال قائلون منهم: «كان فينا عبد الله ورسوله فرفع إلى السماء»، وقال آخرون: «هو الله»، وقال آخرون: «هو ابن الله»، فالأول هو الحق والقولان الآخران كفر عظيم كما قال الله تعالى: ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٣٧﴾ [مريم: ٣٧]. وقد اختلفوا في نقل الأناجيل على أربعة أقاويل ما بين زيادة ونقصان وتحريف وتبديل. ثم بعد المسيح بثلاثمائة سنة حدثت فيه الطامة «المصيبة» العظمى والبلية الكبرى. اختلف البطارقة الأربعة وجميع الأساقفة والقساوسة والشمامسة والرهبانيين في المسيح على أقوال متعددة، واجتمعوا وتحاكموا إلى الملك قسطنطين (باني بالقسطنطينية) وهم «المجمع الأول» فصار الملك إلى قول أكثر فرقة اتفقت على قول من تلك المقالات، ودحض من عاداهم وأبعدهم. وتفردت الفرقة التابعة لابن «أديوس» الذي

---

(١) الملل والنحل، لأبي الفتح الشهرستاني ج٢ ص١٧ ـ ٢٢.

ثبت على أن عيسى عبد من عباد الله، ورسول من رسله فسكنوا البراري وبنوا الصوامع والديارات وقنعوا بالعيش الزهيد.

وبنى الملك قسطنطين بيت لحم على محل مولد المسيح، وبنت أمه هيلانة «القمامة» على قبر المصلوب. لقد وضعوا القوانين والأحكام ومنها مخالف لما في التوراة، وأحلُّوا أشياء هي حرام بنص التوراة، ومن ذلك الخنزير، وصلُّوا إلى الشرق ولم يكن المسيح صلّى إلا إلى صخرة بيت المقدس، وصوّروا الكنائس ولم تكن مصورة قبل ذلك، ووضعوا العقيدة التي يحفظها أطفالهم ونساؤهم ورجالهم التي يسمونها بالأمانة وهي في الحقيقة أكبر الكفر والخيانة. وجميع الملكانية والنسطورية أصحاب «المجمع الثاني»، واليعقوبية أصحاب «المجمع الثالث» يعتقدون هذه العقيدة ويختلفون في تفسيرها فيقولون: «نؤمن بإلٰه واحد خالق السماوات والأرض، وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الأب قبل الدهور، إلٰه حق من إلٰه حق، مولود غير مخلوق، مساو للأب في الجوهر الذي كان به كل شيء، من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسّد من روح القدس ومن مريم العذراء وتأنس وصلب، وتألم وقبر، وقام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الأب مع الأب وسيأتي بجسده ليدبر الأحياء والأموات[1].

❊ ❊ ❊ ❊

حكم ومواعظ وزهد عيسى ابن مريم عليهما السلام

نشأ المسيح عليه السلام نشأة كريمة، فتعلّم ما شاء الله أن يتعلمه، ونهل من المعرفة واستلهم الحكمة من الله تعالى كما أخبرنا القرآن الكريم حيث يقول: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾ [آل عمران: ٤٨]. ومضى يجوب البلاد، ويبشر بني إسرائيل بدعوته، لكنهم كانوا قد تهالكوا

(١) البداية والنهاية، لابن كثير ج٢ ص٩٣ ـ ٩٤.

على المادة وألهتهم الدنيا بزخرفها. إن حياتهم المغرقة في المادية كانت تستدعي إصلاحاً قويماً، ومصلحاً مخلصاً. فأرسل الله إليهم المسيح عليه السلام لتخليصهم من الأوحال بالحكمة والموعظة الحسنة. قال الله تعالى: ﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩].

عن مالك بن أنس أنه بلغه: أن عيسى ابن مريم كان يقول: «لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فتقسوا قلوبكم. فإن القلب القاسي بعيد من الله ولكن لا تعلمون. ولا تنظروا في ذنوب الناس كأنكم أرباب. وانظروا في ذنوبكم كأنكم عبيد. فإنما الناس بين مبتلى ومعافى. فارحموا أهل البلاء واحمدوا الله على العافية»(١). ويروى عن نبينا وعن المسيح عليهما السلام من حديث الطبراني والحاكم من حديث أنس: «أربع لا يدركن إلا بتعب: الصمت وهو أول العبادة، والتواضع، وكثرة الذكر، وقلة الشيء». وكان المسيح عليه السلام يقول: «يا بني إسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البري وخبز الشعير، وإياكم وخبز البر فإنكم لن تقوموا بشكره». فمن أقصى درجات زهد عيسى عليه السلام إذ توسد حجراً في نومه فقال له الشيطان: أما كنت تركت الدنيا فما الذي بدا لك وما الذي تجدد؟ قال: توسدك الحجر، أي: تنعمت برفع رأسك عن الأرض في النوم، فرمى الحجر وقال: خذ مع ما تركته لك(٢).

وقال عيسى ابن مريم عليه السلام في المواعظ والزهد: «ألا أخبركم بخيركم مجالسة؟ قالوا: بلى يا روح الله. قال: من تذكركم بالله رؤيته، ويزيدكم في عمله منطقة، ويشوقكم إلى الجنة عمله». وقال عيسى ابن مريم عليه السلام للحواريين: «ويلكم يا عبيد الدنيا كيف تخالف فروعكم أصولكم، وأهواؤكم عقولكم، قولكم شفاء يبرئ الداء، وفعلكم داء لا يقبل الدواء، لستم كالكرمة التي حسن ورقها، وطاب ثمرها، وسهل مرتقاها،

---

(١) الموطأ، للإمام مالك ج٢ باب ما يكره من الكلام بغير ذكر الله ص٩٨٦.
(٢) إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي ج٤ ص١٩٣، ١٩٧، ١٩٩.

ولكنكم كالسمرة التي قلّ ورقها، وكثر شوكها، وصعب مرتقاها. ويلكم يا عبيد الدنيا جعلتم العمل تحت أقدامكم، مَن شاء أخذه، وجعلتم الدنيا فوق رؤوسكم، لا يمكن تناولها، فلا أنتم عبيد نصحاء، ولا أحرار كرام. ويلكم يا أُجَراء السوء، الأجر تأخذون، والعمل تفسدون، سوف تلقون ما تحذرون، إذا نظر رب العمل في عمله الذي أفسدتم، وأجره الذي أخذتم».

وقال عليه السلام للحواريين: «اتخذوا المساجد بيوتاً، والبيوت منازل، وكُلُوا بَقْل البرية، واشربوا الماء القراح، وانجوا من الدنيا سالمين». وقال عليه السلام للحواريين: عجباً لكم تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل، ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بعمل». وفي وصف الدنيا قال المسيح عليه السلام لأصحابه: «اتخذوا الدنيا قنطرة فاعبروها ولا تعمروها».

وفي التوبة مرّ المسيح عليه السلام بقوم من بني إسرائيل يبكون فقال لهم: ما يبكيكم؟ قالوا: نبكي لذنوبنا، قال: «اتركوها تغفر لكم». وقال الحسن: عَيَّرت اليهود عيسى عليه السلام بالفقر فقال: «من الغنى أوتيتم». أخذ هذا المعنى الورّاق فقال:

يا عائب الفقر ألا تزدجر عيب الغنى أكثر لو تعتبر
إنك تعصي كي تنال الغنى وليس تعصي الله كيف تفتقر[(١)]

عن سالم بن أبي الجعد قال: قال عيسى ابن مريم عليهما السلام: «طوبى لمن خزن لسانه، ووسعه بيته، وبكى على خطيئته». قال ابن المبارك: بلغنا عن عيسى ابن مريم أنه قال: «يوشك أن يفضى بالصابر إلى الرخاء، وبالفاجر الرخاء إلى البلاء». قال عبيدالله بن جعفر: قيل لعيسى ابن مريم صلوات الله عليه: يا روح الله، وكلمته، مَن أشد الناس فتنة؟ قال: «زلّة العالم، إذا زلّ العَالِمُ زلّ بزلّته عالَم كثير». عن أبي ثمامة قال: قال الحواريُّون لعيسى ابن مريم: أخبرنا مَن المخلص لله؟ قال: «الذي يعمل العمل لله، لا يحب أن يحمده الناس عليه». قالوا: فمَن الناصح لله؟ قال:

(١) العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي ج٢ ص٩٤ ـ ١٣٧.

«الذي يبدأ بحق الله قبل حق الناس، وإذا حضر أمران: أمر الدنيا، وأمر الآخرة، بدأ بأمر الآخرة، ثم تفرّغ لأمر الدنيا». عن يزيد بن ميسرة قال: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: «ما لي لا أرى فيكم أفضل العبادة؟» قالوا: وما أفضل العبادة يا روح الله؟ قال: «التواضع لله عزَّ وجلَّ». عن الشعبي قال: كان عيسى ابن مريم عليه السلام يقول: «إن الإحسان ليس أن تُحسن إلى مَن أحسن إليك، إنما تلك مكافأة بالمعروف، ولكن الإحسان أن تُحسن إلى مَن أساء إليك».

قال إبراهيم بن الوليد العبدي: بلغني أن عيسى ابن مريم قال: «الدهر يدور على ثلاثة أيام: أمس خلا، وُعظت به، واليوم زادك فيه، وغداً لا تدري ما لك فيه. والأمور تدور على ثلاثة: أمر بان لك رشده فاتبعه، وأمر بان لك غيُّه فاجتنبه، وأمر أشكل عليك فكله إلى الله». عن سفيان قال: كان عيسى ابن مريم عليه السلام يقول: «حب الدنيا أصل كل خطيئة، والمال فيه داء كثير». قالوا: وما داؤه؟ قال: «لا يسلم صاحبه من الفخر والخيلاء». قالوا: فإن سلم؟ قال: «يشغله إصلاحه عن ذكر الله». وعن ميسرة قال: قال المسيح عليه السلام: «إن أحببتم أن تكونوا أصفياء الله عزَّ وجلَّ، ونور بني آدم من خلقه: فاعفوا عمن ظلمكم، وعودوا مَن لا يعودكم، وأحسِنوا إلى مَن لا يُحسن إليكم، وأقرضوا مَن لا يجزيكم». عن وهيب قال: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: «أربع لا يجتمعن في أحد من الناس إلا تعجب: الصمت، وهو أول العبادة، والتواضع لله، والزهادة في الدنيا، وقلة الشيء». عن فرقد السبخي قال: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: «طوبى للناطق في آذان قوم يسمعون بكلامه، إنه ما تصدّق رجل بصدقة أعظم أجراً عند الله تعالى من موعظة قوم يصيرون بها إلى الجنة».

قيل لعيسى عليه السلام: مَن أدَّبك؟ قال: «ما أدّبني أحد، رأيت جهل الجاهل فاجتنبته». قال المسيح عليه السلام: «لا يحزنك قول الناس فيك، فإن كان كاذباً كانت حسنة لم تعملها، وإن كان صادقاً كانت سيئة عُجِّلَت عقوبتها». قال سفيان الثوري: قال عيسى ابن مريم عليه السلام: «لا يستقيم

حب الدنيا وحب الآخرة في قلب مؤمن، كما لا يستقيم الماء والنار في إناء واحد». رُوي عن المسيح عليه السلام أنه قال: «كل كلام ليس بذكر الله تعالى فهو لغو، وكل سكوت ليس بتفكُّر فهو غفلة، وكل نظرة ليست بعبرة فهي لهو. فطوبى لمن كان كلامه ذكراً، وسكوته افتكاراً، ونظره اعتباراً»(١).

❊ ❊ ❊ ❊

التلمود

يذكر التلمود أن الجنة مأوى الأرواح الزكية، ولا يدخل الجنة إلا اليهود، أما النار فهي مأوى الكفار. وسيظل المسلمون في النار إلى الأبد لأنهم لا يغسلون سوى أيديهم وأرجلهم، والمسيحيون لأنهم لا يختتنون. وينتظر اليهود بفارغ الصبر الزمن الذي سيظهر فيه المسيح المنتظر. وعندما يأتي المسيح تطرح الأرض فطيراً وملابس وقمحاً حبه في حجم كلاوي الثيران الكبيرة، وحينئذ ترجع السلطة لليهود وكل الأمم تخدم ذلك المسيح وتخضع له. ولكن المسيح لن يأتي إلا بعد القضاء على حكم الأشرار الخارجين عن دين بني إسرائيل. ولذلك يجب على كل يهودي أن يبذل جهده لمنع امتلاك باقي الأمم في الأرض، كي تظل السلطة لليهود وحدهم. وإذا تسلط غير اليهود على وطن اليهود حق لهؤلاء أن يندبوا عليه ويقولون: يا للعار ويا للخراب. ويستمر ضرب الذل والمسكنة على بني إسرائيل حتى ينتهي حكم الأجانب، وقبل أن يحكم اليهود نهائياً باقي الأمم يجب أن تقوم الحرب على قدم وساق ويهلك ثلثا العالم ويبقى اليهود سبع سنوات متواليات يحرقون الأسلحة التي كسبوها بعد النصر. ويعيش اليهود في حرب طاحنة مع باقي الشعوب في انتظار ذلك اليوم، وسيأتي المسيح الحقيقي ويحقق النصر المنتظر. ويقبل المسيح إذ ذاك هدايا جميع الشعوب ولكنه يرفض هدايا المسيحيين، وتكون الأمة اليهودية يومئذ في غاية الثراء، لأنها

(١) حكم ومواعظ عيسى ابن مريم عليه السلام، طارق الطنطاوي ص١٥ ـ ٥١.

تكون قد ملكت كل أموال العالم. وترى الناس كلهم حينئذ يدخلون في دين اليهود أفواجاً ويقبلون جميعاً عدا المسيحيين فإنهم يهلكون لأنهم من نسل الشيطان. ويتحقق أمل الأمة اليهودية بمجيء إسرائيل، وتكون هي الأمة المتسلطة على باقي الأمم عند مجيء المسيح.

وهذه الأوهام قلب لحقائق الأمور، نشأت من تخيلاتهم الكاذبة. كما قلبوا حقيقة المسيح حال حياته، وآذوه بسبب دعوته، ومن سبهم فيه أنهم جعلوه صنماً، وأنه ولد من الزنا، وقالوا ذلك علناً في البلاد المسيحية.

وعلى اليهودي ألاّ يبالغ في مدح المسيحيين ولا يصفهم بالحسن والجمال إلا إذا قصد أن يمدحهم كما يمدح الإنسان الحيوان، لأن الخارج عن دين اليهود يشبه الحيوان. وبناءً على هذه القواعد لا يعتبر اليهود باقي الأمم أقارب لهم، ويعتبر التلمود أن يسوع المسيح ارتدّ عن الدين اليهودي وعبد الأوثان، وأن أموال المسيحيين مباحة لليهود كالأموال المتروكة أو كرمال البحر، بأول من يضع يده عليها يمتلكها. وجاء في التلمود أن مثل بني إسرائيل كمثل سيدة في منزلها يستحضر لها زوجها النقود فتأخذها دون أن تشترك معه في العمل والتعب. وقال الحاخام «أبار بانيل»: إن الشريعة تبيح دفع الفوائد على حسب إرادة المقرض، غير أنه استدرك قائلاً بعد أن أصبح وزيراً لمالية إسبانيا: إن هذه القاعدة لا تنطبق على المسيحيين لأنهم لا يعدون أجانب عند الله. وأنه لم يستثن المسيحيين إلا لحفظ السلام ولأجل أن يعيش اليهود في أمان معهم. أما الحاخام «شواب» فقال: إذا احتاج المسيحي إلى بعض النقود فعلى اليهودي أن يعامله بالربا، المرة بعد الأخرى حتى لا يمكنه من دفع ما عليه إلا بتنازله عن جميع أمواله.

واللعنات الموجودة في التلمود لا تشمل النصارى بل تشمل الأمم الأخرى غير اليهودية. واليهود كتبهم المقدسة خالية من الطعن في المسيحيين خوف الضرر أو العداوة، وهم يعتقدون أن المسيح إنسان لا إله. والمسيحيون وثنيون لأنهم يعبدون مخلوقاً، واليهود يسمون الأمم الخارجة

عن دينها «أكيم»، والأكيم الذي يحمل صليباً هو المسيحي دون شك. ويسمى التلمود يسوع المسيح تمثالاً، فالمسيحي لديهم وثني لأنه يعبد المسيح. ووصف التلمود المسيح بأنه كافر لا يعرف الله فيكون المسيحيون كفرة مثله، وأن المسيحيين من عبدة الأصنام، وأن القُدَّاس والقسيسين والشموع والكؤوس كلها من عبادة الأصنام(١).

وتتلخص المشكلة اليهودية في أن اليهود أمة تحمل في أعماقها خصائص نفسية بالغة التعقيد، وتنطوي على أخلاق غاية في العوج والالتواء. ولا يرون لأنفسهم راحة أو سعادة إلا على أنقاض الآخرين. هذا هو واقع اليهود ودينهم، بل هو دينهم الذي صنعوه لأنفسهم، وأشربته قلوبهم على تعاقب القرون والأجيال. وكانت جناية الجنايات في التربية اليهودية جعلهم ذلك كله ديناً، وعقائد، وشرائع ينسبونها إلى الوحي الإلٰهي. وقد أمعن أحبارهم في اختلاق القصص بتتابع العصور، واستمرت وتشابهت فيها قلوب الأولين والآخرين. وعلى هذا النمط يمضي «التلمود» في استباحة الأعراض، والدماء والأموال، والغش، والغدر ما دام الخصم غير يهودي.

فجميع الكنائس النصرانية تعلم موقف التلمود من عيسى وأمه، ومن كل ما يمت إلى النصارى بصلة، حيث يعتبرهم التلمود أعدى الأعداء، ومن ذلك ما جاء فيه: يسوع الناصري موجود في لجات الجحيم بين القار والنار، وأمه مريم أتت به من العسكري «باندارا» سفاحاً، والكنائس النصرانية بمثابة قاذورات، وأساقفتها أشبه بالكلاب النابحة، وقتل المسيحي من الأمور المأمور بها. ورغم هذا يتآمر كثير منهم مع اليهود ضد الإسلام وأهله، بل إن الأمم النصرانية هي التي مكنت لليهود في أرضنا، ولا تزال تمدهم بكل عناصر القوة. فكيف نفسر هذا الموقف مع القدح الأشنع فيهم خلال التلمود مما ليس له نظير في ضراوة الحقد والبغضاء. وهل آن لهم أن يقارنوا هذا الحقد الأسود بالحقائق المشرقة التي قررها القرآن العظيم عن

(١) من التلمود، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ص٣٩ ـ ٧٤.

عيسى عليه السلام، وأمه الصدِّيقة الطاهرة التي أحصنت فرجها وكانت من القانتين[١].

منذ المراحل الأولى لدعوة المسيح عليه السلام النقية الطاهرة، وعناصر الرفض اليهودي لهذا الدين المسيحي. باعتبار أن مقومات الخلق، والدعوة لعمل الضمير التي دعا إليها وارتبط بها أتباعه تتعارض والطبع اليهودي النهّاز، ومن هنا راحت القوى اليهودية المختلفة تتخذ من نفسها قوة الرفض الديني قبل أن تكون قوة المقاومة السياسية. ولكن الخطير في موقف القوى اليهودية في مقاومتها للتعاليم المسيحية هي المرحلة التي تمّ فيها تجنيد القوى الرسمية والسياسية لمقاومة المسيحية. وبعد نحو ثمانين عاماً من موت المسيح عوقب تلاميذه الأبرياء بالإعدام، ومنذ الوقت الذي تسلمت فيه المسيحية مقاليد السلطة العليا لم يكن حكام الكنيسة أقل انشغالاً من قوة مخالفيها الوثنيين منهم بالاقتداء بهم في سلوكهم، وأنه لينذر أن يكون أتباع الديانة المضطهدة الذي يقُض الخوف مضاجعهم نتيجة لحكم ادعائهم الملكية المطلقة للمعرفة الإلٰهية، وأن أي لون من العبادة يعتبر ضلالاً ووثنية. ولما كان اليهود قد امتنعوا عن دفع الجزية، فإن الباعث الذي حدا بحكام الرومان إلى المعاملة التي لقيها منهم اليهود يعود إلى الرأي القائل بأن دفع الضريبة لوثني أمر مشروع لديهم. وذلك بسبب أن عقيدتهم الشريرة جعلت منهم أعداء لا للحكومة الرومانية بل للجنس البشري بأسره، وأن الوعد الموهوم الذي استقوه من الوحي القديم الذي لديهم يعجل بقرب ظهور المسيح الذي سيفتح العالم، ويحطم أغلالهم ويخلع إمبراطورية الأرض على أحباء السماء المقرّبين.

ورغم الإثارات المتكررة زال استياء الرومان بعد انتصاراتهم، ولم تدم مخاوفهم من اليهود طويلاً إذ أعيدت امتيازات اليهود ورخص لهم في ختان أطفالهم.

وهدَّأت هذه المعاملة من طبع اليهود، ونهجوا منهج الرعايا المسالمين

(١) معركة الوجود بين القرآن والتلمود، د. عبدالستار فتح الله ص**٣٣ ـ ٤٣**.

المجدِّين. أما كراهيتهم التي لا تهدأ للجنس البشري، فاستنفذت في أعمال أقل خطراً ولكنها أعمال تشبع رغباتهم. وانتهزوا كل فرصة للتفوق على الوثنيين في التجارة وصبُّوا اللعنات الخفية على مملكة «أبيووم» أي: الدولة الرومانية المتغطرسة.

إن المسيحية رسالة تكمل شريعة موسى وتحقق وعود الأنبياء في المسيح هادياً ومخلصاً الذي تنكَّر له البعض من اليهود ودان بعضهم الآخر، وسار على خطاه الكثير من الأمم، وتلقف تعاليمه العديد من شعوب الأرض. فالتوراة (وهي جزء من العهد القديم الذي بشّر بالمسيح عليه السلام) حفلت في أسفارها الخمسة بـ«الوعود والمواثيق» التي يتذرع بها الصهيونيون بعد أربعة آلاف عام من إرساء الحق لـ«شعب الله المختار» على أرض كنعان «فلسطين». هذه أحلام يهود صهيون في تفسير تضيفه على وعود حفلت بها التوراة لبني إسرائيل في أرض تمتد من النيل إلى الفرات[١]. إن الإنجيليين الذين سطروا أقوال المسيح ورسالته على أن الله إلٰه المغفرة والرحمة، لا يسند غزواً أو يدعم فتحاً، أو يستقطب الاهتمام لديه رخاء بني إسرائيل وأمنهم، إذا حقق عوضاً عن النصر على الأعداء النصر على الخطيئة والموت، وأمن بدلاً من الحليب والعسل ثمرات الفكر من محبة وسرور وسلام، لأن وعود الله جميعها تحققت فيه[٢]. والمسيحي على حد تفسير علماء الدين، في احترامه لـ«الكتب المقدسة» لا يؤمن بإسرائيل واقعاً جغرافياً، عنصرياً سياسياً، بل يرى في بني إسرائيل ـ والتعبير لبولس ـ رأس الكنيسة المفكر «جماعة المؤمنين بالله». إلا أن الصهيونية تبغي سيطرة دنيوية يستقر عمادها في بيت المقدس تحقيقاً للوعد وللعطاء اللذين يستند إليهما حكماء صهيون، والمسيحية تعتبر أن وعود الله للشعب المختار تحققت بالمسيح، وأن رسالة المسيح عليه السلام تناقض السيطرة الدنيوية التي يبغيها الإسرائيليون وتبشر بالآخرة التي لا يؤمنون بها، وقد حدد فيها المسيح مملكته داعياً إلى التضحية بمتاع الدنيا وبالدنيا نفسها. إلا أن الصهيونية أول

(١) التاريخ اليهودي العام، صابر طعيمة ج١ ص٣٧٦ ـ ٣٨٧.
(٢) رسالة القديس بولس الأولى الفصل الخامس عشر المقاطع ٥٥، ٥٦.

ما تنافي تعاليم الدين المسيحي وتناقضه، وأن رسالة المسيح وقد سمت عن صغائر هذا الكون داعية إلى دنيا أفضل، قد أغاظت إسرائيل ففتحت فيها أبواب النقمة عليه داعية إلى صلبه. فالعلاقات التاريخية بين الجماعات الإسرائيلية التي كانت في عصر الميلاد علاقات رفض لدعوة المسيح عليه السلام، وبين علاقة اليهود بالفاتيكان وخاصة بعد أن أصبحت هذه العلاقة من جانب اليهودية العالمية، ضغطاً وتشويهاً إلى الحد الذي أمكن لها أن تجند مجموعة من الرجال يوشك التحرر الديني عندهم إرضاء هذه العلاقة اليهودية المسيحية، التي لم تكن قبل ذلك سوى حرب وعداء. وقد حاولت اليهودية العالمية لبس ثوبها العنصري الجديد والمسمى بـ«الصهيونية العالمية» حين ذهبت إلى الفاتيكان كي تقتحم من داخل موطن القداسة الدينية لمسيحيي العالم.

والذي حدث في عام **١٩٦٣** ميلادية أن الفاتيكان قد قام بعمل وثيقة بشأن موقف اليهود، إشارة إلى اعتقاد المسيحيين بأن جذور الكنيسة تمتد إلى العهد الذي أقامه الله مع إبراهيم ونسله طبقاً لمقاصد الله الرحيمة وأنه بمجيء السيد المسيح وهو من نسل إبراهيم «بحسب الجسد»، فقد امتدت مراحم الله التي كانت للشعب المختار إلى العالم بأسره. ثم تناول مشروع الوثيقة موضوع المسؤولية في موت السيد المسيح، وإخراجها من كونها محصورة حول اليهود وتاريخهم إلى النوع الإنساني كله الذي يتحمل خطيئة موت السيد المسيح باعتبار أن النظرة المسيحية للنوع الإنساني أنه كله واقع تحت الخطيئة.

وأشار المشروع إلى التعاليم التي وردت في العهد الجديد هو أن يسوع قد مات، ليكفر عن خطايا كل إنسان. فالمسؤولية التي دفعت قادة اليهود بصلبهم السيد المسيح لا يتحملها اليهود وحدهم، ولا يبرأ منها النوع الإنساني كله. وأفرد مشروع الوثيقة نصاً لم تحدد فيه مسؤولية الجريمة المتعلقة بالصلب، وإنما على حد ما ورد في الوثيقة: أن جريمة القادة الذين قاموا بعملية الصلب جريمة شخصية لا يؤخذ بجريرتها الشعب اليهودي كله لا في ذلك الزمان الذي وقعت فيه ولا في أي زمان لاحق له.

ولم يكن مشروع الوثيقة بكل ما ورد فيها من محاولات التحايل وتأويل النص الإنجيلي حول معطياته الصريحة في كل ما يتعلق بالصلب كما يدعو. وتحميله المسؤولية بالإثم والكفر للشعب اليهودي بكل فئاته وجماهيره التي استجابت لقوادها وكهانها هو كل جهد القوى اليهودية المعاصرة التي لبست ثوب العصر حركة عنصرية تجعل من قضايا الدين متكئاً لها، ومسوغاً في سَوْق الادعاءات وتلفيق المعتقدات أو تزييفها. وما أثار الدهشة هو تلك النغمة الجديدة في تاريخ الدين المسيحي، تلك النغمة التي توشك أن تكون مسخاً وتشويهاً لعقيدة العهد الجديد بل وكفراً بكل معانيه، وخاصة فيما يتعلق بموقف أتباع المسيح من الجماعات الإسرائيلية منذ عصر الميلاد حين رفضوا الدعوة المسيحية ولم يستجيبوا لها.

وبعد فما الذي يمكن أن نراه فيما تبقى من هذا المسار التاريخي للوجود الاجتماعي والديني لليهود عبر التاريخ. في الواقع أنه لئن كانت الوحدة الموضوعية بين جهود اليهود الصهاينة اليوم في ظل العصر الحديث كي يحققوا مطمعهم على القيم والعقائد الدينية أولاً حتى يتيسر لهم التوسع والانتشار، لتتحقق أطماعهم العنصرية والتعصبية القائمة على دعوى استغلال الدين بهدف مسخ وتزييف معتقدات العالم المسيحي في محاولة لشجب المعتقدات المسيحية ومسخها. إلا أنه يبقى لنا بعد ذلك أن نلقي نظرة على المسار التاريخي لليهود في الفترة الدينية التي تلت عصر الميلاد. وأعني المرحلة التي أصبحت فيها القوة العربية المسلمة تمثل الوجود الديني والسياسي على طول المنطقة الممتدة من غرب آسيا كله إلى معظم شمال إفريقيا. هذه المنطقة التي كانت تشهد بقية من وجود يهودي يلوك دعوى امتداده القديم وارتباطه التاريخي والديني بالآباء الأول لبني إسرائيل(١).

والنصرانية هي الديانة المسيحية التي أُنزلت على عيسى عليه السلام، مكملة لرسالة موسى عليه السلام، متممة لما جاء في التوراة من تعاليم موجهة إلى بني إسرائيل. داعية إلى التهذيب الوجداني والرقي العاطفي والنفسي،

(١) المرجع السابق ج١ ص٣٨٩ ـ ٣٩٨.

لكن سرعان ما فقدت أصولها، مما ساعد على امتداد يد التحريف إليها حيث ابتعدت كثيراً عن صورتها السماوية الأولى لامتزاجها بمعتقدات وفلسفات وثنية. لقد كان لهذا اليهودي بولس «شاؤول» الذي دخل النصرانية في تحطيم الاتجاهات الصحيحة للمسيحية بإدخاله فكرة التثليث والقول بألوهية المسيح مستمداً ذلك من الفلسفات الإغريقية والوثنية. وهو الذي نقل المسيحية من كونها ديناً خاصاً ببني إسرائيل إلى جعلها ديناً عالمياً، لقد كتب أربعة عشر سفراً تعليمياً من أصل إحدى وعشرين رسالة تشكل مجموع الرسائل التي تعد مصدراً تشريعياً في النصرانية. أما كتبها «التوراة» وهو العهد القديم الذي يعد أصلاً للديانة النصرانية، والإنجيل وهو العهد الجديد، والأناجيل المعتبرة التي اعترفت بها الكنائس في القرن الثالث الميلادي أربعة هي: «إنجيل متى، إنجيل مرقس، إنجيل لوقا، إنجيل يوحنا». والأناجيل الأربعة ليست من إملاء المسيح عليه السلام مباشرة، وإن كاتبيها ليسوا على مستوى من الأهلية ليكونوا علماء دين، كما أن أصولها ضائعة. أما الرسائل فهي الأسفار التعليمية التي توضح النصرانية أكثر من الأناجيل، وهي تعني بتفسير مظاهر السلوك وأنواع الطقوس في الحياة النصرانية. أما إنجيل «برنابا» ويعرف بابن الواعظ وهو لاوي طاهر نقي، وهو خال مرقس، فيختلف عن الأناجيل الأربعة بما يلي: (الله) عنده هو رب العالمين خالق السماوات، وأن الذبيح من أبناء إبراهيم إنما هو إسماعيل لا إسحاق، وهو يبشر بنبوة محمد ﷺ، لا يقول بصلب المسيح بل يؤكد أن الله قد ألقى الشبه على يهوذا الإسخريوطي، كما يحث على الختان، ويعتبر عيسى نبياً لا أكثر.

أما عن المجامع النصرانية فتعتبر مجالس شورية تعقد بين الحين والحين لسَن القرارات وإصدار الفتاوى، فهي هيئة تشريعية تُحِل وتُحَرِّم، ومن أهمها: مجمع «نيقة» **٣٢٥**م، قالوا فيه بأن المسيح إله (طبعتي) لاهوتية ومشيئتين، ومجمع «رومة» قرروا فيه بأن البابا معصوم.

كما أن هناك عدة فرق نصرانية منها: «الموحدون» وهم أتباع أريوس الذي كان يقول بأن الأب وحده هو الله والابن مخلوق له، و«بولس

الشمشاطي» في أنطاكية وكان يقول بأن عيسى عبد الله ورسوله وهو واحد من أنبياء الله عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ، و«النسطوريون» وهم أصحاب نسطور بطريك الإسكندرية، الذي قال بأن مريم لم تلد إلا الإنسان فهي بذلك أم لإنسان وليست أماً لإله، والكنائس الشرقية «الأرثوذكس» مذهب رد فعل لعقيدة نسطور إذ أعلنوا في الأناضول بأن للمسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة، ومذهب «الكاثوليك» وهو مذهب الطبيعتين والمشيئتين متأثر بمذهب النساطرة وقد اعتنقت روما هذا المذهب، وهناك مذهب «اليعاقبة» ويقولون بأن للمسيح طبيعة واحدة وهي التقاء اللاهوت بالناسوت، ومذهب «الموارنة» وهو منسوب لرجل اسمه يوحنا مارون الذي دعا سنة **٦٦٧**م إلى أن للمسيح طبيعتين ولكن مشيئة واحدة وذلك لالتقاء الطبيعتين في أقنوم واحد، مذهب «البروتستانت» وتسمى كنيستهم (الإنجيلية) إذ أنهم يتبعون الإنجيل دون غيره وفهمه لديهم غير مقصور على رجال الكنيسة وهم يستنكرون حق الغفران والاستحالة ومنع الصلاة للموتى وقصر سلطان الكنيسة في الوعظ والإرشاد ومنع استعمال لغة غير مفهومة في الصلاة.

بعد انعقاد المجمع الثامن **٨٧٩**م، انقسمت الكنائس إلى قسمين رئيسيين: الكنيسة «الغربية اللاتينية» ورئيسها البابا بروما، الكنيسة «الشرقية اليونانية الأرثوذكسية» ورئيسها بطريرك القسطنطينية. وكان سبب الانقسام حول السؤال التالي: «هل الروح القدس منبثق عن الآب؟ وهو رأي الكنيسة الشرقية»، «أم أن الروح القدس منبثق عن الآب والابن معاً؟ وهو رأي الكنيسة الغربية».

أما عن المعتقدات «الألوهية والتثليث» فمنهم من يعتقد بوجود إلٰه خالق عظيم، لأنهم كتابيون أصلاً يشركون معه الابن «عيسى»، والروح القدس «جبريل». وبين الكنائس تفاوت عجيب في تقرير هذه المفاهيم وربط بعضها مع بعض مما يسمونه الأقانيم الثلاثة ويفسرونه بأنه وحدانية في تثليث وتثليث في وحدانية. أما «الدينونة» فيعتقدون بأن الحساب في الآخرة سيكون موكولاً لعيسى ابن مريم لأن فيه شيئاً من جنس البشر مما يعينه على محاسبة الناس على أعمالهم. وعن «الصلب» فإن المسيح في نظرهم مات مصلوباً

فداء عن الخليقة، وذلك أن الله لشدة حبه للبشر من ناحية ولعدالته من ناحية أخرى فقد أرسل وحيده ليخلّص العالم من خطيئة آدم حينما أكل من الشجرة المحرّمة. وأن عيسى قد صُلب عن رضى تام فتغلب بذلك على الخطيئة، وأنه دفن بعد صلبه، وأنه قام بعد ثلاثة أيام متغلباً على الموت ثم ارتفع إلى السماء.

أما عن «تقديس الصليب»: فيعتبر الصليب شعاراً لهم، وهو موضع تقديس الأكثرين، وحمله علامة على أنهم أتباع المسيح. وعن «الصوم» لدى المسيحيين: هو الامتناع عن الطعام الدسم وما فيه شيء من الحيوان أو مشتقاته مقتصرين على أكل البقول، وتختلف مدته وكيفيته من فرقة إلى أخرى. كما أن «الصلاة» ليس لها عدد معلوم مع التركيز على صلاتَيْ الصبح والمساء، وهي عبارة عن أدعية وتسابيح وإنشاد، وأن الانتظام في الصوم والصلاة إنما هو تصرف اختياري لا إجباري. ويعتبر «التعميد»: وهو يعني الارتماء في الماء أو الرش به باسم الآب والابن والروح القدس، تعبيراً عن تطهير النفس من الخطايا والذنوب. و«الاعتراف» لديهم: وهو الإفضاء إلى رجل الدين بكل ما يقترفه المرء من آثام وذنوب، وهذا الاعتراف يسقط على الإنسان العقوبة بل يطهره من الذنب إذ يدّعون بأن رجل الدين هذا هو الذي يقوم بطلب الغفران له من الله. وأما بخصوص «العشاء الرباني»: فيزعمون بأن المسيح قد جمع الحواريين في الليلة التي سبقت صلبه وأنه قد وزع عليهم خمراً وخبزاً كسَّره بينهم ليلتهموه إذ أن الخمر يشير إلى دمه، والخبز يشير إلى جسده. و«الاستحالة»: من أكل الخبز وشرب الخمر من الكنيسة في يوم الفصح فإن ذلك يستحيل فيه وكأنه قد أدخل في جوفه لحم المسيح ودمه وأنه امتزج في تعاليمه بذلك.

كما أنهم يحلُّون أكل لحم الخنزير مع أنه محرّم في التوراة، ويحرِّمون الختان مع وجوده في شريعتهم أصلاً، وأباحوا كذلك الربا وشرب الخمرة. لقد قصروا التحريم في الزنا، وأكل المخنوق، وأكل الدم، وأكل ما ذبح للأوثان. والأصل في ديانتهم «الرهبانية» وهو العزوف عن الزواج، لكنهم قصروه على رجال الدين، وسمح للناس بزوجة واحدة مع منع التعدد الذي

كان جائزاً في مطلع المسيحية. أما بخصوص «الطلاق»: فلا يجوز للرجل أن يطلّق زوجته إلا في حالة الزنى، وهنا لا يجوز للزوجين الزواج بعده مرة أخرى، كما يجوز التفريق إذا كان أحد الزوجين غير نصراني، أما عن «النواحي الروحية»: لقد جاءت النصرانية في الأصل لتربية الوجدان وتنمية النواحي العاطفية داعية إلى الزهد وعدم محاولة الثأر مستنكرة انخراط اليهود في المادية المغرقة، يقول إنجيلهم: «مَن ضربك على خدك الأيمن فاعرض له الآخر، ومَن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك»[١]. لكن تاريخهم مليء بالقتل وسفك الدماء. وعن «صكوك الغفران»: يمنح هذا الصك لمشتريه جميع ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر، وهو يباع كأسهم الشركات، وقد يمنح الشخص بناءً على هذا الصك أمتاراً في الجنة على حسب مقدار المبلغ الذي يقدمه للكنيسة.

أما عن «الجذور الفكرية والعقائدية» فأساسها التوراة الذي يسمونه العهد القديم، فقد انعكست الروح والتعاليم اليهودية من خلاله، ذلك أن النصرانية قد جاءت مكملة لليهودية. لقد أدخل «أمنيوس» سنة **٢٤٢** ميلادية أفكاراً وثنية إلى النصرانية. وعندما دخل الرومان في الديانة النصرانية نقلوا معهم إليها أبحاثهم الفلسفية وثقافتهم الوثنية ومزجوها بالمسيحية التي صارت خليطاً من كل ذلك. لقد كانت فكرة التثليث انعكاساً للأفلوطينية التي جلبت معظم أفكارها من الفلسفة الشرقية. لقد كان لـ«أفلوطين» سنة **٢٧٠** ميلادية أثر بارز على معتقداتها، فقد تتلمذ في الإسكندرية، ثم رحل إلى فارس والهند، وعاد بعدها وفي جعبته مزيج من ألوان الثقافات، فمن ذلك قوله بأن العالم في تدبيره وتحركه يخضع لثلاثة أمور: «المنشئ الأزلي الأول، والعقل المنبثق عنه، والروح التي هي مصدر تشعب منه الأرواح جميعاً» وهو يصنع بذلك أساساً للتثليث إذ أن المنشئ هو الله، والعقل هو الابن، والروح هو الروح القدس. كما تأثرت النصرانية بديانة «مقداس» التي كانت موجودة في بلاد فارس قبل الميلاد بحوالى ستة قرون، والتي تتضمن

(١) إنجيل لوقا: الإصحاح السادس /٢٨.

تعاليمها قصة مثيلة لقصة العشاء الرباني. وأيضاً تأثرت بـ«الهندوسية» التي فيها تثليث وأقانيم وصلب للتكفير عن الخطيئة، وزهد ورهبنة وتخلص من المال للدخول في ملكوت السماوات. والإلٰه لديه له ثلاثة أسماء فهو: «مشنو ـ أي: الحافظ ـ، وسيفا المهلك، وبراهما الموجد». وكل ذلك انتقل إلى النصرانية بعد تحريفها. وأن «البوذية» التي سبقت النصرانية بخمسة قرون انتقلت بعض معتقداتها وأفكارها إلى المسيحية. وكذا «عقيدة البابليين القديمة خالطت النصرانية إذ أن هناك محاكمة لبعل إلٰه الشمس تماثل وتطابق محاكمة المسيح عليه السلام. وبذا نستطيع أن نقول بأن النصرانية قد أخذت من معظم الديانات والمعتقدات التي كانت موجودة قبلها مما أفقدها شكلها وجوهرها الأساسي الذي جاء به عيسى عليه السلام من لدن رب العالمين[1].

❋ ❋ ❋ ❋

تبشير المسيح عليه السلام بمحمد ﷺ

قال الله عزّ من قائل في كتابه الكريم: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾﴾ [الصف: ٦]. لقد بشّر المسيح عليه السلام برسول يأتي بعده اسمه «أحمد» أو «محمد» لأن الاسمين هما لنفس الشخص. إلا أن هذا التبشير لا يوجد في الأناجيل الموجودة الآن، ولكن يوجد هذا التصريح في إنجيل «برنابا» الذي يضاف إلى بقية الأناجيل الموجودة في العهد الجديد، لأن ذلك الإنجيل يقوض المسيحية ويدعو كل مسيحي مؤمن بأن يتبع دين «محمد» ﷺ. حيث إن إنجيل «برنابا» يقول: إن المسيح قد قال بأن عهد الله مع «إبراهيم» قد كان مع ابنه «إسماعيل» وأن «أمجد محمود» ينحدر من سلالة «إسماعيل» وليس من سلالة «إسحاق» و«داود» وأن المسيح قد كرّر التبشير بـ«محمد».

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي بالرياض ص٤٩٩ ـ ٥٠٦.

إن تبشير المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بمحمد ﷺ من واقع الكتاب المقدّس الذي يتداوله المسيحيون ويقدّسونه. جاء في إنجيل «متى»: وسأله تلاميذه قائلين: فلماذا يقول الكتبة إن «إيلياء» ينبغي أن يأتي أولاً؟ فأجاب «يسوع» وقال لهم: إن إيلياء يأتي أولاً ويرد كل شيء. ولكني أقول لكم: إن إيلياء قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا. حينئذ فهم التلاميذ أنه قال لهم عن «يوحنا المعمدان»[1]. ورغم قلة فهم تلاميذ المسيح، ورغم ضيق أفقهم ومحدودية إدراكهم التي عانى منها المسيح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. لقد قال عن «يوحنا المعمدان»: «الحق أقول لكم لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان». وقد فهم تلاميذه بأن «إيلياء» هو «يوحنا المعمدان»، و«إيلياء» هذا هو نبيّ يقول عنه العهد القديم بأنه يجيء قبل يوم الرب. وذلك على لسان الرب. ولنعرف هل «يوحنا المعمدان» كان هو النبيّ «إيلياء»؟ يقول الإنجيل: «وهذه هي شهادة يوحنا حين أرسل اليهود ليسألوه مَن أنت فاعترف ولم ينكر وأقرّ أني لست أنا المسيح. فسألوه إذاً ماذا... إيلياء أنت؟ فقال: لست أنا. النبيّ أنت؟ فأجاب: لا»[2]. إذن «يوحنا المعمدان» ليس المسيح لأن المسيح كان عيسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. و«يوحنا المعمدان» لم يكن «إيلياء» ولم يكن النبيّ.

أي نبيّ يسأل اليهود عنه؟ إنه النبيّ الذي ما بعده نبيّ، فإن المسيح يجب أن يأتي قبل ذلك النبيّ. وذلك النبيّ يأتي بعد المسيح. وذلك النبيّ الذي ما بعده نبيّ مذكور في كتب اليهود. وفي العهد القديم من الكتاب المقدس للمسيحيين. إنه مكتوب في الإنجيل. يقول العهد القديم على لسان الرب جلّ وعلا وهو يخاطب موسى: «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به»[3]. ذلك هو النبيّ الذي كان اليهود يسألون «يوحنا المعمدان» عنه، إنه محمد ﷺ بلا شك.

---

(١) إنجيل متى ص١١: ١٠ ـ ١٣.

(٢) إنجيل يوحنا ص١: ١٩ ـ ٢١.

(٣) التوراة: سفر التثنية ص١٨: ١٨.

لأن ذلك النص من العهد القديم لا يقول: إن ذلك النبيّ يهودي لأنه يقول: «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم». فمَن هم إخوة اليهود؟ إن أقرب الناس والشعوب بأن تدّعي إخوة اليهود هم العرب. لأن إبراهيم عليه السلام هو جد اليهود والعرب. وابناه الأخوان «إسماعيل» و«إسحاق» هما جدّا العرب واليهود على التوالي.

فرغم أن جميع الأنبياء من أيام «يعقوب بن إسحاق» إلى أيام المسيح كانوا يهوداً. إلا أن «محمد» هو الحالة الخاصة التي تنفرد عن تلك القاعدة شبه المعترف بها، فهو العربي النبيّ الذي تحدث عنه الكتاب المقدس. إلا أن اليهود يؤمنون بأن النبوة مقتصرة عليهم لأن العهد القديم يقول: «وقال إبراهيم لله: ليت إسماعيل يعيش أمامك. فقال الله: بل سارة امرأتك تلد لك ابناً وتدعو اسمه إسحاق. وأقيم عهدي معه عهداً أبدياً لنسله من بعده»[1]. هذا الكلام يتكرر بين صفحات العهد القديم، فهو كلام محرّف ومضاف بقصد، وهذا ليس بالجديد على اليهود وكهنتهم. كما أنه كلام واضح المغالطة والتباين مع نصوص العهد القديم الذي يقصر النبوة على «إسحاق» دون «إسماعيل». وإن حجتهم الواهية في ذلك أن «إسماعيل» ابن جارية، وإسحاق ابن الزوجة الحرة. وأن «هاجر» كانت جارية لـ«سارة» قبل زواجها من إبراهيم. لأنه لا يعقل أو يصح أن نطلق اسم جارية على امرأة هي زوجة نبيّ وأم نبيّ. و«سارة» لم تعطِ «هاجر» إلى إبراهيم كواحدة من السراري بل أعطتها زوجة لإبراهيم. إضافة إلى أن «هاجر» قد كلّمها ملاك الرب مرتين مؤازراً وواعداً. في حين أنه لم يكلم «سارة» إلا مرة واحدة كان فيها ناهراً. ليس هناك حجة لأي يهودي في حرمان «إسماعيل» من حقه الذي اشترعه الله. أليس ذلك ما يقوله العهد القديم من الكتاب المقدس: «وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيراً جداً. اثني عشر رئيس يلد وأجعله أمة كبيرة»[2]. وأيضاً يقول الكتاب

---

(١) التوراة: سفر التكوين ص١٧: ١٨ ـ ١٩.

(٢) التوراة: سفر التكوين ص١٧: ٢٠.

المقدس: «فسمع الله صوت الغلام. ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها الملك: يا هاجر. لا تخافي لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو. قومي احملي الغلام وشدّي يدك به لأني سأجعله أمة عظيمة. وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء. فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام. وكان الله مع الغلام فكبر وسكن في برية فاران»[1]. وفاران جبال الحجاز ومنها خرجت أمة كبيرة. إنها أمة العرب التي كان إسماعيل أكبر أصولها.

إن «إسماعيل» وكما يثبت التاريخ قد سكن في الحجاز عند مكة. وفيها كان له أبناء وأحفاد، شكلوا أمة كبيرة. وأهل مكة كانوا أسياد ورؤساء العرب. تماماً كما وعد الله «إبراهيم» نبيه في ابنه البكر «إسماعيل» عليه السلام. فالكتاب المقدس يأتي بنبوءة تقول: «أنا الرب هذا اسمي ومجدي لا أعطيه لآخر ولا تسبيحي للمنحوتات. هو ذا الأوليات قد أتت والحديثات أنا مخبر بها قبل أن تنبت أعلمكم بها. غنُّوا للرب أغنية جديدة تسبيحة من أقصى الأرض. أيها المنحدرون في البحر وملؤه والجزائر وسكانها. لترفع البرية ومدنها صوتها للديار التي سكنها قيدار. لتترنم سكان سالع من رؤوس الجبال ليهتفوا ليعطوا الرب مجداً ويخبروا بتسبيحه في الجزائر»[2]. نعم أتاه رسول نبيّ مجّد الله وسبّح باسمه وهتف به، إنه كان محمد ﷺ. ولقد كان تسبيحه في تمجيد الرب. أغنية لم يسمع بها الناس قبلاً. وهي تصدح خمس مرات في كل يوم. وهل سمع العالم والبشر أجمل من هذا الهتاف لمجد الله. إنها أتت من ديار «قيدار» كما يقول الكتاب المقدس. وكان محمد هو مطلقها لتسمعها البرية والجبال وتسمعها سكان الجزائر التي في البحار. فهل يكتفي أهل الكتاب المقدس بهذه الشواهد والدلالات. وإن هناك ما هو أكثر وضوحاً بتبشير الإنجيل والمسيح بـ«محمد»، يقول العهد القديم: «أو يدفع الكتاب لمن لا يعرف الكتابة ويقال له: اقرأ هذا، فيقول:

---

(١) التوراة: سفر التكوين ص٢١: ١٧ ـ ٢١.

(٢) التوراة: أشعيا ص٤٢: ٨ ـ ١٢.

لا أعرف الكتابة»(١). لقد أتى «جبريل» إلى «محمد» في غار حراء فقال له: اقرأ، فأجاب «محمد»: «**ما أنا بقارئ**». وهذا الجواب لا يعني أنني لا أريد أن أقرأ ما هو حروف أو أعيد ما أسمع. بل إنه يعني بقوله: «**ما أنا بقارئ**»، أي: أنني لا أستطيع القراءة لأني لم أتعلّم القراءة. فيشده جبريل إليه ويقول له: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾. ففهم محمد ما قصده جبريل فقرأ وأعاد ما قد سمعه من كلام الله الذي نقله جبريل. إن كلام الله الذي وضعه في فم «محمد» وسجله المسلمون في كتاب واحد هو القرآن. أما ما يتكلم به «محمد» من كلام غير الذي يوضع في فمه، فهو كلام مسجل، ولكنه ليس في كتاب القرآن، بل في كتب الحديث والسنّة.

وهل هناك «نبيّ» آخر من أنبياء إسرائيل يوجد له كتاب يحوي ما وضع في فمه فقط؟ كلا. فالعهد القديم والعهد الجديد ما هو إلا كلام الأنبياء مختلطاً بكلام البشر وهو يحوي فيما يحويه كلام الله. تقول التوراة: «ويكون أن الإنسان الذي لا يسمع لكلامي الذي يتكلم به باسمي أنا أطالبه»(٢). كلامي الذي يتكلم به باسمي يا لها من جملة إلٰهية. إن كل سورة في القرآن الكريم من كلام وضعه في فمه ملاك الرب تبدأ بتلك الجملة: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾. فأي سفر أو إصحاح في العهد القديم أو العهد الجديد يبدأ بتلك الجملة التي تعني نسبة إلى فلان أو فلان من الأنبياء أو الرسل أو التلاميذ؟ وبهذا القدر من نبوءات العهد القديم بـ«محمد» رسول الله ونبيه؟ ونتوقف عند سفر «ملاخي» لأهميته عن تبشير المسيح عليه السلام بمحمد ﷺ. أما سفر «ملاخي» فيقول: «هأنذا أرسل ملكي فيهيئ الطريق أمامي ويأتي بغتة إلى هيكله السيد الذي تطلبونه وملاك العهد الذي تُسرون به»(٣). مَن هو السيد الذي يأتي هيكله بغتة ويسر به الناس؟ الإنجيل يقول: إنه المسيح عليه السلام؟ هل المسيح قد جاء إلى الهيكل بغتة؟

---

(١) التوراة: أشعيا ص٢٩: ١٢.

(٢) التوراة: التثنية ص١٨: ١٩.

(٣) التوراة: سفر الملاخي ص٣: ١.

كلا. فهو منذ الصغر متعود على زيارة الهيكل ثم طارده اليهود وأبعدوه عن الهيكل، ولكن «محمداً» هو الذي أتى إلى الهيكل بغتة. وذلك في ليلة الإسراء التي ينص عليها القرآن وتشرحها كتب السنّة. وبهذا نكتفي من تنبؤات ونصوص العهد القديم(١).

أما عن العهد الجديد «الإنجيل» فقد تنبأ المسيح بظهور أنبياء كذبة بعد المسيح، يقول «يوحنا» تلميذ المسيح في رسالته الأولى بما يلي: «أيها الأحباء، لا تصدقوا كل روح، بل امتحنوا الأرواح هل هي من الله، لأن أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم» إذن فهناك أنبياء كذبة وهناك أنبياء من الله فكيف نفرق بينهم؟ إن المسيح نفسه يجيب: «احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة. من ثمارهم تعرفونهم. هل يجتنون من الشوك عنباً أو من الحسك تيناً. هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثماراً جيدة. وأما الشجرة الردية فتصنع أثماراً ردية(٢). إذن هناك أنبياء كذبة وهناك أنبياء صادقون، ويعرف الفرق بينهما بالنظر إلى ثمارها لمعرفة الجيد من الرديء. والثمار ما يخرج من هؤلاء الأنبياء من دعوة وإرشاد. وتنبأ المسيح بظهور أنبياء من بعده قال: «الحق الحق أقول لكم الذي يقبل من أرسله يقبلني. والذي يقبلني يقبل الذي أرسلني»(٣). إذن فهناك مَن سيرسله المسيح. ومَن يقبل بهذا الذي يرسله المسيح سوف يقبل المسيح والذي يقبل المسيح سوف يقبل الله الذي أرسل المسيح. فلماذا يرسل المسيح رسولاً؟ يقول إنجيل يوحنا: «إن لي أموراً كثيرة لا أقول لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن»، هناك يأتي من بعد المسيح رسولاً؛ لأن المسيح عنده أمور كثيرة يريد أن يقولها إلا أن تلاميذه لا يستطيعون أن يحتملوها في ذلك الوقت لقلة إدراكهم.

والمنطق يفرض أن مَن يأتي بعد المسيح لا يأتي بعده مباشرة. وإلا

(١) هل بشّر المسيح بمحمد، نبيل فضل ص١٥٩ ـ ١٨٥.
(٢) إنجيل متى ص٧: ١٥ ـ ١٧.
(٣) إنجيل يوحنا ص١٣: ١٢.

كان المسيح أولى بأن يخبر تلاميذه بما يعلم. مَن ذاك الذي سيرسله المسيح؟ ولماذا؟ «لكن لكي تتم الكلمة المكتوبة في ناموسهم إنهم أبغضوني بلا سبب. ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي»[١]. إذن فالرسول هنا يسميه المسيح بـ«المعزي» وهو «روح الحق» منبثق من الله وهو يشهد للمسيح. إذاً مَن هو هذا «المعزي» الذي هو روح الحق. يقول إنجيل يوحنا: «وأما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته لكم». والمسيح عندما قال: «فيعطيكم معزياً آخر»، فإنه قصد نبياً آخر يأتي من بعده. لأن المسيح نبيّ ذاهب. وأما النبيّ القادم فهو ماكث إلى الأبد حيث لا نبيّ بعده. فهل هناك نبيّ غير «محمد» شهد للمسيح، وهل هناك نبيّ أتى بعد «محمد»؟

يقول المسيح عليه السلام عن تلك النبوءة والتبشير بمحمد ﷺ: «وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية. ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم. كل ما للآب هو لي. لهذا قلت: إنه يأخذ مما لي ويخبركم»[٢]. إذن فذاك «المعزي» الذي يأخذ مما هو للرب، لا يتكلم من نفسه، بل كل ما يسمع يتكلم به. أليست هذه مواصفات النبيّ الذي وعد الله به «موسى» قائلاً له: «إنه مثلك». وأما كون ذلك النبيّ «المعزي» يمجد المسيح عليه السلام فليس هناك غير «محمد» الذي كان ممجداً للمسيح. وهو قد جعل جميع أتباعه لا ينطقون باسم «عيسى ابن مريم» أو المسيح إلا وقالوا بعدها مباشرة «عليه السلام». وهم إذ يفعلون هذا بهدي «محمد» إنما هم يمجدون المسيح أكثر مما يمجد أتباع المسيح أنفسهم[٣].

---

(١) إنجيل يوحنا ص١٥: ٢٥ ـ ٢٦.
(٢) إنجيل يوحنا ص١٦: ١٣ ـ ١٥.
(٣) هل بشّر المسيح بمحمد، نبيل فضل ص١٨٦ ـ ١٩٢.

قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ...﴾ [الأعراف: ١٥٧] الآية. ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد ﷺ. وقد جرت مناظرة مع أحد القساوسة، وركزنا فيها على نبوءة واحدة جاءت في سفر التثنية: «أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به». وقد ناقشنا كيف أن هذه النبوءة التي يعتقد المسيحيون بأنها تنطبق على المسيح وموسى هي في الحقيقة تنطبق على موسى ومحمد ﷺ، وهذه المطابقة من عدة جوانب: طريقة الولادة من أبوين واعتراف شعوبهما بهما ووفاتهما. وهناك نبوءات كثيرة في الكتاب المقدس نذكر منها على سبيل المثال ما جاء في سفر التثنية: «جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من ساعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم». هذا فضلاً على إقرار سفر التثنية بأن يظهر من بين بني إسرائيل نبيّ مثل موسى: ولم يقم بعد نبيّ في إسرائيل مثل موسى الذي عرفه الرب وجهاً لوجه». وجاء في التنزيل تفسيراً لهذه الحقيقة قول الله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ [النساء: ١٦٤، ١٦٥]، فهل يستطيعون إنكار هذه النبوءة أيضاً؟ وهل هناك مَن جاء من جبل فاران بمكة نبيّ غير محمد ﷺ؟ وهل غيره دخلها ومعه عشرة آلاف مؤمن وشريعة متميزة سمحاء؟ إن كثيراً من التنبؤات قد لعبت فيها يد التغيير والتبديل والتأويل والشرح والتفسير ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الصف: ٨]. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنعام: ٢٠].

إن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ عندما وعد تلاميذه بذلك «المعزي» كان يعدهم وهو على علم بانتقاله إلى العالم الآخر في وقت قريب، والمعنى لكلمة «معزي» أنه شخص يقدّم العزاء. يقول الإنجيل ما قاله المسيح: «ومتى جاء ذاك يمكث العالم على خطيئة وعلى بر وعلى دينونة. أما على خطيئة فلأنهم

لا يؤمنون بي. وأما على بر فلأني ذاهب إلى أبي ولا ترونني. وأما على دينونة فلأن رئيس العالم قد دين»[١]. إذن فهناك مهام ثلاث لهذه «المعزي» وهي لا تشمل تقديم العزاء بل تشتمل على: «إنه يدعو للإيمان بالمسيح، إنه يؤكد ارتفاع المسيح إلى الله، إنه يحاكم رئيس هذا العالم ويدينه» وهو في ذلك كله يفعل ما يفعل للعالم كله وليس لمجموعة محدودة من الناس. فدعوة «محمد» للإيمان بالمسيح هي أمر لا يحتاج إلى دليل. وأما شهادته بأن المسيح قد ارتفع إلى الله، فهي موجودة في القرآن. وأما محاكمته لرئيس هذا العالم، فحسب المفهوم الإنجيلي فإن رئيس هذا العالم هو الشيطان. ومَن يقرأ القرآن لا يجد حكماً وإدانة للشيطان أكثر مما هو موجود في القرآن. والمسلم لا يبدأ قراءة القرآن إلا قائلاً: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم)، ثم يتلوها بقوله: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾. أفلا نرى أن «محمداً» هو الذي قام بما وعد المسيح به تلاميذه من أفعال يقوم بها ذلك «المعزي».

إن الأصل من كلمة «معزي» في الإنجيل العربي يقابلها كلمة «بيرقليطس» في الإنجيل اليوناني وتعني: «الممجد والمميز والمحمود كثيراً» فكلمة «الإنجيل» تعني التبشير، والمسيح كان مبشراً. فبماذا بشّر المسيح؟ يقول المسيحيون بملكوت الله. والحقيقة أن المسيح ما كان مبشِّراً بملكوت الله، بل كان مبشِّراً بنبيّ يأتي من بعده. ولقد نطق المسيح باسمه «المحمنا»، أي: «محمد» الذي غيّره أتباع المسيح إلى «المعزي». والأهم من ذلك أن المسيح قد أعطي صفات ذلك النبيّ الذي أتى المسيح ليبشر به. وهل هناك «روح حق» شهد للمسيح غير محمد. ومحمد لا شك أنه قد كان «روح حق»، وقرآنه قد أظهر لنا حقيقة المسيح عليه السلام. وتلك الحقيقة أجلّ وأسمى من الحقيقة التي حاول كتبة الإنجيل إيهامنا بها. والقرآن قد مجّد المسيح بما لم يمجِّده أحد. وشتان بين تمجيد القرآن للمسيح وتمجيد كتبة الإنجيل للمسيح. شتّان بين تمجيد حق وتمجيد مبالغة

(١) ماذا قال الكتاب المقدّس عن محمد ﷺ، أحمد ديدات ص٢١ ـ ٢٣.

وخيال. فجميع هذه الأدلة والبراهين أكثر من كافية على أن المسيح قد بشّر بمحمد، وهي براهين موجودة في الأناجيل التي يعترف بها المسيحيون[١].

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑

(١) هل بشّر المسيح بمحمد، نبيل الفضل ص١٩٢ ـ ١٩٨.

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة
المجلد الأول	
الإهداء	٥
تقديم الكتاب	٩
المقدمة	١٥
أضواء وأصداء الطبعة الأولى	٢٩
الفصل الأول	
بداية الخلق	٤١
القرآن الكريم	٤٢
بنو إسرائيل	٤٨
التوراة	٥٨
العقيدة الإسلامية	٦٦
التلمود	٦٩
تحريف بني إسرائيل للتوراة	٧٥
ظلمات التلمود الحقود	٧٧
الفصل الثاني	
بداية خلق الإنسان	٨١
آدم عليه السلام	٨٣

الموضوع	الصفحة
التوراة والتلمود	٨٧
العقيدة الإسلامية	٨٨
النبوة	٩٢
شيث عليه السلام	٩٨
إدريس عليه السلام	٩٩
نوح عليه السلام	١٠١
سام عليه السلام	١٠٦
هود عليه السلام	١٠٨
صالح عليه السلام	١٠٩

الفصل الثالث

أبو الأنبياء إبراهيم الخليل عليه السلام	١١١
إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام	١٣٩
إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهما السلام	١٤٤
يعقوب بن إسحاق عليهما السلام	١٤٩
يوسف الصديق بن يعقوب عليهما السلام	١٥٥
النبيّ أيوب عليه السلام	١٦٨
النبيّ شعيب عليه السلام	١٧٢
ذو الكفل عليه السلام	١٧٥
أصحاب الرس	١٧٥
قوم يّس	١٧٦

الفصل الرابع

موسى بن عمران كليم الله عليه السلام	١٧٩
الخليل يوشع بن نون	٢١٦
حزقيل بن بوذي	٢٣٥
يونس بن متى عليه السلام	٢٣٦
إلياس عليه السلام	٢٣٩

الموضوع	الصفحة

اليسع عليه السلام ٢٤٠
شمويل بن بالي ٢٤١
اليهود في عصر الممالك القديمة ٢٤٤

الفصل الخامس

النبيّ داود عليه السلام ٢٤٦
سليمان بن داود عليهما السلام ٢٦٧
أمر بني إسرائيل بعد سليمان بن داود عليهما السلام ٢٨٣
النبيّ شعيبا بن أمصيا عليه السلام ٢٩٣
النبيّ أرميا بن حلقيا عليه السلام ٢٩٤
دانيال عليه السلام ٢٩٨
عزير بن جروة عليه السلام ٢٢٩
زكريا عليه السلام ٣٠٢
يحيى بن زكريا عليهما السلام ٣٠٤
التفتت السياسي بعد نبيّ الله سليمان عليه السلام ٣١٢
الأفكار والمعتقدات اليهودية في عصر الميلاد ٣١٤
العهد القديم يضم التوراة ٣٢٢

الفصل السادس

الصديقة مريم ابنة عمران العذراء البتول أم عيسى عليهما السلام ٣٤٢
المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام ٣٥٤
حكم ومواعظ وزهد عيسى ابن مريم عليهما السلام ٤١٢
التلمود ٤١٦
تبشير المسيح عليه السلام بمحمد ﷺ ٤٢٧
فهرس المحتويات ٤٣٧

❑ ❑ ❑ ❑ ❑ ❑